دولة ليبيا

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

الأكاديمية الليبية/فرع مصراتة

مدرسة العلوم الإنسانية

قسم الفلسفة والدراسات الإسلامية

رسالة بعنوان:

"البدر المنير الملخّص من تفسير ابن كثير"

تأليف

أبي المحامد عفيف الدين بن سعيد بن مسعود الكازروني (ت 785هـ)

من بداية سورة يونس حتى نهاية سورة الإسراء

((دراسة وتحقيق))

مقدمة استكمالاً لمتطلبات نيل درجة الإجازة العالية (الماجستير)

إعداد الطالب:

خالد منصور حسن الشاوش

إشراف الأستاذ الدكتور:

أحمد محمد ارحومة

الفصل الدراسي

(ربيع 2018م)

إقرار الأمانة العلمية

أنا الطالب: **خالد منصور حسن الشاوش** المسجل بالأكاديمية الليبية/ فرع مصراتة بقسم الفلسفة والدراسات الإسلامية تحت رقم قيد (15146) أقر بأنني التزمت بكل إخلاص بالأمانة العلمية المتعارف عليها لإنجاز رسالتي المعنونة بـ **(البدر المنير الملخّص من تفسير ابن كثير)** لنيل الدرجة العلمية (الماجستير) وأنني لم أقم بالنقل أو الترجمة من أية أبحاث أو كتب أو وسائل علمية تمَّ نشرها داخل ليبيا أو خارجها إلا بالطريقة القانونية وباتباع الأساليب العلمية في عملية النقل أو الترجمة وإسناد الأعمال لأصحابها، كما أنني أقر بعدم قيامي بنسخ هذا البحث من غيري وتكراره عنواناً أو مضموناً.

وعلى ذلك فإنني أتحمل كامل المسؤولية القانونية المترتبة على مخالفتي لذلك إن حدثت هذه المخالفة حالياً أو مستقبلاً بما في ذلك سحب الدرجة العلمية الممنوحة لي.

واللّه على ما أقول شهيد

الإسم: خالد منصور حسن الشاوش

التوقيع: ....

التاريخ: ....

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟
ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ١١﴾

صدق الله العظيم

سورة المجادلة الآية (11)

الإهـــداء

حبًّا وعرفاناً ووفاءً لا يساويان ما قدماه من أجلي

" **أبي وأمي الغاليين** "

إلى من أعانتني على إتمام هذا العمل على النحو الذي وصل إليه

" **زوجي الغالية** "

إلى من ساعدوني وسهّلوا لي السبيل، لإنجاز هذا العمل، وكانوا لي سنداً

" **إخوتي وأخواتي وأصدقائي** "

إلى مشايخي الفضلاء الذين دعموني، وشجعوني على مواصلة الدراسة

"**أساتذة معهد القويري الديني** "

إلى كل من مد لي يد العون لإنجاز هذا العمل ولم يتسع المقام لذكرهم،

إليهم جميعاً أهدي ثمرة عملي المتواضع

الباحث

شكر وتقدير

انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1]، أتوجه بالشكر لله تعالى الذي أنعم عليَّ بنعم لا تحصى، ومنها الإنعام بإتمام هذا العمل.

وتأسياً بقول الرسول – صلى الله عليه وسلم–: "من لا يشكر الناس لا يشكر الله[2]، أتقدم بالشكر الجزيل للأستاذ الدكتور "أحمد محمد ارحومة" الذي تكرّم بالإشراف على هذه الرسالة ومتابعتها، فكان نعم الناصح، فجزاه الله خير ما يجزي به عباده الصالحين.

كما أتوجه بالشكر إلى الأساتذة الأفاضل الذين تفضلوا بقبول مناقشة هذه الرسالة وتقويمها، فجزاهم الله عن العلم وأهله خير الجزاء.

وأتقدم بالشكر إلى كل العاملين بالأكاديمية الليبية فرع مصراتة التي تشرفتُ أن كنت أحد طلابها.

والشكر موصول لكل من أعانني على إتمام هذا العمل ولو بكلمة طيبة، فلهم الشكر الجزيل وإن لم يسع المقام لذكرهم...

الباحث

(1) سورة إبراهيم، من الآية 7.

(2) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: البر والصلة عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم–، باب: ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، (339/4)، برقم (1954)، من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه–.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــــــة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، ولم يجعل له عوجا، قيما لينذر بأساً شديداً من لدنه، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً، ماكثين فيه أبداً، والصلاة والسلام الأتمَّان الأكملان على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أمَّا بعد:

فإن من أجلّ العلوم الشرعيَّةِ قدراً ومكانةً علمَ التفسير؛ إذ به يُتَوَصَّل إلى فهم معاني كتاب الله تعالى، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

وقد تنوعت طرق المفسرين في تعاملهم مع كتاب الله تعالى إلى عدة مناهج؛ فمنها التفسير بالرأي، وينقسم إلى التفسير بالرأي الجائز، والتفسير بالرأي المذموم، ومنها التفسير بالمأثور، الذي نحن بصدده(1) الآن، حيث إن هذا الكتاب هو اختصار لتفسير ابن كثير، الذي يجسد هذا النوع من التفاسير، ولا يخفى أن تفسير ابن كثير من أحسن التفاسير، وأجودها، بعد تفسير الطبري (إمام المفسرين).

وقد قام باختصاره الإمام: عفيف الدين سعيد بن مسعود الكازروني – رحمه الله– (ت 785 هـ)، وقد سمّاه "البدر المنير المُلَخّص من تفسير ابن كثير".

أسباب اختيار الموضوع

يرجع اختيار هذا الموضوع إلى عدة أمور من أبرزها:

- أن هذا المختصر يعد من أوائل مختصرات تفسير ابن كثير.
- قيمة الاختصار تكمن في يسر الوصول إلى المراد والاستفادة مما فيه من الفوائد.
- أهمية تفسير ابن كثير وانتشاره في الأقطار والأمصار، وتلقي الأمة له بالقبول.
- الرغبة في دراسة تفسير القرآن، والنهل من معينه.

---

(1) ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن لمحمد عبدالعظيم الزرقاني، الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط: الثالثة (2/11– 12 – 49).

- الإسهام في نشر التراث الإسلامي، وإخراجه إلى طلبة العلم.
- مشاركة زملائي السابقين بغية إتمام هذا المشروع.

منهجية الباحث

قمت بدراسة لهذا المخطوط، بينت فيها المنهج الذي سار عليه المؤلف، من حيث استدلاله على تفسير القرآن بالقرآن، واعتنائه بالأحاديث الشريفة، وتفسير الصحابة والتابعين – رضي الله عنهم أجمعين– .

ثم قمت بتحقيق الجزء المخصص لي من هذا المخطوط، وكان عملي فيه على النحو الآتي:

1. أخرجتُ النص وفق القواعد الإملائية المتبعة اليوم، مع الالتزام بالإشارات وعلامات الترقيم، والأقواس، والرموز، كلٌّ في مكانه.
2. قمتُ بضبط الآيات القرآنية، وتخريجها، مع ذكر السورة، ورقم الآية، مع مراعاة الرسم القرآني الذي يوافق رسم حفص عن عاصم، ووضعتها بين قوسين، على هذا الشكل ﴿ ﴾.
3. عزوتُ القراءات القرآنية إلى مصادرها، وذكرتُ من قرأ بِهَا.
4. وضعتُ الأحاديث النبوية بين قوسين مزدوجين بهذا الشكل: "..." وقمتُ بتخريجها من كتب السنة، ونقلتُ حكم العلماء عليها ما أمكن.
5. راعيتُ في تخريج الأحاديث : الكتاب، والباب ، ورقم الحديث، والجزء والصفحة، والراوي الأعلى فقط.
6. حافظتُ على نص المؤلف كما هو، وصححتُ الأخطاء في الهامش من تفسير ابن كثير أو من غيره مع توثيق الجزء والصفحة وكذلك الحال مع السقط. أمَّا إن اضطررتُ لزيادة يقتضيها السياق وضعتها بين معكوفين بهذا الشكل: [...]، ووثقتُ في الهامش مصدر الزيادة.
7. عرفتُ بالبلدان والأماكن غير المشهورة من المصادر المختصة بها قدر الإمكان.
8. وثَّقتُ النقول التي صرَّح بها المؤلف من الكتب التي نقل عنها ووضعتها بين قوسين بهذا الشكل: "..."، فإن لم أجدها، وثّقْتها من مصادر أخرى نَقَلَتْ عنها، فإن لم أجد، أشرتُ في الهامش إلى عدم الوقوف عليها.

9. نسبتُ الأبيات الشعرية إلى قائلها، وعزوتها إلى مصادرها الأصلية إن وجدت، أو كتب اللغة والأدب مع ذكر بحر الشعر.
10. قمتُ بشرح الكلمات الغريبة التي تحتاج إلى شرح، ووثقتها من المصادر الأصلية.
11. قمتُ بترجمة العلم عند ذكره أول مرة، باستثناء الأنبياء – عليهم السلام–، والخلفاء الراشدين – رضي الله عنهم–.
12. راعيتُ في الهامش الترتيب الزمني للمصنفات وقمتُ بذكر معلومات النشر في أول مرة لذكر المصدر، ثم اكتفيتُ بذكر العنوان، واسم المؤلف فقط.
13. وضعت لكل سورة من السور التي قمتُ بتحقيقها ملخصاً بما تحويه من الأحداث، والوقائع، والمناسبات، وذلك من التفاسير الحديثة المعتمدة، وأشرتُ إلى ذلك في الهامش.
14. جعلتُ في نهاية التحقيق خاتمة، ذكرتُ فيها أهم ما توصلت إليه من نتائج.
15. وضعتُ فهارس فنية في نهاية البحث؛ ليسهل دراسة البحث، وهي:
   - فهرس الآيات القرآنية (ورتبتها حسب ترتيب المصحف الشريف).
   - فهرس الأحاديث النبوية (ورتبتها ترتيباً هجائياً).
   - فهرس الأعلام (ورتبتها ترتيباً هجائياً).
   - فهرس الأبيات الشعرية (ورتبتها ترتيباً هجائياً).
   - فهرس المصادر والمراجع.
   - فهرس المحتويات.

والجدير بالذكر أن هذا المخطوط قد قام بتحقيق أجزاء منه مجموعة من الطلاب بالأكاديمية الليبية، فرع مصراتة، قسم الفلسفة والدراسات الإسلامية، وهم على الترتيب:

1. خالد الحسين إسماعيل من تفسير سورة يس إلى سورة الحجرات 2014/11/23م.
2. محمد عمر الشريف من تفسير سورة الفرقان إلى سورة يس 2015/01/08م.
3. عبدالهادي الفيتوري من تفسير سورة الحجرات إلى سورة الملك 2016/01/28م.
4. سالم رمضان ضوء من تفسير سورة الكهف إلى سورة الفرقان 2016/12/01م.

5. البشير محمد قليصة من تفسير سورة الملك إلى سورة الناس 2017/05/04م.
6. هشام أبو قرين من تفسير آل عمران إلى سورة الأنعام 2017/07/31م.
7. خالد منصور الشاوش من تفسير سورة يونس إلى سورة الكهف 2018/06/23م.

وقد كانت خطتي في دراسة وتحقيق هذا المخطوط على هذا النحو:

قسمتُ الكتاب إلى فصلين:

الفصل الأول: ويحتوي دراسةً مقارنةً بين مختصر الكازروني، ومختصر عمدة التفسير، ويندرج تحتها أربعة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بمؤلِّفَيْ المُخْتَصَرَين.

المبحث الثاني: موقفهما من الأسانيد.

المبحث الثالث: موقفهما من الأحاديث الضعيفة والموضوعة.

المبحث الرابع: موقفهما من الإسرائيليات.

والفصل الثاني: التحقيق، ويبدأ من أول سورة يونس، إلى سورة الإسراء، من اللوحة (208 أ)، إلى اللوحة (273 أ)، أي: لخَمس وستين لوحة.

والله الموفق للصواب

الباحث: خالد منصور الشاوش

نسبة الكتاب إلى مؤلفه

وقفتُ على نسبة الكتاب لمؤلفه في هذا المخطوط، مرةً في مقدمة الكتاب حيث ذَكر اسمه قائلاً: "أبو المحامد عفيف الدين سعيد بن مسعود بن محمد بن مسعود الكازروني"[1]، وبعدها مرة أخرى في آخر الربع الثاني من التفسير الجزء الذي قمت بتحقيقه حيث ذكر اسم الكتاب كاملاً ونسبه لمؤلفه أيضاً[2].

وصف المخطوط

اعتمدت في تحقيق هذا العمل على نسخة واحدة، حيث أنه لم أتمكن أنا وزملائي السابقون المشتغلون بهذا المخطوط من العثور على نسخة غيرها، وهي نسخة مصورة عن مخطوط بمدينة إسطنبول، بمكتبة نور عثمان (تركيا)، وهي تقع في مجلد واحد، مصنفة تحت رقم إهداء عام: (384)، عدد لوحاته (582)، في كل لوحة صفحتان، مقياس كل صفحة (9) سم عرضاً، و(14) سم طولاً .

المؤلف:

أبو المحامد عفيف الدين بن سعيد بن مسعود الكازروني، (ت 785هـ).

نوع الخط:

كتبت بالخط المشرقي، وهو خط الثلث المائل إلى النسخ أحياناً .

الناسخ:

محمد بن الشيخ إبراهيم بن محمود الحافظ الجولمي الجهرمي.

تاريخ النسخ:

نسخت في يوم الأحد الثالث من شهر الربيع الثاني، من شهور سنة عشرين وتسعمائة.

---

(1) ينظر: اللوحة رقم/5/ب.

(2) ينظر: اللوحة رقم/273/أ، والصفحة 371 من هذه الرسالة.

عدد الأسطر والكلمات في كل ورقة:

عدد الأسطر ثلاثون سطراً تقريباً، وعدد الكلمات في كل سطر ست عشرة كلمة تقريباً.

عدد اللوحاتِ المرادِ تحقيقها:

من اللوحة (208 أ) إلى اللوحة (273 أ)، أي: لخمس وستين لوحة.

حالة المخطوط:

جيدة لا يوجد بها خرم أو ضياع.

وقد أرفقت مع هذا الوصف عدة صور من المخطوط.

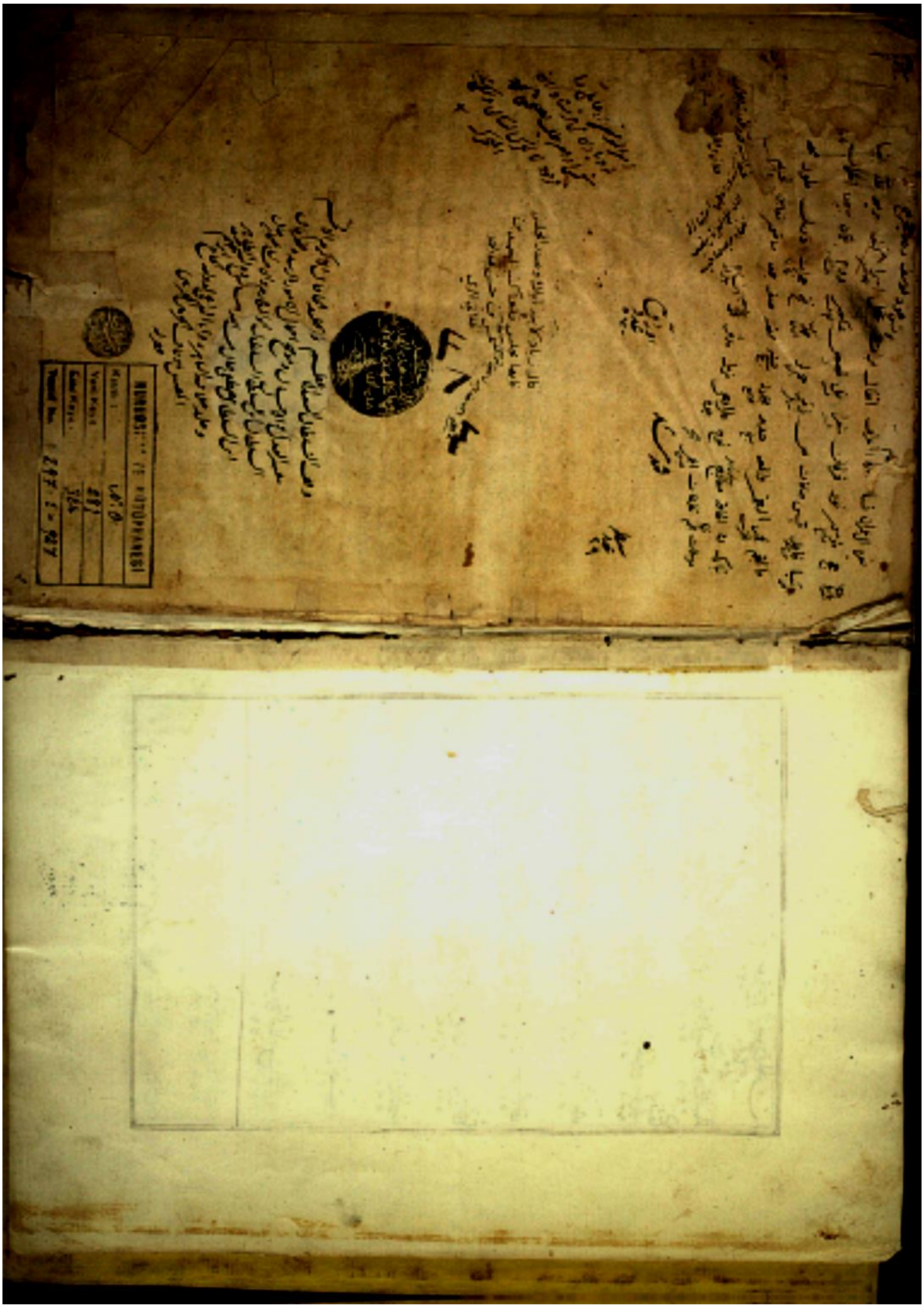

صفحة العنوان من مكتبة إسطنبول

رقم الصفحة (208)

رقم الصفحة (239)

رقم الصفحة (273)

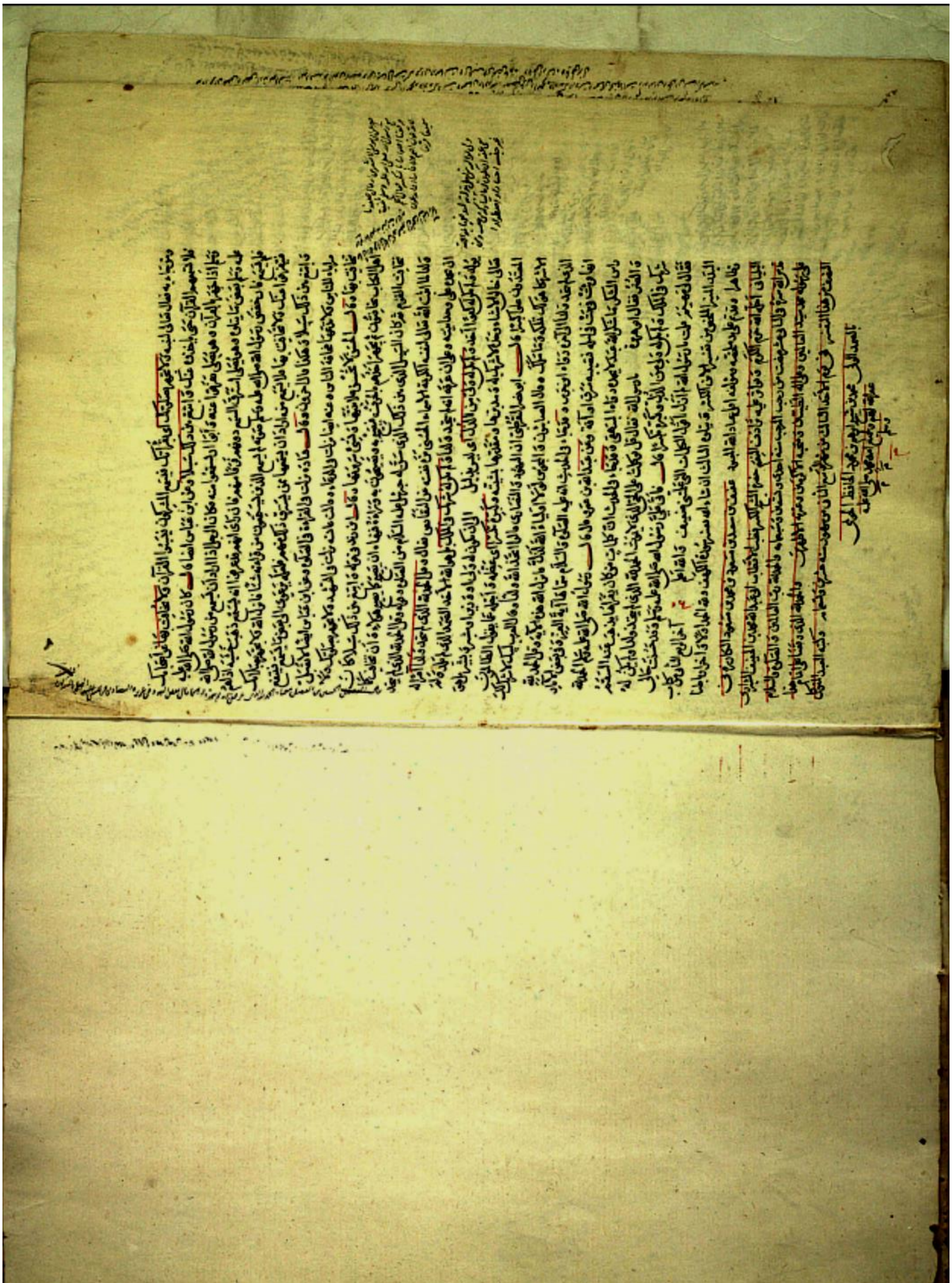

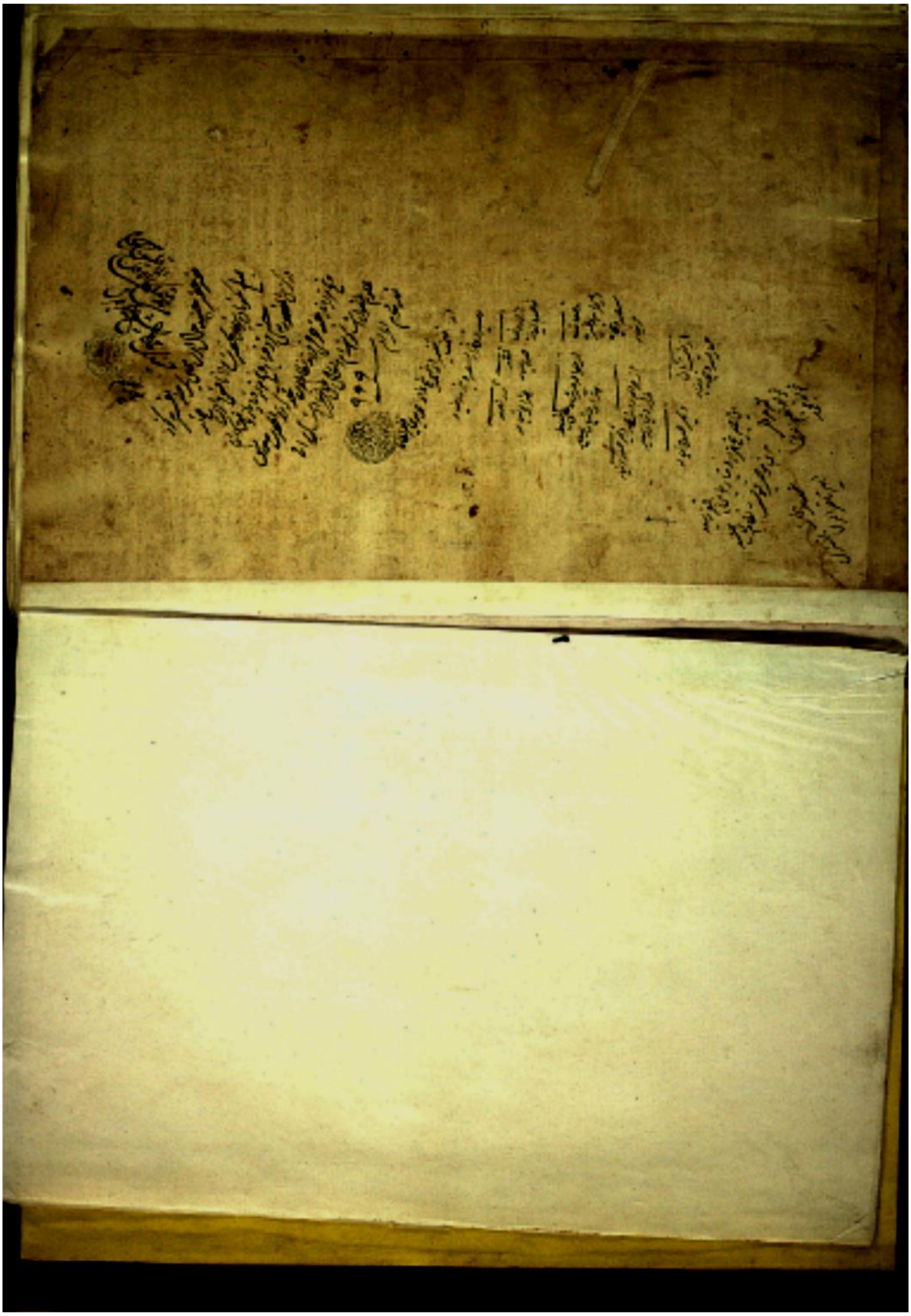

الفصل الأول

ويحتوي:

دراسَة مُقَارَنة بين مختصر الكازروني، ومختصر عمدة التفسير لأحمد شاكر، وتحتها أربعة مباحث:

- **المبحث الأول: التعريف بمؤلِّفَي المُخْتَصَرَيْنِ.**
- **المبحث الثاني: موقفهما من الأسانيد.**
- **المبحث الثالث: موقفهما من الأحاديث الضعيفة، والموضوعة.**
- **المبحث الرابع: موقفهما من الإسرائيليات.**

الفصل الأول

المبحث الأول: التعريف بمؤلِّفَي المختصرين

أولاً: التعريف بمؤلف (البدر المنير الملخص من تَفسير ابن كثير):

- اسمه ونسبه ومولده:

محمد بن سعيد بن مسعود بن محمد بن مسعود بن محمد بن علي بن أحمد بن عمر بن إسماعيل، بن الأستاذ علي الدقاق، وهو الحسن بن علي بن محمد بن إسحاق بن عبدالرحيم بن إسحاق، أو أحمد العفيف، أو المحامد بن سعيد الدين، أي: محمد الضياء البلياني النيسابوري، ثم الكازروني الشافعي(1).

ينسب إلى كازرون، وهي إحدى بلاد فارس، ومنها خرج جماعة من العلماء والفضلاء، وأهل الخير(2)، ولد في الثاني عشر من ربيع الأول، سنة سبع وعشرين وسبعمائة، ببلاد فارس، ونشأ بها(3).

- شيوخه

للكازروني شيوخ أجازوه، منهم الحافظ المزي(4)، والبرزالي(5)، والذهبي(6)،

---

(1) ينظر الضوء اللامع – للسخاوي، دار الحياة، (21/10)، وهدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين – لإسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم البناني البغدادي، نشر بعناية: وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية، استنبول، أعادت طبعه: دار إحياء التراث العربي بيروت – لبنان (391/1).

(2) ينظر: الأنساب – لأبي سعيد عبدالكريم بن محمد ابن منصور التميمي السمعاني، تح: عبدالله عمر البارودي، دار الفكر، بيروت (1998م) (14/5).

(3) ينظر: الضوء اللامع – للسخاوي (21/10)، والأعلام – للزركلي (101/3).

(4) يوسف بن الزكي عبدالرحمن بن يوسف بن علي بن عبدالملك بن علي بن أبي الزهر الكلبي القضاعي الدمشقي، أبو الحجاج، إمام الحفاظ والمحدثين، ولد سنة: (654هـ)، إليه تنسب راية السنة والجماعة، وكان محدث الديار الشامية في عصره، سمع كتاب الحلية كله على ابن أبي الخير، وسمع المسند، والكتب الستة وغيرها، من مؤلفاته: (تهذيب الكمال)، و(كتاب الأطراف)، توفي بدمشق سنة (742هـ). ينظر: تذكرة الحفاظ – لمحمد بن أحمد بن عثمان للذهبي، تح: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط: الأولى (1419هـ – 1998م)، (193/4)، وطبقات الشافعية – للإمام العلامة تاج الدين بن علي بن عبدالكافي السبكي، تح: د. محمود محمد الطناحي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، (1413هـ)، ط: الثانية (395/10)، والأعلام للزركلي (236/8).

(5) القاسم بن محمد بن يوسف بن محمد البرزالي، أبو محمد، محمد مؤرخ، ولد سنة: (665هـ)، تميَّز بفصاحته، وحسن أدائه للحديث، يضرب به المثل، مع الفضيلة والإتقان والتواضع، أجاز له ابن عبدالدائم وطبقته، وسمع من شمس الدين وطبقته، وله في الطلب بضع وخمسون سنة، من مؤلفاته: (الوفيات)، (الشروط)، (ثلاثيات من مسند أحمد)، توفي بخليص سنة (739)، وهو في طريقه إلى الحج. ينظر: تذكرة الحفاظ – للذهبي (19514)، والأعلام – للزركلي (182/5).

(6) محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي شمس الدين، أبو عبدالله الحافظ المؤرخ العلامة المحقق، ولد سنة (673هـ)، أجاز له أبو زكريا بن الصيرفي، وابن أبي الخير، وغيرهم، طلب الحديث، وهو ابن ثماني عشرة سنة، من مؤلفاته: (سير النبلاء)، و(تهذيب=

وغيرهم...، الإضافة إلى ما صرح به في مقدمته من أن ابن كثير كان شيخاً له: "لمَّا نظرت في تفسير شيخنا شيخ الإسلام، قدوة الأئمة الأعلام، عماد الدين "أبو الفداء" إسماعيل بن كثير بن ضوء بن كثير بن ضوء القرشي، رَوَّح الله روحه، ووالى من الرحمة فتوحه، وجدت كتاباً جامعاً لأنواع العلوم الدينية ..." [1].

- **مصنفاته:**

للكازروني – رحمه الله– مصنفات عديدة منها:

- المطالع المصطفوية في شرح مشارق الأنوار، للقاضي عياض، دار الكتب.
- شرح الجامع الصحيح للبخاري.
- شفاء الصدور.
- النجم من كلام سيد العرب والعجم للإقليشي...
- مسلسلات في الحديث ولا يزال مخطوطاً، وغير ذلك[2].

- **تلاميذه**

سمع منه إبراهيم بن محمد بن مبارز بن محمد بن أبي الحارث عفيف الدين وتقي الدين بن شمس الدين بن كافي الدين الخنجي الشيرازي مات يوم الجمعة سادس عشر جمادي الأولى سنة ست وثلاثين وقيل خمس وثلاثين[3]، أحمد بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد بن أبي طالب جلال الدين أبو الفتوح ابن فخر الدين الكازروني البلياني[4]، عبد الرحيم بن عبدالكريم بن نصر الله بن سعد الله بن الخطيب أبو حامد بن أبي الطاهر بن كمال القرشي البكري الجرهي ولد ليلة الخميس ثالث صفر سنة أربع وأربعين بشيراز [5].

= الكمال)، و(ميزان الاعتدال في نقد الرجال)، توفي بدمشق سنة (748هـ)، ينظر: طبقات الشافعية – للسبكي (100/9)، والأعلام – للزركلي (326/5).

(1) ينظر: اللوحة (2/أ)، من المخطوط.

(2) ينظر: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون – لمصطفى بن عبدالله القسطنطيني الرومي الحنفي، دار الكتب العلمية، بيروت (1413هـ– 1992) (1930/2)، والأعلام – للزركلي (101/3)، ومعجم المؤلفين – لعمر كحالة (231/4).

(3) ينظر: الضوء اللامع – للسخاوي (158/1).

(4) ينظر: المصدر السابق (79/3).

(5) ينظر: المصدر السابق، (180/4).

- **وفاته:**

توفيَ –رحمه الله – فيما اطلعت عليه من مصادر سنة (758هـ)[1]، وما ذكره العسقلاني في كتابه[2] من أن وفاته كانت سنة (785هـ)، فهذا – والله أعلم – فيه لبس بينه وبين والده، حيث وَقَعَتْ وفاة الأخير.

ثانياً: التعريف بمؤلف (عمدة التفسير) أحمد شاكر

- **اسمه ومولده:**

أحمد بن محمد شاكر بن أحمد بن عبدالقادر، من آل أبي علياء، محدث مفسر، فقيه، أديب، ولد سنة (1309هـ)، التحق بالأزهر وتحصل على الشهادة العالمية سنة (1917م)، وعُيِّن بعدها في القضاء، ثم أصبح قاضياً، ثم رئيساً للمحكمة الشرعية[3].

- **شيوخه:**

كان لوالد أحمد شاكر أثر في حياته العلمية، فقد قرأ له ولإخوانه التفسير والحديث والأصول والمنطق والبيان والفقه، كذلك أخذ عن عبدالله بن إدريس السنوسي، ومحمد ابن الأمين الشنقيطي، وشاكر العراقي، وغيرهم[4].

- **مصنفاته**

للمؤلف – رحمه الله– مؤلفات عديدة منها:

- عمدة التفسير.
- نظام الطلاق في الإسلام.
- جماع العلم للشافعي.
- لباب الآداب لابن منقذ.

---

(1) ينظر: هدية العارفين – للباباني (391/1)، والأعلام – للزركلي (101/3).

(2) ينظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة – للحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني، تح: محمد عبدالمعيد ضان، نشر مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد– الهند (1392هـ– 1972م) (7/6).

(3) ينظر: الأعلام – للزركلي (253/1)، ومعجم المؤلفين – لعمر كحالة (368/13).

(4) ينظر: المصدر نفسه.

- المعذب للجواليقي. وغير ذلك[1].

- وفاته:

توفي – رحمه الله – بالقاهرة سنة (1377هـ – 1958م) [2].

---

(1) ينظر: المصدر نفسه.

(2) ينظر: المصدر نفسه.

المبحث الثاني: موقفهما من الأسانيد

أولاً: موقف الكازروني من الأسانيد:

كان – رحمه الله تعالى – يقوم بحذف الأسانيد عند ذكره للأحاديث، وقد أشار إلى ذلك في مقدمته حين قال: "وتركت فيه الأسانيد والمكررات ..." [1].

ثم ينقل الحكم على الحديث عن ابن كثير كما هو، وأحياناً يختصر الحكم، مثال ذلك:

- جاء في تفسير ابن كثير (391/45):

"وأسند ابن جرير هاهنا حديثاً فقال: حدثنا ابن وكيع، حدثنا عمرو بن محمد، عن إبراهيم بن يزيد، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس قال: قال النبي – صلى الله عليه وسلم–: "لو لم يَقُل – يعني يوسف– الكلمةَ التي قال: ما لبثَ في السجن طولَ ما لبثَ، حيث يبتغي الفرَجَ من عند غير الله"، وهذا الحديث ضعيف جداً؛ لأن سيفان بن وكيع ضعيف، وإبراهيم بن يزيد – هو الخُوزي– أضعف منه أيضاً.

وقد رُوي عن الحسن وقتادة مرسلاً عن كل منهما، وهذه المرسلات ها هنا لا تُقبل لو قُبل المرسل من حيث هو في غير هذا المَوْطِن، والله أعلم".

وفي سياق هذا الحديث ذكره الكازروني بهذا الشكل:

"وروى ابن جرير عن ابن عباس وغير واحد أن الضمير عائد إلى يوسف، كما روى ابن عباس أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– قال: " لو لَمْ يقُل...""

وقال بعد سرد الحديث:

"والحديث ضعيف جداً، وقد رُوى مرسلاً، وهو لا يُقبل ها هنا، والله أعلم"[2].

- وجاء في موضع آخر من تفسير ابن كثير (410/4):

---

(1) اللوحة (2/ب)، من المخطوط.

(2) ص 140 من الرسالة.

"قال ابن جرير أيضاً: حدثني المثنى، حدثنا سليمان بن عبدالرحمن أبو أيوب الدمشقي، حدثنا الوليد، أنبأنا ابنُ جُريجٍ، عن عطاء وعكرمة عن ابن عباس، عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– : ﴿سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ﴾ يقول: " حتى تأتي ليلة الجمعة، وهو قول أخي يعقوب لبنيه". وهذا غريب من هذا الوجه، وفي رفعه نظر، والله أعلم".

ونظيره عند الكازروني:

"جاء في الحديث المسند يعني " حتى تأتي ليلة الجمعة"، وهو قول أخي يعقوب لبنيه"، وهو غريب، وموقوف، أصح"[1].

- وأحياناً يختصر الكازروني في متن الحديث أيضاً مثاله:

جاء في تفسير ابن كثير (131/5):

"وقال الحافظ أبو يعلى: حدَّثنا بشر بن سيحان البصري، حدثنا حرب بن ميمون، حدثنا موسى ابن عبيدة الرَّبَذي، عن محمد بن كعب القُرَظِي، عن أبي هريرة – رضي الله عنه– قال: خرجت أنا ورسول الله – صلى الله عليه وسلم– ويدي في يده فأتى على رجل رثِّ الهيئةِ، فقال: " أي فلان، ما بلغ بك ما أرى؟" قال: السقم والضر يا رسول الله. قال "ألا أعلمك كلمات تُذهب عنك السقم والضرَّ؟". قال: لا، قال: ما يسرني بها أن شهدت بدراً أو أحداً. قال: فضحك رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وقال: " وهل يُدْرك أهل بدرٍ وأهل أحدٍ ما يُدرك الفقير القانع؟". قال: فقال أبوهريرة: يا رسول الله، إيَّاي فعلمْنِي. قال: "فقل يا أبى هريرة توكلت على الحي الذي لا يموت، الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل، وكبره تكبيراً". قال: فَأتى عليَّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وقد حسُنت حالي، فقال لي: "مَهْيَمْ". قال: قلتُ: يا رسول الله، لم أزل أقول الكلمات التي علمتني. إسناده ضعيف، وفي متنه نكارة، والله أعلم".

وقد نقله الكازوروني في تفسيره مختصراً السند والمتن بهذا الشكل:

---

(1) ينظر: ص 157 من الرسالة.

(وقد جاء في الحديث: "إن كلمات من كان يقرؤها يذهب عنه السقم الضر"، فقال أبو هريرة يا رسول الله: أنا فعلمني، فقال: "قل توكلت على الحي الذي لا يموت..." وأكمل الحديث ثم قال: ضعيف، والله أعلم)[1].

ثانياً: موقف أحمد شاكر من الأسانيد:

لم يتعرض – رحمه الله– إلى الأسانيد، شأنه في هذا شأن الشيخ الكازروني – رحمه الله تعالى–، فقد كان يذكر الحديث مُخْتَصَرًا من السند في أحيان كثيرة، مكتفياً بذكر الراوي الأعلى فقط إلا أنه في الغالب يقوم بالحكم على الحديث من حيث الصحة والحُسن بخلاف الكازروني، مثال ذلك:

- جاء في تفسير ابن كثير (64/5):

"وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا بشير بن سلمان، عن سيَّار أبي الحكم، عن طارق بن شهاب، عن عبدالله – هو ابن مسعود– قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: "من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن أنزلها بالله أوشك الله له بالغنى، إما أجل عاجل، وإما غنى عاجل" ورواه أبو داود والترمذي من حديث بشير بن سلمان به، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب".

وجاء عند أحمد شاكر في عمدة التفسير (427/2):

"وقد روى الإمام أحمد عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: "من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسدَّ فاقته ..."" وبعد سرد الحديث وما ذكره ابن كثير، قال أحمد شاكر: "إسناده صحيح".

- جاء في تفسير ابن كثير (384/4):

"ورواه غيره عن حماد بن سلمة، عن عطاء، عن سعيد، عن ابن عباس، أنه قال: "تكلم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم".

---

(1) ص 370 من الرسالة.

وجاء عند أحمد شاكر في عمدة التفسير (290/2):

"وقد ورد فيه حديث عن ابن عباس، عن النبي – صلى الله عليه وسلم– قال: "تكلم أربعة وهم صغار"، فذكر فيهم شاهد يوسف" ثم حكم عليه أحمد شاكر قائلاً: "إسناده صحيح".

المبحث الثالث: موقفهما من الأحاديث الضعيفة والموضوعة

أولاً: موقف الكازروني من الأحاديث الضعيفة والموضوعة:

كان الكازروني – رحمه الله – يعتني بسرد الأحاديث الصحيحة، فكان غالبًا ما يعبر بأنه صحيح أو في الصحيحين، وعند التدقيق – والله أعلم– كان يريد بذلك الشيخين أو أحدهما، فكان المؤلف – رحمه الله– يستدل بالأحاديث النبوية من الكتب الستة والموطأ، ومسند الإمام أحمد، وغيرها.

مثال ذلك قوله – صلى الله عليه وسلم–: "إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار..." (1)، وقوله – صلى الله عليه وسلم–:

" ما من نبيٍّ من الأنبياء إلا وقد أوتيَ من الآيات ما آمن على مثله البشر..." (2)، وقوله – صلى الله عليه وسلم–:

لأبي بكر – رضي الله عنه– عندما سأله: ما شيبتك قال: شيبتني هود والواقعة..." (3)، وقوله – صلى الله عليه وسلم–:

"لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحدٍ..." (4)، وقوله – صلى الله عليه وسلم – "ما السمٰوٰت السبع وما فيهن وما بينهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة..." (5)، وقول عبدالله بن الزبير – رضي الله عنه– مرفوعاً:

ما من ذنبٍ بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها..." (6).

وقد يعبر عن الحديث بأنه ضعيف، مثل قوله – صلى الله عليه وسلم– "اتقوا فراسة المؤمن..." (7).

(1) ص 40 من الرسالة.
(2) ص 46 من الرسالة.
(3) ص 72 من الرسالة.
(4) ص 159 من الرسالة.
(5) ص 170 من الرسالة.
(6) ص 326 من الرسالة.
(7) ص 241 من الرسالة.

ثانياً: موقف أحمد شاكر من الأحاديث الضعيفة والموضوعة

عند تتبُّعي للجزء الذي قمت بتحقيقه تبيَّن لي – والله أعلم- أنه لم يذكر الضعيف ولا الموضوع، بل اعتمد في تفسيره على الأحاديث الصحيحة والحسنة، مثال ذلك:

قوله – صلى الله عليه وسلم-: "عرض علي الأنبياء، فجعل النبي يمر ومعه الفئام من الناس ..." [1].

وقوله – صلى الله عليه وسلم-: "إن الرقى والتمائم والتِّوَلَةَ شِركٌ"[2].

وقوله – صلى الله عليه وسلم-: "لا تفضلوا بين الأنبياء"[3].

(1) عمدة التفسير – لأحمد شاكر (244/2).

(2) عمدة التفسير – لأحمد شاكر (309/2).

(3) عمدة التفسير – لأحمد شاكر (438/2).

المبحث الرابع: موقفهما من الإسرائيليات

أولاً: موقف الكازروني من الإسرائيليات

كان الكازروني – رحمه الله– لا يعتمد على الإسرائيليات في تفسيره لما يعتريها من الضلالات لا سيما وهو يعتمد على التفسير بالمأثور، بخلاف ما إذا كانت هذه الإسرائيليات موافقة لشرع الله، أو مسكوتًا عنها، ممّا عُلم كذبُها، فقد قال الرسول – صلى الله عليه وسلم–: "حدثوا عن بني إسرائيل، ولا حرج"(1)، فقد كان خالياً من الإسرائيليات تقريبًا، إلاّ القليل فقط، فقد كان يعرض أقوال المفسرين في قضية ما، ثم يحكم عليها كلِّها بأنها من الإسرائيليات، مثال ذلك:

"وما ذكره بعض المفسرين من أنه باعهم الغلَّات في تلك السنين، كُلَّ سنة بعوض من المال ..." (2)، وقد يذكر القول ولا يحكم عليه، مثال ذلك حينما تكلم عن امرأة لوط قال: "وذكر في الإسرائيليات أنها خرجت معهم..."(3).

ثانياً: موقف أحمد شاكر من الإسرائيليات

عند تتبعي أحْمَد شاكر – رحمه الله – في تفسيره وجدته لا يذكر الإسرائيليات، ولا يأخذ بها، ويقول: (إن إباحة التحدث عنهم فيما ليس عندنا دليل على صدقه ولا كَذِبِهِ شيء، وذكر ذلك في تفسير القرآن ...)(4).

---

(1) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: العلم، باب: الحديث عن بني إسرائيل (361/3) برقم (3664)؛ من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه– مرفوعاً.

(2) ص 146 من الرسالة.

(3) ص 102 من الرسالة.

(4) عمدة التفسير لأحمد شاكر (14/1).

الفصل الثاني: تحقيق الجزء المختار من المخطوط

تفسير سورة يونس – عليه السلام –

[تمهيد] (1)

[هذه السورة مكية، وسميت بهذا الاسم؛ لأنها انفردت بذكر خصوصيةٍ لقوم يونس – عليه السلام –، وهي عفوُ الله تعالى عنهم، بعد أن توعَّدَهم رسولُهم بنزول العذاب، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾.

والسورة تتناول محتويات كثيرة، هي على النحو التالي:

- في بداية السورة تواجه ابتداءً موقفَ المشركين في مكة من حقيقة الوحي إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، فتُقرر أن الوحي لا عجبَ فيه، وأن القرآن ما كان ليُفترى من دون الله.
- تواجه طلبهم خارقة مادية غير القرآن، واستعجالَهم الوعيد الذي يسمعونه، فتُقرر لهم أن آية هذا الدِّين هذا القرآن.
- اضطراب التصور عندهم لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية.
- تصورهم حضور الله – سبحانه وتعالى – وشهوده كُلَّ ما يهم به البشر.
- امتلاء نفوسهم بالتوجس والتوقع لبأس الله في كل لحظة؛ ليخرجوا من الغفلة التي أنشأها الرخاء والنعمة.
- تواجه اطمئنانَهم للحياة الدنيا ورضاهم بها من الآخرة، والتكذيب بلقاء الله.
- تواجه التصور للألوهية، وما ترتب عليه من التكذيب بالبعث والآخرة.
- التذكير بالقرون الماضية، وما حلَّ بهم، لمَّا أشركوا وكذَّبوا الرسل.
- الاعتبار بما خلق الله للناس في هذا الكون، من مشاهد وظواهر مُوحية للفطرة البشرية بحقيقة الألوهية.
- ضرب المثل للدنيا وبهجتها وانقضائها، وأن الآخرة هي دار القرار.
- اختلاف أحوال المؤمنين والكافرين في الآخرة، وتبرؤ الآلهة الباطلة مِن عبدتِها.

---

(1) إضافة من المحقق.

- تحدي المشركين أن يأتوا بسورة.
- إنذار المشركين بما حلَّ بالأمم الماضية.
- توبيخ الله المشركين على ما حرَّموه ممَّا أحله الله.
- البُشرى لأولياء الله في الدنيا والآخرة.
- تسلية قلب الرسول – صلى الله عليه وسلم– عمَّا يقوله الكافرون.
- أن الله إذا شاء، آمن كلُّ مَن في هذه الأرض، لوقع ذلك.
- أخْذ العظة والعبرة بالرسل السابقين.
- صدق رسالة الرسول – صلى الله عليه وسلم– بشهادة أهل الكتاب.
- وخاتمة القول: تلقين الرسول – صلى الله عليه وسلم– مَا يُعذر به لأهل الشك في دين الإسلام، وأن من اهتدى، فإنما يهتدي لنفسه، وأن من ضلَّ، فضلاله عليها، وأن الله سيحكم بينه وبين معانديه][1].

(1) في ظلال القرآن، للسيد قطب، دار الشروق، القاهرة – مصر، ط: 39: (1432هـ – 2011م)، (1745/3)، والتحرير والتنوير، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع– تونس، 1977م (77/11). .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ﴾

قد تقدم الكلام على حروف أوائل السُّور في أول سورة البقرة، قال ابن عباس[1] في قولـه﴿ الٓرۚ ﴾: أي: أن الله أرى[2]، و ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾، أي: هـذه آيـات القرآن المُحكم المُبين، وقيل: التوراة والإنجيل والزبور[3]، قاله مجاهد[4] والحسن[5].

وقوله: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ ﴾ هذا إنكار من الله تعالى على من تعجَّب من الكفار من إرسال المرسلين من البشر، كما أنه تعالى أخبر عن القرون الماضية في قولهم: ﴿ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا ﴾[6]، وقال ابن عباس: لمّا بعث الله تعالى محمداً – صلى الله عليه وسلم– رسولاً، أنكرت العرب ذلك، فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله

(1) عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب، أبو العباس الهاشمي، ابن عم رسول الله – صلى الله عليه وسلم–، ولد والرسول – صلى الله عليه وسلم– وأهل بيته بالشعب من مكة، فأُتِيَ به الرسولَ – صلى الله عليه وسلم–، فحنكه بريقِه، كان يسمى (البحر)، لسعة علمه، ويسمى (حبر الأمة)، دعا له الرسول – صلى الله عليه وسلم– بقوله: "اللهم علّمهُ الحكمةَ"، غزا مع عبدالله بن سعد أفريقية، وشهد مع علي – رضي الله عنه– الجمل وصفين والنهروان، أصيب بالعمى في آخر عمره، ولمّا توفي، قال عنه محمد ابن الحنفية: مات ربانيُّ هذه الأمة، توفي بالطائف سنة (68هـ). ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ليُوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر، تح: علي محمد بالجاوي، دار الجبل، بيروت، (1412هـ)، (934/3)، وأُسْدُ الغابة في معرفة الصحابة، لعزّ الدين بن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري، تح: عادل أحمد الرفاعي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، (1417هـ – 1996م)، (295/3)، والإصابة في تمييز الصحابة، لأحمد بن علي بن حجر (أبو الفضل) العسقلاني الشافعي، تح: علي محمد البجاوي، دار الجبل، بيروت، ط: الأولى، (1412هـ)، (150/4)، والأعلام، لخير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي الدمشقي، دار العلم للملايين، ط: الخامسة عشر، أيار – مايو (2002م)، (95/4).

(2) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس للفيروزآبادي، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، (169).

(3) جامع البيان في تأويل القرآن لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي (أبو جعفر) الطبري، تح: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط: الأولى، (1420هـ – 2000م)، (11/15) .

(4) مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المكي، مولى بني مخزوم، تابعي مفسر من أهل مكة، ولد سنة (21هـ)، قرأ التفسير على ابن عباس ثلاث مرات، وكان يقف عند كل آية، يسأله فيم نزلت؟ وكيف كانت؟ قال عنه قتادة: أعلم من بقي بالتفسير مجاهد، توفي سنة (104هـ). ينظر: الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد بن منيع [أبو عبدالله] البصري الزهري، دار صادر، بيروت (466/5)، وطبقات المفسرين لأحمد بن محمد الادنه وي، تح: سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم – السعودية، (1417هـ– 1997م)، (11)، والأعلام– للزركلي (278/5).

(5) الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد، ولد سنة (21هـ)، إمام أهل البصرة، كان من سادات التابعين، وكان بالغَ الفصاحة والموعظة، كثيرَ العلم بالقرآن، وكان يفتي في زمن الصحابة – رضي الله عنهم– أجمعين، قال عنه الغزالي : " كان الحسن البصري أشبهَ الناس كلاماً بكلام الأنبياء، وأقربَهم هدياً من الصحابة، وكان غايةً في الفصاحة، تتصببُ الحكمة من فِيهِ "، توفي سنة (110هـ)، ينظر: طبقات المفسرين – للداودي (13)، والأعلام – للزركلي (226/2) .

(6) سورة التغابن، من الآية (6).

بشراً مِثلَ محمدٍ[1]، فأنزل الله: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾ الآية...

وقوله: ﴿ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾، قال ابن عباس: أي: سبقت لهم السعادة في الذِّكْر الأول، وقيل عنه : أي: أجراً حسناً بما قدموا[2]، كقوله تعالى: ﴿ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾[3]، ولهذا قال مجاهد: أي: الأعمال الصالحة، صلاتهم، وصومهم، وصدقتهم، وتسبيحهم[4]، وعن قتادة[5] والحسن: أي: محمد – عليه الصلاة والسلام–، شَفِيعٌ لهم عند ربهم[6]، واختار ابن جريرٍ[7] قولَ مجاهد[8]، قال: كما يقال: له قدمٌ في الإسلام، ومنه قول حَسّانٍ[9]: **[البحر:الطويل]**

لنـــا القــدمُ الأولـــى إليـــك وخَلْفُنـــا ** لأوّلنـا فـي طاعـة الله تـابعُ[10]

وقولـه: ﴿ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾، أي: مـع أنَّـا بَعَثْنـا إلـيهم رسولاً مـنهم، رجـلاً مـن

---

(1) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (13/15) .

(2) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (14/15) .

(3) سورة الكهف، من الآية (3) .

(4) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (14/15) .

(5) قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز ،أبو الخطاب السدوسي البصري: مفسر حافظ، ولد سنة (61هـ)، كان ثقة مأموناً حجة في الحديث، وكان يختم القرآن في كل سبع ليال مرةً، كذلك كان رأساً في العربية وأيام العرب والنسب، وهذا إضافة إلى علمه بالحديث، توفي بواسط سنة (118هـ). ينظر: الطبقات الكبرى – لابن سعد (229/7)، وصفة الصفوة لعبد الرحمن بن علي بن محمد (أبو الفرج)، تح: محمد فاخوري، محمد رواس قلعه جي، دار المعرفة– بيروت، ط: الثانية، (1399هـ– 1979م)، (259/3)، والأعلام – للزركلي (189/5).

(6) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (15/15).

(7) محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر، مؤرخ مفسر إمام فقيه مجتهد، حافظ لكتاب الله، بصير بالمعاني، ولد في آمل طبرستان، سنة (224هـ)، كان يجتهد في الأحكام، ولا يقلد أحداً، بل يُقلِّدُه بعضُ الناس؛ حيث عملوا بأقواله وآرائه، قال عنه ابن خزيمة: "ما أعلمُ على أديم الأرض أعلمَ من ابن جرير"، من مؤلفاته: (جامع البيان في تأويل القرآن)، و(تاريخ الأمم والملوك)، و(اختلاف الفقهاء)، توفي ببغداد سنة (310هـ)، ينظر: طبقات المفسرين لعبد الرحمن بن أبيكر السيوطي، تح: علي محمد عمر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط: الأولى، (1396هـ)، (82)، والأعلام – للزركلي (69/6)، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة، مكتبة المثنى، بيروت، دار إحياء التراث العربي– بيروت (147/9).

(8) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (15/15).

(9) حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري، أبو الوليد، شاعر الرسول – صلى الله عليه وسلم–، ومن المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام؛ حيث عاش ستين سنة في الجاهلية، ومثْلَها في الإسلام، وكان من الثلاثة الذين انتُدبوا لهجو المشركين، اشتهر بمدح الغساسنة وملوك الحيرة قبل الإسلام، لم يشهد مع الرسول – صلى الله عليه وسلم– مشهدًا؛ لعلّة أصابته، أصيب بالعمى قبل وفاته، توفي بالمدينة سنة (54هـ)، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب– لابن عبدالبر (346/1)، وأُسْد الغابة في معرفة الصحابة– لابن الأثير (7/2)، والأعلام– للزركلي (175/2).

(10) ديوان حسان بن ثابت (168/1).

جنسهم، بشيراً ونذيراً، ﴿قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ﴾، وقرأ بعضهم: ﴿لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾[1]، أي: ظاهر، وهُمُ الكاذبون في ذلك.

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

أخبر تعالى أنه ربُّ العالَمِ جميعِهِ، وأنه خلق السمٰوٰت والأرض في ستة أيام. قيل: كهذه الأيام، وقيل: كلُّ يومٍ كألف سنةٍ مما تعدُّون، ثم استوى على العرش أَعْظَمِ المخلوقات وسَقْفِها، قيل: هو ياقوتة حمراء، يُدَبِّر أمرَ الخلائق، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السمٰوٰت ولا في الأرض، ولا يشغله شأنٌ عن شأْنٍ.

وقوله ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾، كقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾[2] ونحوه .

وقوله:﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُ﴾ ، أي: أَفرِدوه بالعبادة، وحده لا شريك له.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، أي: أيها المشركون في أمركم، تعبدون مع الله غَيْرَهُ، وأنتم تعلمون أنه المتفرد بالخلق؟!

﴿ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴾.

أخبر الله تعالى أنه مرجع الخلائق يوم القيامة، لا يَتْرك منهم أحدًا، حتى يعيدَه كما بدأَهُ، ثم ذكر أنه كما بدأ الخلق كذلك يعيده.

﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ ﴾ أي: بالعدل والجزاء الأوْفَى.

---

(1) قرأ الكوفيون وابن كثير:﴿لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ﴾ بالألف، والباقون ﴿لَسِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ بغير ألفٍ. ينظر: تحبير التيسير في القراءات العشر لابن الجزري شمس الدين محمد بن محمد بن علي بن يوسف، تح: أحمد محمد مفلح القضاة، دار الفرقان، عمان – الأردن، ط: الأولى (1421هـ – 2000م)، (396)، والتيسير في القراءات السبع للإمام (أبو عمر) عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد بن عمرو الداني، دار الكتاب العربي – بيروت، ط: الثانية، (1404هـ – 1984م)، (86).

(2) سورة البقرة، من الآية (255).

والحميم: الماء الحارُّ في الغاية.

وقوله: ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ أي بسبب كفرهم، يعذَّبون يوم القيامة بأنواع العقاب من سَمُومٍ وحميمٍ، وظلٍّ من يَحمومٍ.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾.

أخبر تعالى عمّا خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته، وعظيم سلطانه، وأنه جَعل الشعاعَ الصادرَ عن جرمِ[1] الشمس ضياءً، وشعاعَ القمر نوراً، هذا فن، وهذا فن آخر، تفاوت بينهما، لئلاَّ يشْتَبها، وجعل سلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل، وقدَّر القمر منازلَ؛ فأول ما يبدو صغيراً، ثم يتزايد نورُه وجرمه حتى يستوي ويكملَ إبداره، ثم يشرع في النقص، حتى يرجع إلى حالته الأولى في تمام شهرٍ، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ ﴾[2]، إلى قوله: ﴿ يَسْبَحُونَ ﴾[3]، فقدَّر القمر منازلَ؛ لتعلموا عدد السنين والحساب؛ فبالشمس تُعْرَفُ الأيام، وبسَيْرِ القمر تُعْرَفُ الشهور والأعوام.

﴿ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ﴾ أي: لم يخلقه عبثاً؛ بل له حكمة عظيمة في ذلك، وحجَّة بالغة.

﴿ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ﴾، أي: نبين الحجج والأدلة.

وقوله: ﴿ إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾، أي: تعاقبهما إذا جاء هذا، ذهب هذا، وإذا ذهب هذا جاء هذا،، لا يتأخر عنه شيئاً، كما قال تعالى: ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾[4].

---

(1) الْجِرْمُ : الجسد، تاج العروس من جواهر القاموس لمحمد بن محمد بن عبدالرزاق الحسيني أبو الفيض، الملقب بمرتضى الزَّبيدي، تح: مجموعة من المحققين، دار الهداية، (389/31)، الجذر " ج ر م " .

(2) سورة يس، من الآية (39).

(3) سورة يس، من الآية (40).

(4) سورة الأعراف، من الآية (54).

وقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: من الآيات الدالة على عظمته تعالى، كما قال: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[1]، الآية ونحوها من الآيات الباهرات.

وقوله: ﴿لِّقَوۡمٍ يَتَّقُونَ﴾، أي: عقابَ الله وسَخَطَهُ وعَذابَهُ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾.

أخبر تعالى عن حال الأشقياء الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة، ولا يرجون في لقاء الله شيئاً، ورضوا بهذه الحياة الدنيَّة، واطمأنت إليها أنفسهم، فلا يخافون عقاباً، ولا يتوقعون ثواباً، وهم غافلون عن آيات الله الكونية، فلا يتفكرون فيها، وعن الشرعية فلا يأتمرون بها، فإن مأواهم النارُ يوم معادهم؛ جزاءً بما كسبوا من الكفر والتكذيب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

هذا إخبار عن حال السعداء الذين ءامنوا بالله وصدقوا المرسلين، وامتثلوا ما أُمِرُوا به، فعملوا الصالحات، بأنه سيهديهم، ﴿بِإِيمَٰنِهِمۡ﴾، يُحتمل أن تكون الباء هاهنا سببية، وتقديره: بسبب إيمانهم في الدنيا، يهديهم الله يوم القيامة على الصراط حتى يجوزُوهُ، ويَخْلُصُوا إلى الجنة، ويُحْتَمل أن تكون باءَ الاستعانة، أي: يكون لهم نورٌ، يَمْشُون به، وقال ابن جريجٍ[2]: يَمْثُل له عمله في صورة حسنةٍ، وريح طيبةٍ، إذا قام من قبره، يعارض صاحبه، ويُبَشِّرُهُ بكل خيرٍ، فيقول له: من أنت، فيقول: أنا عملك، فيجعل له نوراً من بين يديه، حتى يُدْخِلَه الجنة، فذلك قوله: ﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡ﴾، والكافر

---

(1) سورة يونس، من الآية (101).

(2) عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج، (أبو الوليد)، فقيه الحرم المكي، وإمام أهل الحجاز في عصره، وُلد بمكة سنة (80هـ)، وهو أول من صنَّف الكتب بالحجاز، قال عنه ابن المديني: " لم يكن في الأرض أعلمُ بعطاء بن أبي رباح من ابن جريجٍ "، توفي بمكة سنة (150هـ)، ينظر: صفة الصفوة- لابن الجوزي (216/2)، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب لعبد الحي بن أحمد العكري الدمشقي، دار الكتب العلمية، (220/1)، والأعلام- للزركلي (160/4).

يَمْثُل له عمله في صورةٍ سيئة، وريح منتنةٍ، فيلازم صاحبَهُ، حتى يقذفه في النار[1].

وقوله: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا ﴾، أي: كلامهم ودعاؤهم في الجنة، ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: هذا حال أهل الجنة، قال ابن جريج: أُخْبرتُ أن قوله: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ﴾، أنه إذا مرَّ بهم الطير يشتهونه، قالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾، فيأتيهم الملك بما يشتهونه، فيسلم عليهم، فيردُّون عليه، فذلك: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ﴾. فإذا أكلوا، حمدوا الله ربهم، فذلك قوله: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2]، وفيه دلالة على أنه تعالى هو المحمود أبداً، المعبود على طول المدى، وأنه المحمود في الأول والآخر، في الدنيا والآخرة، في جميع الأحوال، ولهذا جاء في الصحيح: " إن أهل الجنة يُلْهَمُونَ التسبيح والتحميد، كما يُلْهَمُون النَّفَس" [3]، وإنما يكون ذلك، كذلك لِمَا يرون من تضاعف نِعَمِ الله عليهم، فتُكَرَّرُ وتُعَادُ وتُزَادُ، فليس لهذا انقضاء ولا أمد.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾.

أخبر- تعالى- عن حِلْمِهِ ولُطْفِهِ بعبادِهِ أنه لا يستجيب منهم إذا دعوا على أنفسهم وأموالهم وأولادهم في حال ضجرهم وغضبهم، وأنه يعلم منهم عدمَ القصد إلى إرادة ذلك كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم وأموالهم وأولادهم بالخير والبركة، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ﴾، أي: لو استجاب منهم كلما دعوا به في ذلك، لأهلكهم، ولكن لا ينبغي الإكثار من ذلك، قال جابر[4]: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم- : " لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على

(1) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (28/15).

(2) ينظر: المصدر نفسه (30/15) .

(3) جزء من حديث أخرجه أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري في الجامع الصحيح المسمَّى: صحيح مسلم، دار الجبل- بيروت، دار الأوقاف الجديدة- بيروت، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: في صفات الجنة وأهلها وتسبيحهم، (147/8) برقم (7331)، عن جابر – رضي الله عنه- يرفعه.

(4) جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام بن كعب الأنصاري السُلمي، (أبو عبد الله) وُلِدَ سنة (16 ق هـ)، كان أحد المكثرين في الرواية عن الرسول – صلى الله عليه وسلم-، وكانت له حلقة في المسجد النبوي، يؤخذ عنه العلمُ فيها، شهد العقبة الثانية، وغزا مع الرسول –صلى الله عليه وسلم – تسع عشرة غزوة، كُفَّ بصرُهُ في آخر عمره، توفي بالمدينة سنة (78هـ)، وهو آخر من مات من الصحابة فيها، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب – لابن عبد البر (219/1)، وأُسْد الغابة في معرفة الصحابة – لابن الأثير (377/1)، والإصابة في تمييز الصحابة – لابن حجر العسقلاني (434/1)، والأعلام – للزركلي (104/2).

أموالكم، لا توافقوا من الله ساعةً فيها إجابةٌ، فيستجيب لكم" [1]رواه أبو داود[2].

وقوله :﴿ فَنَذَرُ ﴾ أي: فندع ونترك، ﴿ٱلَّذِينَ ﴾ لا يخافون البعث والحساب، في ﴿طُغۡيَٰنِهِمۡ ﴾، وكفرانهم يتردَّدُون، والطغيان: المجاوزة في الشيء، والعمهُ : الضَّلال.

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ .

أخبر تعالى عن الإنسان وضجره إذا مسَّه الضرّ، فذو دعاء عريضٍ، أي: كثير في معنى واحدٍ، وذلك أنه إذا أصابتْهُ شِدَّةٌ، وقَلِقَ لها، وجَزَعَ منها، وأكثر الدعاء عند ذلك، فدعا الله في كشفها وزوالِهَا عنه في حال اضطجاعه وقعوده وقيامه في جميع أحواله، فإذا فرّج الله شدّتَهُ وكشف كُرْبَتَهُ، أعرض ونأى بجانبه، وذهب كأنه ما كان من ذاك شيء، ﴿مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ ﴾، ثمَّ ذَمَّ تعالى منْ هذه صفتُهُ وطريقُهُ، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ﴾، أي: المجاوزين الحدّ في المعصية، ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾، من المعاصي، وقيل: مِنَ الدعاءِ عند البلاء، وتَرْكِ الشُّكْرِ عند الرَّخاءِ.

﴿ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴾ .

أخبر تعالى عمّا أحلّ بالقرون الماضية في تكذيبهم الرسل، فيما جاءوهم به من البينات والحُجَجِ الواضحات، ثم استخلف الله بهؤلاء القوم، مَنْ بعدهم، وأرسل إليهم رسولاً؛ لينظر طاعتَهم له، واتّباعَهم رسوله، وعن أبي سعيدٍ[3] قال: قال رسول الله – صلى الله

---

(1) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب : الزهد والرقائق، باب: حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر، (232/8) برقم (7705)، و أخرجه أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، دار الكتاب العربي – بيروت، كتاب: الوتر، باب: النهي عن أن يدعو الإنسان على أهله وماله، (563/1) برقم (1534)؛ كلاهما من حديث جابر – رضي الله عنه – مرفوعاً بألفاظ متقاربة.

(2) سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السجستاني، أبو داود، محدث حافظ فقيه، وُلد سنة(202 هـ)، رحل وطوّف كثيراً من البلاد، قال عنه إبراهيم الحربي: " أُلينَ الحديثُ لأبي داود كما أُلينَ الحديد لداود "، من مؤلفاته: (كتاب السنن)، (المراسيل) و(كتاب الزهد)، ينظر: صفة الصفوة – لابن الجوزي (69/4)، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب – لابن العماد العكري (166/2)، والأعلام – للزركلي (122/3)، ومعجم المؤلفين – لعمر كحالة (255/4).

(3) سعد بن مالك بن سنان بن ثعلبة بن عبيد بن الأبجر الخزرجي الأنصاري الخدري، أبو سعيد، ولد سنة (10ق.هـ)، كان من حفاظ الحديث المكثرين، غزا مع الرسول – صلى الله عليه وسلم– اثنتي عشرة غزوة، توفي بالمدينة سنة (74هـ)، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب– لابن عبدالبر (602/2)، وأُسْد الغابة في معرفة الصحابة– لابن الأثير (151/6)، والإصابة في تمييز الصحابة– لابن حجر العسقلاني (78/3)، والأعلام– للزركلي (87/3).

عليه وسلم-: "إن الدنيا حُلْوة خَضِرة، وإن الله مستخلفُكم فيها، فناظرٌ ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء"[1]، رواه مسلم[2].

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

أخبر تعالى عن تعنُّت الكفار من مشركي قريشٍ أنهم إذا قرأ عليهم الرسول – عليه الصلاة والسلام- كتاب الله قالوا : ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾، أو رُدَّ هذا، وجئنا بغيره من نمطٍ آخرٍ، أو بدِّله إلى وضع آخر، قال تعالى لنبيه – صلى الله عليه وسلم- :﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾، أي: ليس هذا إليّ، إنما أنا عبدٌ مأمورٌ ورسولٌ مُبلَّغٌ من الله ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، ثم قال محتجًّا عليهم في صحة ما جاءهم به: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾، أي: هذا إنما جئتكم به عن إذن الله في ذلك، ومشيئتهِ وإرادته، والدليل على أني لستُ أتقوَّلُه من عندي، ولا أفْترِيهِ أنكم عاجزون عن معارضته، وأنكم تعلمون صدقي وأمَانتي منذ نشأْتُ بينكم إلى حين بعثني اللهُ، لا تنتقدون عليّ شيئاً تغْمِصُون به[3]. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾أي: أفليس لكم عقول تعرفون بها الحقّ من الباطل؟!، ولهذا لمَّا سأل هرقلُ – مَلِكُ الروم- أبا سفيان[4] فيما سأله،

---

(1) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الرقاق، باب: أكثر أهل الجنة الفقراء، وأكثر أهل النار النساء، (89/8) برقم (7124)، عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه- يرفعه.

(2) مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، أبو الحسين، حافظ محدث، وُلد بنيسابور سنة (204هـ)، رحل إلى الحجاز ومصر والشام والعراق، قال عنه الحافظ أبو علي النيسابوري: "ما تحت أديم السماء أصحُّ من كتاب مسلمٍ"، من مؤلفاته: (صحيح مسلم) و(المسند الكبير)، و(الجامع)، توفي بظاهر نيسابور سنة (261هـ). ينظر: تذكرة الحفاظ لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تح: زكريا عميرات، ط: الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان (1419هـ- 1998م)، (125/2)، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب- لابن العماد العكري (143/2)، والأعلام- للزركلي (221/7)، ومعجم المؤلفين- لعمر كحالة (232/12).

(3) غَمَصَ فلانٌ الناس وغمطهم، أي: احتقرهم وازدرى بهم ؛ والمعنى ليس لديكم شيءٌ تحتقرونني به، ينظر: لسان العرب لمحمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، ط: الأولى، دار صادر – بيروت، (61/7)، الجذر : " غ م ص " .

(4) صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمسٍ بن عبد منافٍ القرشي الأموي، أبو سفيان، صحابي من سادات قريشٍ في الجاهلية، وُلد سنة (57ق.هـ)، أسلم يوم فتح مكة، وشهد حُنيناً والطائف، تزوج النبيُّ – صلى الله عليه وسلم- ابنتَه حبيبة قبل أن يسلم، وهو الذي قال=

قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: فقلت: لا، وهو إذ ذاك رأس المشركين، ومع هذا اعترف بالحق، فقال له هرقل: قد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس، فكيف على الله ؟!(1).

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾أي: لا أحد أظلم ولا أعتى ممن افترى على الله كذباً، وتقوَّل على اللهِ، وزعم أن الله أرسله، ولم يكن كذلك، فليس أحدٌ أكبر جرماً ولا أعظم ظلماً من هذا، ومثل هذا لا يخفى على الأغبياء، فكيف يشتبه حال هذا بالأنبياء؟! فإن من قال هذه المقالة صدقاً أو كذباً، فلابد أن الله يَنْصِب عليه من الأدلة على بِرّهِ وفجورهِ(2) ما هو أظهر من الشمس، فإن الفَرْقَ بين محمد – صلى الله عليه وسلم– وبين مسيلمة الكذاب لِمَنْ شاهدهما أظهرُ من الفَرْقِ بين وقت الضحى ووقت نصف الليل في حِنْدِسِ(3) الظلماء، أو﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ﴾ أي: بمحمدٍ والقرآن.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ أي: لا يُنْجِي المشركين من جهنم أبداً.

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾.

= فيه الرسول – صلى الله عليه وسلم– يوم فتح مكة : " من دخل دار أبي سفيان، فهو آمن"، فُقِئَتْ عينه يوم الطائف، فلم يزل أعور، حتى فقئت عينه الأخرى يوم اليرموك، فَعمِي، توفي بالمدينة سنة (31هـ)، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب– لابن عبدالبر (1677/4)، وأُسْد الغابة في معرفة الصحابة– لابن الأثير (10/3)، والإصابة في تمييز الصحابة– لابن حجر العسقلاني (413/3)، والأعلام– للزركلي (201/3).

(1) ينظر: دلائل النبوة لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تح: عبدالمعطي قلعجي، ط: الأولى، دار الكتب العلمية، ودار التراث، بيروت، والقاهرة، (1408هـ – 1988م)، (379/4)، وسبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، لمحمد بن يوسف الصالحي الشامي، ط: الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، (1414هـ– 1993م)، (354/11).

(2) (وفجوره) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تح: سامي بن محمد سلامة، ط: الثانية (1420 – 1999م)، دار طيبة للنشر والتوزيع، (254/4) (أو فجوره)؛ وهو الصحيح .

(3) الحِنْدِسُ: الليلُ المُظلمُ، تاج العروس من جواهر القاموس – للزبيدي (561/15)، الجذر : " ح ن د س " .

أنكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غَيره ظانّين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتها عند الله، فأخبر تعالى أنها لا تنفع ولا تضرُّ، ولا تملك شيئاً، ولا يقع شيء مما يزعمون فيها، ولا يكون هذا أبداً، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ﴾، قال ابن جرير: "معناه: أتخبرون الله بما لا يكون في السمٰوٰت ولا في الأرض"[1]، ثم نزَّه نفسه عن شركهم وكفرهم، فقال: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾، ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حَادثٌ في الناس، كائنٌ بعد أن لم يكن، وأن الناس كُلّهم كانوا على دين واحدٍ وهو الإسلام، قال ابن عباس: "كان بين آدم ونوحٍ عَشْرَةُ قرون، كُلّهم على الإسلام، ثم وقع الاختلاف بين الناس، وعُبِدَتِ الأصنام والأنداد والأوثان، فبعث الله الرسل بآياته وبيناته وحججه البالغة"[2]، ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖ﴾[3].

وقوله: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ﴾، أي: لولا ما تقدم من الله أنه لا يُعذِّبُ أحداً إلا بعد قيام الحجَّة عليه، أنه[4] قد أجّل الخلق إلى أجل معدودٍ، لَقُضِي بينهم فيما فيه اختلفوا، فأسعد المؤمنين، وأعنتَ الكافرين.

﴿ وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴾ .

أي: ويقول هؤلاء الكفرة المعاندون: لولا أُنْزِل على محمد آيةٌ من ربه، يعنون: كما أعطى الله ثمود الناقة، أو يحوّل لهم الصفا ذهباً، ويزيح عنهم جبال مكة، ويجعل مكانها بساتين وأنهاراً، ونحو ذلك، مِمّا الله عليه قادرٌ، ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله.

وقوله: ﴿فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ﴾: هذا إرشاد منه تعالى إلى الجواب عما سألوا، أي: قل يا محمد: إن الأمر كُلَّه لله، وهو يعلم العواقب في الأمور، ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾: أي: إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتم فانتظروا حُكم الله فِيَّ وفيكم ؟ هذا مع أنهم قد

---

(1) جامع البيان في تأويل القران – للطبري (46/15) .

(2) المصدر نفسه (275/4).

(3) سورة الأنفال، من الآية (42) .

(4) (أنه) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (257/4)، (وأنه)؛ وهو الصحيح.

شهِدُوا من المعجزات أعظمَ مما سألوا حين أشار إلى القمر بحضورهم ليلةَ البدر، فانشقَّ فرقتين، حتى رأوا حراءَ بينهما، وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية ممَّا سألوا، ولو لم يكن سؤالهم عن التعنُّت والعناد، لأجابهم إلى ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾[1]، وغيرها من الآيات الواضحات، فَمِثْلُ هؤلاء أقلُّ من أن يجابوا إلى ما سألوا؛ لأنه لا فائدة في جوابهم؛ لِتَعَنُّتِهم وعِنَادِهم، ولهذا قال: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ .

أخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم، كالرخاء بعد الشدة، والخِصْبِ بعد الجَدْبِ، ونحو ذلك، ﴿إِذَا لَهُم مَّكۡرٌ﴾، أي: استهزاء وتكذيب في آياتنا ودلائل قدرتنا، قائِلين : مُطِرْنا بنوْءِ[2] كذا، كما في الصحيحين عن زيد بن خالدٍ[3]: أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– صلّى بهم الصبح بالحديبية في إثرِ سماءٍ، أي: مطرٍ، أصابتْهم من الليل، ثم قال: "هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة؟ قلنا: الله ورسوله أعلم؟ قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر؛ فأما من قال: مُطِرْنَا بفضل الله ورحمته، فذاك مؤمن بي، كافرٌ بالكواكب، وأما من قال: مُطِرْنَا بِنَوءِ كَذَا

---

(1) سورة يونس، الآية (96، 97).

(2) النَّوْءُ: سقوط نجم من المنازل في المغرب مع الفجر، وطلوع رقيبه من المشرق يقابله، ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس– للزبيدي (688/1)، الجذر: " ن و أ ".

(3) زيد بن خالد الجهني المدني، أبوزرعة، وقيل: أبو عبدالرحمن، وقيل: أبو طلحة، صحابي سكن المدينة، وشهد الحديبية مع الرسول – صلى الله عليه وسلم– وكان حامل لواء جهينة يوم الفتح، توفي بالمدينة سنة (78هـ)، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب– لابن عبدالبر (549/2)، وأُسْدُ الغابة في معرفة الصحابة– لابن الأثير (340/2)، والإصابة في تمييز الصحابة– لابن حجر العسقلاني (603/2)، والأعلام– للزركلي (58/3).

وكَذَا، فذاك كافر بي مؤمن بالكواكب"[1]، وقوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ﴾، أي: أشد استدراجاً وإمْهَالاً، حتى يَظُنَّ الظَّانُّ أنه ليس يُعذَّب، وإنما هو في مهلةٍ، ثم يؤخذ على غِرَّةٍ منه، والكاتبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله، ويحصونه، ثم يعرضونه على عالِمِ الغيب والشهادة، فيجازيه على النَّقير[2]، والقِطْمِير[3]، ثم أخبر تعالى أنه ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾، أي: يحيطكم ويكلؤكم[4] بحراسته، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا ﴾ أي: بسرعة سَيْرِهم، فبينما هُمْ كذلك، ﴿ٱللَّهَ ﴾، أي: تلك السفينة ﴿مُخْلِصِينَ عَاصِفٌ ﴾، أي: شديدة، ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾، أي: اغتلم[5] البحر عليهم، ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ ، أي: هلكوا، ﴿ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾، أي: لا يدعون معه صنماً ولا وثناً، بل يفردونه بالدعاء والابتهال، قائلين: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ ﴾، الحال ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾، أي: لا نشرك بك أحداً، ولنفردنَّك بالعبادة أبداً، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ ﴾، أي: من تلك الورطة، ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾، أي: كأنْ لم يكن شيء من ذلك، ثم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾، أي: إنّما يعُودُ وبالُ هذا البغي على أنفسكم، ولا تضرُّون به أحداً غيركم، كما جاء في الحديث عن أبي بَكْرَة[6] مرفوعاً[7] "، ما من ذنبٍ أجدرُ أن

---

(1) أخرجه محمد بن إسماعيل أبو عبدالله الجعفي في كتاب صحيح البخاري، تح: مصطفى ديب البغا، ط: الثانية، دار ابن الكثير اليمامة – بيروت، (1407هـ – 1987م)، كتاب :الاستسقاء، باب: قول الله تعالى ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، (351/1) برقم (991) وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان كفر من قال مُطِرنا بالنَّوء (59/1) برقم (240)؛ كلاهما من حديث زيد بن خالد – رضي الله عنه– مرفوعاً بألفاظٍ متقاربة.

(2) النَّقيرُ : النُّكْتَة في ظهر النواة، تاج العروس من جواهر القاموس – للزبيدي (275/14)، الجذر: " ن ق ر ".

(3) القِطْمِيرُ: الفوقة التي في النواة؛ وهي القشرة الرقيقة، مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، تح: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، (1415هـ – 1995م)، (560)، الجذر: "ق ط م ر ".

(4) يَكْلَؤُكُم : يحفظكم ويحرسكم، ينظر : تاج العروس من جواهر القاموس – للزبيدي (4003/1)، الجذر: " ك ل أ ".

(5) اغْتَلَمَ : هاج واضطربت أمواجه، لسان العرب – لابن منظور (439/12)، الجذر: " غ ل م "

(6) نُفَيع بن الحارث بن كلدة الثقفي، أبو بَكرة: صحابي من الطائف، كان من فضلاء أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وصالحيهم، وكان كثير العبادة، قال عنه الحسن: " لم يسكن البَصْرَة أحدٌ من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم– أفضل من عمران بن حصين وأبي بكره"، توفي بالبصرة سنة (52هـ)، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب– لابن عبدالبر (1530/4)، وأُسْدُ الغابة في معرفة الصحابة– لابن الأثير (41/6)، والأعلام للزركلي (44/8).

(7) المرفوع: هو ما أضيف إلى النبي – صلى الله عليه وسلم– خاصةً، ينظر: التوضيح الأبهر لتذكرة ابن الملقن في علم الأثر لمحمد بن عبدالرحمن بن أبي بكر بن عثمان السخاوي، تح: عبدالله بن محمد عبدالرحيم البخاري، ط: الأولى، مكتبة أصول السلف – السعودية، (1418هـ)، (36)، والتقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح لزين الدين عبدالرحيم بن الحسين العراقي، تح: عبدالرحمن محمد عثمان، ط: الأولى، محمد عبدالمحسين الكتبي، صاحب المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، (1389هـ– 1969م)، (65).

يُعَجِّل الله عقوبتَه في الدنيا مع ما يُدَّخَرُ لصاحبه من البغي وقطيعة الرَّحِمِ"[1]، رواه أبو داود والترمذي[2] وقوله: ﴿ مَّتَـٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾، أي: إنما لكم متاع في الحياة الدنيا الحقيرة، ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ ﴾، أي: مصيركم، ﴿فَنُنَبِّئُكُم ﴾، أي: فنخبركم بجميع أعمالكم ونوفيكم إياها؛ فمن وجد خيراً، فَلْيَحْمَدِ الله، ومن وجد غير ذلك، فلا يلومَنَّ إلا نفسه.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ .

ضرب الله مثلاً لهذه الحياة الدنيا وزينتها وسرعة زوالها وانقضائها بالنّبات الذي أخرجه الله من الأرض بما أنزل من السماء من الماء، ﴿مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ ﴾، من زروع وثمار على اختلاف أنواعها، وأصنافها، وألوانها، وما يأكل الأنعام من أبٍّ[3]، وقضبٍ[4]، وغير ذلك، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا ﴾، أي: زينتها الفانية، ﴿وَٱزَّيَّنَتۡ ﴾ أي: حسنت بما خرج في رُباها[5] من زهرٍ ونضرة مختلفة الأشكال والألوان، ﴿وَظَنَّ أَهۡلُهَآ ﴾ الذين زرعوها وغرسوها، ﴿أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ﴾، أي: على جذاذها[6] وحصادها، فتناها[7]، كذلك إذ جاءتها عاصفة أو ريح باردة فأيبست أوراقها وأتلفت

---

(1) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: الأدب، باب: في النهي عن البغي (427/4) برقم (4904)، ومحمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي في كتابه الجامع الصحيح سنن الترمذي، تح: أحمد محمد شاكر و(آخرون)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه (664/4)، برقم: (2511)؛ كلاهما من حديث أبي بكره – رضي الله عنه– مرفوعاً، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح .

(2) محمد بن عيسى بن سورة بن موسى السلمي البوغي الترمذي، أبو عيسى، محدث حافظ مؤرخ فقيه، ولد سنة (209هـ)، كان آية في الحفظ والإتقان، ارتحل إلى خراسان والعراق والحجاز، من مؤلفاته: (الجامع الصغير)، و(الشمائل النبوية)، و(العلل في الحديث)، أصابه العمى في آخر عمره، توفي بترمذ سنة (279هـ)، ينظر: ميزان الاعتدال في نقد الرجال لشمس الدين (أبو عبدالله) محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، تح: علي البجاوي وابنته، (678/3)، والأعلام– للزركلي (322/6)، ومعجم المؤلفين– لعمر كحالة (104/11).

(3) الأبُّ: ما أكلت الأنعام، وقيل: الفاكهة: ما أكله الناس، والأبُّ: ما أكلتِ الأنعام، وقيل: المرعى المتهيئُ للرعي والقطع . ينظر: لسان العرب – لابن منظور (204/1)، الجذر : " أ ب ب " .

(4) القَضْبُ : القَتُّ، وقيل: كل شجرة طالت وبُسِطَتْ، وقيل: الرَّطْبَة، وقيل: شجر تتخذ منه القِسِيّ، ينظر : لسان العرب – لابن منظور (672/1)، الجذر : " ق ض ب " .

(5) الرُّبْوَةُ : ما ارتفع من الأرض، مختار الصحاح – للرازي (267)، الجذر : " ر ب ا " .

(6) الجِذَاذُ : القطع، أي: على قطعها. ينظر: لسان العرب – لابن منظور (479/3)، الجذر : " ج ذ ذ " .

(7) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم –لابن كثير (260/4) " فبينا هم " .

ثمارها، ولهذا قال تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا﴾، أي: يبساً بعد تلك الخضرة والنضارة، ﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾، أي: كأنها ما كانت حسناء قبل ذلك، ولم تنعم، وهكذا الأمور بعد زوالها، كأن لم تكن، ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾، أي: نبيّن الحجج والأدلّة ﴿لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾، يعتبرون بهذا المَثَل في زوال الدنيا عن أهلها سريعاً مع اغرارهم بها(1)، وتمسكهم بمواعيدها، وتفلُّتِهَا منهم، فإن مِنْ طبعها الهَرَبَ مِمّنْ طلبها، والطلب لِمَنْ هَرَبَ مِنْها، وقد ضرب تعالى مَثَلَ الحياة الدنيا بنبات الأرض وفي(2) غير آية من كتابه، كما في سورة الكهف، والزمر، والحديد، على ما يجيء بيانه، إن شاء الله، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾: لما ذكر الدنيا وسرعة عطبها وزوالها، رغّبَ في الجنة، ودعا إليها، وسمّاها دار السلام، أي: من الآفات والنقائص والنكبات، عن ربيعة الجُرُشِي(3) قال: " أُتِيَ نبيُّ الله – صلى الله عليه وسلم– فقيل: لِتَنَمْ عينُك، ولتَسْمَعُ أذنك، وليعقل قلبك، قال: فنامت عيني، وسمعت أذناي، وعقل قلبي، قال: فقيل لي: سَيّد بَنَى داراً، فصنع مأدُبةً، وأرسل داعياً؛ فَمَنْ أجاب الداعي، دخل الدار، وأكل من المأدبة، ورضي عنه السَّيّد، ومن لم يجب الداعِيَ، لم يدخل الدار، ولم يأكل من المَأْدُبَة، وسخط عليه السَّيّد، قال: فالله السيِّد ومحمد الداعي، والدار الإسلام، والمأدبة الجنة" (4)، رواه الدارمي(5)، وفي

(1) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (260/4) " اغترارهم بها " وهو الصحيح .

(2) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (259/4) " في " بغير عطف وهو الصحيح.

(3) ربيعة الجرشي: هو ابن عمرو، وقيل بن الغاز، قال ابن عساكر: الأول أصح، يُكنّى أبا الغاز، قال عنه الدارقطني: في صحبته نظر، وقال العسكري: أُخْتُلِفَ في صحبته، كان ثقة، وكان يفقه الناسَ في زمن معاوية – رضي الله عنه–، توفي بمرج راهط سنة (64هـ). ينظر: الطبقات الكبرى– لابن سعد (438/7)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب– لابن عبدالبر (493/2)، وأُسْد الغابة في معرفة الصحابة– لابن الأثير (256/2).

(4) أخرجه البخاري في صيحه، كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– (2655/6) برقم: (6852)، عن جابر – رضي الله عنه– يرفعه بنحوه، وأخرجه عبدالله بن عبدالرحمن (أبو محمد) الدارمي في سننه، تح: فواز أحمد زمرلي، وخالد السبع العلمي، ط: الأولى، دار الكتاب العربي – بيروت، (1407هـ)، باب: صفة النبي – صلى الله عليه وسلم في الكتب قبل مبعثه (18/1) برقم: (11)، بسنده عن ربيعة الجرشي يرفعه، واللفظ له، وحكم عليه حسين سليم أسد[محقق الكتاب] بضعف إسناده ؛ لضعف أحد رواته، وهو عباد بن منصور.

(5) عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام التميمي الدارمي السمرقندي، أبومحمد الحافظ الثقة، ولد سنة: (181هـ)، سمع بالحجاز والشام ومصر والعراق وخراسان من خلقٍ كثيرٍ، قال عنه الخطيب: " كان على غاية العقل، وفي نهاية الفضل، يُضرب به المثل في الديانة والحلم والاجتهاد والعبادة والتقلل"، من مؤلفاته: (سنن الدارمي)، و(المسند)، توفي سنة: (255هـ)، ينظر: تذكرة الحفاظ – للذهبي (90/2)، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب – لابن العماد العكري (129/2)، والأعلام – للزركلي (95/4) .

البخاري[1] نحوه عن جابر.

وقوله: ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾: هو الإسلام، وقد عمَّ بالدعوة؛ إظهاراً للحجّة، وخُصّ بالهداية؛ استغناء عن الخلق.

﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أخبر تعالى أن لِمَن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح الحسنى في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾[2].

وقوله: ﴿وَزِيَادَةٞ﴾: يشمل تضعيف ثواب الأعمال؛ فالحسنة عشرُ أمثالها إلى سبعمائة ضعفٍ، وزيادة على ذلك أيضاً، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والخيور[3]، والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعينٍ، وأفضل ذلك وأعلاهُ النظر إلى وجه الله الكريم؛ فإنه زيادة أعظم من جميع ما أُعْطُوه، لا يستحقونها بعملهم، بل بفضله ورحمته، وقد روي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم عن أبي بكر الصديق وجماعة من الصحابة والتابعين[4] – رضي الله عنهم–، وعن صهيب[5] – رضي الله عنه–: أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– تلا هذه الآية ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾، وقال: "إذا دخلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ، وأهلُ النارِ النارَ، نادى مُنادٍ: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً، يريد أن يُنْجِزَكُمُوهُ، فيقولون: وما هو؟ ألم يثقلْ موازيننا، ويبيضْ وجوهنا، ويدخلْنا الجنة، ويزحزحْنا من النار؟ قال: فيُكْشَفُ لهم الحجاب، فينظرون إليه، فوالله، ما أعطاهم الله شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إليه، ولا أقرَّ

---

(1) محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله محدث فقيه مؤرخ حافظ، ولد سنة (194هـ)، نشأ يتيماً، وطوَّف كثيراً من البلدان، يقول البخاري عن نفسه: ما وضعتُ في كتاب الصحيح حديثاً إلا اغتسلتُ قبل ذلك، وصليتُ ركعتين، من مؤلفاته (الجامع الصحيح)، و(التاريخ)، و(خلق أفعال العباد)، توفي بخرتنك (من قرى سمرقند)، سنة: (256هـ). ينظر: صفة الصفوة– لابن الجوزي (168/4)، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب– لابن العماد العكري (133/2)، والأعلام– للزركلي (34/6)، ومعجم المؤلفين– لعمر كحالة (52/9).

(2) سورة الرحمن، الآية (60).

(3) (والخيور) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (262/4): (والحور) وهو الصحيح .

(4) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (63/15)

(5) صهيب بن سنان بن مالك بن عبدو، عمرو بن عقيل بن عامرٍ بن جندلة الربعيّ النمريّ، أبو يحيى، ولد سنة (32ق.هـ)، كان أول السابقين إلى الإسلام، شهد بدراً، والمشاهد التي بعدها، وهو الذي اشترى نفسه بالمال مقابل أن يلحق بالرسول – صلى الله عليه وسلم–، فسمع به الرسول – صلى الله عليه وسلم– فقال: "ربح صهيبٌ، ربح صهيبٌ"، أوصى له عمر – رضي الله عنه– بالصلاة لجماعة المسلمين، حتى يتفق أهل الشورى، توفي بالمدينة سنة (38هـ)، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب– لابن عبدالبر (726/2)، وأُسْد الغابة في معرفة الصحابة– لابن الأثير (38/3)، والإصابة في تمييز الصحابة– لابن حجر العسقلاني (449/3).

لأعينهم".[1] رواه مسلم وأحمد[2].

وقوله: ﴿وَلَا يَرۡهَقُ﴾، أي: ولا يغشى وجوههم ﴿قَتَرٌ﴾، أي: غُبارٌ جمع قترةٍ، وسواد في عرصات المحشر، كما يعتري وجوه الكفّار والفجرة من القُتْرةِ[3] والغُبْرَةِ، ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾، أي: هوَانٌ وصَغَارٌ، ولا يحصل لهم إهانة في الباطن ولا في الظاهر، بل هم كما قال تعالى في حقهم: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا﴾[4]، أي: نضرة في وجُوههم، وسروراً في قلوبهم، جعلنا الله منهم بفضله وكرمه.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

أخبر الله تعالى عن حال السعداء الذين يضاعف لهم الحسنات، عطف بذكر حال الأشقياء، فذكر عدْلَهُ تعالى فيهم، وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها، لا يزيدهم على ذلك، ﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ﴾، أي: تعتريهم وتَعْلُوهُمْ، ﴿ذِلَّةٞۖ﴾ من معاصيهم وخوفهم منها، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾[5] الآية.

وقوله: ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ﴾ أي: من مانعٍ، ولا واقٍ يقيهم العذاب، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ﴾[6] الآية .

---

(1) أخرجه أحمد أحمد بن حنبل في مسنده، تح: شعيب الأرنؤوط و(آخرون)، ط: الثانية، مؤسسة الرسالة، (1420هـ – 1999م)، (270/31) برقم (18941)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة (112/1) برقم (467)؛ كلاهما من حديث صهيبٍ – رضي الله عنه– مرفوعاً، واللفظ لأحمد.

(2) أحمد محمد بن حنبل الشيباني الوائلي، أبوعبدالله، إمام المذهب الحنبلي، وأحد الأئمة الأربعة، ولد سنة (164هـ)، نشأ مُنكبّاً على العلم، وسافر في سبيله بلداناً كثيرة، قال عنه إبراهيم الحربي: رأيتُ أحمد بن حنبل كأن الله جَمَعَ له علمَ الأولين والآخرين من كل صنف، يقول ما شاء، ويمسك ما شاء، وقال عنه قتيبة بن سعيد: لو أدرك أحمد بن حنبل عصر الشورى، ومالكاً، والأوزاعي، والليث بن سعد، لكان هو المقدم، من مؤلفاته: (المسند)، و(الناسخ والمنسوخ)، و(الرد على الزنادقة فيما ادعت به من متشابه القرآن)، وفي أيام أحمد بن حنبل دعاه المأمون إلى القول بخلق القرآن فلم يفعل فسجنه المعتصم ثمانية وعشرين شهراً، توفي سنة (241هـ)، ينظر: طبقات الفقهاء لأبي إسحاق الشيرازي، تح: إحسان عباس، ط: الأولى، دار الرائد العربي، بيروت – لبنان (1970م)، (91/1)، وصفة الصفوة – لابن الجوزي (336/2)، والأعلام – للزركلي (203/1) .

(3) القَتَرَةُ: غُبرةٌ يعلوها سواد كالدخان، تاج العروس من جواهر القاموس – للزبيدي، (361/13)، الجذر: " ق ت ر ".

(4) سورة الإنسان، الآية (11).

(5) سورة الشورى، الآية (45).

(6) سورة القيامة، الآية (10).

وقوله: ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ﴾: هذا إخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ﴾[1]، الآيــة، أي: كأنما أُلْبِسَتْ وجوههــم ﴿قِطَعٗا﴾، جمع قطعةٍ، ﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِ نَقُولُ لِلَّذِينَ﴾، هو نصبٌ على الحال من الليل دون النعت، ولذلك لم يقل مُظلمةً، أي: قطعاً من الليل المُظْلِم، وقُرِئ بسكون الطاء، أي: بعضاً[2].

﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ .

أي: يوم يُحْشَرُ أهل الأرض كلهم من جنٍ وإنسٍ وبرٍ وفاجرٍ، ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ﴾، أي: الْزمُوا أنتم وهم مكاناً مُعَيَّناً، امتازوا فيه عن مقام المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾[3]، وهذا يكون إذا جاء الربُّ تعالى لفصل القضاء، وقال تعالى إخباراً عمَّا يأمُرُ به المشركين وأوثانهم يوم القيامة: ﴿مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا﴾ أي فرَّقنا بينهم، أي من المشركين، وشركائهم، وقطعنا ما كان بينهم من التواصل في الدنيا، ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ﴾، أنكروا عبادتهم وتبرَّؤُوا منهم، وقال تعالى إخباراً عن قول الشركاء فِيما رجعوا به عابديهم عند ادِّعائهم عبادَتَهم: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾، أي: ما كنا نشْعُرُ بها ولا نعلم، وإنما أنتم كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم، والله شهيد بيننا وبينكم، إنّا ما دعوناكم إلى عبادتنا، ولا أمرناكم بها، ولا رضينا منكم بذلك، وهذا تبكيتٌ[4] عظيم بالمشركين، الذين عبدوا مع الله غيرَهُ، ممن لا يسمع، ولا يبصر، ولا يغني عنهم شيئاً، وقد تركوا عبادة الحي القيوم، السميع البصير، القادر على كل شيءٍ، العليم بكل

---

(1) سورة آل عمران، الآية (106).

(2) قرأ ابن كثير والكسائي: (قِطْعاً مِّنَ اللَّيْلِ) بإسكان الطاء، والباقون بفتحها. ينظر: السبعة في القراءات لأبي بكر أحمد بن موسى العباس بن مجاهد التميمي البغدادي، تح: د. شوقي ضيف، ط: الثانية، دار المعارف – القاهرة (1400هـ)، (325)، وتحبير التيسير في القراءات العشر– لابن الجزري (398).

(3) سورة يس، الآية (59).

(4) التَّبْكِيتُ: التقريع والتعنيف. تاج العروس من جواهر القاموس – للزبيدي (447/4)، الجذر: " ب ك ت ".

شيءٍ، وقد أرسل رسله، وأنزل كتبه، آمراً بعبادته وحده لا شريك له، ناهياً عن عبادة ما سِواهُ، كما نطق بذلك الآيات البينات .

وقوله: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ﴾، أي: في موقف الحساب يوم القيامة، تُخْتَبَر كل نفس، ويعلم ما أسلفت من عملها من خير وشرٍّ، كما قال: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾[1]، وقرأ الكسائي ويعقوب:﴿تَتْلُوا﴾ بتاءين[2]، أي: تقرأ كل نفس صحيفتها، وقيل: معناه تتبع كل نفسٍ ما قدمت من خير أو شر، كما في الحديث الصحيح: "لتَتَّبَعْ كل أمةٍ ما كانت تعبد؛ فيتبع مَن كان يعبد الشمسَ الشمسَ، ويتّبع من كان يعبد القمرَ القمرَ، ويتبع من كان يعبد الطواغيتَ الطواغيتَ" [3]، الحديث...

وقوله: ﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ أي: ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل؛ ففصّلها، وأدخل أهل الجنةِ الجنةَ، وأهلَ النارِ النارَ.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي: ذهب عن المشركين ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي: ما كانوا يعبدون من دون الله؛ افتراءً عَلَيْهِ.

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

احتجَّ تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانية ربوبيته على وحدانية إِلٰهيَّته، فقال: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾، أي: مَن الذي يُنْزِل من السماء ماءً، ويشقُّ الأرض شقاً،

---

(1) سورة الطارق، الآية (9).

(2) قرأ حمزة والكسائي وخلف وروح عن يعقوب: ﴿هُنَالِكَ تَتْلُوا﴾ بالتاء، وقرأ الباقون: ﴿تَبْلُو﴾ بالباء. ينظر: المبسوط في القراءات العشر لأحمد بن الحسين بن مهران النيسابوري أبو بكر، تح: سبيع حمزة حاكيمي، مجمع اللغة العربية – دمشق، (233)، وجامع البيان في القراءات السبع لعثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمر الداني، ط: الأولى، جامعة الشارقة – الإمارات (1428هـ – 2007م)، (1176/3).

(3) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(2704/6) برقم (7000)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: معرفة طريق الرؤية (112/1) برقم (469)؛ كلاهما من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه– مرفوعاً.

بقدرته ومشيئته، فيخرج منها حباً، وعنباً، وقضباً، وزيتوناً، ونخلاً، وحدائق غلباً، وفاكهةً وأبًّا؟ أإله مع الله؟! فسيقولون الله، وكذا قل: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ أي: من الذي وهبكم هذه القوة السامعة والباصرة، ولو شاء، لذهب بها، وسلبكم إيَّاها، وكذا قل: ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ أي: بقدرته العظيمة ومنّته العميمة.

﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾، أي: من بيده ملكوت كل شيءٍ، وهو يجير ولا يُجار عليه، وهو المتصرف الحاكم، لا معقب لحكمه، ولا يُسأل عما يفعل، وهم يُسألون، ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾، أي: هم يعلمون ذلك، ويعترفون به، ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، أي: أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غَيْرَهُ بآرائكم وجهلكم؟! .

وقوله: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ﴾، أي: فهذا الذي اعترفتم بِمّنهِ فاعلُ ذلك كله، هو ربكم وإلهكم الحق، الذي يستحق أن يُفرد بالعبادة، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ﴾، أي: فكل معبود سواه باطل؛ لأن الإله واحد لا شريك له، ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾، أي: فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه، وأنتم تعلمون أنه الربُّ الذي خلق كل شيء؟!

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، أي: كما كفر هؤلاء المشركون، واستمروا على شركهم، وعبادتهم مع الله غيرَه، مع أنهم يعترفون بالله الخالق الرازق، الذي بعث رسله بتوحيدِه، فكذا حقت (أي: وجبتْ) عليهم كلمة ربك، أي: حُكمه السابق، أنهم أشقياءُ، من ساكني النار، بكفرهم وعنادهم.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

هذا إبطالٌ لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره، أي قل يا محمد: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ أي من بدأ خلق السمـٰوات والأرض، ثم يُفني ما فيهما من الخلائق، ويُفرّقُ أجرامها ويبدلُها، ثم يعيد الخلائق خلقاً جديداً؟ ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، هو الذي يفعل هذا، ويستقل به وحده لا شريك له، ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾، أي: فكيف تُصرفون عن

طريق الرشد إلى الباطل؟!، ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ﴾، أي: أنتم تعلمون أن شركاءكم لا يقدرون على هداية ضالٍّ، وإنما يهدي الحيارى والضُّلاَّل، ويُقَلِّبُ القلوب من العمى إلى البصيرة، الله الذي لا إله إلا هو؛ ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ ﴾، أي: أفَنَتَّبِعُ ونعبد الذي يهدي إلى الحق، ويُبَصِّرُ بعد العمى، أم الذي لا يهدي إلى شيءٍ، إلا أن يُهْدَى لِعَمَاهُ وبَكَمِهِ، كما قال تعالى إخباراً عن إبراهيم أنه قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴾(1).

وقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾، أي: فما بالكُمْ؟ وأين تذهب عقولكم؟ وكيف سَوَّيْتُم بين الله وخلقه؟! وهلاَّ أفردتم الربَّ – تعالى- بالعبادة وحده، وأخلصْتُمْ الدعوة والإنابة، ثم بيَّنَ تعالى أنهم لا يتبعُون في دينهم هذا دليلاً ولا برهاناً، وإنما هو ظن منهم، أي: توهُّمٌ وتَخَيُّلٌ، وذلك لا يغني عنهم شيئاً، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾: تهديدٌ لهم ووعيدٌ شديدٌ؛ لأنه تعالى يخبرُ أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء.

﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾.

هذا بيان لإعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، ولا بعشر سورٍ، ولا بسورة من مثله؛ لأنه لفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته، واشتماله على المعاني الغزيرة النافعة في الدنيا والآخرة، لا يكون إلا من عند الله، الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله وأقواله، فكلامه لا يُشْبِهُ كلام المخلوقين، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، أي: مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله، ولا يشبهُ كلام البشر، ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾، أي: من الكتب المتقدمة ومهيمناً عليه، ومبيناً لما وقع فيها من التحريف والتأويل.

(1) سورة مريم، الآية (42).

وقوله: ﴿وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي وبيان الأحكام والحلال والحرام بياناً شافياً كافياً، حقًّا لا مِرْيَةَ فيه؛ ﴿مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

وقوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ أي إن ادعيتم وافتريتم وشككتم في أن هذا من عند الله، وقلتم كذباً ومَيناً، أن هذا من عند محمدٍ، فمحمدٌ بشر مثلكم، وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن ﴿فَأۡتُواْ﴾ أنتم ﴿بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ﴾، أي: من جنس القرآن، واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه مَنْ إنس وجانٍ، وهذا هو المقام الثالث في التحدي؛ فإنه تعالى تحدَّاهم، ودعَاهُمْ، إن كانوا صادقين في دعواهم أنه من عند محمدٍ، فليعارضُوهُ بنظير ما جاء به وحده، وليستعينوا بمن شاؤوا، وأخبر أنهم لا يقدرون على ذلك، ولا سبيل لهم إليه، فقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ﴾[1]، الآية، ثم تقاصر معهم إلى عشر سّوَرٍ منه، فقال في سورة هود: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ﴾[2]، الآية، ثم تنازل إلى سورة، فقال في هذه السورة: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ﴾ وكذا في سورة البقرة، وهي مَدَنِيّةٌ، تحداهم بسورة منه، وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبداً، فقال: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾[3]، الآية، هذا وقد كانت الفصاحة والبلاغة من سجاياهم، إليها المنتهى في هذا الباب، ولكن جاءهم من الله ما لا قِبَلَ لأحد به، ولهذا آمن مَنْ آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام وحلاوته وبراعته وإفادته وجزالته، وكانوا أعلم الناس به، وأفهمهم له، وأشدهم له انقياداً، كما عَرف السَّحَرَةُ بعلمهم بفنون السحر أن هذا الذي فعله موسى لا يصدر إلا عن مُؤيَّدٍ مُسدَّدٍ مُرسلٍ من الله، وأن هذا لا يُستطاع لبشر إلا بإذن الله، وكذلك عيسى بُعِثَ في زمان علماء الطب ومعالجة المرضى، فكان يبرئ الأكمه والأبرص، ويُحيي الموتى، بإذن الله، ومِثْلُ هذا لا مَدخل للعلاج والدواء فيه؛ فعرف من عرف منهم أنه عبد الله ورسوله، ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: " ما من نبيٍّ من الأنبياء إلا وقد أوتيَ من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه

(1) سورة الإسراء، من الآية (88).

(2) سورة هود، من الآية (13).

(3) سورة البقرة، من الآية (24).

الله إليَّ، وأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً"[1].

وقوله: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ﴾، أي: بل كذَّبَ هؤلاء بالقرآن، ولم يفهموه، ولا عرفوه، ﴿وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ﴾، أي: ولم يُحَصِّلوا ما فيه من الهدى، ودين الحق، أي: حين تكذيبهم به جهلاً وسفهاً.

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، أي: من الأمم السالفة، ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ممن أهلكناهم، بتكذيبهم رُسلَنا ظلماً وعتواً وكفراً، فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم.

وقوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾، أي: ومن هؤلاء الذين بُعِثْتَ إليهم يا محمد مَنْ سيؤمن بهذا القرآن ويتبعك، ﴿وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ﴾، بل يموت على الكفر، ويُبْعَثُ عليه، ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، أي: هو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ومن يستحق الضلالَة فَيُضِلَّه، وهو العادل الذي لا يجور، بل يعطي كلاًّ ماً يستحقه تبارك وتعالى.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.

أي: وإن كذَّبك هؤلاء المشركون، فتبرأ منهم ومن عملهم، ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي﴾ كقوله: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾[2]، وقال إبراهيم وأتباعهم[3] لقومهم المشركين: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[4]، الآية.

وقوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ﴾، أي: يستمعون كلامك الحسن والقرآن العظيم،

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: قول الرسول– صلى الله عليه وسلم– " بُعِثْتُ بجوامع الكلم" (2654/6) برقم (6846)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد –صلى الله عليه وسلم – (134/1) برقم (239)؛ كلاهما من حديث أبي هريرة – رضى الله عنه – مرفوعاً بألفاظ متقاربة.

(2) سورة الكافرون الآية (6) .

(3) (وأتباعهم) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن الكريم – لابن كثير (27/4) (وأتباعه) وهوالصحيح .

(4) سورة الممتحنة، من الآية (4) .

وفي ذلك كفاية عظيمة، ولكن ليس ذلك عليك، ولا إليهم، فإنك لا تقدر على إسماع الأصم، وهو: الأطرش، فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء، إلا أن يشاء الله؛ أي: ينظرون إليك، وإلى ما أعطاك الله من التُّؤَدَةِ، والسَّمْتِ الحسن، والخُلُق العظيم، والدلالة الظاهرة على نبوءتك لأولي البصائر والنُهى، وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم، ولا يحصل لهم من الهداية شيء مما يحصل لغيرهم، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار، والكافرون ينظرون إليك بعين الاحتقار، ثم أخبر تعالى أنه لا يظلم أحداً شيئاً، وإن كان قد هدَى به من هدَى، وبصَّر به من عَمِي، وأضَلَّ عن الإيمان آخرين، فهو الحاكم المتصرف في حكمه ما يشاء بعلمه وحكمته، ولهذا قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـًٔا ﴾؛ لأنه في جميع أفعاله متفضلٌ، أو عادلٌ، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ بالكفر والمعصية وعن أبي ذر (1) – رضي الله عنه – عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيما يروي عن ربه تعالى: " يا عبادي إني حرَّمتُ الظلمَ على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا "، إلى أن قال في آخره: " يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم؛ فَمَنْ وَجَدَ خيراً فليحمد الله، ومن وَجَدَ غير ذلك، فلا يَلُومَنَّ إلا نفسه"، رواه مسلم بطوله(2).

﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا شَهِيدٌ عَلَىٰ ﴾.

يذكر الله للناس قيام الساعة، وحشرهم من أجداثهم إلى عرصات القيامة، وكأنهم يوم يوافونها﴿لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ﴾ في الدنيا﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾(3)، وغيرها من الآيات.

وقوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾، أي: تعرف الآباءُ الأبناءَ، والقرابات بعضهم ببعض،

---

(1) جُندب بن جنادة بن سفيان، أبو ذَرٍّ الغفاري، أحد زُهاد الصحابة، أسلم قديماً، وهو أول من أجابَ النبي – صلى الله عليه وسلم–، قال فيه الرسول – صلى الله عليه وسلم –: " أبو ذَرّ في أمتي على زُهْد عيسى بن مريم"، توفي بالربذة سنة (32هـ). ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب – لابن عبدالبر (252/1)، وأُسْد الغابة في معرفة الصحابة – لابن الأثير (440/1)، والإصابة في تمييز الصحابة – لابن حجر العسقلاني (125/7).

(2) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم (1994/4) برقم (5577)، عن أبي هريرة – رضي الله عنه– مرفوعاً بنحوه .

(3) سورة النازعات، الآية (46).

كما كانوا في الدنيا، ولكن كل واحدٍ مشغول بنفسه.

وقوله: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا شَهِيدٌ عَلَىٰ ﴾ كقوله: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾[1]؛ لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين.

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾.

أي: ننتقم منهم في حياتك يا محمد؛ لتقرَّ عينك منهم، ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ أي مصيرهم ومتقلَّبهم، والله شهيد على أفعالهم بعدك.

وقوله: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ ﴾، قال مجاهد: (يعني يوم القيامة)[2]، ﴿ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾، إلى قوله: ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[3]، فكل أمة تُعرَضُ على الله بحضرة رسولها، وكتَابُ أعمالها من خيرٍ وشرٍّ موضوع شاهد عليهم، وحفظتهم من الملائكة شهودٌ أيضاً، أُمَّةً بعد أُمَّةٍ، وهذه الأمة الهادية[4]، وإن كانت آخر الأمم في الخَلْقِ إلا أنها أول الأمم يوم القيامة يُفصل بينهم ويُقضى لهم، كما جاء في الصحيحين عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: " نحن الآخِرُون السابقون يوم القيامة المَقْضِيُّ لهم قبل الخلائق" [5]، فأمته إنما حازتْ قَصَبَ السَّبْقِ، لشرف رسولها – صلى الله عليه وسلم–.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾.

---

(1) سورة المرسلات، الآية (15) .

(2) ينظر جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (99/15) .

(3) سورة الزمر، من الآية (70) .

(4) (الهادية) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (272/4) (الشريفة)، وهو الصحيح.

(5) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الجمعة، باب: هداية هذه الأمة ليوم الجمعة، (7/3) برقم (2019)، عن رِبْعِيّ بن حِرَاشٍ وحُذَيْفَةَ – رضي الله عنهما – بألفاظ متقاربة .

أخبر تعالى عن كفر هؤلاء المشركين في استعجالهم العذابَ، وسؤالهم عن وقته على التعيُّنِ، مما لا فائدة لهم فيه، فأرشد رسولَه إلى جوابهم، فقال: ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ ﴾، أي: لا أقول إلا ما علمني، ولا أقدر على شيء مما استأثر به، إلا أن يُطلعني عليه، فأنا عبده ورسوله إليكم، وقد أخبرتكم بمجيء الساعة، وأنها كائنة لا محالة، ولم يُطْلِعْني على وقتها، ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ ﴾، أي: لكل قرنٍ مدة من العمر، فإذا انقضى أجلُهم، ﴿ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾.

ثم أخبرهم أن عذاب الله سيأتيهم بغتةً، فقال: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا ﴾، أي: ليلاً، ﴿ أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ ﴾، يعني: أنهم إذا جاء العذاب، قالوا: ﴿ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾[1]، وقوله: ﴿ أَثُمَّ ﴾، ليس بحرف عطف، بل معناه: أهنالك، وحينئذ: ﴿ إِذَا مَا وَقَعَ ﴾، أي: نزل العذاب، آمنتم بالله وقتَ اليأس، وقيل: أي: صدَّقتم بالعذاب وقت نزوله، ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ ﴾، أي: يقال لكم: الآن تؤمنون، ﴿ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴾ تكذيباً واستهزاءً، وقوله: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ ﴾، أي: يوم القيامة، يقال هذا تبكيتاً وتقريعاً.

﴿ وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾.

أي ويستخبرونك ﴿ أَحَقٌّ هُوَۖ ﴾، أي: المَعَاد، والقيام من الأجداث بعد صيرورة الأجساد تراباً، ﴿ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ ﴾، أي: نَعَمْ، وربي، قسماً إنه لحق لا شك فيه، ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴾، أي: ليس صيرورتكم تراباً بِمُعْجِزٍ اللهَ عن إعادتكم كما بدأكم من العدم، ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[2] .

ثم أخبر – تعالى– أنه إذا قامت القيامة، يود الكافر لو افتدى من عذاب الله بملء الأرض ذهباً، ﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ ﴾ لأنه ليس ذلك اليوم يَوْمَ تَصَبُّر وتصنُّع،

---

(1) سورة السجدة، من الآية (12) .

(2) سورة يس، الآية (82) .

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾، أي: فُرغَ من عذابهم بالحق، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فيما استحقوه .

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

أخبر – تعالى – أنه مالك السمٰوٰت والأرض، وأن وعده حقٌّ، كائنٌ لا محالة، وأنه حي قيوم، يحي ويميت، وإليه مرجعهم، والله القادرُ على ذلك، العليمُ بما تفرَّق من الأجسام، وتمزَّق في سائر الأقطار والبحار.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ .

قال الله مُمتناً على خلقه بما أنزله من القرآن العظيم على رسوله الكريم﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، أي: زاجر من الفواحش، ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾، أي: من الشُّبَهِ والشُّكوكِ، وهو إزالة ما فيها من رجس وفسق ودنس، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾، أي: فحصل[1] لها الهداية والرحمة من الله، وإنما ذلك للمؤمنين به، والمصدقين، والموقنين بما فيه، كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[2].

وقوله:﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾، أي: بهذا الذي جاء من الهدى ودين الحق ﴿فَلْيَفْرَحُوا﴾ فإنه أولى ما يفرحون به، ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، أي: من حُطام الدنيا، وما فيها من الزَّهرة الفانية لا محالة.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

---

(1) (فحصل) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (274/4) (مُحَصِّلٌ)؛ وهو الصحيح .

(2) سورة الإسراء، الآية (82) .

قال ابن عباس وأتباعه: "نزلت هذه الآية؛ إنكارا على المشركين فيما كانوا يُحَرِّمُونَهُ ويُحِلُّونهُ من السوائب[1] والبحائر[2]، والوصائل[3]" [4]؛ لقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا ﴾[5]، الآيات، ﴿ قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ ﴾ في هذا التحريم و التحليل، ﴿ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ﴾، وهو قولهم: ﴿ وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ ﴾[6] فقد أنكر تعالى على من حرَّم ما أحلَّ، وأحلَّ ما حرَّم، بمجرد الآراء والأهواء، التي لا مستند لها ولا دليل عليها، ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة، فقال: ﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ ﴾، أي: ما ظنهم أن نصنع بهم يوم مرجعهم إلينا، يوم القيامة.

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾، أي: في تَرْكِهِ مُعاجَلَتَهُمْ بالعقوبة في الدنيا، ويحتمل أن يكون المُراد: فيما أباح لهم مما خلقه من النافع في الدنيا، ولم يُحرِّم عليهم إلا ما هو ضارٌّ لهم في دنياهم أو دينهم، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾، بل يُحَرِّمون ما أنعم الله به عليهم، ويُضَيِّقون على أنفسهم، فيجعلون بعضاً حلالاً، وبعضاً حراماً، وهذا قد وقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم، وأهل الكتاب فيما ابتدعوه في دينهم .

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴾.

أخبر تعالى نبيَّه – عليه الصلاة والسلام– بأنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته وجميع الخلائق، في كل ساعةٍ ولحظةٍ، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها، في السمـٰوٰت ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر، إلا في

(1) (السَّائِبَةُ): البعير يُدرك نتاجِهِ فَيُسَيِّبُ ولا يركب ولا يُحمل عليه، ينظر: لسان العرب – لابن منظور (477/1)، الجذر: " س ي ب"

(2) (البَحِيرَةُ): هي التي خُليّت بلا راعٍ، أو هي التي نُتِجتْ خمس أبطُنٍ، والخامسُ ذكرٌ، نحروه، فأكله الرجال والنساء، ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس – للزبيدي (114/10)، الجذر: " ب ح ر ".

(3) (الوَصِيلةُ): الناقة التي وصلت بين عشرة أبطنٍ، وهي من الشاة التي ولدت سبع أبطنٍ، عناقين عناقين، فإن ولدت في السابع عَناقاً، قيل: وصلت أخاها، ينظر: لسان العرب – لابن منظور (726/11)، الجذر: " و ص ل " .

(4) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (112/15) .

(5) سورة الأنعام، من الآية (136) .

(6) سورة الأعراف، من الآية (28) .

كتاب مبين، كقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[1]، وغيرها من الآيات، فإذا كان هذا، علمه بحركات هذه الأشياء، فكيف بعلمه بحركات المُكلَّفين المأمورين بالعبادة؟! .

وقوله: ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾، أي: تدخلون وتخوضون في ذلك العمل، فإنا مشاهدون لكم، ﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾، أي: وما يغيب، والكتاب المبين: هو اللوح المحفوظ، وفي حديث جبريل: لما سأل عن الإحسان، قال – عليه الصلاة والسلام–: " أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك " [2] .

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ .

أخبر تعالى أن أولياءَه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، كما فسَّرهُم بهم[3]، فكل من كان لله تقياً، كان لله ولياً، أنه﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، أي: فيما تستقبلون من أهوال القيامة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، على ما وراءهم في الدنيا، قال ابن مسعود[4] وغيرُ واحدٍ: "أولياء الله: الذين إذا رُؤُوا ذُكر الله"[5]، وقد جاء هذا مرفوعاً عن أبي هريرة[6]، قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم– " إن من عباد الله عباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء، قيل:

---

(1) سورة الأنعام، من الآية (59) .

(2) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي – صلى الله عليه وسلم– عن الإيمان والإسلام (27/1) برقم (50)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: الإيمان ما هو، وبيان خصاله (30/1) برقم (106)؛ كلاهما من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه– مرفوعاً .

(3) (بهم) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (ربهم)؛ وهو الصحيح .

(4) عبدالله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، أبو عبدالرحمن، مِن أكابر الصحابة فضلاً وعقلاً وقرباً من رسول الله– صلى الله عليه وسلم– ، وأحد السابقين إلى الإسلام، وهو أول من جهر بالقرآن في مكة، شهد بدراً، والمشاهد بعدها، نظرَ الصحابةُ إلى ساقيه، فضحكوا من حموشة ساقيه، فقال لهم الرسول – صلى الله عليه وسلم– " لَهُمَا أثقل في الميزان من جبل أحد"، توفي بالمدنية سنة (32هـ)، ينظر: الطبقات الكبرى– لابن سعد (150/3)، وأُسْد الغابة في معرفة الصحابة – لابن الأثير (394/3)، والأعلام – للزركلي (137/4).

(5) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (119/15).

(6) عبدالرحمن بن صخر الدوسي، أبو هريرة، ولد سنة (21 ق هـ)، أسلم عام الخيبر، وشهدها مع الرسول – صلى الله عليه وسلم –، كان من أكثر الصحابة رواية للحديث، يقول أبو هريرة: كان اسمي في الجاهلية عبد شمس، فسمّاني الرسول –صلى الله عليه وسلم – عبدالرحمن، وإنما كُنيت بأبي هريرة؛ لأني وجدتُ هرَّةً، فحملتها في كُمِّي؛ فقيل لي: أنت أبو هريرة، قال له النبي – صلى الله عليه وسلم –: " من يبسط ثوبه، فلن ينسى شيئاً سمعه مني "، فبسطتُ ثوبي، حتى قضى حديثه، ثم ضممتُهُ إليّ، فما نسيت شيئاً سمعته بعد، توفي بالمدينة سنة (59هـ)، ينظر أُسْدُ الغابة في معرفة الصحابة – لابن الأثير (336/6)، والإصابة في تمييز الصحابة – لابن حجر العسقلاني(427/7)، والأعلام – للزركلي (308/3).

من هم يا رسول الله؟ لعلنا نحبهم، قال: هم قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب، وجوههم نور على منابر من نورٍ، ولا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، ثم قرأ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ "، رواه ابن جرير وأبو داود[1] عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه–، وقوله: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾، عن أبي الدرداء[2] عن النبي– صلى الله عليه وسلم – في قوله: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ قال: " الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له"، رواه أحمد[3]، وابن جرير عنه، وعن عبادة بن الصامت[4]، وعن أبي ذرٍ أنه قال: يا رسول الله، الرجل يعمل، العمل ويحمدُه الناس، ويُثْنُون عليه به، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: "تلك عاجل بشرى المؤمن"، رواه مسلم[5]، وقيل: المراد من ذلك بشرى الملائكة المؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿رَّحِيمٍ﴾[6]، وفي حديث البراء[7]: أن المؤمن إذا حضره الموت جاءه ملائكة بيض الوجوه بيض الثياب، فقالوا: اخرجي أيتها الروح الطيبة إلى رَوْح وريحان، وربٍّ غير غضبان، فتخرج من فمه،

---

(1) أخرجه أبو داوود في سننه، كتاب: الإجارة، باب: في الرهن، (311/3) برقم (3529)، عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه مرفوعاً بنحوه، وأخرجه الطبري في تفسيره (121/15)، عن أبي هريرة – رضي الله عنه – مرفوعاً بلفظه.

(2) عويمر بن عامر بن مالك بن زيد بن قيس بن أمية بن عامر الأنصاري الخزرجي، أبو الدرداء، كان فقيهاً حكيماً، تأخر إسلامه قليلاً، فلم يشهد بدراً، وشهد أُحُداً، وما بعدها، قال فيه الرسول – صلى الله عليه وسلم: " عويمر حكيم أمتي"، توفي بدمشق سنة (32هـ)، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب – لابن عبد البر (1227/3)، وأُسْد الغابة في معرفة الصحابة – لابن الأثير (104/6)، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني (747/4)، والأعلام – للزركلي (98/15).

(3) جزء من حديث أخرجه أحمد في مسنده (386/3) برقم(1900)، عن ابن عباس – رضي الله عنه– يرفعه، وأخرجه الطبري بلفظه في تفسيره (125/15)، بسنده عن أبي الدرداء، وعبادة بن الصامت –رضي الله عنهما– .

(4) عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن ثعلبة بن غنم الأنصاري الخزرجي، أبو الوليد، شهد العقبتين وبدراً، والمشاهد التي بعدها، كان أحد الذين جمعوا القرآن في عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم –، وأرسله عمر – رضي الله عنه– إلى الشام؛ ليعلمهم القرآن، ويفقههم في الدين، توفي بالرملة سنة (32هـ)، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب – لابن عبد البر (807/2)، والإصابة في تمييز الصحابة – لابن حجر العسقلاني (624/3).

(5) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: إذا أثنى على الصالح، فهي بشرى، ولا تضره، (44/8) برقم(6891) عن أبي ذرٍّ – رضي الله عنه – مرفوعاً .

(6) سورة فصلت، من الآية (30 – 32).

(7) البراء بن عازب بن الحارث بن عدي بن جشم بن مجدعة بن حارثة الأنصاري الأوسي، أبو عمارة، أسلم صغيراً، وردَّهُ الرسول – صلى الله عليه وسلم– يوم بدر؛ لصغر سِنِّهِ، وكانت أول مشاهده الخندق، وشهد مع علي – رضي الله عنه– الجمل وصفين والنهروان، توفي بالكوفة سنة (72هـ)، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب – لابن عبد البر (155/1)، وأُسْد الغابة في معرفة الصحابة – لابن الأثير (258/1)، والإصابة في تمييز الصحابة – لابن حجر العسقلاني (278/1).

كما يسيل القطرة من فيّ السِّقاء، رواه احمد في حديثٍ مبسوط[1].

وأما بشراهم في الآخرة فكما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[2]، الآيــة...، وقــال تعــالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾[3] الآية وقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أي: هذا الوعد لا يبدَّل ولا يُخْلَف ولا يُغير، بل هو مقدَّر مثبتٌ كائنٌ لا محالة، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

أي: ولا يحزنك يا محمد، قول هؤلاء المشركين، واستعن بالله عليهم، وتوكل عليه، فإن ﴿ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، أي: جميعاً له ولرسوله، وللمؤمنين، ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾، لأقوال عباده ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بهم، ثم أخبر أن له مُلْكَ السمٰوٰت والأرض، وأن المشركين يعبدون الأصنام، وهي لا تملك شيئاً، ولا ضرّاً، ولا نفعاً، ولا دليل لهم على عبادتها، إلا الظنون الكاذبة، ثم أخبر أنه الذي جعل الليل لعباده ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾، أي: ليستريحون فيه من نَصَبِهم وكلالهم وحركاتهم، ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾، أي: مضيئاً لمعاشهم وسعيهم وأسفارهم ومصالحهم، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، أي: هذه الحجج والأدلة لقوم يعتبرون بها، ويستدلون على عظمة خالقها ومقدرها.

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۝ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾.

---

(1) جزء من حديث طويل أخرجه أحمد في مسنده (499/30) برقم (18534)، عن البراء بن عازب – رضي الله عنه – مرفوعاً بنحوه.

(2) سورة الأنبياء، من الآية (103).

(3) سورة الحديد، من الآية (12).

قال تعالى منكراً على من ادَّعى له ولداً: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ﴾، أي: تقدَّس وتنزَّه عن ذلك، ﴿هُوَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه، ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾، أي: فكيف يكون له ولدٌ مما خلقَ، وكل شيء مملوك له ؟! ﴿إِنۡ عِندَكُم﴾، أي: ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان، ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، إنكار ووعيد أكيدٌ وتهديدٌ شديدٌ، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾، إلى قوله: ﴿فَرۡدًا﴾[1]، ثم توعَّد الكاذبين عليه المفترين، ممن زعم له ولداً، بأنهم ﴿لَا يُفۡلِحُونَ﴾ في الدنيا ولا في الآخرة؛ فأما في الدنيا، فإنهم إذا استدرجهم، وأملى لهم، متعهم قليلاً، ثم يضطرهم إلى عذاب غليظٍ، كما قال هاهنا: ﴿مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾، أي: مدة قريبة، ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾، أي: يوم القيامة، ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ﴾، أي: المُوجع المُؤلم، ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾، أي: بسبب كفرهم وافترائهم وكذبهم على الله، فيما ادَّعوه من الإفك والزُّور.

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾.

أي: أخبِرْهم يا محمد، واقْصصْ على كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك نبأَ نوحٍ، أي: خبرَهُ مع قومه الذين كذبوه، كيف أهلكهم الله بالغرق أجمعين؛ ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك ما أصاب أولئك، إذ قال نوح ﴿لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ﴾، أي: عَظُمَ ﴿عَلَيۡكُم مَّقَامِي﴾، أي: فيكم بين أظهرهم[2]، ﴿وَتَذۡكِيرِي﴾ إياكم، أي: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: بِحُجَجِهِ وبَراهِينِه، ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾، أي: فإني لا أبالي ولا أُنكر عنكم، سواء عظم عليكم أو لا، ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ﴾ أي: فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله،

---

(1) سورة مريم، من الآية (88) إلى الآية (89) .

(2) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (283/4)، (أظهركم).

من صنم ووثن، ﴿ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ﴾ أي: لا تجعلوا أمركم عليكم، ﴿غُمَّةً﴾: مُتلبساً، بل افصلوا حالكم معي، فإن كنتم تزعمون أنكم مُحِقُّون ﴿ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ﴾، أي: فَأَمْضُوا ما في أنفسكم، وتوجهوا إليّ بالقتل والمكروه، ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾، أي: لا تؤخرون ساعةً واحدةً، أي: مهما قدرتم، فافعلوا، أي: فإني لا أخاف منكم، وهذا على معنى التعجيز، ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾، أي: كذبتم وأدبرتم عن الساعة، ﴿فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍ﴾، أي: لم أطلب منكم على نُصحي إياكم شيئاً، ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ أي: فأنا مُمتَثِلٌ ما أُمرْتُ به من الإسلام لله – تعالى–، وهو دين جميع الأنبياء، وإن تنوعت شرائعهم وتعددت مناهجهم، كما قال تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةً وَمِنۡهَاجٗا﴾[1] قال ابن عباس: " أي: سبلاً وسُنَّةً"[2]، وكغيرها من الآيات في شأن الأنبياء – عليهم السلام–، ولهذا جاء في الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام قال " نحن معاشر الأنبياء أولاد عِلاَّتٍ، ديننا واحد"[3]، أي: هو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن تنوعت شرائعنا، وذلك معنى قوله: " أولاد عِلاَّتٍ"، وهم الأخوة من أمهات شتى، والأب واحد، وقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ أي: على دينه ﴿فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾، وهي السفينة، ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ﴾، أي: في الأرض، ﴿وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، أي: فانظر يا محمد، كيف أنجينا المؤمنين، وأهلكنا الكافرين؟!

﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ .

أي: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا﴾ من بعد نوحٍ ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾، أي: بالحجج والأدلة والبراهين على صدق ما جاءوهم به، ﴿فَمَا كَانُواْ﴾، أي: ما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم؛ بسبب تكذيبهم إياهم أول ما أُرْسِلُوا إليهم، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ﴾، أي:

---

(1) سورة المائدة، من الآية (48).

(2) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (387/10) .

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأنبياء، باب: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا﴾ (1270/3) برقم(3258)، عن أبي هريرة – رضي الله عنه– مرفوعاً بنحوه، ونصُه " أنا أولى الناس بابن مريم، والأنبياء أولاد علّات، ليس بيني وبينه نبي" وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الفضائل، باب: فضائل عيسى –عليه السلام– (96/7)، برقم (6279).

كما طبع الله على قلوب هؤلاء، فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم، هكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم، ويختم على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، والمراد أن الله تعالى أهلك الأمم المُكَذِّبَةَ للرسل ونجَّى من آمن منهم من بعد نوحٍ، فإن الناس قبله كانوا من لدن آدم إلى أن أحدثَ الناسُ عبادةَ الأصنام على الإسلام، فبعث الله إليهم نوحاً، ولهذا يقول له المؤمنون يوم القيامة: أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، وقال ابن عباس: "كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلُّهم على الإسلام"(1).

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾.

أي: ثم بعثنا من بعد تلك الرسل ﴿مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾، أي: قومه، ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾، أي: حُجَجَنا وبَراهيننا ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾، أي: عن اتباع الحق والانقياد له، ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾، كأنهم أقسموا على ذلك، وهو يعلمون أن ما قالوه كذبٌ وبهتان، قال لهم موسى منكراً عليهم: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ أي: لتصرفنا، ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾، أي: الدِّين الذي كانوا عليه، ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾، أي: لك ولهارون العظمةُ والرياسة، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ وكثيراً ما يَذْكُرُ الله تعالى قصةَ موسى مع فرعون في كتابه العزيز؛ لأنها من أعجب القصص.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾.

قد تقدم قصة موسى مع السحرة في سورة الأعراف، وأُعيد في هذه السورة، وسورة طه، والشعراء، وذلك أن فرعون أراد أن يُبَهْرِجَ على الناس، ويُعارض ما جاء به موسى

(1) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (275/4).

-عليه السلام - من الحق المبين بزخارف السَّحَرة، وانعكس عليه النِّظام، ولم يحصل له ذلك المَرَامُ، وظهرت البراهين الإلهية في ذلك المَحْفَل العام، و﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾[1] فظن فرعون أنه سينتصر بالسُّحَّارِ على رسولٍ عالم الأسرار، فخاب وخَسِرَ واستوجب النار، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾، وإنما قال لهم ذلك؛ لأنهم لمَّا اصطفُّوا وقد وُعِدُوا من فرعون بالتقريب والعطاء الجزيل ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ ﴾[2]، فأراد موسى أن تكون البداءة منهم؛ ليرى الناس ما صنعوا، ثم يأتي بالحق بعده، فيدمغ باطلهم، ولهذا لما ألقوا، سحروا أعين الناس، واسترهبوهم، كما بين الله تعالى إلى قوله: ﴿حَيْثُ أَتَىٰ ﴾[3]، فعند ذلك قال موسى لما ألقوا: ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾.

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾.

أخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى مع ما جاء به من الآيات البينات إلا قليلٌ من آل فرعون من الذرية، وهم الشباب على وَجَلٍ وخوفٍ منه، ومن ملئه، أن يردُوهم على ما كانوا عليه من الكفر؛ لأن فرعون كان جباراً عنيداً، يخاف رعيتُه منه خوفاً شديداً، قال ابن عباس: "الذرية التي آمنت بموسى من أناس غير بني إسرائيل، من قوم فرعون يسيرٌ، منهم امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه، والذرية القليل"[4]، وقال مجاهد: "الذرية هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى من طول الزمان، ومات آباؤهم"[5]، واختار ابن جرير أنها من بني إسرائيل، لا من قوم فرعون،

---

(1) سورة الشعراء الآية (47)، (48) .

(2) سورة طه، الآية (65)، (66).

(3) سورة طه، من الآية (69).

(4) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (163/15).

(5) المصدر نفسه (164/15).

لِعَوْدِ الضمير إلى أقرب المذكورين، وفيه نظر؛ لأن المراد بالذُّرِيَّةِ هنا الأحداثُ والشبابُ وأنهم من غير بني إسرائيل، فإن بني إسرائيل كُلَّهم آمنوا بموسى، واستبشروا به[1]، وقوله: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾، أي: وأشراف قومه، ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ عن الإيمان، ولم يكن في بني إسرائيل مَن يُخَافُ منهُ ذلك، سوى قارونَ، فإنه من قوم موسى، فبغى عليه، لكنه كان مع فرعون متصلاً به، ومن قال: الضمير في "ملئهم" عائد إلى فرعون، باعتبار أتباعه أو بحذف آل من فرعون وإقامة المضاف إليه مُقامَهُ، فقد أبعد، وإن كان ابن جريرٍ حكاهما عن بعض النُحاة[2]، وما يدل على أنه لم يكن في بني إسرائيل إلا مؤمن قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

أخبر تعالى عن موسى أنه قال لبني إسرائيل: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ أي: فإن الله كافٍ من توكَّلَ عليه، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[3]، وكثيراً ما يَقْرِن تعالى بين العبادة والتوكُّل، كقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[4]، وغيرها من الآيات، وقد امتثل بني[5] إسرائيل ذلك.

﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: بظَفَرِهم بنا، وتسَلُطِهِم علينا، فظنوا بذلك أنهم على الحق ونحن على الباطل فيفتتنوا بذلك[6] قاله أبو مُجْلِز[7] وأبو الضُّحى[8]، وقال مجاهد: "لا تعذبنا بأيدي قوم فرعون، ولا بعذاب من عندك، فيقول قوم فرعون: لو كانوا على حق، ما عُذِّبوا، فيفتتنوا بنا"[9]، ﴿وَنَجِّنَا

(1) ينظر: المصدر السابق (165/15).
(2) ينظر: المصدر السابق (15/ 166 – 167) .
(3) سورة الزمر، من الآية (36).
(4) سورة هود، من الآية (123).
(5) (بني): كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (288/4)، (بنو) وهو الصحيح.
(6) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (169/15).
(7) لاحق بن حميد بن سعيد السدوسي البصري، أبو مجلز، كان ثقة، حيث أدرك كبار الصحابة كأبي موسى، وابن عباس– رضي الله عنهما–، نزل خَراسان، وكان عقبةُ فيها، توفي سنة (106هـ)، ينظر: الطبقات الكبرى – لابن سعد (368/7)، وميزان الاعتدال في نقد الرجال – للذهبي (365/4)، و شذرات الذهب في أخبار من ذهب – لابن العماد العكري (128/1).
(8) مسلم بن صبيح الهمذاني، أبو الضحى، كان ثقة كثيرَ الحديث، مات سنة (100هـ). ينظر: الطبقات الكبرى – لابن سعد (288/6)، وتقريب التهذيب لأحمد بن علي بن حجر (أبو الفضل) العسقلاني الشافعي، تح: محمد عوامة، دار الرشيد – سوريا، (1406هـ – 1988م)، (30/1).
(9) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (170/15) .

﴿ بِرَحْمَتِكَ ﴾، أي: خلِّصنا برحمة منك، وإحسان من عندك، من الذين كفروا الحق وستروهُ، ونحن قد آمنا بك وتوكلنا عليك.

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

ذكر تعالى سبب إنجائه بني إسرائيل من فرعون وقومه، وكيفية خلاصهم منهم، وذلك أن الله أمر موسى وأخاه هارون ﴿أَن تَبَوَّءَا﴾ أي: يتَّخذا لقومهما بمصر بيوتاً، ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾، اختلفوا في معناه، قال ابن عباس: "أي: اتخذوها مساجد وصلوا فيها، قالوا: وكانوا خائفين، فأُمِروا بكثرة الصلاة فيها"[1]، كما قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[2]، وفي الحديث أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: " إذا حَزَبَهُ أمر صلَّى"[3]، رواه أبو داود، و لهذا قال في هذه الآية ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، أي: بالثواب والنصر القريب، وقال مجاهد: "لما خاف بنو إسرائيل من فرعون أن يصلُّوا في الكنائس الجامعة، أُمِروا أن يجعلوا بيوتهم مساجد، مستقبلةً الكعبة، يصلُّون فيها سراً"[4]، وكذا قال قتادة والضَّحاك[5].

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

هذا إخبار من الله عما دعا به موسى على فرعون وملئه، لمّا أبَوْا قبولَ الحق واستمروا على ضلالهم وكفرهم، معاندين جاحدين ظُلماً وعلوَّاً، قال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً ﴾ أي: من آيات الدنيا ومتاعها، ﴿وَأَمْوَٰلًا﴾، أي: جزيلة كثيرة في

---

(1) المصدر نفسه .

(2) سورة البقرة، من الآية (45).

(3) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: التطوع، باب: وقت قيام النبي من الليل(507/1) برقم (1321)، عن حذيفة – رضي الله عنه– مرفوعاً.

(4) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (174/15).

(5) الضحَّاك بن مزاحم البلخي الخراساني، أبو القاسم، مفسر محدِّث، لقي سعيداً بن جبير بالريّ وأخذ عنه التفسير، توفي بخُراسان سنة (105هـ)، ينظر: الطبقات الكبرى – لابن سعد (300/6)، وميزان الاعتدال في نقد الرجال– للذهبي (325/2)، وطبقات المفسرين – للأدنه وي (10)، والأعلام – للزركلي (215/3)، ومعجم المؤلفين – لعمر كحالة (27/5).

الحياة الدنيا، ﴿رَبَّنَا لِيَضِلُّوا﴾ بفتح الياء، ﴿عَن سَبِيلِكَ﴾، أي: أعطيتهم ذلك، وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتني به إليهم، استدراجاً منك لهم، كما قال تعالى: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾[1]، وقرأ آخرون ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ﴾ بضم الياء[2] أي: ليُفتَتَن بما أعطيتهم من خلقك، لِيَظُنَّ من أغويته أنك إنما أعطيت هؤلاء هذا، لاعتنائك بهم، وقوله: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾، قال ابن عباس: "أي: أهلكها"، وقال قتادة: "بلغنا أن زروعهم تحولت حجارة"، وقال أبو العالية[3] وغير واحد: " جعلها الله حجارةً منقوشةً، كهيئة ما كانت كالحمص والباقلا "[4]، وقوله: ﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قال ابن عباس: "اطْبَع عليها"[5]، ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾، وهذه الدعوة من موسى؛ كانت غضباً لله ولدينه، على فرعون وملئه، الذين تبين له أنه لا خير فيهم؛ ولهذا استجاب الله لموسى، قالوا: قد دعا موسى، وأمَّن هارون، ولهذا قال: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾، أي: قد أجبناكما فيما سألتما من تدمير آل فرعون، وقد يَحْتَجُّ بهذه الآية من يقول إن تأمين المأموم على قراءة فاتحة الإمام يُنَزَّلُ منزلة قراءتها.

وقوله: ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ أي: كما استجبتُ دعوتكُما فاستقيما على أمري، وامضيا له، وهي الاستقامة، قال ابن جريجٍ: " نُقِلَ أن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة"[6]، وعن زين العابدين[7]: أربعين يوماً[8] .

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ

(1) سورة طه، من الآية (131) .

(2) قرأ الكوفيون ﴿لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ بضم الياء، والباقون بفتحها.ينظر: التيسير في القراءات السبع– للداني (78)، وتحبير التيسير في القراءات العشر – لابن الجزري (363).

(3) رفيع بن مهران الرياحي البصري، أبو العالية، إمام مقرئ حافظ مفسر، كان إماما في القرآن والتفسير والعلم والعمل، قال عنه أبو بكر بن أبي داود: (ليس أحد أعلم بالقران بعد الصحابة من أبي العالية، ثم سعيدٍ بن جبير)، توفي سنة (93هـ)، ينظر: تذكرة الحفاظ– للذهبي (49/1) وشذرات الذهب في أخبار من ذهب – لابن العماد العكري (96/1)، وطبقات المفسرين – للأدنه وي (9).

(4) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (180/15) .

(5) المصدر نفسه (182/15).

(6) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (187/15) .

(7) علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي ،أبو الحسن، الملقب بزين العابدين، الإمام الرابع عند الأئمة الاثنى عشرية، ولد سنة (38هـ) كان يضرب به المثل في الحلم والورع يقال له: (علي الأصغر)، تمييزا له عن أخيه علي الأكبر، قال عنه الزهري:" لم أر هاشمياً أفضلَ من علي بن الحسين، وما رأيت أحداً كان أفقهَ منه"، وكان يَحْرِصُ على صدقة السر حتى إنه كان يقُوتُ مائة بيت، لا يعلم أهلها مِن أين يأتيهم الطعام والشراب، فلما مات علي بن الحسين – رضي الله عنه–، فقدوا كلَّ ذلك، توفي بالمدينة سنة (94هـ)، ينظر: الطبقات الكبرى – لابن سعد (211/5)، وصفة الصفوة – لابن الجوزي (93/2)، والأعلام – للزركلي (277/4).

(8) ينظر: تفسير الإمام الحافظ (أبو محمد) عبدالرحمن بن أبي حاتم الرازي، تح: أسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية – صيدا (1980/6).

﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾.

ذكر الله تعالى كيفية إغراق فرعون وجنوده؛ فإن بني إسرائيل لمَّا خرجوا من مصر صُحْبَةَ موسى –عليه السلام–، وهم فيما قيل: ستمائة ألف مقاتل، سوى الذُّرِيَّةِ، وقد كانوا استعاروا من القبط حِلِيّاً كثيراً، فخرجوا به معهم، فاشتد حَنَقُ[1] فرعون عليهم، فأرسل فرعون في المدائن حاشرين، يجمعون له جنوده من أقاليمه، فَرَكِب وراءهم في أُبَّهَةٍ عظيمة، وجيوش هائلة، لما يريده الله بهم، ولم يتخلف عنه أحد ممن له دولة وسلطان في سائر مملكته، فلحقوهم وقتَ شروقِ الشمسِ، ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾[2]، وذلك أنهم انتهوا إلى ساحل البحر، وأتبعهم فرعون، ولم يبق إلا أن يتقاتل الجمعان، وألحَّ أصحاب موسى عليه في السؤال.. كيف المَخْلَصُ مما نحن فيه؟ فيقول: "إني أُمِرْتُ أن أسلك هاهنا" ﴿كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾[3] فلما ضاق الأمر، اتَّسع، فأمره الله أن يضرب البحر بعصاه، فضرب ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[4] وصار اثني عشر طريقاً، لكل سِبْطٍ واحدٍ، وأمر الله الريح فنسفت أرضه، وتَخَرَّقَ[5] الماء بين الطرق كهيئة الشبابيك؛ ليرى كل قوم الآخرين، لئلا يظنوا أنهم هلكوا، وجازت بنو إسرائيل البحر، فلما خرج آخرهم، انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى، وهو في مائة ألف أَدْهَمَ[6]، سوى بقية الألوان، فلما رأى ذلك، هاله، وأحجم، وهَمَّ بالرجوع، وهيهات، نفذ القدر، واستجيبت الدعوة، وجاء جبرائيل على فرس وديقٍ[7] حائلٍ، فمر إلى جانب حصان فرعون فحمحم إليها، وتقدم جبرائيل، فاقتحم البحر، ودخله، فاقتحم الحصان وراءه، ولم يبق فرعون يملك من نفسه شيئاً، فتجلَّد لأمرائه، وقال لهم: (ليس لبني إسرائيل بأحقَّ بالبحر منا)، فاقتحموا كلهم عن آخرهم، وميكائيل في ساقتهم، لا يترك أحداً منهم إلا ألحقه بهم،

---

(1) الحَنَقُ: شدة الاغتياظ. ينظر: لسان العرب – لابن منظور (69/10)، الجذ: " ح ن ق " .

(2) سورة الشعراء الآية (61) .

(3) سورة الشعراء الآية (62) .

(4) سورة الشعراء، من الآية (63) .

(5) الخَرْقُ: الشق في الحائط والثوب، ينظر: لسان العرب – لابن منظور (73/10)، الجذر: " خ ر ق " .

(6) الأَدْهَمُ: الأسود، يكون في الخيل والإبل، ومنه فرس أدهم وبعير أدهم، ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس – للزبيدي (192/32)، الجذر: " د ه م " .

(7) (الوَدِيقُ): هي التي تشتهي الفحل، ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس – للزبيدي (454/6)، الجذر " و د ق " .

فلما دخلوا كلهم البحر، وهَمَّ أولهم بالخروج منه، أمر اللهُ القدير البحر أن يرتطم عليهم، فارتطم عليهم، فلم ينجُ منهم أحد، وجعلت الأمواج ترفعهم، وتخفضهم، وتراكمت الأمواج فوق فرعون، وغشيته سكرات الموت، فقال وهو كذلك: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، فآمن حين لا ينفعه الإيمان! ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1]، وهكذا قال تعالى في جواب فرعون حين قال ما قال: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ أي: أهذا الوقت تقول؟! وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه، ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، الضالين المُضلين، أي: في الأرض، الذين أضلوا الناس ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾[2].

هذا الذي حكاه تعالى عن فرعون قد أعلم به رسوله – عليه الصلاة والسلام–، روى ابن عباس قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لما قال فرعون: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، قال: قال لي جبرائيل: " لو رأيتني وقد أخذتُ من حال البحر فَدَسَسْتُهُ في فيه؛ مخافة أن تَنالهُ الرحمة"، رواه أحمد والترمذي، وقال: حديث حسن[3].

وقوله: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ قال ابن عباس وغير واحدٍ: "إن بعض بني إسرائيل شكُّوا في موت فرعون، فأمر الله البحر أن يلقيه بجسده سويّاً بلا روحٍ، وعليه درعه المعروفة به، على نجوةٍ من الأرض؛ وهو المكان المرتفع؛ ليتحققوا موته وهلاكه"[4]، ولهذا قال: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾، أي: نرفعك على نُشُزٍ من الأرض، بجسدٍ بلا روحٍ، صحيحاً، لم يتمزق ليُحَقِّقُوه ويعرفوه .

وقوله: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ أي: لتكون لبني إسرائيل دليلاً على موتك

(1) سورة غافر، الآية (85) .

(2) سورة القصص الآية (41) .

(3) أخرجه أحمد في مسنده (30/5) برقم (2820)، أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: تفسير القرآن، باب: سورة يونس، (287/5) برقم (3107)؛ كلاهما عن ابن عباس – رضي الله عنه– مرفوعاً، وقال الترمذي: حديث حسن.

(4) ينظر جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (96/15).

وهلاكك، والله تعالى هو القادر عليه ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾، أي: لا يَتَّعِظُونَ بها، ولا يعتبرون، وقد كان إهلاك فرعون يوم عاشوراء، كما قال ابن عباس: قدم النبي– صلى الله عليه وسلم – المدينة، واليهودُ تصوم عاشوراء، فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون، فقال النبي– صلى الله عليه وسلم– لأصحابه: " أنتم أحقُ بموسى منهم، فصوموا" رواه البخاري[1].

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ .

أخبر تعالى عما أنعم به على بني إسرائيل من النعم الدينية والدنيوية: ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾، قيل: هو بلاد مصر والشام، مما يلي بيت المقدس ونواحيه، فإن الله تعالى لمَّا أهلك فرعون وجنوده، استقرَّت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر بكمالها، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾، إلى قوله: ﴿يَعْرِشُونَ﴾[2]، ولكن استمروا مع موسى طالبين لبلاد بيت المقدس، كما سبق، لدفع العمالقة وقطعهم، فَنَكَل بنو إسرائيل عن قتالهم، فردهم الله في التيه أربعين سنة، ومات في أثنائها هارون ثم موسى، وخرجوا بعدها مع يوشع بن نون، ففتح الله عليهم بيت المقدس، واستقرت أيديهم عليها إلى أن أخذها منهم "بو خت نصَّر" حيناً من الدهر، ثم عادت إليهم، ثم أخذها ملوك اليونان، وكانت في أيديهم مدة طويلة، وبعث الله عيسى بن مريم في تلك المدة، فاستعانت اليهود على معاداة عيسى بملوك اليونان، مفسدين بينهم وبينه، فبعثوا من يقبض عليه، فرفعه الله إليه، وشُبّهَ لهم بعض الحَوَارِيِّين بمشيئة الله وقدره، فأخذوه وصلبوه، واعتقدوا أنه هو، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾[3]، ثم بعد المسيح بنحو ثلاثمائة سنة دخل "قسطنطين" أحد ملوك اليونان

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: سورة يونس، (1722/4) برقم (4403)، عن ابن عباس – رضي الله عنه– مرفوعاً.
(2) سورة الأعراف، الآية (137) .
(3) سورة النساء، من الآية (157).

في دين النصرانية تَقِيَّةً، وقيل: حيلةً؛ ليفسده، وكان فيلسوفاً قبل ذلك، فوضعت له الأساقفة قوانين وشريعة وبِدعاً أحدثوها، فبنى لهم الكنائس والبيع الكبار والصغار، والصوامع والهياكل والمعابد، وانتشر دين النصرانية في ذلك الزمان، بما فيه من التغيير والتبديل، ومخالفة دين المسيح، ولم يبق على دين المسيح إلا القليل من الرهبان، فغلبت يد النصارى على مملكة الشام والجزيرة وبلاد الروم، وبنى هذا الملك مدينة قسطنطينية، منسوبة إليه، والقُمَامة وبيت لحم، وكنائس ببلاد بيت المقدس، ومدن حوران كبُصْرى، وغيرها من البلدان، بناءات هائلة محكمة، وعبدوا الصليب من حينئذٍ، وصلوا إلى المشرق، وصوَّروا الكنائس، وأحلوا لحم الخنزير، وغير ذلك، والغرض أنَّ يَدَهُم لم تزل على هذه البلاد إلى أن انتزعها منهم الصحابة – رضي الله عنهم –، وكان فتح بيت المقدس على يدي عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – ولله الحمد.

وقوله: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾أي: الحلال من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعاً وشرعاً.

وقوله: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي: ما اختلفوا في شيء من المسائل إلا من بعد ما جاءهم العلم، أي: ولم يكن لهم أن يختلفوا، وقد بين الله لهم، وأزال عنهم اللبس، وقد ورد في الحديث : "أن اليهود قد اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة، وأن النصارى اختلفوا على ثنتين وسبعين فرقة وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة منها واحدة في الجنة، وثنتان وسبعون في النار، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي"(1)، رواه الحاكم(2) في مستدركه بهذا اللفظ، وهو في السنن والمسانيد ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

---

(1) أخرجه الحاكم أبو عبدالله محمد بن عبدالله النيسابوري في كتابه المستدرك على الصحيحين، تح: مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى (1411هـ – 1990م) (218/1) من حديث عبدالله بن عمرو – رضي الله عنهما– مرفوعاً.

(2) محمد بن عبدالله بن حمدوية الضبي، الطهراني، الشهير بالحاكم، ويعرف بابن البيع، أبو عبدالله، محدث حافظ مؤرخ، ولد سنة (321هـ)، رحل في طلب العلم، وجال في خراسان وبلاد ما وراء النهر، وأخذ على نحو ألفي شيخ، قال عنه السبكي: " وهو عندي من أعود التواريخ على الفقهاء بفائدةٍ، ومن نظره عرف، تفنن الرجل في العلوم جميعها"، من مؤلفاته: (المستدرك على الصحيحين)، و(الإكليل)، و (تسمية من أخرجهم البخاري ومسلم)، توفي في نيسابور سنة (405هـ)، ينظر: تذكرة الحفاظ – للذهبي (162/3)، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب – لابن العماد العكري (175/3)، والأعلام –للزركلي (227/6)، ومعجم المؤلفين – لعمر كحالة (238/10).

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾.

قال ابن عباس وغير واحدٍ قال: رسول الله– صلى الله عليه وسلم– " لا أشك ولا أسأل"(1)، وفي هذا تثبيت للأمة، وإعلام لهم أن صفة نبيهم – صلى الله عليه وسلم – موجودةٌ في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾(2)، الآية، وهذا الخطاب كله وإن كان مع النبي – صلى الله عليه وسلم–، فالمراد غيره، كقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾(3)، وفي القرآن كثيرٌ من هذا النوع على عادة العرب، ثم مع هذا العلم الذي يعرفونه من كتبهم، كما يعرفون أبناءهم، يلبسون ذلك، ويحرفونه، ويبذلونه، ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ أي: لا يؤمنوا إيماناً ينفعهم، بل حين لا ينفع نفساً إيمانها، قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾، أي: فهلاً كانت قرية آمنت من الأمم السالفة الذين بعثنا إليهم الرسل، بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد، من رسول إلا كذبتْهُ قومه، أو أكثرهم، كما قال تعالى: ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾(4)، والمراد: أنه لم يوجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم، ممن سلف من القرى، إلا قَوْمَ يونس، وهم أهل نينوى(5)، وما كان إيمانهم إلا خوفاً من نزول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم، بعد ما عاينوا أسبابه، وخرج رسولهم

---

(1) أخرجه عبدالرزاق بن همام الصنعاني في تفسيره، تح: مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشيد – الرياض، (1410هـ)، (298/1)، عن قتادة به مرسلاً .

(2) سورة الأعراف، من الآية (157).

(3) سورة الأحزاب، من الآية (1) .

(4) سورة يس الآية (30) .

(5) نينوى: هي قرية يونس بن متى – عليه السلام– بالموصل وبسواد الكوفة ناحية يقال لها نينوى، معجم البلدان – لياقوت بن عبدالله الحمودي (أبوعبدالله) دار الفكر، بيروت (339/5).

من بين أظهرهم، فعندها جأروا إلى الله، واستغاثوا به، وتضرَّعوا لديه، واستكانوا، وحضَّروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم، وسألوا الله أن يرفع عنهم العذاب؛ فعندها رحمهم، وكشف عنهم العذاب، وأُخِّرُوا، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ﴾، الآية...، وهذا معنى ما قاله قتادة[1]، واختلفوا: هل كُشِفَ عنهم العذاب الأخروي مع الدنيوي، أو إنما كُشف لهم في الدنيا فقط؟ على قولين، والظاهر: أنه إنما كُشف عنهم في الدارين؛ لقوله: ﴿وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾، فأطلق عليهم الإيمان، وهو منقذٌ من العذاب الأخروي، وذكر ابن مسعود وغير واحدٍ: "إن قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل"[2]، ونقل: "أن قوم يونس لما رأوا العذاب يدور على رؤوسهم كقطع الليل المظلم، مشوا إلى رجل من علمائهم، فقالوا: علِّمنا دعاءً ندعو به، لعل الله أن يكشف عنا العذاب، فقال: قولوا يا حيُّ، حين لا حيَّ، يا حيُّ يا مُحْيِيَ الموتى، يا حيُّ، لا إله إلا أنت، قال: فكشف عنهم العذاب"[3]، وسيأتي تمامه في سورة الصافات، إن شاء الله تعالى.

﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾.

أي: ولو شاء ربك يا محمد، لَأَذِنَ لأهل الأرض كُلّهم في الإيمان بما جئتهم به، فآمنوا كلهم، ولكن له حكمة فيما يفعله – تعالى-، كما قال: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ﴾[4] ؛ ولهذا قال: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾، أي: ليس ذلك عليك ولا إليك، بل الله يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، وشبهه من الآيات البينات على، أنه تعالى هو الفعال لما يريد؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ﴾، أي: الخبال والوبال والضلال، ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ أي: حجج الله وأدلّته، وهو العادل في هداية من هدى، وإضلالِ من ضل.

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ فَهَلۡ

---

(1) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (207/15).

(2) نفس المصدر والصفحة .

(3) المصدر نفسه، (210/15) .

(4) سورة هود، من الآية (118) .

﴿يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

أرشد الله عباده إلى التفكر في آلائه وآياته، وما خلق في السمٰوٰت والأرض من الآيات الباهرة لذوي الألباب، مما في السمٰوٰت من كواكب نيّرات، ثوابت وسيارات، والليل والنهار، وإيلاج أحدهما في الآخر، وارتفاع السماء واتساعها وحُسنها، وما أنزل منها من مطر، فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزروع والأزاهير، وما ذرأ فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع، وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب، وما في البحر من العجائب والأمواج، وهو مع هذا مسخرٌ مُذَلَّلٌ للسالكين، يحمل سفنهم، ويجري بها برفق، بتسخير القدير.

وقوله: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ﴾ أي: وأيَّ شيء تُجدي الآيات السماوية والأرضية والرسل بآياتها وبراهينها الدَّالة على صدقها ﴿عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾؟

وقوله: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾، أي: فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك يا محمد، من النقمة والعذاب، إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم، من الأمم المكذبة لرسلهم، ﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ﴾، أي: ونهلك المكذبين بالرسل، ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: حقٌّ أوجبه تعالى على نفسه الكريمة، كقوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾(1)، وفي الصحيحين أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: " إن الله كتب كتاباً فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي"(2) .

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا

(1) سورة الأنعام، من الآية (54).

(2) جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ (1166/3) برقم (3022)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: التوبة، باب: في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبهُ، (95/8) برقم (7145)؛ كلاهما من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – مرفوعاً بنحوه .

كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

أي: قل يا محمد، للناس: إن كنتم في[1] شكٍّ في صحة ما جئتكم به من الدين الحنيف، الذي أوحاه الله تعالى، فها أنا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله، ولكن أعبد الله وحده لا شريك له، وهو الذي يتوفاكم كما أحياكم، ثم إليه مرجعكم، فإن كانت آلهتكم التي تدعون من دون الله حقاً، فأنا لا أعبد[2]، فادعُوها، فَلْتَضُرَّني، فإنها لا تضر ولا تنفع، وإنما الذي بيده الضُّر والنفع هو الله، وقوله: ﴿ وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ ﴾، أي: أَخْلِصِ العبادة لله وحده، ﴿حَنِيفٗا﴾ أي: منحرفاً عن الشرك، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾، وهو معطوف على قوله: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

وقوله: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ﴾ إلى آخرها بيان؛ لأن الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجعٌ إلى الله تعالى وحده لا شريك له، فهو الذي يستحق العبادة لا غَيْرُهُ، وعن أنس بن مالك[3]: أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: " اطلبوا الخير دهرَكُم كُلَّه، وتعرضوا لنفحات رحمة الله؛ فإن لله نفحاتٍ من رحمته، يصيب بها من يشاء من عباده، وَسَلُوهُ أن يستر عوراتكم، ويُؤَمِّنَ رَوْعاتِكُم "[4]، وعن أبي هريرة مرفوعاً بمثله سواء[5]، رواه أبو القاسم بن عساكر[6] .

---

(1) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (299/4)، (من) وهو الصحيح .

(2) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (300/4)، (أعبدها) وهو الصحيح .

(3) أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم النجاري الخزرجي الأنصاري، أبو ثمامة، أو أبو حمزة، صاحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأحد المكثرين من الحديث، ولد سنة (10ق هـ)، خدم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عشر سنين، ودعا له الرسول – صلى الله عليه وسلم – بكثرة المال والولد، وكان له بستان يحمل الفاكهة في السنة مرتين، غزا مع الرسول – صلى الله عليه وسلم – ثماني غزوات، وهو آخر الصحابة موتاً بالبصرة، توفي سنة (93هـ)، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب – لابن عبد البر (109/1)، والإصابة في تمييز الصحابة – لابن حجر العسقلاني (126/1)، والأعلام – للزركلي (24/2).

(4) أخرجه أبو بكر عبدالله بن محمد بن أبي شيبة العبسي الكوفي في مصنفه، تح: محمد عوامة (309/13) برقم (35737)، وأخرجه أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْروجِردي الخرساني البيهقي في شُعب الإيمان، تح: الدكتور عبدالعلي عبدالحميد، ط: الأولى، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض، بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند (1423هـ – 2003م) (370/2) برقم (1083)؛ كلاهما من حديث أنس بن مالك – رضي الله عنه – يرفعه، واللفظ للبيهقي .

(5) أخرجه أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبدالله الشافعي في كتابه تاريخ مدينة دمشق، وذكر فضلها، وتسمية من حلها من الأماثل، تح: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري، دار الفكر – بيروت، (1995م)، (123/24) عن أبي هريرة – رضي الله عنه – يرفعه .

(6) علي بن الحسن بن هبة الله، أبو القاسم، ثقة الدين ابن عساكر، مؤرخ، حافظ، ثقة، ولد سنة (499هـ)، رحل إلى بلاد كثيرة، وسمع=

وقولـه: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: لمـن تـاب إليـه وتوكـل عليـه مـن أيِّ ذنـب كان، حتى من الشرك، فإنه يتوب عليه.

﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾.

أمر الله رسوله أن يخبر الناس أن الذي جاءهم به من عند الله هو الحق، لا مِرْيَةَ فيه ولا شكَّ، فمن اهتدى به واتبعه، فإنما يعود نفع ذلك إلى نفسه، ومن ضلَّ عن ذلك، فإنما يرجع وبالُ ذلك على نفسه.

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾ أي: ومـا أنـا مُوكَـلٌ بكـم، حتـى تكونـوا مـؤمنين بـه، وإنما أنا نذير لكم، والهداية على الله.

وقوله: ﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ﴾، أي: تمسَّكْ بما أنزل الله عليك، وأوحاه إليك، واصبر على مخالفة مَنْ خالفكَ مِنَ الناس، ﴿حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: يفتَحُ بينك وبينهم، ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾، أي: فاتحين؛ لعدله وحكمته.

= الكثيرين، نحْوَ ألف وثلاثمائة شيخ، وثمانين امرأة، قال عنه الحافظ أبو سعد السمعاني في تاريخه: " هو كثير العلم غزير الفضل ثقة متقن دين خَيِّرٌ حسنُ السَّمْتِ، جمع بين معرفة المتون والأسانيد، صحيح القراءة، مُثْبِتٌ محتاط، من مؤلفاته: (تاريخ دمشق الكبير) المعروف بتاريخ ابن عساكر، و(تبيين كذب المفتري في ما نُسب إلى أبي الحسن الأشعري)، و(معجم الصحابة)، توفي بدمشق سنة(571هـ). ينظر: وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تح: إحسان عباس، (309/3)، وطبقات الشافعية لأبي بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن قاضي شهبة، تح: الحافظ عبدالعليم خان، ط: الأولى، عالم الكتب – بيروت، (1407هـ) (13/2)، والأعلام – للزركلي (273/4).

تفسير سورة هود – عليه السلام –

[تمهيد] (1)

[هذه السورة مكية، وسميت بهذا الاسم: لتكرر اسم هود خمس مرّات، ولطول ماحُكِيَ عن هودٍ فيها، أكثر ممَّا حُكي عنه في غيرها.

والسورة تتناول محتويات كثيرة، هي على النحو الآتي:

- ابتدأَتْ بالحروف المقطعة؛ لتحدّي معارضي القرآن.
- نهت عن عبادة غير الله تعالى.
- بينت أن الرسولَ – صلى الله عليه وسلم– نذيرٌ للمشركين من العذاب، ومبشرٌ للمؤمنين بالثواب.
- فيها إثبات الحشر، وبيان أن الله مطَّلِعٌ على خفايا الناس.
- كل حَيٍّ في هذه الأرض مُدَبّرُه الله سبحانه وتعالى.
- خلق الله هذه العوالم بعد أن لم تكن.
- جميع الناس مرجعهم إلى الله تعالى، وأنه ما خلقهم إلا للجزاء.
- فيها تسلية الرسول – صلى الله عليه وسلم– وتثبيت له.
- الضرب لفريقي المؤمنين والمشركين.
- عرض مواقف الرسل السابقين، وهم يتعرضون للإعراض والتكذيب والسخرية، وما فيها من عظة.
- عرض مشاهد يوم القيامة وصور التكذيب، وما يلقاه أصحابها من عذاب وخزي؛ نتيجة تكذيبهم.
- ثمّ تميَّزتْ هذه السورة بانفرادها بتفصيل حادث الطوفان وغيضه](2).

وهي مكية، إلا قوله: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ ﴾، عن ابن مسعود وابن عباسٍ أنَّ أبا بكرٍ – رضي الله عنهم – قال: يا رسول الله، ما شَيَّبَكَ؟ قال: " شيَّبتني هود، والواقعة، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كُورت"، رواه الترمذي(3) .

---

(1) إضافة من المحقق.

(2) ينظر: في ظلال القرآن – للسيد قطب (1839/4)، والتحرير والتنوير – للطاهر بن عاشور (311/11).

(3) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: تفسير القرآن، باب: سورة الواقعة (402/5) برقم (3297)، عن أبي بكر – رضي الله عنه – يرفعه بزيادة: (والمرسلات)، وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه من حديث ابن عباس، إلا من هذا الوجه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

سبق البحث في حروف أوائل السُّوَر في أول سورة البقرة، فلا يُعاد.

وأما قوله:﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾، أي: هي " مُحْكَمَةٌ في لفظها، مُفصَّلَةٌ في معناها، فهو كاملٌ صورةً ومعنى"[(1)]، قاله مجاهد، واختاره ابن جريرٍ.

وقوله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾، أي: من عند الله الحكيم في أقواله وأحكامه، خبيرٌ [(2)] بعواقب الأمور.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ﴾ أي: نُزلَ هذا القرآن المحكم المُفصَّل بعبادة الله وحده لا شريك له، وقوله:﴿إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ﴾، أي: إني لكم نذير من العذاب إن خالفتموه، وبشيرٌ بالثواب إن أطعتمُوهُ.

وقوله: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾، أي: وآمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة، والتوبة منها إلى الله الكريم، فيما تستقبلونه، وأن تستمروا على ذلك، ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾، أي: في الدنيا، ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ﴾ أي: " في الدار الآخرة" [(3)]، قاله قتادة، كقوله: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ﴾[(4)] الآية...

وقد جاء في الصحيح أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– قال لسعدٍ[(5)]:

---

(1) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (227/15) .

(2) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (303/4): (الخبير)؛ وهو الصحيح .

(3) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (231/15) .

(4) سورة النحل، من الآية (97).

(5) سعد بن أبي وقاص: مالك بن أهيب بن عبد مناف القرشي الزهري، أبو إسحاق، ولد سنة (23 ق هـ)، أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأول من رمى بسهم في سبيل الله، كان سابع سبعة في الإسلام، شهد بدراً وأُحُداً، والمشاهد كلها، وكان مُجاب الدعوة، حيث دعا له الرسول – صلى الله عليه وسلم – بقوله: " اللهم سدِّد سهمَه وأجبْ دعوتَه"، ولما قُتل عثمان – رضي الله عنه–، اعتزل الفتنة ولم يكن مع أَحَدٍ من الطوائف المتحاربة، توفي بالعقيق سنة (55هـ)، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب – لابن عبد البر (607/2)، وأُسْد الغابة في معرفة الصحابة – لابن الأثير(433/2)، والإصابة في تمييز الصحابة – لابن حجر العسقلاني (73/3)، والأعلام – للزركلي (87/3).

"وإنك لن تنفق نفقةً تبتغي بها وجه الله، إلا أُجِرْت بها، حتى ما تُجْعَلَ فِي فِي امْرَأَتِكَ"[1].

وقوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ هذا تهديدٌ شديد لمن تولى، وأعرض عن أوامر الله، وكذَّبَ رُسُلَه، فإن العذاب ينالُهُ يوم معادِهِ لا محالةَ، ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾ أي: معادكم يوم القيامة، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾، أي: وهو القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه، وانتقامه من أعدائِهِ، وإعادته الخلائق يوم القيامة، وهذا مقام الترهيب، كما أن الأول ترغيبٌ.

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

قال ابن عباس: " كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم، وحالَ وقاعِهِم"[2] فأنزل الله هذه الآية. وقال: ﴿يَسۡتَغۡشُونَ﴾، "يُغطُّونَ رؤوسهم"، وقال مجاهد والحسن: أي: "أنهم كانوا يُثْنُونَ صدروهم، إذا قالوا شيئاً، أو عَمِلُوهُ، فَيَظنُّونَ أنهم يَسْتَخْفُوا[3] من الله بذلك، فأعلمهم تعالى أنه حينَ يَسْتَغْشُونَ ثيابَهُم عند منامهم في ظلمة الليل"[4]، ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من القول، وما يعلنون، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، أي: يعلم ما تُكِنُّ صُدورهم من النيّات، والضمائر، وما أحسن ما قاله زهير بن أبي سُلْمَى[5]: **[بحر: الطويل]**.

فــلا تكـتمنَّ اللهَ مــا فــي نفوسـكم ** ليخفـى، ومهمـا يُكـتَمِ اللهُ يَعلَـم
يُـؤخَّرْ فيُوضَـعْ فـي كتـابٍ فيُـدّخرْ ** ليـومِ الحِسَـابِ أو يُعَجَّـلْ فيُنــقَمِ[6]

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الجنائز، باب: رثي النبي – صلى الله عليه وسلم – خزامة بن سعد، (435/1) برقم (1233) وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الوصية، باب: الوصية بالثلث (71/5) برقم (4296)؛ كلاهما من حديث سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه – يرفعه .

(2) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (236/15) .

(3) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (305/4)، (يستقفتحون) وهو الصحيح .

(4) ينظر: نفس المصدر (235/15) .

(5) زهير بن أبي سُلمى ربيعة بن رباح المزني، من مزينة مضر، كان زهير شاعراً جاهلياً لم يدرك الإسلام، وأدركه ابناه كعب وبجير، قال عنه ابن الأعرابي: (كان لزهير في الشعر ما لم يكن لغيره، كان أبوه شاعراً، وخالُه شاعراً، وأخته سلمى شاعرةً، وابناه كعب وبجير شاعرين، وأخته الخنساء شاعرة)، كان زهير يَنْظم القصيدة في شهر، ويُنقحُها ويُهذبُها في سنة، فكانت قصائده تسمى (الحوليات)، من مؤلفاته: (ديوان زهير بن أبي سلمى)، توفي سنة (13 ق. هـ.)، ينظر: الشعر والشعراء – لابن قتيبة الدينوري (21)، والأعلام– للزركلي (52/3)، ومعجم المؤلفين – لعمر كحالة (168/4).

(6) ديوان زهير بن أبي سُلمى، شرح وتقديم: الأستاذ علي حسن فاعور، ط: الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان: (1408هـ – 1988م)، (4) .

لقد اعترف هذا الشاعر الجاهلي بوجود الصانع، وعلمه بالجزئيات، والمعاد، وبالجزاء، وبكتابة الأعمال في الصحف ليوم القيامة، وقرأ ابن عباس: ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ يَثْنُونِي صُدُرُوهُمْ﴾[1]، برفع الصدور على الفاعلية، وهو قريب المعنى.

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾.

أخبر تعالى أنه متكفلٌ بأرزاق المخلوقات من سائر دوابِّ الأرض، بَحْرِيِّها وبَرِّيِّهَا، صغيرها وكبيرها، والله يعلم ﴿مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ﴾، أي: يعلم أين مُنتهى سيرها في الأرض، وأين يأوي إليه من وَكْرِها، وهو مستَوْدَعُهَا. وقال ابن عباس "مستقرها أي: مأواها، ومستودعها، حيث تموت"[2]، وعن مجاهد: " مستقرها في الرحم، ومستودعها في الصُّلبِ، كالتي في الأنعام"[3]، وأن جميع ذلك مكتوبٌ في كتاب عند الله، مُبَيِّنٌ عن جميع ذلك، كما قال تعالى:﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ ﴾[4]، الآية... وقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾[5] الآية...

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

أخبر تعالى عن قدرته على كل شيء وأنه خلق السمٰوٰت والأرض في ستة أيام، وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك، كما في الصحيحين أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – سُئِل عن أول هذا الأمر، يعني بَدْءِ الخَلْقِ، كيف كان؟ قال: " كان

(1) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها – لابن جني (317/1).

(2) ينظر: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس – للفيروزأبادي (181) .

(3) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (242/15) .

(4) سورة الأنعام، من الآية (38) .

(5) سورة الأنعام، من الآية (59).

الله قبل كل شيء، وكان عرشُه على الماء، ثم خلق السمـٰوٰت والأرض، وكتب في الذكر كلَّ شيء "[1]، وقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " كتب الله مقاديرَ الخلائق قبل أن يخلق السمـٰوٰت والأرض بخمسين ألف سنةٍ، قال: وعرشه على الماء"[2]، رواه مسلم، وقال الربيع بن أنس[3]: " وكان عرشُه على الماء، فلما خلق السمـٰوٰت والأرض، قسَّم ذلك الماء قسمين؛ فجعل نصفاً تحت العرش، وهو البحر المسجور"[4]، قال ابن عباس: " سُمِّيَ العرشُ عرشاً؛ لارتفاعه"[5]، وسُئِل عنه: عَلَى أيِّ شيء كان الماءُ؟ قال: "على مَتْن الريح"[6] .

وقوله: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ﴾ أي: خلق السمـٰوٰت والأرض؛ لنفعِ عباده الذين خلقهم؛ ليعبدوه وحده لا شريك له، ولم يَخْلُق عبثاً، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ﴾[7]، الآية، وقال: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا﴾[8]، الآية، فقوله: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾، أي: ليختبركم، ﴿أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ﴾، أي: أخلصُ عملاً على وفْقِ الشرعِ، فمتى فَقَدَ العَملُ واحداً من هذين الشرطين، بَطَلَ وهَبَطَ .

وقوله: ﴿وَلَئِن قُلۡتَ﴾، أي: ولئن أخبرت يا محمد، هؤلاء المشركين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم، مع أنهم يعلمون أن الله هو الذي خلق السمـٰوٰت والأرض، كما قال: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾[9]، وهم مع هذا

---

(1) جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التوحيد، باب: ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾، (هود 7)، ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ (2699/6) برقم (6982)، من حديث عمران بن حُصين – رضي الله عنه – يرفعه.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: القدر، باب: حجاج آدم وموسى عليهما السلام (51/8) برقم (6919)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنه – يرفعه .

(3) الربيع بن أنس بن زياد البكري الخُراساني، كان عالم مرو في زمانه، قال عنه أبو حاتم:(صدوق)، توفي سنة (139هـ)، ينظر: سير أعلام النبلاء لشمس الدين (أبو عبدالله) محمد بن أحمد الذهبي، تح: مجموعة محققين بإشراف شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، (215/11)، وطبقات المفسرين – للأدنه وي (16).

(4) ينظر: تفسير ابن أبي حاتم (2005/6) .

(5) نفس المصدر والصفحة.

(6) نفس المصدر والصفحة.

(7) سورة ص، من الآية (27).

(8) سورة المؤمنون، من الآية (115).

(9) سورة الزمر، من الآية (38).

ينكرون البعث والمعاد يوم القيامة .

وقوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: يقولون كفراً وعناداً، ما نصدّقك على وقوع البعث، وما تَذكُرهُ من ذلك إلا من سحرته فهو يَتَّبِعُكَ على ما تقول .

وقوله: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾أي: ولئن أخرنا العذاب والمؤاخذة عن هؤلاء المشركين إلى أجل معدودٍ، وأمدٍ مَحْصُورٍ، وأوعدناهم به إلى أُمَّةٍ مضروبة، ﴿لَّيَقُولُنَّ﴾، تكذيباً واستعجالاً: ﴿مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾، أي: ما يؤخر هذا العذاب عنا؟ والأمَّةُ تستعمل في الكتاب والسنة في معاني متعددة، ويراد بها هاهنا: الأمد، وتستعمل في الإمام المُقْتَدَى به، كقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾(1)، وتستعمل في المِلَّة كما قال المشركون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾(2)، وتستعمل في الجماعة كما قال﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾(3)، وغيرها من الآيات.

﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ أي: لا يكون مصروفاً عنهم،﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: نزل بهم ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: من استهزائهم .

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ .

أخبر تعالى عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة، إلا من رحم الله من عبادِهِ المؤمنين، فإنه إذا أصابته شدة بعد نعمةٍ، حصل له يأسٌ وقنوطٌ من الخير، بالنسبة إلى المستقبل، وكفرٌ وجحودٌ لماضي الحال، كأنه لم ير خيراً، ولا يرجو بعد ذلك فرجاً، وهكذا إذا أصابته نعمةٌ بعد نقمةٍ، ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ﴾، أي: لا ينالني بعد هذا ضَيْمٌ ولا سوءٌ، ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أي: فَرِحٌ بما في يَدِهِ، بَطِرٌ فخورٌ على غيره.

(1) سورة النحل، من الآية (120).

(2) سورة الزخرف، من الآية (22).

(3) سورة القصص، من الآية (23).

قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾، أي: في الشدائد والمكاره، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: في الرخاء والعافية، ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ أي: بما يصيبهم من الضراء، ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾، بما أسلفوهُ في زمن الرخاء، كما جاء في الحديث: " والذي نفسي بيده، لا يُصِيبُ المؤمن همٌّ ولا غمٌّ ولا نَصَبٌ[1] ولا وَصَبٌ[2] ولا حزنٌ، إلا كفَّر الله عنه بها خطاياه، حتى الشوكة يشاكها في سبيل الله "[3]، وفي الصحيحين مثله عن أبي سعيد[4]، وفيهما أيضاً: والذي نفسي بيده، لا يقضي الله للمؤمن قضاءً، إلا كان؛ خيراً له، إن أصابته سراء، فشكر، كان خيراً لهُ، وإن أصابته ضراء، فصبر، كان خيراً لهُ، وليس ذلك لأحد غير المؤمن [5].

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ .

هذا تسلية منه تعالى لرسوله عما كان يتعنت به المشركون، فيما كانوا يقولونه عن الرسول، كما أخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾[6] الآية، فأمر تعالى رسولَه وأرشدَهُ إلى أن لا يضيق بذلك منهم صَدْرُهُ، ولا يُثْنِيَنَّه عن دعائهم إلى الله تعالى آناء الليل وأطراف النهار كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ

---

(1) (النَّصَبُ): الإعياءُ من العناءِ. ينظر: لسان العرب لابن منظور (758/1)، الجذر: " ن ص ب".

(2) (الوَصَبُ): الوجع والمرض، ينظر: لسان العرب – لابن منظور (797/1)، الجذر: " و ص ب".

(3) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: البر والصلة والأدب، باب: ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزنٍ (16/8) برقم (6733)، بسنده عن أبي سعيد وأبي هريرة – رضي الله عنهما –، أنهما سمعا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول: " ما يصيب المؤمن من وَصَبٍ ولا نَصَبٍ ولا سَقَمٍ ولا حَزَنٍ حتَّى العمَّ يُهِمُّهُ، إلا كُفِّر به من سيئاته ".

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المرضى، باب: ما جاء في كفارة المرضى (2137/5) برقم (5318)، وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب: البر والصلة والأدب، باب: ثواب المؤمن فيما يصيبه برقم (6733)؛ كلاهما من حديث أبي سعيد وأبي هريرة – رضي الله عنهما– مرفوعاً بألفاظٍ متقاربة.

(5) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الزهد والرقائق، باب: "المؤمن أمره كله خير"(227/8) برقم (7692)، بسنده عن صهيب – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: " عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابتهُ سرَّاءُ، شكرَ، فكان خيراً له، وإن أصابتهَ ضرَّاءُ، صبرَ، فكان خيراً لهُ ".

(6) سورة الفرقان، من الآية (7).

صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾[1]، وقال هاهنا: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ ﴾، أي: لقولهم ذلك، وإنما أنت نذير، ولك أسوة بإخوانك من الرسل قبلك، فإنهم كُذِّبُوا وأُوذُوا، فصبروا، حتى أتاهم نصر الله .

ثم بيَّن تعالى إعجازَ القرآن، فإنه لا يستطيع البشر الإتيان بمثله، ولا بعشرِ سورٍ من مثله؛ لأن كلام الرَّبّ لا يُشبهُهُ كلام المخلوقين، كما أن صفاتِه لا تُشبهُ صفاتِ المُحْدَثَاتِ، وذاته لا يُشْبِهُهَا شيءٌ، تعالى وتقدَّس، ثم قال: ﴿ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ ﴾ أي: فإن لم يأتوا بمعارضة ما دَعَوْتَهم إليه، فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك، فإن هذا الكلام مُنزَّلٌ من عند الله، متضمناً عِلمَهُ وأمرَهُ ونَهْيَهُ، وأنه ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾، لفظهُ استفهامٌ، ومعنَاهُ أمرٌ؛ أي: أَسْلِمُوا.

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾.

قال ابن عباس: "إن أهل الرياء يُعطَوْن بحسناتهم في الدنيا، وذلك أنهم لا يُظلمون نقيراً"[2]، ونزلت في أهل الرياء، وقيل: في أهل الكتاب، أي: "من عمل صالحاً التماس الدنيا صوماً أو صلاةً أو تهجداً بالليل لا يعمله، إلا التماس الدنيا، يقول الله أوفيه الذي التمس في الدنيا من المتشابه[3]، وحبط عمله الذي كان يعمله لأجل الدنيا، وهو في الآخرة من الخاسرين" [4]، قاله مجاهد وغيرُ واحدٍ، وقال قتادة: "من كانت الدنيا همه وسدته[5]، وطلبته ونيته، جازاهُ الله بحسناته في الدنيا، ثم يُفْضِي إلى الآخرة، وليس له حسنة، يُعطى بها جزاءً، وأما المؤمن المخلص، فيجازَى بحسناته في الدنيا، ويثاب عليها في الآخرة"[6]، وقد ورد في الحديث المرفوع نحْوٌ من هذا[7]، كما قال تعالى:

---

(1) سورة الحجر الآية (97).

(2) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن _ للطبري (263/15).

(3) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (311/4) : " المثابة"، وهو الصحيح .

(4) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (263/15) .

(5) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (310/4) : " وسدمه "، وهو الصحيح .

(6) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (264/15).

(7) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: الزهد، باب: منه (642/4) برقم (2465) عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – مرفوعاً ونصُّهُ:=

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ﴾[1]، الآيـة...، وقولـه: ﴿ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أي: نوفِّر لهم جزاء أعمالهم، بِسِعَةِ الرزق ودفع المكاره، ﴿ وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ أي: لا ينقص حظهم في الدنيا.

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

أخبر تعالى عن المؤمنين الذين هم على فطرة الله، التي فطر الناس عليها، من الاعتراف له بالتوحيد، كما قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ ﴾[2] الآية...، وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " كل مولود يُولد على الفطرة، فأبواه يُهوّدانه، ويُنَصِّرانِهِ، ويُمَجِّسَانِهِ، كما تُولَد للبهيمة جَمْعَاءَ، هل تَحسون فيها من جَدْعَاء"[3] فالمؤمن باقٍ على هذه الفطرة، وجاءه شاهدٌ من الله تعالى، وهو ما أوحاه الله للأنبياء من الشرائع المُطهَّرة المختتمة بشريعة محمد – صلى الله عليه وسلم –، ولهذا قال ابن عباس وكثير من الأئمة في قوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾: "إنه جبريل – عليه السلام–"[4]، وعن عليّ والحسن وقتادة: هو "محمد – صلى الله عليه وسلم –"[5]، وكلاهما قريب في المعنى؛ لأن كلاًّ منهما بلّغَ الرسالة كما أُمِرَ، جبريل إلى محمدٍ، وهو – صلى الله عليه وسلم – إلى الأمة.

ثم قال: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ ﴾، أي: من قبل القرآن التوراةُ ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾، أي: أنزله الله تعالى إلى تلك الأمة إماماً لهم، وقُدوَةً يقتدون بها، ورحمة من الله بهم،

= "من كانت الآخرة همَّهُ جعل الله غِناهُ في قلبه وجمعَ لهُ شملهُ وأتتهُ الدنيا وهي راغمةٌ، ومن كانت الدنيا همّهُ جعل الله فقرهُ بين عينيهِ وفرَّقَ عليه شملهُ ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدّرَ لهُ " .

(1) سورة الشورى، من الآية (20) .

(2) سورة الروم، من الآية (30) .

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي، فمات، هل يُصلى عليه؟ وهل يُعرض على الصبي الإسلام؟ (456/1) برقم (1292)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة، وحكم موت أطفال الكفار، (52/8) برقم (6926)؛ كلاهما من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – يرفعه بألفاظ متقاربة.

(4) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس – للفيروزأبادي (183) .

(5) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (271/15).

فمن آمن بها حق الإيمان، قادَهُ ذلك إلى الإيمان بالقرآن، ولهذا قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ﴾، ثم قال تعالى متوعداً لمن كذَّبَ بالقرآن أو بشيء منه ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ أي: ومن كفَرَ بالقرآن من سائر طوائف بني ادم مِمَّن بلغه القرآن، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾[1]، ﴿فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ﴾، كما في صحيح مسلم أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: " والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهوديٌ أو نصرانيٌ ثم لا يؤمن بي، إلا دخل النار"، وفي رواية: " ثم يموت، ولم يؤمن بالذي أُرسلت به، إلا كان من أصحاب النار" [2].

وقوله: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: القرآن حقٌ من الله لا مِرْيَةَ فيه، ولا شكَّ، كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[3].

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ كما قال: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾[4].

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ .

بيَّنَ الله حال المُفْترينَ عليه، وفضيحتهم في الآخرة على رؤوس الخلائق من الملائكة والرسل وسائر البشر، كما في الصحيحين: أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: " إن الله تعالى يُدْنِي المؤمن يوم القيامة، فيضعُ عليه كَنَفَهُ، ويَسْتُرُهُ من

---

(1) سورة الأعراف، من الآية (158) .

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته (93/1) برقم (403)، من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – يرفعه، ونصُهُ: " والذي نفسُ محمد بيدهِ لا يسمعُ بي أحدٌ مِنْ هذه الأمة يهوديٌ ولا نصرانيٌ، ثم يموتُ، ولم يؤمن بالذي أرسلتُ به، إلا كان من أصحاب النار" .

(3) سورة السجدة الآية (1،2) .

(4) سورة يوسف الآية (103) .

الناس، ويُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ، ويقول: أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرَّره بِذُنُوبِهِ، ورأى نفسه أنه قد هلكَ قال: فإني قد سَتَرْتُهَا عليك في الدنيا، وإني أغْفِرُهَا لك اليوم، ثم يُعطَى كتاب حسناتهِ، وأمَّا الكفار والمنافقون: ﴿ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾"(1).

وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي: يردُّون الناس عن اتباع الحق، وسلوك طريق الهُدى الموصلة إلى الله، ﴿ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أي: ويُرِيدُونَ أن تكون طريق الجنة عِوجاً غير مُعتدلة.

﴿ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ أي: جاحدون بها، مُكذِّبونَ بوقوعِها وكونِها، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ ﴾، أي: هاربين فاتنين في الأرض، ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ﴾، أي: بل كانت تحت قهرهِ وغلبتهِ، وفي قبضتهِ وسلطانهِ، وهو القادرُ على الانتقام منهم في الدنيا قبل الآخرة، ولكن ﴿ يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾(2)، وفي الصحيحين مرفوعاً: " إن الله ليُملي للظالم، حتى إذا أخذه، لم يُفلِتهُ"(3)، ولهذا قال: ﴿ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ ﴾، وذلك؛ لأنه – تعالى- جعل لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدةً، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء، بل كانوا صُمّاً عن سماع الحق، عُمْياً عن اتّباعه، ولهذا [فهم](4) مُعذَّبونَ على كلِّ أمر تَركوه، وعلى كل نهيٍّ ارتكبوه فإن الأصحَّ أنهم مكلَّفون بفروع الشرائع، أمْرِهَا ونَهْيِهَا، بالنسبة إلى الدار الآخرة.

وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ﴾، أي: لأنهم أُدخلوا ناراً حَاميةً، فهم معذَّبُون فيها، لا يُفتَّرُ عنهم من عذابها طَرْفَةَ عَينٍ، ﴿ وَضَلَّ عَنۡهُم ﴾ أي: ذهبَ عنهم

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المظالم، باب: قول الله تعالى ﴿ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، (862/2)، برقم (2309)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: التوبة، باب: قبول توبة القاتل ولو كثر قتله، (105/8)، برقم (7191)؛ كلاهما من حديث ابن عمر – رضي الله عنهما – مرفوعاً بألفاظٍ متقاربة.

(2) سورة إبراهيم، من الآية (42).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: سورة هود، (1726/4)، برقم (4409)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: البر والصلة والأدب، باب: تحريم الظلم، (19/8) برقم (6746)؛ كلاهما من حديث أبي موسى – رضي الله عنه – يرفعه.

(4) زيادة من المحقق يقتضيها السياق.

﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ من دون الله من الأندادِ والأصنامِ، فلم يُغنِ عنهم شيئاً، بل ضرَّتهُمْ كُلَّ الضرر.

وقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾، أخبر تعالى عن حالهم أنهم أخسرُ الناس صفقةً في الآخرة؛ لأنهم استبدلوا الدركات بالدرجات، واعتاضُوا عن نعيم الجِنانِ بحميمٍ آنٍ، ومعنى ﴿لَا جَرَمَ﴾: حقٌّ، وبَلَى، ولَا مَحَالةَ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

لمَّا ذكر تعالى حالَ الأشقياء، ثنَّى بذكر السُّعداء، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فآمنت قلوبهم، وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة، قولاً وفعلاً، من الإتيان بالطاعات، وترك المنكرات، ولهذا ورثوا الجنات المشتملة على الغُرف العالياتِ، والنظر إلى خالق الأرض والسمٰوٰت، وهم في ذلك خالدون، لا يموتون ولا يَهْرَمُون .

وقوله:﴿وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، أي: خشعوا لربهم وخافوا، ثم ضرب الله – تعالى– مثل المؤمنين والكافرين، فقال: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾، أي: الكفار والمؤمنين؛ فأولئك كالأعمى والأصم، وهؤلاء كالبصير والسميع، فالكافر أُعمي عن وجه الحق في الدنيا، وفي الآخرة لا يهتدي إلى الخير، ولا يعرفه، أصمٌّ عن سماع الحُجج، فلا يسمع ما ينتفع به، وأما المؤمن، ففطنٌ ذكيٌّ بصيرٌ بالحق، يُميز بينه وبين الباطل، فيتبع الخير، ويترك الشرَّ، سميعٌ للحجة، يُفرِّق بينه وبين الشُّبهةِ، فلا يروح عليه باطلٌ، فهل يستوي هذا وذاك، فلا تعتبرون وتفرقون بين هؤلاء وهؤلاء؟! كما قال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾[1] الآية...

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾.

---

(1) سورة فاطر الآية (19).

أخبر تعالى عن نوح – عليه السلام – أنه قال لقومه المشركين: ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي: ظاهر النذارة لكم من عذاب الله، إن أنتم عبدتم غير الله، ولهذا قال: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾، أي: إن استمررتم على ما أنتم عليه عذَّبكم الله عذاباً مُؤلماً مُوجعاً.

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ ﴾، أي: الكُبراءُ والسادةُ منهم، ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾، أي: لست بمَلِكٍ، ولكنك بشرٌ، فكيف أُوحيَ إليك من دوننا؟! ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾، أي: السَّفَلةُ، ولم يَتَّبِعْكَ الأشراف ولا الرؤساء مِنَّا، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن تَرَوٍّ منهم ولا فكرة ولا نظرة، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك واتبعوك، ﴿ بَادِيَ ٱلرَّأْيِ ﴾ أي: في أول بادي الرأي، بلا تأمل، ثم ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾، أي: ما رأينا لكم علينا فضيلة في خَلْقٍ ولا خُلقٍ ولا رِزقٍ ولا حَالٍ، لمَّا دخلتم في دينكم هذا، ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ أي: فيما تدعونه لكم من البرِ والصلاحِ والعبادةِ والسعادةِ في الآخرةِ، إذا صِرْتُم إليها. (هذا اعتراض الكفرة الجهلة).

ثم أخبر تعالى عمَّا ردهم به نوح بقوله: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ .

أي: أرأيتم إن كنت على يقينٍ وأمرٍ جَلِيٍّ ونُبُوّةٍ صادقةٍ، وهي الرحمة العظيمة من الله به وبهم ﴿فَعُمِّيَتْ ﴾، أي: خفيت، والتبستْ عليكم، فلم تهتدوا إليها، ولا عرفتم قدرها، بل بادرتم إلى تكذيبها وردِّها، ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ أي: أنلزمكم تلك الرحمة والبيّنة، وأنتم معرضون لا تريدونها، قال قتادة: "لو قَدِرَ الأنبياءُ أن يلزمُوا قومهم، لألزموهم، ولكن لم يَقْدِرُوا"(1) .

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

---

(1) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (299/15) .

أي: لا أسألكم على نُصحي لكم مالاً أجرةً، آخُذُها منكم، إنما أبتغي الأُجرةَ على[1] الله تعالى.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾ كأنَّهم طلبوا منه أن يطْرُدَ المؤمنين عنه احتشاماً ونفاسةً منهم أن يجلسوا معهم، كما سألَ أمثالُهم خاتم الرُّسل أن يَطرُدَ عنه جماعة من الضعفاء، ويجلس معهم مجلساً خاصاً؛ فأنزل الله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾[2] الآية...

﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ أي: صائرُون إلى ربهم في المعادِ، فيُخزِي من طردهم، وقوله:﴿مَن يَنصُرُنِي﴾، أي: من يمنعني من عذاب الله ﴿إِن طَرَدتُّهُمْۚ﴾؟ أفلا تتعظون؟!

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًاۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أخبرهم أنه رسول من الله، يدعوهم إلى عبادته وحده لا شريك له، ولا يسألهم على ذلك أجراً، بل هو يدعو من لَقِيَهُ، من شريفٍ ووضيعٍ؛ فمن استجاب له، فقد نجا. وأخبرهم أنه لا يقدرُ على التصرف في خزائن الله، ولا يعلم من الغيب إلا ما أطْلعهُ الله عليه، وليس هو بملكٍ من الملائكة، بل بشرٌ مرسلٌ مؤيدٌ بالمعجزات، ولا أقول عن هؤلاء الذين تحتقرونهم وتزدرون[3] بهم أنه ليس لهم عند الله ثواب على إيمانهم، ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْۖ﴾، فإن كانوا مؤمنين باطناً كما هو الظاهر من حالهم، فلهم الحُسنى، ولو قطع لهم أحدهم بِشرٍّ بعد ما آمنوا، لكان ظالماً قائلاً ما لا علم له به .

﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ .

هذا إخبار عن استعجال قوم نوحٍ عذابَ الله ونقمته، والبلاء مُوكَلٌ بالمنطق،

(1) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (317/4)، (من) وهو الصحيح .
(2) سورة الأنعام، من الآية (52) .
(3) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (318/4)، (تزدرونهم) وهو الصحيح .

أي: يا نوح، حَاجَجْتَنَا فأكثرتَ من ذلك، ونحن لا نتبعكَ، ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ أي: من النقمة والعذاب، ادعُ علينا بما شئتَ، ولْيَأْتِنَا مَنْ يدعونه[1]، ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾، أي: إنما الذي يعاقبكم ويُعجِّلُها لكم هو الله، الذي لا يُعجِزُه شيءٌ. ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ أي: أيُّ شيء يُجدِي عليكم إبلاغي، وإنذاري إيَّاكم، ونُصحي، إن كان الله يريد إغواءكم؛ أي: إضْلالَكم وإهْلاَكُكم، ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾، أي: هو مالكُ أزمَّة الأمور، الحاكم العادل الذي لا يجورُ، وله الأمر، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيُجازيكم بأعمالكم .

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ .

هذا كلام معترض في وسط هذه القصة، مؤكدٌ لها ومقررٌ لشأنها، قال تعالى لنبيه – صلى الله عليه وسلم –: أم يقول هؤلاء الكفرة الجاحدون: افترى هذا من عنده ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى﴾، أي: فإثمُ ذلك عليَّ، ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾، أي: ليس ذلك مُفْتَعَلاً ولا مُفْتَرًى؛ لأني أعلم ما عند الله من العقوبة لِمَن كَذَبَ عليه .

﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ .

أخبر تعالى أنه أوحى إلى نوحٍ لمَّا استعجل قومُه عذابَ الله بهم، فدعا عليهم نوح بقوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[2]، فعند ذلك أُوحِيَّ إليه: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾، فلا تحزن عليهم، ولا يَهُمَّنَّكَ أَمْرُهُم، واصنعِ السفينةَ بِمَرْأًى منا، ﴿وَوَحْيِنَا﴾، أي: بعلمنا لك ماذا تصنعه.

---

(1) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (318/4): (تدعو به).

(2) سورة نوح، الآية (26) .

﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾، أي: فـي إمهـال الكفـار، وابنـه كنعـان، وامرأتـه، فإنهمـا مُهْلَكَـانِ مـع القـوم، قـال بعـض السـلف: "أَمَـرَهُ الله تعـالى أن يَغـرز الخشـب، ويقطعه ويُيْبِسَهُ، وكـان ذلك في مائـةِ سنةٍ، ونجرها فـي مائـة سنة أخرى، وقيل: في أربعين سنة"[1]، والله أعلم، وذكر ابن إسحاق[2] عن التوراة: " إن الله أمَرَهُ أن يصنعها من خشب السَّاجِ[3]، وأن يجعل طولَها ثمانين ذراعاً، وعرضـها خمسين ذراعاً، وأن يُطلىَ ظاهرها وباطنها بالقار[4]، وأن يجعل لها جُؤجؤا[5] أزور[6]، يشق الماء"[7]، وقال قتادة: "حولها ثلاثمائة ذراعٍ في عرض خمسين"، وعن الحسن: "طولها ستمائة ذراعٍ في عرض ثلاثمائة"، وعن ابن عباس: " طولها ألف ومائتا ذراعٍ في عرض ستمائة ذراعٍ".

قـالوا كلهـم: "ارتفاعهـا فـي السـماء ثلاثـين ذراعـاً، ثـلاث طبقـات متسـاوية، فالسـفلى للـدواب والوحـوش، والوسـطى للإنسـان، والعليـا للطيـور، وكـان بابهـا فـي عرضها، ولها غطاءٌ من فوقها مُطبَقٌ عليها"[8] .

وروى ابن جريرٍ عن ابن عباس: "لمَّا كثرتِ الدوابُّ، أُوحيَ إلى نوحٍ أن اغْمِز ذَنَبَ الفيلِ، فغمزهُ فوقع خنزيرٌ وخنزيرةٌ، فأقبلا على الرَّوث، فلمَّا وقع الفأرُ يخَرِزُ السفينة – يَقرضُـها–، أُوحيَ إلـى نـوحٍ أنِ اضـرب بـين عينـي الأسـد، فضـرب، فخَرج سِنَّوْرٌ وسِنوْرَة، فأقبلا على الفأْرِ" [9] .

وقولـه: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ﴾ أي: يَطْنِـزُونَ[10]

(1) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (310/15) .

(2) محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء، المدني الإمام الحافظ مصنف المغازي، كان أحد أوعية العلم، حبراً في المغازي والسِّيَر، قال عنه أحمد بن حنبل: حسن الحديث، وقال ابن عيينة: ما رأيت من يتهم ابن إسحاق، من مؤلفاته: (السيرة النبوية)، و(كتاب الخلفاء)، و(كتاب المبدأ)، توفي ببغداد سنة(151هـ)، ينظر: تذكرة الحفاظ للذهبي (130/1)، والأعلام – للزركلي (28/6)، ومعجم المؤلفين – لعمر كحالة (44/9).

(3) السَّاجُ: ضربٌ عظيمٌ من الشَّجرْ، ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس– للزبيدي (49/6)، الجذر: " س ا ج" .

(4) القارُ: الزِّفْتُ، ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس– للزبيدي (528/4)، الجذر: " ز ف ت" .

(5) الجُؤجُؤ: الطائر والسفينة صدرهُما، ينظر مختار الصحاح – للرازي (119)، الجذر: " ج أ ج أ " .

(6) الأَزْوَرُ: المائل، ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس– للزبيدي (463/11)، الجذر: " ز و ر" .

(7) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (314/15) .

(8) ينظر: المصدر نفسه (311/15) .

(9) ينظر: المصدر نفسه (15/ 312) .

(10) الطَّنْزُ: السخرية، ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس – للزبيدي (98/15)، الجذر: " ط ن ز " .

به، ويكذبون بما تَوَعَدَّهُمْ من الغرق، ﴿قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا﴾ إلى آخره...، وعيد شديد وتهديد أكيد ﴿مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾، أي: يُهينُهُ في الدنيا، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾، أي: دائمٌ مستمرٌّ أبداً.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾.

هذه مواعدة من الله – تعالى– لنوحٍ، إذا جاء أمر الله من الأمطار المتتابعة، التي لا تُقْلِعُ ولا تَفْتُرُ، بل هو كما قال: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ﴾ إلى قوله: ﴿لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾[1].

وقوله: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾، قال ابن عباس: هو وجه الأرض، أي: صارت الأرض عيوناً، تفورُ، حتى فارت الماء من التنانير التي هي مكان النار، صارت تفورُ ماء، وهذا قول الجمهور، وعن علي– رضي الله عنه – قال: " التَنُّورُ فَلَقُ الصُّبحِ، وتنوير الفجر؛ وهو ضياؤهُ وإشراقهُ؛ والأول أظهر"[2]، وعن مجاهدٍ وغيره: "كان هذا التنور بالكوفة"، وعن ابن عباس: "عينٌ بالهندِ"[3]، وقيل: "عينٌ بالجزيرة، يقال لها: عينُ الوَرْدَةِ"[4]، فحينئذٍ أمر الله نوحاً أن يحمل معه في السفينة من كل زوجين من صُنُوف المخلوقات ذوات الأزواج، قيل: وغيرها من النباتات اثنين، ذكرٌ وأنثى، فقيل: "أول من أُدخل من الطيور الدُّرَّة، وآخر من أُدخل من الحيوانات الحمارُ، فدخل إبليس متعلقاً بِذَنَبِهِ، فجعل يقول له نوح: مَالكَ! ويْحَكَ! ادْخُل، فينهضُ ولا يقدرُ، فقال: ادخُل، وإن كان إبليس معك، فدخلا في السفينة"[5]. وقال ابن مسعود: "إنهم لم يستطيعوا أن يحملوا معهم الأسد، حتى أُلقيت عليه الحُمَّى"[6].

وقوله: ﴿وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾ أي: واحمل فيها أهل بيتك وقرابتك، ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾ أي: ممن لم يؤمن بالله، وكان منهم ابنه يام، الذي انعزل،

---

(1) سورة القمر الآية (11) .

(2) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (318/15).

(3) ينظر: المصدر نفسه (15/ 320) .

(4) ينظر: تفسير ابن أبي حاتم (2029/6).

(5) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (314/15) .

(6) ينظر: تفسير ابن أبي حاتم (2030/6).

وَحدهُ وامرأة نوحٍ، وكانت كافرة.

وقولـه: ﴿وَمَنۡ ءَامَنَۚ﴾، أي: مِـن قومـك، ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾، أي: نـزرٌ يسيرٌ، مع طول المدة، والمقام بين أظهرهم، ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً، فعن ابن عباس: "كـانوا ثمـانين نفسـاً، معهـم نسـاؤهم"، وعـن كعـب الأحبـارِ[1]: " كـانوا اثنـين وسبعين نفساً"، وقيل: "كانوا عشرة"، وقيل: "إنما كان نوح وبنوه الثلاثة: سام، وحام، ويافث، وكنائنه الأربع، نِسَاءُ هؤلاء الثلاثة، وامرأة يام"، وقيل: "امرأة نوح"، والصحيح خلافه؛ لأنها كانت كامرأة لوطٍ، فأصابها ما أصاب الكفار، كما أصاب امرأة لوط ما أصاب قومها[2]، و الله أعلم.

﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡر۪ىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾ .

أي: قال نوح للذين آمنوا يَحمِلُهُم معه في السفينة: ﴿ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡر۪ىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾، أي: بسم الله، يكون جَرْيُهَا على وجه الماء، وبسم الله، يكون منتهى سيرها، وهو رُسُوها، وقرأ أبو رجا العُطاردي[3]: ﴿بسم الله مُجْرِيها ومُرسِيهَا﴾[4]، ولهذا يُسْتَحَبُّ التسمية في ابتداء الأمور، وعند الركوب على السفينة، وعن ابن عباس عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: " أمانُ أمتي من الغرق إذا ركبوا في السُّفُنِ أن يقولوا: بسم الله، ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ

---

(1) كعب بن ماتع بن ذي هجن الحميري ، أبو إسحاق، تابعي كان من أوعية العلم، ومن كبار علماء أهل الكتاب، أسلم في زمن أبي بكر – رضي الله عنه – ، أخذ عنه الصحابة أخبار الأمم الغابرة، وأخذ هو عن الصحابة الكتاب والسنّة، توفي بحمص سنة (32هـ)، ينظر: الطبقات الكبرى – لابن سعد (445/7)، وتذكرة الحفاظ – للذهبي (42/1)، والأعلام – للزركلي (228/5).

(2) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (325/15) .

(3) عمران بن تيم، وقيل عمران بن ملحان، وقيل عطارد بن برز، أبو الرجاء العُطاردي، كان ثقة في الحديث، وله رواية وعلم بالقرآن، أمَّ قومه أربعين سنة في المسجد، حيث كان يختم القرآن في شهر رمضان كل عشرة أيام، توفي سنة (117هـ)، ينظر: الطبقات الكبرى – لابن سعد (138/7)، وصفة الصفوة – لابن الجوزي (220/3).

(4) ينظر: السبعة في القراءات – لابن مجاهد البغدادي (333) .

مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾"(1)، رواه الطبراني. وغيرها من الآيات التي يُقْرَنُ فيها بين نقمته ورحمته.

وقوله: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ أي: السفينة سائرةٌ بهم على وجه الماءِ، الذي قد طبقَ جميع الأرض، حتى علا على رؤوس الجبال، وارتفع عليها بخمسة عشر ذراعاً، وقيل: بثمانين مِيلاً، وكانت السفينة سائرة على وجه الماء بإذن الله، وتحت كنفِهِ، وحراسَتِهِ وامتنانِهِ، كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾(2)، الآية.

وقوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾، هذا هو الابن الرابع، وكان اسمه "يام"، وكان كافراً، دعاه أبوه عند ركوب السفينة أن يُؤمِنَ ويركب معهم، ويُؤْمَنَ الغرق، ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِۚ﴾، اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغُ إلى رؤوس الجبالِ، وأنه لو تعلَّقَ برأس جبلٍ لنجَّاهُ ذلك من الغرق فقال له أبوهُ نوح: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، أي: ليس شيءٌ يعصمُ من عذاب الله، إلا من رحمه الله، والعاصم هنا بمعنى المعصوم، ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ﴾، أي: فصار ﴿مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾.

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ .

أخبر تعالى أنه لمَّا أغرق أهل الأرض كلهم، غير أصحاب السفينة، أمر الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها، واجتمع عليها، وأمر السماء أن تُقلِعَ عن المطر، ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾، أي: شرعَ في النقص، ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾، أي: فرغ من أهل الأرض قاطبة، ممَّن كفر بالله، لم يَبْقَ منهم ديَّار، ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ السفينة بمن فيها، ﴿عَلَى ٱلْجُودِىِّۖ﴾، قال مجاهد: "هو جبل بالجزيرة، تشامخت الجبال يومئذٍ من الغرق، وتطاولت، وتواضع هو لله -عز وجل-، فلم يَغْرَقْ، وأرسَتْ عليه سفينة نوحٍ"، قال قتادة: "استوت عليه شهراً، حتى نزلوا منها"(3)، وقد أبقى الله سفينة نوحٍ بباقردى من

---

(1) أخرجه أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني في الأوسط، تح: طارق بن عوض الله بن محمد، وعبدالمحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، (1415هـ)، (184/6) برقم (6136)، عن ابن عباس – رضي الله عنه – يرفعه .

(2) سورة القمر، الآية (13).

(3) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (336/15) .

أرض الجزيرة، عبرةً وآيةً، حتى رآها أوائل هذه الأمة، وقال ابن عباس: "إن أهل السفينة كانوا فيها مائة وخمسين يوماً، وأن الله وجَّه السفينة إلى مكةَ، فدارت بالبيت أربعين يوماً، ثم وجَّهها إلى الجوديّ، فاستقرَّت عليه، ثم بعث نوح الغراب؛ ليأتيه بخبر الأرض، وذهب[1]، فوقع على الجيف، فَأَبْطَأ عليه، فبعث الحمامة، فَأَتَتْهُ بورق الزيتون، ولطَّخَتْ رجلها بالطين، فعرفَ نوحٌ أن الماء قد نضب، فهبط إلى أسفل الجوديّ، فابتنى قريةً، سمَّاها ثمانين، فأصبحوا ذات يومٍ، وقد دارت ألسنتهم على ثمانين لغةً، إحداها لسان[2] العربي، فكان بعضهم لا يفْقَهُ كلام بعضٍ، وكان نوح -عليه السلام- يُعَبِّرُ عنهم"[3]، وكان خروجهم من السفينة يوم عاشوراء[4]، وعلى وفْقِهِ حديث غريب[5] .

وقوله: ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: هلاكٌ وخسارٌ لهم، وبُعدٌ من رحمة الله، فإنهم قد هلكوا عن آخرهم، وعن عائشة أن النبي - صلى الله عليه وسلم- قال: " فلو رَحِمَ الله من قوم نوحٍ أحداً، لرحِمَ أم صبي"[6]، رواه ابن جرير، وكانت امرأةٌ لها صبيٌّ، تُحِبُّهُ حُبًّاً شديداً، فخرجت به إلى الجبل، فلما استوت على الجبل، وبلغ الماء رقبتها، رَفَعَتْهُ بيدها، فغرِقَا.

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾.

هذا سؤال استعلام وكشفٍ من نوحٍ عن حال ولده، الذي غَرِقَ: ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي ﴾، أي: قد وعدْتني بنجاة أهلي، ووعدك الحق الذي لا يُخْلَفُ، فكيف

---

(1) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (324/4)، (فذهب)؛ وهو الصحيح.

(2) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (324/4)، (اللسان)؛ وهو الصحيح.

(3) ينظر: تفسير ابن أبي حاتم (2032/6) .

(4) أخرجه الطبري في تفسيره (335/15) مرفوعاً ونصه: قال رسول الله _ صلى الله عليه وسلم_ :" في أول يوم من رجب ركب نوح السفينة، فصام هو وجميع من معه، وجرت بهم السفينة ستة أشهر، فانتهى ذلك إلى المحرم، فأُرسيت السفينة على الجودي يوم عاشوراء، فصام نوح، وأمر جميع من معه من الوحش والدواب، فصاموا شكراً لله ".

(5) مثاله ما أخرجه في تفسيره (335/15)، عن ابن جريجٍ قال:" كانت السفينة أعلاها للطير، ووسطها للناس، وفي أسفلها السباع، وكان طولها في السماء ثلاثين ذراعاً، ودفعت من عين وردة يوم الجمعة، لعشر ليالٍ مضين من رجب، وأَرْسَيَتْ على الجودي، يوم عاشوراء، ومرت بالبيت، فطافت به سبعاً، وقد رفعه الله من الغرق، ثم جاءتِ اليمنَ، ثم رجعت".

(6) أخرجه الطبري في تفسيره (311/15).

غـرق! ﴿وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾، ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾، الـذي وُعِـدْتَ بنجـاتهم؛ لأَنَّا إنما وعدناك بنجاة مَن آمن مِن أهْلِكَ، إلا من سبق عليه القول، وكان هذا الولد ممن سبق عليـه القول بـالغرق؛ لكفره، ومخالفتـه أبـاهُ، نبـيَّ الله نوحـاً، وقد نـصَّ غَيْرُ واحدٍ من الأئمة على تخطئة من ذهب في تفسير هذا إلى أنه ليس منك، إنما هو ولدُ زِنْية، وحُكيَ عن مجاهد وغير واحدٍ: أنه ليس بابنِهِ، بل هو ربيبُهُ[1]، قال ابن عباس وغير واحدٍ: " ما زنت امرأة نبيّ قطّ"[2]، وهذا حقٌ؛ لأنه – تعالى– أَغيْرُ من أن يُمَكِّنَ من امرأةٍ نبي هذه الفاحشة، ولهذا غَضِبَ الله على مَنْ رَمَى أمَّ المؤمنين عائشةَ بِنْتَ الصديق – رضـي الله عنهمـا – بالفاحشـة، وأنكـر علـى مـن تكلَّـم بـه، وأشـاعَهُ، ولهـذا أنزل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ﴾[3]، الآيات...، قال ابن عباس: "هو ابنـه، غيـر أنـه خالَفَهُ في العمل والنية"[4]، وعن أم سلمة أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قرأها ﴿إِنَّهُۥ عَمِلَ غَيۡرَ صَٰلِحٍ﴾[5] رواه أحمد؛ أي: بكسر الميم وفتح اللام على الفعل، ونصب (غير) بالمفعوليـة؛ أي: عَمِلَ الشركَ والكفرَ، وأمَّا القراءة العامـة، فبرفـع الـلام وتنوينـه ورفـع (غير)؛ أي: أن سؤالك إياي أن أُنْجِيَهُ عملٌ غيرُ صالحٍ[6] .

وقولـه: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾؛ أي: تـدعو بهـلاك الكفـار، ثـم تسـأل نجاةَ كافرٍ! .

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

أخبر تعالى عمّا قيل لنوحٍ حين أرست السفينة على الجُودِي من السلام عليه، وعلى مَنْ معه مِنَ المؤمنين، وعلى كل مؤمنٍ من ذريته، إلى يوم القيامة.

---

(1) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (340/15)
(2) ينظر: المصدر نفسه (343/15)
(3) سورة النور، من الآية (11).
(4) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (341/15).
(5) أخرجه أحمد في مسنده (136/44)، برقم (2618).
(6) قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ بتنوين اللام في ﴿عَمَلٌ﴾ ورفع الراء في ﴿غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ وقرأ الكسائي وحدهُ: ﴿ إِنَّهُۥ عَمِلَ﴾ بكسر الميم وفتح اللام، و﴿غَيۡرَ صَٰلِحٖ﴾ بنصب الراء، ينظر: السبعة في القراءات – لابن مجاهد البغدادي (334)، والتيسير في القراءات السبع – للأدنه وي (88).

قال محمد بن كعب[1]: "دخل في هذا السلام كل مؤمنٍ ومؤمنةٍ إلى يوم القيامة، وكذلك في العذاب والمتاعِ كل كافرٍ وكافرةٍ إلى يوم القيامة"[2]...

وقوله: ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾، البركة: هي ثبوت الخير، والمراد هنا بقاء ذريته، ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ في السفينة، وهم المؤمنون إلى يوم القيامةِ،﴿وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾، هذا ابتداء؛ أي: أمم سنمتعهم في الدنيا، ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، وهم الكفرة وأهل الشقاوة، وكان مكثُ نوحٍ وأصحابه في السفينة إلى أن هبطوا منها ثلاثة عشر شهراً، وأياماً، على ما فصَّله ابن إسحاق، والله أعلم.

﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾.

قال – تعالى– لنبيه عليه الصلاة والسلام: هذه القصة وما أشبهها من أخبار الغيوب السالفةِ على وجهها كأنك تشاهدها، ﴿نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ﴾ أي: نُعْلِمُكَ بها بوحْيٍ منَّا إليكَ، ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ﴾ أي: لم يكن عندك أو عند أحدٍ من قومكَ علمٌ بها، حتى تقول[3] من يكذبك: إنك تعلمها[4] منه، بل أخبرك الله – تعالى– مطابقة ما كان عليه الأمر الصحيح، كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك، فاصبر على تكذيب من كذَّبكَ من قومك وأذاهم، فإننا سنؤيدك وننصرك، ونحُوطُك بعنايتنا، ونجعل العاقبة لك، ولأتباعك في الدارين، كما فعلنا بإخوانك من المرسلين، حيث نصرناهم على أعدائهم، كما قال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾[5]، الآية...

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا

---

(1) محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرظي المدني، أبو حمزة، عالم ثقة، ولد سنة (40هـ)، كان يقول من قرأ القرآن مُتّع بعقله، ولو بلغ مائتي سنة، جلس للتحديث في المسجد، فانهدم السقف، وأهلكه مع أصحابه في سنة (90هـ)، ينظر: صفة الصفوة – لابن الجوزي (132/2)، وتقريب التهذيب – لابن حجر العسقلاني (504)، وطبقات المفسرين للداودي (9) .

(2) ينظر جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (353/15).

(3) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (328/4): (يقول) وهو الصحيح.

(4) المصدر السابق، (328/4): (تعلمتها) وهو الصحيح.

(5) سورة غافر، من الآية (51).

مُفۡتَرُونَ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارًا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴾.

هذا أمر لهم بعبادة الله وحده ونهيٌ عن عبادة الأوثان التي افتروْها وسمَّوها آلهة، ثم أخبرهم أنه لا يريد منهم أُجرة على هذا النصح والبلاغ من الله، إنما يبتغي ثوابه على ذلك وأَجرهُ على الله تعالى، الذي فطرهُ وخلقَهُ، ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾، مَن يدعوكم إلى ما يُصلحكم في الدنيا والآخرة من غير جُعْلٍ[1] ولا أَجرٍ، ثم أمرهم بالاستغفار، الذي فيه تُكفَّرُ الذنوب السالفة، وبالتوبة عما يستقبلون من الأعمال السيئة، ومن اتَّصفَ بهذه الصفة، يسَّر الله عليه رِزقهُ، وسهَّل أمرهُ، وحفظ شأنه وقوته، ولهذا قال ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارًا ﴾[2]، أي: متتابعاً مرةً بعد أخرى، ﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ ﴾ أي: شِدَّةً مع شدتكم، قيل: أن يزدادوا قوةً في الدين إلى قوة البدن، ﴿وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴾، أي: لا تُدْبِرُوا مشركين، وعن ابن عباس قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: "من لَزِمَ الاستغفار، جعل الله له من كل ضيقٍ مخرجاً، ومن كل همٍّ فرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب"[3]، رواه أحمد وأبو داود.

﴿ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾.

قال – تعالى– إخباراً عن قوم هودٍ أنهم قالوا لنبيهم: ﴿مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ ﴾، أي: بحجة ولا دلالة ولا برهانٍ على ما تدَّعِيهِ، ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ ﴾ أي:

---

(1) الجُعْلُ: ما جُعل للإنسان من شيء على فِعْلٍ، مختار الصحاح – للرازي (119)، الجذر: " ج ع ل ".

(2) سورة نوح، الآية (11).

(3) أخرجه أحمد في مسنده (104/4)، برقم (2234)، وأخرجه أبو داود في سننه، كتاب: الوتر، باب: في الاستغفار (560/1)، برقم (1520)، ؛ كلاهما من حديث ابن عباس – رضي الله عنهما – يرفعه واللفظ لأبي داود.

بمجرد قولك: (اتركوهم، لا نتركهم) ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، أي: بمصدِّقين، ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾، أي: ما يُظَنُ إلا أن بعض آلهتنا أصابك بجنونٍ وخَبَلٍ[1] في عقلك؛ بسبب نهيك عن عبادتها، وعيْبِكَ لها، ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ﴾ من جميع الأنداد والأضداد، ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا﴾، أي: أنتم وآلهتكم إن كانت حقّاً، [فَذَرُوهَا تُكيدني]، ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ أي: [لا تُمهِلُونِي طَرفَةَ عينٍ].

﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ﴾، أي: هي تحت قهره وسلطانه، وهو الحاكم العادل الذي لا يجوُرُ في حكمه، فإنه على صراطٍ مستقيم، وهذه حجة بالغة، ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به، وبُطْلانِ ما هم عليه من عبادة الأصنام، التي لا تنفع ولا تضرُّ، بل هي جمادٌ، ولا يسمع ولا يُبصر ولا يُعادي ولا يُوالي، وإنما يُسْتَحَقُّ إخلاص العبادة لله وحده، لا شريك لهُ، الذي بيده المُلك، وله التصرُّفُ، وما من شيء إلا تحت مُلكهِ، وقهرهِ وسلطانهِ، فلا إله إلا هو.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾.

قال لهم رسولهم هودٌ: فإن تولوا عما جئتكم به من عبادة الله ربكم وحده، فقد قامت عليكم الحُجَّة بإبلاغي إيَّاكُم رسالة الله الذي بعثني بها، ﴿وَيَسْتَخْلِفُ﴾ الله قوماً ﴿غَيْرَكُمْ﴾، يعبدونه وحده لا شريك له، ولا يبالي بكم، فإنكم لا تَضُرُّونُه بمعاصيكم وكفركم، وإنما يعود وبالُ ذلك عليكم، ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾، أي: شاهدٌ وحافظٌ لأفعال عباده وأقوالهم، ويجزيهم عليها إن خيراً فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾، وهو ما أرسله الله عليهم من الريح العقيم، [التي لا تَمُرُّ

(1) الخَبَلُ: فساد الأعضاء، ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس – للزبيدي (386/28)، الجذر: :" خ ب ل ".

بشيءٍ، إلا جعلته كالرَّميم]، وأهلكهم عن آخرهم، ونجَّى من بينهم رسولهم هوداً، وأتباعه المؤمنين من عذاب غليظٍ، برحمته ولطفه.

﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾، أي: كفروا بها، وعَصَوْا رُسُلَ الله، وذلك أن من كفر بنبيٍ، فقد كفر بجميع الأنبياء؛ لأنه لا فرق بين أحد منهم بوجوب الإيمان به، فَعَادٌ كفروا بهودٍ، فنُزِّلَ كفرهم به منزلةَ من كفرَ بجميع الرُّسُلِ .

﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ فلهذا أُتْبِعُوا في هذه الدنيا لعنةً من الله، ومن عباده المؤمنين، كلما ذُكِرُوا، وينادَى عليهم على رؤوس الخلائق يوم القيامة: ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾، قال السُّدِّيُّ[1]: " ما بُعِثَ نبيٌّ بعد عادٍ، إلا لُعِنوا بِلِسَانِهِ"[2] .

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾.

هم الذين يسكنون مدائن الحَجْرِ، بين تبوك[3] والمدينة، وكانوا بعد عادٍ بعث[4] فيهم أخاهم صالحاً، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، الخالق الرازق، ولهذا قال: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾، أي: ابتدأ خلقكم من الأرض، التي خُلق منها أباكم آدم ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾، أي: جعلكم فيها عُمَّاراً، تعمرونها، وتستغلونها، ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾: لسالف ذنوبكم، ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾، فيما تستقبلونه، ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ لدعائهم.

﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ۖ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ .

أي: كنا نرجوك يا صالحُ في عقلك قبل أن تقول ما قلت! ﴿أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ

---

(1) إسماعيل بن عبد الرحمن السُدِّي، أبو محمد، تابعي حجازي الأصل، من سُكان الكوفة، كان عالماً بالتفسير، توفي سنة (128هـ). ينظر: طبقات المفسرين – للأدنه وي (15)، والأعلام – للزركلي (317/1)، ومعجم المؤلفين – لعمر كحالة (276/2).

(2) ينظر: تفسير ابن أبي حاتم (2048/6) .

(3) تبوك: موضع بين وادي القرى والشام، معجم البلدان – لياقوت الحموي (14/2).

(4) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (331/4)، (فبعث)؛ وهو الصحيح.

ءَابَآؤُنَا﴾ وما كان عليه أسلافنا، ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، أي: في شكٍ كثيرٍ.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: فيما أرسلني به إليكم على يقينٍ وبرهانٍ من الله، ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾، وتركت دعوتكم إلى الحق، وعبادة الله وحده لا شريك له، فلو تركت ذلك لما نفعتموني، ولا زدتموني غيرَ خسارةٍ.

﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾.

قد سبق هذه القصة في سورة الأعراف مبسوطةً.

وقوله: ﴿ءَايَةً﴾، أي: معجزة، ﴿فَذَرُوهَا﴾ أي: خلُّوها وأُتْرُكُوها تأكل من العشب والنبات، ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ أي: لا تصيبوها بعقر، ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾، أي: يدرككم وينزلُ بكم عذابٌ، ومعنى ﴿نَجَّيْنَا﴾: عيشوا، والخزي العذاب.

وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾، أي: لم يكونوا قطُّ في تلك الديار، وقوله: ﴿جَٰثِمِينَ﴾، أي: صرعى هالكين.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾

قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ ﴾ وهم الملائكة، ﴿إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾ قيل تبشرهُ بإسحاقٍ، وقيل: تبشِرُهُ بهلاك قوم لوطٍ؛ ويشهد للأول: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ ﴾، الآية، ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ ﴾ أي: عليكم، قال علماء البيان: البشارة بالولد، وهذا أحسن مما حيَّوْهُ به؛ لأن الرفع يَدُلُّ على الثبوت والاستقرار، ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾، أي: فذهب إبراهيم سريعاً بلا مُكثٍ، فأتاهم بالضيافة، وهي عِجْلٌ فَتِيٌّ البقرِ، مشوياًّ شيَّاً ناضِجاً على الرَضْفِ، وهي: الحجارة المُحَمَّاةُ، قال ابن عباس وموافقوه: "وقد تضمنت هذه الآية آداب الضيافة من وجوه كثيرة"[1].

وقوله: ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ ﴾، أي: أنكرهم، ﴿وَأَوْجَسَ ﴾ أي: وأضمر منهم خوفاً وقع في قلبه؛ وذلك أنَّ الملائكة لا همَّة لهم إلى الطعام، ولا يشتهونه، فلهذا رأى حالهم مُعرضاً[2] عما جاءهم به فارغين عنه بالكلية، فعند ذلك نكِرَهُم. قيل: هم أربعة، جبريل وميكائيل وإسرافيل ورافائيل، ولمَّا دخلوا على إبراهيم، فقرَّبَ إليهم العجل مسحَهُ جبريل بجناحه، فقام يَدْرِجُ حتى لَحِق بأمهِ، وأم العجل في الدار.

وقوله إخباراً عن الملائكة: ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ﴾؛ وذلك لأنه خاف من أجل أنهم لم يأكلوا الطعام أنهم لم يأتوا بخيرٍ، أي: لا تخف منا، إنا ملائكة أُرسلنا إلى قوم لوطٍ؛ لندمِّرَ عليهم ونهلكهم، كما ذكر في الآية الأخرى، وضحكت سارةٌ؛ استبشاراً منها بهلاكهم؛ لكثرة فسادهم وغِلْظِ كفرهم وعنادهم، فلهذا جُوزِيَتْ بالبشارة بالولد بعد الإياس، ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ قال قتادة: " ضحكت سارة وعجبتْ من أن قوماً أتاهم العذاب، وهم في غفلةٍ"[3]، فبشرناها بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، أي: بولد لها ولَدَتْ، يكون له ولدٌ، وعَقِبٌ ونَسْلٌ، فإن يعقوب ولد إسحاق.

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ ﴾، حكى – تعالى– قولها في هذه الآية، كما حكى فعلها في آية أخرى في الذاريات، بقوله: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾[4]، كما جرت عادة النساء في أقوالهن وأفعالهن، أي: يا عجباهُ!

---

(1) ينظر: تفسير ابن أبي حاتم (2053/6).

(2) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (333/4)، (معرضين) وهو الصحيح .

(3) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (386/15).

(4) سورة الذاريات، الآية (29) .

أألد، وأنا عجوز؟ وكانت ابنة تسعين، وهذا بعلي شيخاً! وكان سنُّ إبراهيم مائة وعشرين سنة، ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ ﴾، أي: قالت الملائكة لها: أتعجبين من أمر الله؟ فإنه إذا أراد شيئاً، إنما يقول له كن، فيكونُ، فلا تتعجبي من هذا، مع ما بلغت من السن، وبلغه بعلك، فإنه على ما يشاء قدير، ﴿ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ ﴾ الرحمة: النعمة، والبركة: بقاء الخير، وهذا دعاء من الملائكة لأهل بيت إبراهيم، ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٞ ﴾، أي: هو الحميد في جميع أقواله وأفعاله، محمودٌ، ﴿مَّجِيدٞ ﴾: مُمجَّدٌ في صفاته وذاته، ولهذا ثبت في الصحيحين أنهم قالوا: قد علمنا السلام عليك، فكيف الصلاة عليك يا رسول الله؟ قال: " قولوا: اللهم صل على محمدٍ وعلى آل محمدٍ، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمدٍ وعلى آل محمدٍ، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميدٌ مجيد"(1).

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴾.

أخبر – تعالى – عن خليله – عليه السلام – أنه لمَّا ذهب عنه الروع، وهو ما أوجس من الملائكة خيفة، حين لم يأكلوا، وبشروه بعد ذلك بالولد، واطمأنَّت نفسه، وأخبروه بهلاك قوم لوطٍ، بقوله: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴾، قال ابن جبير(2): " لمَّا جاءه جبريل ومن معه، فقالوا لإبراهيم: ﴿إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾(3)، قال لهم: أتُهلِكُون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قالوا: لا، قال: أتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن؟ قالوا: لا، قال: أفتهلكون قرية فيها أربعون مؤمناً؟ فقالوا: لا، قال:

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: سورة الأحزاب (1802/4) برقم (4519)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الصلاة، باب: الصلاة على النبي بعد التشهد (16/2) برقم (935)؛ كلاهما من حديث كعب بن عُجْرَة – رضي الله عنه – مرفوعاً بألفاظ متقاربة.

(2) سعيد بن جبير الأسدي بالولاء، الكوفي، أبو عبدالله، المقرئ المفسر الفقيه المحدث، ولد سنة (45هـ)، كان أحد علماء التابعين، أخذ العلم عن عبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر، وروي عنه أنه قرأ القرآن في ركعة في البيت الحرام، وكان يؤم الناس في شهر رمضان ويقرأ في كل ليلة بقراءة مختلفة، قال عنه أحمد بن حنبل يوم قتله الحجاج:(قتل الحجاج سعيداً وما على وجه الأرض أحدٌ إلا هو مفتقرٌ إلى علمه)، توفي بواسط سنة (95هـ). ينظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب– لابن العماد العكري (102/1) وطبقات المفسرين– للسيوطي (10/1)، والأعلام – للزركلي (93/3).

(3) سورة العنكبوت، من الآية (31) .

أفتهلكون قرية فيها أربعة عشر مؤمناً؟ قالوا: لا، فسكت عنهم، واطمأنت نفسه"[1]، وزاد ابن إسحاق: " أفرأيتم إن كان فيها مؤمنٌ؟ قالوا: لا، قال: فإن فيها لوطاً، يدفع به عنهم العذاب، ﴿قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾[2]"[3].

وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ﴾ مدحٌ له بهذه الصفات الجميلة، وسبق تفسيرها في سورة " براءة ".

وقوله: ﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ أي: أمسك عن هذا المقال، ودع عنك الجدال، ﴿ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾، أي: عذاب ربك وحُكمه، ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾، أي: إنهم قد نزل فيهم القضاء، وعقَّبَ عليهم الكلمة بالهلاك، وحلول البأس، الذي لا يُرَدُّ عن القوم المجرمين.

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ .

أخبر – تعالى– عن قدوم رسله من الملائكة، الذين فارقوا إبراهيم، بعدما أعلموه بإهلاك قوم لوطٍ، فانطلقوا من عنده، فأتوا لوطاً، وهو في أرض له يَعْمُرها، أو كان في منزله، فَوَردُوا عليه، وهم في أجمل صورةٍ، على هيئةِ شبابٍ حسانِ الوجوهِ، امتحاناً من الله وابتلاءً واختباراً، وله الحكمة البالغة، فنزلوا عليه، فساءَهُ شأنهم، وضاقت نفسه بسببهم، وخشِيَ إنْ لم يُضِفْهُم أن يُضيفَهمْ أحد من قومه، فينالهم بسوء، وهو لا يعلم أمرهم في أول الحال، والمراد بالذَّرْع: القلبُ، يُقال: ضاق ذرعُ فلانٍ، إذا وقع في مكروهٍ لا يطيق الخروج منه، ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾، أي: شديدٌ بلاؤُهُ، لمَّا علمَ أنه سيدافع قومه عنهم، ويشق عليه ذلك، فاستحيا منهم، وانطلق أمامهم، فقال لهم في أثناء الطريق كالمعرض لهم بأن ينصرفوا عنه: إنه والله، يا هؤلاء، ما أعلم على وجه الأرض أهل بلدٍ أخبثَ من هؤلاء، ثم مشى قليلاً، ثم أعاد ذلك عليهم، حتى كرَّرهُ أربع مراتٍ،

(1) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (403/15) .

(2) سورة العنكبوت، من الآية (32).

(3) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (405/15) .

وقد كانوا أُمروا أن لا يهلكوهم، حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك[1]، قاله قتادة، ودخلوا معه بيته، فلم يعلم أحد إلا أهل بيت لوطٍ، فخرجت امرأتهُ، فأخبرت قومها، فقالت: إن في بيت لوطٍ رجالاً، ما رأيت مثلَ وجوههم قط، ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ ﴾، أي: يُسرعونَ ويهروِلُونَ في مشيهم بذلك؛ لطلب الفاحشة منهم، وقوله: ﴿وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾، أي: لم يزل هذا سجيَّتَهُمْ، إلى أن أُخِذُوا وهم على ذلك.

وقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ أرشدهم إلى نسائهم؛ فإن النبي في الأمَّة بمنزلة الوالد للرجال والنساء، فأرشدهم إلى ما هو الأنفع[2] لهم في الدنيا والآخرة كما قال لهم في آية أخرى: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم ﴾[3] الآية، قال مجاهد: " لم يَكُنَّ بناتهِ، ولكن كنَّ من أمَّتهِ، وكل نبي أبوُ أمَّتهِ"، وقال ابن جريجٍ: " أَمَرَهُم أن يتزوجوا النساء ولم يَعْرِضْ عليهم سفاحاً"[4]، وقوله: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾، أي: اقبلوا ما أمركم به من إتيانكم نساءكم، وترككم الفواحش، ولا تفضحوني في أضيافي، ﴿ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾، فيه خيرٌ، يقبل ما آمرهُ به، ويترك ما أنهاهُ عنه، ﴿ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ ﴾، أي: إنك لتعلم أن نساءنا لا أَرب لنا فيهن، ولا نشتهيهنَّ، ﴿وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾، أي: ليس لنا غرضٌ إلا في الذكور، وأنت تعلم ذلك، فلا تُكرر علينا النُّصح.

﴿ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴾.

أخبر تعالى عن نبيه لوطٍ – عليه السلام- أنه توعّدهم بهذا الكلام، وهو قوله: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ أي: لكنت نكَّلتُ بكم، وفعلتُ بكم الأفاعيل من

---

(1) ينظر: المصدر السابق (408/15) .

(2) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (337/4): (أنفع) وهو الصحيح.

(3) سورة الشعراء، من الآية (166) .

(4) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (414/15) .

العذاب والنقمة بنفسي وعشيرتي، ولهذا جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: " يرحم الله لُوطاً، لقد كان يأوِي إلى ركنٍ شديد"[1]، فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم رُسل الله، وبشَّرُوهُ أنه لا وصول لهم إليه، ولا خُلوص، ﴿ قَالُواْ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ ﴾، وأمرُوهُ أن يَسْرِي بأهله من آخر الليل، وأن يكون ساقةً لأهله تابعاً لهم، ﴿ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ ﴾ أي: إذا سمعتم ما نزل بهم، فلا يهدينَّكم تلك الأصوات المزعجة، ولكن استمروا ذاهبين كما أنتم، ﴿ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ ﴾، وهذا استثناء من المُثبت[2]، وهو قوله: ﴿ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ ﴾، وقال بعض القُرَّاءِ والنُّحاةِ: هو استثناءٌ من قوله: ﴿ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ ﴾، فجوَّزوا الرفع والنصب[3]، وذُكر في الإسرائيليات أنها خرجت معهم، وأنها لمَّا سمعت الوَجْبَةَ[4]، التفتت، فقالت[5]: يا قَومناهُ[6] فجاءها حَجرٌ من السماء، فقتلها[7]، ثم قرَّبوا له هلاك قومه؛ تبشيراً له؛ لأنه قال لهم: أهلكوهم الساعة، فقالوا: ﴿ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴾، هذا وكان قوم لوطٍ وُقوفاً على الباب، قد جاءوا يُهْرَعُون إليه من كل جانبٍ، ولوطٌ واقف في الباب[8]، يُدافعهُم ويردعُهُم، ويَنْهَاهُم عمَّا هُم فيه، وهم لا يقبَلون منه، بل يتوعَّدُونهُ ويتهددونهُ، فعند ذلك خرج جبريل عليهم، فضربَ وجوههم بجناحِهِ، فَطَمَسَ أعينهم، فرجعوا، وهُم لا يهتدون الطريق، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ ﴾[9] الآية ...

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴾.

---

(1) جزء من حديث أخرجه البُخاري في صحيحه، كتاب: الأنبياء، باب: قول الله تعالى ﴿ لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ (1239/3)، برقم (3207) عن أبي هريرة – رضي الله عنه – مرفوعاً .

(2) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (338/4): (من المبيت)، وهو الصحيح.

(3) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (15/ 424) .

(4) (الوَجْبَةُ): السَّقطَةُ مع الهَدَّةِ، تاج العروس من جواهر القاموس – للزبيدي (338/4)، الجذر: " و ج ب " .

(5) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (339/4): (وقالت)، وهو الصحيح .

(6) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (339/4): (واقوماه)، وهو الصحيح .

(7) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (15/ 425) .

(8) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (339/4): (على الباب)، وهو الصحيح .

(9) سورة القمر، من الآية (37).

أي: فلمَّا جاء عذابنا عليهم عند طلوع الشمس، جعلنا عالِيَها سافِلَها، وهي قريتهم العظيمة، وهي سَدُوم[1] ومعاملِها[2]، ﴿ سَافِلَهَا ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾[3]، أي: أمطر عليهم حجارة من سجيلٍ، وهي بالفارسية: حجارة من طينٍ، أي من "سَنْكِ كِل"، أي: مُسْتَحْجِرَةٌ قوية شديدة، وقوله: ﴿مَّنضُودٍ﴾، أي: مُعَدَّةٌ لذلك في السماء، يتبع بعضها بعضاً في نزولها عليهم، وقوله ﴿ مُّسَوَّمَةً ﴾ أي: مختومة عليها أسماء أصحابها، كل حجرٍ مكتوب عليه اسم الذي ينزل عليه العذاب، وقيل: أي مُطَوّقة بها، نُضْجٌ من حُمّرةٍ نزلت على أهل البلد، وعلى المتفرقين على القرى مما حولها، فبينا أحدهم يكون بين الناس يتحدث، إذْ جاءه حجر من السماء، فسقط عليه من بين النَّاس، فأهلكه، فتبعتهم الحجارة من سائر البلاد، حتى أهلكتهم من[4] آخرهم، فلم يبق منهم أحدٌ، قال مجاهد: " أخذ جبريل قوم لوطٍ من سِرْحِهِمْ ودُورِهِمْ، حملهم بمواشيهم على حوافي جناحه الأيمن حتى سمع أهل السماء نُبَاحَ كلابهم"[5]، وقال قتادة وغيرهُ: "بلغنا أن جبريل لمَّا أصبح، نشر جناحه، فانتشفَ[6] بها أرضهم بما فيها من قصورها ودوابها وحجارتها وجميع ما فيها، فضمَّها في جناحه، فحواها، وطواها في جوف جناحه، ثم صعد إلى السماء الدُنيا، حتى سمع سكانُ السماءِ أصوات الناس والكلاب، وكانوا أربعة آلاف ثم قلبها، فأرسلها إلى الأرض منكوسة، ودمدم بعضهم على بعضٍ، فجعل عاليها سافلها، ثم أتبعها حجارة من سجيل"[7]، قال القرطي: " كانت قُراهم خمس قريات[8]: سدوم: – وهي العُظمى–، وصبَعَةَ[9] وصعُود[10]، وغَمَرَةُ[11]، ودوْمَاءَ[12]".

---

(1) سَدُوم: هي سرمين بلدة من أعمال حلب، معروفة عامرة عندهم، ينظر: معجم البلدان – لياقوت الحموي، (200/3).

(2) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (340/4): (ومعاملتها)، وهو الصحيح .

(3) سورة القمر، الآية (53).

(4) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (341/4): (عن)، وهو الصحيح .

(5) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (440/15) .

(6) (فانتشف بها): كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (341/4): (فانتسف بها)، وهو الصحيح .

(7) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (442/15).

(8) ينظر: المصدر نفسه (443/15).

(9) (صبعة): كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (341/4): (صعبة).

(10) (وصعود): كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (341/4): (صعوة) .

(11) (وغمرة): كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (341/4): (وعثرة) .

(12) (ودوماء): كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (341/4): (ودوما) .

وقوله: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾، أي: وما هذه النقمة ممن يُشَبَّهُ[1] بهم في ظلمهم ببعيدٍ منه، وفي السنن أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: " من وجدتموه يعمل عمل لوطٍ، فاقتلوا الفاعل والمفعول به"[2]، وذهب الشافعي[3] في قول عنه وجماعة من الأئمة إلى أن اللائط يُقتل مطلقاً، سواء كان مُحْصَناً، أو لم يكن مُحْصَناً، عملاً بهذا الحديث[4]، وذهب أبو حنيفة إلى أنه يُلقى من شاهقٍ، ويُتبع بالحجارة، كما فعل الله بقوم لوطٍ[5] .

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾.

أي: ولقد أرسلنا إلى "مدين"[6]، وهم قبيلة من العرب، كانوا يسكنون بين الحجاز والشام، قريباً من بلاد "مُعان"، في بلد يُعرف بهم، يُقال له: مدين، أرسل الله إليهم شعيباً، وكان من أشرافهم نسباً، ولهذا قال: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ﴾، يأمرهم بعبادة الله وحده، وينهاهم عن التطفيف في المكيال والميزان، ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾، في معيشتكم ورزقكم، فأخاف أن تُسْلَبُوا لما[7] أنتم فيه؛ بانتهاككم محارم الله، ﴿وَإِنِّىٓ أَخَافُ

---

(1) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (342/4): (ممن تشبه)، وهو الصحيح .

(2) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: الحدود، باب: فيمن عمل عمل قوم لوطٍ (269/4)، برقم (4464)، وأخرجه الترمذي في سننه كتاب: الحدود، باب: حد اللوطي (57/4)، برقم (1456)، كلاهما من حديث ابن عباس – رضي الله عنهما – مرفوعاً.

(3) محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي المطلبي، أبو عبدالله، إمام المذهب الشافعي، وأحد الأئمة الأربعة، ولد سنة (150هـ)، حفظ القرآن، وهو ابن سبع سنين، والموطأ وهو ابن عشر سنين، قال له الإمام أحمد بن حنبل:(إني لأحبك؛ لثلاث خلالٍ؛ أنك ابن أبي عبدالله، وأنك رجل من قريش، وأنك من أهل السنة)، وقال عنه أبو داود: (ما أعلم للشافعي حديثاً خطأ)، وقال عنه المبرد: (كان الشافعي أشعر الناس وآدبهم وأعرفهم بالفقه والقراءات)، من مؤلفاته: (الأم)، و (المسند) و(أحكام القرآن)، توفي سنة (204هـ)، ينظر: طبقات الشافعية الكبرى – للإمام العلامة تاج الدين بن علي بن عبدالكافي السبكي، تح: محمود محمد الطناحي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط: الثانية، (1413هـ) (71/2)، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب – لابن العماد العكري (8/2)، والأعلام – للزركلي (26/6).

(4) للشافعي في هذه المسألة قولان؛ أحدهما: أنه يجب فيه ما يجب في الزنا، فإن كان غير مُحصن، وجب عليه الحدُّ والتغريب، وإن كان مُحصناً، وجب فيه الرجم، والقول الثاني: أنه يجب قتل الفاعل والمفعول به، ينظر: المُهذب في فقه الإمام الشافعي – لإبراهيم بن علي بن ويوسف الشيرازي، (أبو إسحاق)، دار الفكر، بيروت (268/2)، ومُغْنِي المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج – لمحمد الخطيب الشربيني، دار الفكر بيروت (144/4).

(5) يرى أبو حنيفة أنه لا حدَّ في اللواط، وأنه فيه التعزير؛ لأن اللواط عنده كإتيان البهائم، وكإتيان النساء فيما دون الفرج، ينظر: النتف في الفتاوى – لأبي الحسن علي بن الحسين بن محمد السعدي، تح: المحامي الدكتور صلاح الدين الناهي، دار الفرقان، مؤسسة الرسالة، عمان – الأردن، بيروت – لبنان، (1404هـ – 1984م)، (640/2) .

(6) مَدْيَن: هي على بحر القلزم، محادية لتبوك، على نحو من ست مراحل، وهي أكبر من تبوك. ينظر: معجم البلدان – لياقوت الحموي (77/5).

(7) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (342/4)، (ما) وهو الصحيح .

عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴾ في الآخرة.

﴿ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴾ .

نهاهم أولاً عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط آخذين ومُعْطِين، ونهاهُم عن العُثيّ في الأرض بالفساد، وقد كانوا يقطعون الطريق.

وقوله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ﴾ أي: رزق الله وطاعته خيرٌ لكم من تحكم الناس، أي: ما يفضل لكم من الربح والبركة بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴾ أي: برقيب أي افعلوا ذلك لله – تعالى–، ولا تفعلوه؛ ليراكم الناس، رياءً وسمعةً .

﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ .

هذا على سبيل التهكم، قالوا له: أي: قراءاتك: ﴿تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾ من الأوثان والأصنام، ﴿أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾، فنترك التطفيف عن قولك، هي أموالنا، نفعل فيها ما نريد، وقيل: المراد به الزكاة، وقولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾، قالوه على سبيل الاستهزاء، وأرادوا به السفيه الغاوي.

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾.

أي: أرأيتم يا قوم، ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي ﴾، أي: على بصيرة فيما أدعوكم إليه، ﴿وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ ﴾، أي: النبوة والرزق الحلال، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ ﴾، أي: لا أنهاكم عن الشيء، وأخالف أنا في السِّرِ، فأفعله خفيةً

عنكم، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ﴾، أي: فيما آمركم وأنهاكم، إنما مُراديَ إصلاحكم، بحسب جهدي وطاقتي، ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ﴾، أي: في إصابة الحق فيما أريدُ، ﴿إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في جميع أموري، ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: أرجعُ[1]، قاله مجاهد، وعن مسروقٍ[2] قال: جاءت امرأة إلى ابن مسعود، قالت: أتنهى عن الواصلة؟ قال: نعم، فقالت: فلعلَّهُ في بعض نسائك؟ فقال: ما حفظت إذاً وصية العبد الصالح: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ﴾[3]، وفي مسند أحمد: أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– قال : " إذا سمعتم الحديث عني، تعرفُهُ قلوبكُم، وتلينُ له أشعَارُكم وأبشارُكم، وتَروْنَ أنه منكم قريبٌ، فأنا أولاكم به، وإذا سمعتم الحديث عني، تُنكِرُهُ قلوبكم، وتنفرُ منه أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم بعيدٌ، فأنا أبعدكم عنه"[4]، أي: مهما بلغكم عني من خير، فأنا أولاكم به، ومهما يكن من مكروه، فأنا أبعدكم منه،﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ۝ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ .

أي: لا يحملنَّكُمْ عداوتي وبُغْضي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوحٍ، وقوم هودٍ، وقوم صالحٍ، وقوم لوطٍ من النقمة والعذاب.

وقوله: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾، قيل: المراد في الزمان أو المكان؛ وكلاهما محتمل.

وقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾، أي: من سالف الذنوب، وتوبوا إليه فيما تستقبلونَهُ من الأعمال السيئة، ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ﴾، أي: عظيم الرحمة لمن تاب،

---

(1) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (15/ 454) .

(2) مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني الوادعي، أبو عائشة، تابعي ثقة فقيه، سكن الكوفة، وقدم المدينة في أيام أبي بكر – رضي الله عنه –، وصلَّى خلفه، وكان يُصلي، حتى تَوَرَّم قدماهُ، وُلِّيَ القضاء، فكان لا يأخذ عليه جزاءً، قال عنه الشعبي: (ما علمتُ أحداً، كان أطلب للعلم منه)، وقال أبو إسحاق: (حجَّ مسروقٌ، فما نام إلا ساجداً، حتى رجع)، توفي سنة (63هـ)، ينظر: الطبقات الكبرى – لابن سعد (76/6)، وتذكرة الحفاظ – للذهبي (40/1)، والأعلام – للزركلي (215/7) .

(3) أخرجه أحمد في مسنده (58/7)، برقم (3945)، عن ابن مسعود – رضي الله عنه – مرفوعاً بألفاظ متقاربة .

(4) أخرجه أحمد في مسنده (456/25)، برقم (16058)، عن أبي حُمَيْدٍ وأبي أسيْدٍ – رضي الله عنهما – مرفوعاً .

﴿وَدُودٌ﴾، أي: محبٌ لمن آب، وجاء في الخبر: "إن شُعيباً كان خطيبَ الأنبياء"[1].

﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

أي: ما نفهم وما نعقل كثيراً من قولك وفي ءاذاننا وقر، ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ﴾، قال ابن جبير وغيرهُ: (كان ضرير البصر)[2]، وقال السُّدِي: (أنت واحد)[3] وقيل: (لنراك ذليلاً؛ لأنَّ قومك ليسوا على دينك)[4]. ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ أي: قومك وعشيرتك، وكان في مَنَعَةٍ من قومه، ﴿لَرَجَمْنَٰكَ ۖ﴾، قيل: بالحجارة، وقيل: بالسبّ، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾، أي: لست عندنا مُعزَّزاً.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: تتركوني؛ لأجل قومي، ولا تتركوني إعظاماً لجناب الله، أن تنالوا نبيَّه بمساءةٍ، وقد اتخذتم جانب الله ﴿وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾، فنبذتم أمره وراءكم، وتركتموه!! ﴿إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾، أي: هو يعلم جميع أعمالكم، وسيجزيكم بها.

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾.

لمّا يئس شعيب من استجابة قومه له، قال: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾، أي: طريقتكم، وهذا وعيدٌ شديد، ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ﴾، أي: على طريقتي ومنهجي، ﴿سَوْفَ

---

(1) أخرجه الحاكم في مستدركه (620/2).

(2) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (15/ 457).

(3) ينظر: تفسير – ابن أبي حاتم (2076/6).

(4) المصدر نفسه، والصفحة.

﴿تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾، أي : في الدار الآخرة، ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾، أي: مني ومنكم، ﴿وَارْتَقِبُوا﴾ أي: انتظروا، ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾، أي: عذابنا عليهم، ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، وهُم قومه، ﴿الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ أي: (هالكين ميتين)، وذكر – تعالى– هاهنا أنَّهُ أتتهم " الصيحة"، وفي الأعراف " الرجفة"، وفي الشعراء " عذاب يوم الظلة"، وهم أمة واحدة، اجتمع عليهم يومَ عذابهم هذه النقمُ كلُّها؛ وإنما ذكر في كل سياقٍ ما يناسبهُ؛ ففي الأعراف قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا﴾[1]، ناسَبَ أن يذكر هناك الرجفة، فرجفت بهم الأرض، التي ظَلَمُوا بها، وأرادوا إخراج نبيهم منها، وهاهنا لمَّا أساؤوا الأدب في مقالتهم على نبيهم، ناسب ذكر الصيحة التي أسكتتهم وأخمدتهم، وفي الشعراء لمَّا قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[2]، قال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[3]؛ وهذا من دقائق الأسرار.

وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾، أي: كأن لم يعيشوا في ديارهم قبل ذلك، ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾، وكانوا جيرانهم، قريباً منهم في الدار، وشبيهاً بهم في الكُفر، وقطع الطريق، وكانوا عرباً، فلهذا شبههم بهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۝ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ۝ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾.

أخبر – تعالى– عن إرساله موسى – عليه السلام– بآياته وبيناته ودلائله القاطعة إلى فرعون مصر، وملئه، وهم أمة القبط، ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾، أي: حكمه

(1) سورة الأعراف، من الآية (88).

(2) سورة الشعراء، الآية (187).

(3) سورة الشعراء، من الآية (189).

وطريقته في الغيّ والضلال، ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾، أي: ليس فيه رشد ولا هدى، وإنما هو جهل وضلال، وكفر وعناد، وكما أنهم اتَّبعوهُ في الدنيا، وكان مُقدَّمهم ورئيسَهم، كذلك هو مُقَدَّمُهُم يوم القيامة إلى نار جهنم، فأوردهم إياها، وشربوا من حياض رَدَاها، وله في ذلك الحظُّ الأوفر من العذاب الأكبر، كما قال تعالى: ﴿ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾[1]، وغيرها من الآيات...

وقوله: ﴿ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ﴾ أي: الداخل المدخول فيه، وكذلك شأن المتبوعين، يكونون موفورين في العذاب يوم المعاد، كما قال تعالى: ﴿لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴾[2]، وعن أبي هريرة – رضي الله عنه– قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم– "حامل لواء شعراء الجاهلية إلى النار"[3]، رواه أحمد.

وقوله: ﴿ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ ﴾، أي: أتبعناهم زيادة على ما جزيناهم من عذاب النار؛ لعنة في هذه الحياة الدنيا، ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ﴾، أي: قال مجاهد: (زيدُوا لعنةً يوم القيامة، فتلك لعنتان)[4]، وقال ابن عباس: ﴿ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ﴾: (ترادفت عليه لعنتان؛ لعنة الدنيا والآخرة)[5]، والرفد: العون والعطاء.

﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾، لمَّا ذكر – تعالى– خبر هؤلاء الأنبياء، وما جرى لهم مع أُممهم، وكيف أهلك الكافرين، ونجّى المؤمنين، قال: ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ ﴾، أي: من أخبارها، ﴿نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ ﴾، أي: عامر، ﴿وَحَصِيدٞ ﴾ أي: هالك دائر، ﴿ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ ﴾، أي: إذا أهلكناهم، ﴿ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ﴾؛ بتكذيبهم رسلَنا، وكفرهم بهم،

---

(1) سورة المزمل، الآية 16.

(2) سورة الأعراف، من الآية 38.

(3) أخرجه أحمد في مسنده (27/12)، برقم (7127)، ونصُّه كالآتي: "امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار".

(4) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (468/15).

(5) ينظر: المصدر نفسه، (469/15).

وبآياتنا، ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ﴾، أي: أصنامهم وأوثانهم التي يعبدونها ويدعونها، ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾، أي: ما نفعوهم، ولا أنقذوهم، لَمَّا جاء أمر الله بإهلاكهم، ﴿وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٍ﴾، أي: غير تخْسِير، وذلك أن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان بعبادتهم تلك الآلهة؛ فلهذا أصابهم ما أصابهم، وخسروا بهم في الدارين.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾، أي: وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسلنا، كذلك نفعل بنظرائهم وأشباههم، ﴿إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾، في الصحيحين أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– قال: "إن الله لَيُمْلِي للظالم، حتى إذا أخذَهُ، لم يُفْلِتْهُ"، ثم قرأ رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ﴾[1]، الآية...

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ﴾

أي: إن في إهلاكنا الكافرين، وإنجائنا المؤمنين، ونُصْرَةِ الأنبياء، لعظة واعتباراً على صدق موعودنا في الآخرة، ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ﴾، أي: يوم عظيم يحضُرُه الملائكة كلهم، ويجتمع فيه الرسل جميعهم، وتُحْشَرُ فيه الخلائق بأسرهم، من الجن والإنس والطير والوحش والدوابِّ، ويحكم فيهم العادل، الذي لا يظلم مثقال ذرة، وإن تَكُ حسنة، يضاعفها.

وقوله: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ﴾، أي: ما نؤخر إقامة يوم القيامة، إلا أنه سبقت كلمة الله، وقضاؤه، وقدره، في وجود أناسٍ معدودين من ذرية آدم، وضرب مدة معينة، إذا انقضت، وتكامل وجود أولئك المُقَدَّر، أقام الله الساعة، ولهذا قال: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ﴾، أي: لمدة مؤقتة، لا يزاد عليها، ولا ينقص منها.

﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ أي: يَوْمَ يأتي يَوْمُ القيامة، وهو يوم لا

---

(1) سبق تخريجه.

يتكلم أحد يومئذ، إلا بإذن الله تعالى، وفي الصحيحين عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– في حديث الشفاعة: "ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذٍ: اللهم سَلِّمْ، سَلِّمْ"(1)، وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾، أي: فَمِنْ أهل الجمع شقيٌ، ومنهم سعيدٌ، كما قال: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾(2).

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾.

قال ابن عباس: "الزفير في الحلق، والشهيق في الصدر"(3)، أي: تنفسهم زفير، وأخذهم النفس شهيق، لِمَا هم فيه من العذاب، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، قال ابن جرير: "مِنْ عادةِ العربِ إذا أرادَتْ أن تصف الشيء بالدوام أبداً، قالت: هذا دائمٌ دوامَ السمٰوٰت والأرض" (4)، فخاطبهم – جل وعلا– بما يتعارفُونَهُ بينهم، وقيل: ويَحْتَمِلُ أن يراد به الجنس؛ لأنه لا بد في عالم الآخرة من سمٰوٰت وأرض، كما قال – تعالى–: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾(5)، قال الحسن: "سماء غير هذه السماء، وأرض غير هذه، فَمَادَامَتْ تلك السماء، وتلك الأرض"(6)، وقال ابن عباس: "لكل جنة سماء وأرضٌ"(7)، وقيل: أي مادامت الأرض أرضاً، والسماء سماءً، وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾، كقوله: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾(8)، واختلفوا في المراد من هذا الاستثناء، على أقوال كثيرة، واختار ابن جرير منها ما نقله جماعة أن الاستثناء عائد إلى العصاة من أهل التوحيد، ممن يخرجهم الله من النار؛ بشفاعة الشافعين، من الملائكة والنبيين

(1) جزء من حديث طويل، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب: قول الله – تعالى–: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، (2704/6) برقم (7000)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: معرفة طريق الرؤية، (112/1)، برقم (469)، كلاهما من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه– مرفوعاً.

(2) سورة الشوى، من الآية 7.

(3) ينظر: المصدر نفسه (2085/6).

(4) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (479/15).

(5) سورة إبراهيم، من الآية 48.

(6) ينظر: تفسير – ابن أبي حاتم (2086/6).

(7) ينظر: المصدر نفسه (2085/6).

(8) سورة الأنعام، من الآية 128.

والمؤمنين، حتى يشفعُون في أصحابِ الكبائرِ، ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين، فتُخْرِجُ من النار من لم يعمل خيراً قط، وقال يوماً من الدهر: لا إله إلا الله[1]، كما في الحديث الصحيح عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم-: "ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها"[2]، وهذا الذي عليه كثير من العلماء سلفاً وخلفاً، في تفسير هذه الآية، وغير ذلك أقوال غريبة، لا نطوّلُ الكتاب بها.

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾.

أي: فأما السعداء، وهم أتباع الرسل، فمأواهم الجنة، ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾، أي: ماكثين مقيمين فيها، ﴿ مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾، الاستثناء هاهنا أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم، ليس أمرا واجباً بذاته، بل هو موكولٌ إلى مشيئة الله، فله المنّة عليهم دائماً، وقال الضحاك والحسن البصري: "هي في حق المُوَحِّدين، كانوا في النار، أُخرِجوا منها"[3]. وعقَّب ذلك بقوله: ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾، أي: غير مقطوعٍ، قاله ابن عباس[4] وغير واحد؛ لئلاّ يتوهم متوهم بعد ذكره المشيئة أنَّ ثَمَّ انقطاع، أو لبس، بل ختم له بالدوام، وعدمِ الانقطاع، كما بيَّن هناك[5] أن عذاب أهل النار في النار دائماً مردودٌ إلى مشيئته، وأنه عذَّبَهُمْ بِعَدْله وحِكْمته، كما قال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾، وفي الصحيحين: "يؤتى بالموت في صورة كبشٍ أملح، فيُذْبَحُ بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موتٌ، ويا أهل النار خلود فلا موت"[6]، وفي الصحيح أيضاً: "فقال: يا أهل الجنة، إن لكم أن تعيشوا، فلا تمُوتُوا أبداً، وإن لكم أن

---

(1) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (484/15).

(2) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾، (2708/6)، برقم (7002)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها (125/1)، برقم (497)؛ كلاهما من حديث أنس بن مالك – رضي الله عنه- مرفوعاً بألفاظٍ متقاربةٍ.

(3) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (484/15).

(4) ينظر: المصدر نفسه (490/15).

(5) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (352/4): (هنا)؛ وهو الصحيح.

(6) جزء من حديث، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: سورة مريم (1760/4)، برقم (4453)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبَّارون، والجنة يدخلها الضعفاء، (152/8)، برقم (7360)، كلاهما من حديث أبي سعيد – رضي الله عنه- مدفوعاً بألفاظ متقاربة.

تشِبُّوا، فَلا تَهْرَمُوا أبداً، وإن لكم أن تصِحُّوا، فلا تسقَمُوا أبداً، وإنّ لكم أن تَنْعَمُوا، فلا تبْأَسُوا أبداً"[1].

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾.

أي: فلا تك في شك مما يعبد هؤلاء المشركون، إنه باطل وجهل وضلال، فإنهم إنما يعدبون ما ﴿ يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ﴾، أي: ليس لهم مستند فيما هم فيه، إلا اتباع الآباء في الجهالة، وسيجزيهم الله على ذلك أَتَمَّ الجزاء، فيعذب كافرهم عذاباً لا يعذبه أحداً، وإن كان لهم حسنات، فقد وفَّاهم الله إيَّاها في الدنيا قبل الآخرة.

وقوله: ﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾، أي: ما وعدوا فيه من خير أو شرٍّ، وقيل: أي من العذاب غير منقوصٍ، ثم ذكر – تعالى– أنه آتى موسى الكتاب، أي: التوراة، فاختلف الناس فيه، فمِنْ مُؤْمِنٍ به، ومن كافرٍ به، فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يامحمد أسوة، وهذه تسلية له – عليه الصلاة والسلام–.

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ ﴾، أي: لولا ما تقدم من تأجيله العباد[2] إلى أجل معلوم، لقَضَى الله بينهم، وقيل: المراد بالكلمة: أنَّهُ لا يُعَذِّبُ أحداً، إلا بعد قيام الحُجَّةِ عليه، وإرسال الرسول إليه، كما قال: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[3]، ثم أخبر أن الكافرين في شك مما جاءهم به الرسول، فقال: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ أي: موقع في الريب والتهمة، ثم أخبر – تعالى– أنه سيجمع الأولين والآخرين من الأمم، ويجزيهم بأعمالهم، فقال: ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾،

---

(1) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: في دوام نعيم أهل الجنة، (148/8) برقم (7336)، من حديث أبي سعيد وأبي هريرة – رضي الله عنهما– مرفوعاً بألفاظ متقاربة.

(2) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (353/4): (العذاب)؛ وهو الصحيح.

(3) سورة الإسراء، من الآية 15.

أي: عليم بأعمالهم جَليّها وخفيّها وحقيرها.

﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾.

أَمَرَ – تعالى- رسوله والمؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة، وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء، ومخالفة الأضداد، ونهى عن الطغيان، وهو البغي؛ فإنه مصرعة، حتى ولو كان على مشرك. وأعلم – تعالى- أنه بصير بأعمال العباد، لا يَغْفُلُ عن شيءٍ، ولا يخفى عليه شيء.

وقوله: ﴿ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾، أي: لا تُدْهِنُوا، وقال ابن عباس: "هو الركون إلى الشرك"(1)، أي: ولا تميلوا إلى الذين ظلموا، ولا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم رضيتم بصنيعهم، ﴿ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ﴾، أي: ليس لكم من دونه وليٌّ، يُنْقِذُكُمْ من النار، ولا ناصرٌ يُخَلِّصُكُمْ من عذابه.

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾، قال ابن عباس وغير واحدٍ: "طَرَفَيِ النهار يعني: الصبح والمغرب"(2)، وقيل: الصبح والعصر، وقال مجاهد وغير واحدٍ: "الصبح في أول النهار، والظهر والعصر من آخره"(3).

وقوله: ﴿وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾، قالوا: "يعني: صلاة العشاء"، وقبل: "المغرب، والعشاء"، كما في الحديث المرفوع: "هما زُلَفَا الليل: المغرب، والعشاء"(4)، ولعل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلةَ الإسراء، فإنه إنما كان يَجب من الصلاة صلاتان: صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها، وفي أثناء الليل، وقيام، – عليه صلوات الله وسلامه عليه-، وعلى الأمة، ثم نُسِخَ في حق الأمَّة، وثبت

(1) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن- للطبري (500/15).

(2) ينظر: المصدر نفسه والصفحة.

(3) ينظر: المصدر نفسه (502/15).

(4) أخرجه الطبري في تفسيره (508/15).

وجُوبُه عليه، ثم نسخ عنه أيضاً، في قولٍ، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾، أي: إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة، كما قال عليٌّ: حدثني أبوبكر، وصدق أبو بكر – رضي الله عنهما–: أنه سمع رسول الله – صلى الله عليه وسلم– يقول: " ما من مسلم يُذنب ذنباً، فيتوضأ، ويُصَلِّي ركعتين، إلا غفر الله له"، رواه أحمد، وأهل السنن[1]، وفي الصحيحين: عن أبي هريرة عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: " أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً، هل يبقى من دَرَنِهِ شيء؟ قالوا: لا، يارسول الله، قال: ذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا"[2]، وفيهما أيضاً عن ابن مسعود: أن رجلاً أصاب من امرأة قُبْلَةً، فأتى النبيَّ – صلى الله عليه وسلم–، فأخبرهُ، فأنزل الله: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾، فقال الرجل: يا رسول الله ألِي هذا؟ قال: لجميع أمتِي كلّهم"[3]، وفي رواية: "لِمَن عَمِل بها من أمتي"[4]، واسم الرجل: عامر بن قيس، وقيل: كعب بن عمرو، أبو اليَسَر، وفي رواية أحمد وأبي داود والنسائي[5] عن ابن مسعود قال: جاء رجل إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم– فقال: يا رسول الله، إني وجدت امرأة في بستان، ففعلت بها كل

(1) أخرجه أحمد في مسنده (223/1)، وأخرجه أبوداود في سننه، كتاب: الوتر، باب: في الاستغفار، (561/1) برقم (1523)، وأخرجه الترمذي في سنته، كتاب: أبواب الصلاة، باب: الصلاة عند التوبة، (257/2)، برقم (406)، ، كلهم من حديث أبي بكر – رضي الله عنه– بألفاظ متقاربة، وقال الترمذي: حديث حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث عثمان بن المغيرة.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: مواقيت الصلاة، باب: الصلوات الخمس كفارة، (197/1) برقم (505)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب: المشي إلى الصلاة تُمْحَى به الخطايا، وترفع به الدرجات (131/2)، برقم (1554)، كلاهما من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه– مرفوعاً بألفاظٍ متقاربة.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: مواقيت الصلاة، باب: الصلاة كفارة، (196/1)، برقم (503)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾، (101/8)، برقم (7177)، كلاهما من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه– مرفوعاً، واللفظ للبخاري.

(4) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: التوبة، باب: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾، (101/8)، برقم (7177)، من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه– مرفوعاً.

(5) أحمد بن علي بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار النسائي، أبو عبدالرحمن، القاضي الحافظ شيخ الإسلام، ولد سنة (215هـ)، صال وجال كثيراً من البلدان، واستوطن مصر، تفرد بالمعرفة والإتقان، وعلوّ الإسناد، قال عنه ابن المظفر الحافظ: (سمعتهم بمصر يصفون اجتهاد النسائي في العبادة بالليل والنهار)، وقال عنه الحاكم: (النسائي أفقه مشايخ أهل مصر في عصره، وأعرفهم بالصحيح والسقيم من الآثار، وأفهمهم بالرجال)، من مؤلفاته: (السنن الكبرى) في الحديث، و(الضعفاء والمتروكون)، و(خصائص علي)، توفي بمكة سنة (303هـ)، ينظر: تذكرة الحفاظ للذهبي (194/2)، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد العكري (238/2)، والأعلام للزركلي (171/1).

شيء، غير أني لم أجامعها، قبَّلْتُهَا، ولزمتُهَا، ولم أفعل غير ذلك، فافعل بي ما شئت، فلم يَقُلْ رسول الله – صلى الله عليه وسلم- شيئاً، فذهب الرجل، فقال عمر: ستَرَ الله عليه، لو ستَرَ على نفسِهِ، فأتبعَهُ رسول الله – صلى الله عليه وسلم- بصَرَهُ، فقال: "رُدُّوهُ عليَّ"، فَرَدُّوهُ، فقَرأ عليه: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ ﴾، الآية[1]، وعن أبي ذرٍّ أن النبي – صلى الله عليه وسلم- قال: "اتقِ الله حيثما كنت، وأتبِعِ السيئةَ الحسنةَ، تَمحُها، وخالقِ الناسَ بِخلقٍ حَسَنٍ"[2]، وفي رواية قال: قلت: يارسول الله، أمِن الحسنات: لا إله إلا الله؟ قال: "هي أفضل الحسنات"[3]، رواه أحمد.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: القرآن، أو الذي ذكرناهُ، ﴿ ذِكۡرَىٰ ﴾، أي: عظة ﴿لِلذَّٰكِرِينَ﴾، أي: للمتعظين، ﴿ وَٱصۡبِرۡ ﴾ يامحمد، على ما تلقى من الأذى، وقيل: على الصلاة، كما في قوله: ﴿ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا ﴾[4]،﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾، أي: المُصلّينَ في أعمالهم.

﴿ فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ﴾، أي: فهلَّا وُجِدَ من القرون الماضية بقايا من أهل الخير، يَنْهَون عما كان يقع بينهم من الشر، والمنكرات، والفساد في الأرض.

وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلٗا ﴾أي: لكن قليلاً من الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه، وفُجَاءة نِقْمَتِهِ، ولم يكونوا كثيراً، وهم أتباع الأنبياء، كانوا ينهون عن الفساد.

وفي الحديث المرفوع " إن الناس إذا رأوا المنكر، فلم يُغَيِّرُوهُ، أوشَكَ أن يَعُمَّهُمْ

---

(1)أخرجه أحمد في مسنده (319/7)، أخرجه أبوداود في سننه، كتاب: الحدود، باب: في الرجل يصيب من المرأة دون الجماع، فيتوب قبل أن يأخذه الإمام (273/4)، برقم (4470)، وأخرجه أحمد بن شعيب (أبو عبدالرحمن النسائي)، في سننه الكبرى، تح: د. عبدالغفار سليمان النبداري، وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى، (1411هـ – 1991م) كتاب: الرجم، باب: ذكر اختلاف ألفاظ الناقلين لهذا الخبر، (317/4)، برقم (7322)، ، كلهم من حديث ابن مسعود – رضي الله عنه- مرفوعاً بألفاظ متقاربة.

(2) أخرجه أحمد في مسنده (284/35)، عن أبي ذرٍّ – رضي الله عنه- يرفعه، وأخرجه الحاكم في المستدرك (121/1) كذلك، وقال: (هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه)، ووافقه الذهبي.

(3) أخرجه أحمد في مسنده (286/35).

(4) سورة طه، من الآية (132).

الله بِعقاب"[1]، رواه الترمذي، وابن ماجه[2].

وقوله: ﴿ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ ﴾، أي: استمَرُّوا على ما هم فيه من المعاصي والمنكرات والتنعم، وإيثار اللذات على الآخرة. والتَّرَفُ: التَّنَعُّمُ، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك حتى فجأهم العذاب، ﴿ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴾ أي: كافرين، ثم أخبر – تعالى– أنه لم يهلك قرية، إلا وهي ظالمة لنفسها، ولم يأت قرية مُصْلِحَةً بأسُهُ وعذَابُهُ قط، حتى يكونوا هم الظالمين.

﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ﴾، أخبر– تعالى– أنه قادر على جعل الناس أمة واحدة من إيمان وكفران[3]، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًا ﴾[4]، الآية، ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ﴾ أي: لايزال الخُلْفُ بين الناس في أدْيَانِهِم، واعتقادات مِلَلِهِمْ، ونِحَلِهِمْ، ومذاهبهم، وآرائهم، وقيل: (مختلِفين في الهدى).

وقوله: ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾، أي: إلاّ المرحومين من أتباع الرسل الذين تمسكوا بما أُمِروا به، ولم يزل ذلك دأبُهُم، حتى كان النبي الأميّ خاتم الرسل والأنبياء، واتّبعوهُ[5]، وصدَّقُوه، ونصَرُوه، ففازوا بسعادة الدارين؛ لأنهم الفرقة الناجية، وقال عطاء: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ﴾، يعْنِي: اليهود والنصارى والمجوس، ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ يعني: الحنيفية[6]، وقال قتادة: (أهل رحمة الله أهل الجماعة، وإن تفرّقَتْ ديارهم وأبدانهم، وأهل المعصية[7] أهل فُرْقة، وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم)[8].

---

(1) أخرجه ابن ماجة أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني في سننه، مكتبة أبي المعاطي، كتاب الفتن، باب منه (139/5) برقم (4005)، وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب: القراءات، باب: سورة المائدة (256/5)، برقم (3057)، كلاهما من حديث أبي بكر – رضي الله عنه– مرفوعاً بألفاظ متقاربة، وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح.

(2) محمد بن يزيد الربعي القزويني، بن ماجة، أبوعبدالله، صاحب السنن والتفسير والتاريخ، وأحد أئمة الحديث، ولد سنة (204هـ)، رحل إلى البصرة وبغداد والشام، وكثير من البلدان في طلب الحديث، قال عنه أبويعلى الخليلي: (ابن ماجه، ثقة كبير، متفق عليه، محتجٌّ به، له معرفة وحفظ)، وقال عنه ابن خلكان: (كان إماماً في الحديث، عارفاً بعلومه، وجميع ما يتعلق به)، من مؤلفاته: (سنن ابن ماجة)، و(تاريخ قزوين)، و(تفسير القرآن العظيم)، ينظر: تذكرة الحفاظ للذهبي، (155/2)، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد العكري، (163/2)، والأعلام للزركلي (144/7).

(3) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (361/4): (أو كفران)؛ وهو الصحيح.

(4) سورة يونس، من الآية 99.

(5) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (359/4): (فاتبعوهُ)؛ وهو الصحيح.

(6) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (532/15).

(7) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (362/4): (معصيته)؛ وهو الصحيح.

(8) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (633/15).

وقوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡ﴾، أي: وللاختلاف خلقهم، وقيل: للرحمة خَلَقَهُم، لا للعذاب، كما في قوله: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾[1]، وقال الحسن في هذه الآية: "الناس مختلفون في أديانٍ شتَّى، إلا من رحم ربك غير مختلفٍ"، فَقِيلَ له: فلذلك خلقهم؟ قال: "خَلَق هؤلاء لجنته، وهؤلاء لناره، وخلق هؤلاء لرحمته، وهؤلاء لعذابه"[2]، كما في قوله: ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾[3].

وقوله: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾، أخبر – تعالى– أنه قد سبق في قضائه وقَدَرِهِ؛ لعلمه التام، وحكمته النافذة، أن من[4] خَلْقه مَن يستحق الجنة، ومنهم من يستحق النار، وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذه[5] الثقلين الجن والإنس، وله الحجة البالغة، والحكمة التامة، وفي الصحيحين: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: "اختصمتِ الجنة والنارُ؛ فقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضعفَةُ الناس وسقطُهم؟ وقالت النار: أُوثِرْتُ بالمتكبرين والمتجبرين، فقال الله – تعالى– للجنة: أنت رحمتي، أرحم بك من أشاء، وقال للنار: أنت عذابي، أنتقم بك من أشاء، ولكل واحدة منكما مِلْؤُها، فأما الجنة، فلا يزال فيها فضل، حتَّى يُنشِيء الله لها خَلْقاً، يَسْكُنُ فضل الجنة، وأما النار، فلا تزال تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع عليها ربُّ العزة قدمه، فتقول: قط قط، وعزتك"[6].

﴿ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ أي: وكل أخبار نقصُّها عليك، من أنباء الرسل المتقدمين قبلك مع أممهم، كيف جرى لهم من المُحَاجَّات والخُصوماتِ، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نَصرَ الله حِزْبَه المؤمنين، وخذل أعداءه الكافرين، كل هذا مما ﴿ نُثَبِّتُ

(1) سورة الذاريات الآية 56.

(2) ينظر: تفسير – ابن أبي حاتم (2093/6).

(3) سورة الشورى، من الآية 7.

(4) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم– لابن كثير (363/4): (ممن)، وهو الصحيح.

(5) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (363/4): (هذين)، وهو الصحيح.

(6) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: سورة (ق) (1836/4)، برقم (4569)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الجنة، وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء، (151/8)، برقم (7354)؛ كلاهما من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه–، مرفوعاً بألفاظٍ متقاربةٍ.

بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾، يا محمد، – أي قلبك-: ليكون لك بمن مضى من إخوانك المرسلين إسوة.

وقوله: ﴿ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ ﴾، أي: "هذه السورة"، قاله ابن عباس وجماعة(1)، وقال قتادة: "هذه الدنيا"، والصحيح هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء(2)، وكيف أنجاهم(3) الله والمؤمنين بهم، وأهلك الكافرين، جاءك فيها قصصُ حق، ونبأ صدق، وموعظة يَرْتَدِعُ بها الكافرون، وذكرى يتوقر بها المؤمنون، ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾، أي: قل للذين لا يؤمنون بما جئت به إليهم على وجه التهديد: ﴿ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ ﴾، أي: على طريقتكم ومنهجكم، ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴾، أي: على طريقتنا ومنهجنا، ﴿ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾، أي: فستعلمُون من تكون له عاقبة الدار، إنه لا يفلح الظالمون، وقد أنجز الله لرسوله وعده، ونصرَهُ وأيَّدَهُ، وجعل كلمته هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، والله عزيز حكيم.

﴿ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾، أخبر – تعالى- أنه عالم السمٰوٰت والأرض، وأنه إليه المرجع والمآب، وسيُوفِّى كل عامل عمله، يوم الحساب، فله الخلق والأمر، فَأَمَرَ – تعالى- بعبادته، والتوكُّل عليه، فإنه كافٍ مَنْ توكَّلَ عليه، وأناب إليه.

وقوله: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾، أي: ليس يَخْفَى عليه ما عليه مكذِّبُوك يامحمد، بل هو عليمٌ بأحوالهم وأقوالهم، وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء في الدارين، وينصرك وحِزْبَكَ عليهم في المنزلتين.

قال كعب الأحبار: (خاتمة التوراة، خاتمة هود)(4).

---

(1) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (543/15).

(2) ينظر: المصدر السابق، (543/15).

(3) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (363/4): (نجَّاهم)؛ وهو الصحيح.

(4) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (545/15).

تفسير سورة يوسف – عليه السلام–

[تمهيد](1)

[هذه السورة مكية، وسميت بهذا الإسم؛ نسبة لذكر قصة سيدنا يوسف كاملة بتفاصيلها في هذه السورة، ولم تُذْكَرْ في غيرها.

والسوة تناولت محتويات كثيرة نذكرها على النحو الآتي:

- إخوة يوسف وأحقادهم الصغيرة التي كَبِرت، وتضخمت، حَتَّى حَجَبتْهُمْ عن هول الجريمة وبشاعتها وضخامتها.
- تفسير الرؤيا عِلْمٌ لا يهبه الله إلا الصالحين من عباده.
- تحاسد القرابة بينهم.
- امرأة العزيز وشهوتها في اندفاعها الهائج الكاسر.
- يوسف ومهاجمته للفتنة التي حلَّت به.
- استنكار النسوة على امرأة العزيز ما وقعت فيه.
- سجن يوسف، وعدم إغفاله للدعوة إلى الله، وهو في سجنه.
- مواجهة يوسف لإخوته، وهي الأولى، بعدما فعلوا به فعلتهم القديمة.
- كيف دبّر لأخذ أخيه من بين إخوته.
- كشف يوسف عن نفسه أمام إخوته.
- يعقوب يشم ريح يوسف في قميصه.
- إسرائيل وبنوهُ سكنوا أرض مصر.
- تسلية الرسول – صلى الله عليه وسلم– بما لقيه يعقوب ويوسف – عليهما السلام– من الأذى، والاضطهاد.
- العبرة بصبر الأنبياء على البلوى، وعاقبة ذلك الصبر.
- العبرة بهجرة قوم النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى البلد الذي حلّ به، كما فعل بيعقوب – عليه السلام– وآله.

(1) إضافة من المحقق.

- العبرة بتاريخ الأمم والحضارة القديمة في قوانينها، ونظام حكوماتها، وتجاراتها، وعقوباتها.
- تميزت هذه السورة بالإعجاز في أسلوب القصص، الذي كان خاصّةُ أهل مكة يعجبون بما يتلقونه منه من بين أقاصيص العجم والروم] [1].

رُوِيَ أن طائفةً من اليهود حين من سمعوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم- يتلو هذه السورة، أسلموا؛ لموافقتها ما عندهم، قاله ابن عباس، ورواه البيهقي في دلائل النبوة[2].

(1) ينظر: في ظلال القرآن – للسيد قطب (1949/4)، والتحرير والتنوير – للطاهر بن عاشور (314/11).
(2) ينظر: دلائل النبوة – للبيهقي (276/6).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾

سبق الكلام على حروف أوائل السور في أول سورة البقرة.

وقوله: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾، وهو القرآن الواضح الجلي، الذي يُفْصِحُ عن الأشياء المبهمة، ويفسرها ويُبَيِّنُها.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾، وذلك؛ لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينُها وأوسعُهَا، وأكبرها تأْدِيَةً للمعاني التي تقوم بالنفس؛ فلهذا نزل على أشرف الرسل، بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف البقاع الأرض، وابتدئ إنزالَه في أشرف شهر من السنة، وهو رمضان، فكَمُلَ من كل الوجوه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ﴾، ما مصدرية، أي: بإيحائنا إليك هذا القرآن، قال ابن عباس: "قالوا: يا رسول الله، لو قصصْتَ علينا، فنزلت: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾"(1)، رواه ابن جرير، والقاصُّ: الذي يَتْبَعُ الآثار، ويأتي بالخبر على وجهه، أي: نبيّنُ لك أخبار الأمم السالفة أحسن البيان، وقيل: المراد قصة يوسف خاصةً، لما فيها من الحِكَم، في العِبَر والنُّكَتِ والفوائد التي تصلح للدين والدنيا، من سِيَرِ الملوك والمماليك والعلماء، ومكر النساء، والصبر على أذى الأعداء، وحُسْنِ التجاوزِ عنهم بعد الالتقاء، وغير ذلك...

قال سعد بن أبي وقاص: أُنْزل القرآن على رسول الله – صلى الله عليه وسلم–، فتلا عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا، فأنزل الله: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾، فقالوا: لو ذكَّرْتَنَا، فأنزل الله: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾(2)، فأرادوا القصص، فدلَّهم على أحسن القصص(3).

---

(1) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (202/12).

(2) سورة الحديد، من الآية 16.

(3) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (553/15).

وقولــه: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ﴾ أي: مــن قبــل الــوحي والإنــزال، ﴿لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾، أي: السَّاهِينَ عن هذه القصة، لم تكن تعلم [بها] (1)، ومما يناسب ذِكْرُه عند ذكر هذه الآية المشتملة على مدح القرآن، وأنه كافٍ عن كل ما سواه من الكتب، ما روى جابر: أن عمر بن الخطاب أتى النبي – صلى الله عليه وسلم– بكتاب أصابَهُ بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبي – صلى الله عليه وسلم–، فغضب، وقال: "أمتهوّكُون كما تهوَّكَتِ(2) اليهود والنصارى؟ والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضاءَ نقيّةً، لا تسألوهم عن شيء، فيخبروكم بحق، فتكذّبونه، أو بباطل فتصدّقونه، والذي نفسي بيده، لو أن موسى كان حيًّا، لما وسعه إلا اتباعي"(3)، رواه أحمد.

﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾، أي: اذكر لقومك يا محمد، في قصصك عليهم من قصة يوسف ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ هو يعقوب – عليه السلام– كما في البخاري أن رسول الله – صلى الله عليه– قال: "الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم"(4)، قال ابن عباس: "رؤيا الأنبياء وحيٌ"(5)، قال المفسرون: إن أحد عشر كوكباً عبارة عن إخوته، وكانوا أحد عشر رجلاً سواه، والشمس والقمر عبارة عن أبيه وأمه والمراد خالته؛ لأن أمَّه "راحيل" كانت قد ماتتْ، قاله السّدّيّ(6)، قالوا: وقد ظهر تعبيرها بعد أربعين سنة، وقيل ثمانين سنة، وذلك حين رفع أبويه على العرش، وهو سريره، وإخوته بين يديه.

﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا﴾، قال: أبو جعفر بن جرير عن جابر قال: أتى النبيَّ – صلى الله عليه وسلم– رجلٌ من يهود، يقال له: "بُستانَة اليهودي"، فقال له: يا محمد، أخبرني

---

(1) زيادة من المحقق يقتضيها السياق.

(2) التهوك: التحيُّر، ينظر: مختار الصحاح – للرازي (705/1) الجذر "هـ و ك".

(3) أخرجه أحمد في مسنده (349/23).

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ﴾، (1240/3)، برقم (3210)، من حديث ابن عمر – رضي الله عنهما– مرفوعاً.

(5) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (554/15).

(6) ينظر: تفسير ابن أبي حاتم (2101/7)، وجامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (556/15).

عن الكواكب [التي][1] رآها يوسف أنها ساجدة له، ما أسماؤها؟ قال: فسكت النبي – صلى الله عليه وسلم–، فلم يجبْهُ بشيءٍ، ونزل عليه جبريل، فأخبره بأسمائها، قال: فبعث رسول الله – صلى الله عليه وسلم– إليه، فقال: هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها؟ فقال: نعم، قال: "جِريان، والطارق، والذَّيَّال، وذو الكِفات، وقابسٌ، ووثابٌ، وعمودان، والفلَيق، والمصبِح، والضَّرُوحُ، وذو الفَرَع، والضِيَاءُ، والنور"، فقال اليهودي: إي، والله، إنها لآحادُها[2]، ورواه البيهقي في الدلائل[3]، وأمَّا أسامي إخوة يوسف الصديق –عليهم السلام– على ما ذكره الثعلبي[4] وغيره فهي: رُوبيل، وشمعون، ويهودا، ولاوي، وربالون، وراذاتٍ، وتِقَال، وأمنجر، وحاد، وداسر، وابن يامين – عليهم السلام–، والله أعلم.

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾.

أخبر – تعالى– عن قِيلِ[5] يعقوب لابنه يوسف، حين قصَّ عليه ما رأى من هذا[6] الرؤيا، التي تَعْبيرُهَا خضوعُ إخوته له، وتعظيمهم إياه تعظيماً زائداً، بحيث يخرُّون له ساجدين، إجلالاً وإكراماً؛ فخَشِيَ يعقوب أن يُحدِّثَ بهذا المنام أحداً من إخوته، فيحسدُونهُ على ذلك، فيَبْغُون له الغوائل[7]، حسداً منهم له؛ ولهذا قال له: ﴿لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا﴾، أي: يحتالوا لَكَ حيلةً، يُرْدُونَكَ فيها، ولهذا جاء في الحديث أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– قال: "الرؤيا على رِجْلِ طائرٍ، مالم تُعَبَّرْ، فإذا عُبِّرَتْ، وقعت واجبةً"، قال: "ولا تقصَّها إلا على وادٍّ، أو ذي رأيٍ"، رواه أبوداود، وللترمذي نَحْوُه[8]، ومن هذَا يؤخذ الأمر بكتمان النعمة، حتى تُوجد وَتظْهَرَ كما ورد في

(1) ساقطة من المخطوط، مثبتة من المحقق.
(2) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (370/4): (لأسماؤها).
(3) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (277/6).
(4) أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق، مفسر، مقرئ، واعظ، أديب، كان بارعاً في العربية، وأوحد زمانه في علم القرآن، من مؤلفاته: (عرائس المجالس)، و(الكشف والبيان في تفسير القرآن)، و (ربيع المذكرين)، توفي سنة (427)هـ، ينظر: طبقات المفسرين – للسيوطي (17)، والأعلام – للزركلي (212/1)، ومعجم المؤلفين – لعمر كحالة (60/2).
(5) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (371/4): (قول)، وهو الصحيح.
(6) كذا في المخطوط، المصدر السابق، بنفس الصفحة، (هذه)، وهو الصحيح.
(7) الغوائل: المهالك، ينظر: لسان العرب لابن منظور (507/11)، الجذر "غ و ل".
(8) أخرجه أبوداود في سننه، كتاب: الأدب، باب: ماجاء في الرؤيا (464/4)، برقم (5022)، وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب: الرؤيا، باب: تعبير الرؤيا (536/4)، برقم (2278)، كلاهما من حديث أبي رزين العقيلي – رضي الله عنه– مرفوعاً بألفاظ متقاربة، ونصُّ الترمذي: "رؤيا جزء من أربعين جزءاً من النبوة، وهي على رجل طائر، ما لم يتحدث بها فإذا تحدث بها، سقطت، قال: وأحسبه قال: ولا يُحدِّثُ بها إلا لبيباً أو حبيباً".

الحديث: "استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها؛ فإن كل ذي نعمة محسود"[1].

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

أخبر- تعالى- عن قَوْل يعقوب لولده يوسف أنه كما اختارك ربك وأراك هذه الكواكب ساجدة لك، ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾، أي: يختارك ربك، يصطفيك لنبوته، ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾، قال: مجاهد وغير واحدٍ: "يعني: تَعْبير الرؤيا"[2]، ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ﴾ أي: بإرسالك والإيحاءِ إليك؛ ولهذا قال: ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾، أي: هو أعلم حيث يجعل رسالاته، حكيم في ذلك.

﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾.

أي: لقد كان فيهم عبرة ومواعظ للسائلين عن ذلك، المستخبرين عنه، فإنه خبرٌ عجيبٌ يستحق أن يُخبرَ عنه، ﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا ﴾، أي: حلفوا فيما يَظُنُّون: والله، لَيُوسُفُ وأخوه يعنونَ "بنيامين"، وكان شقيقَهُ لأمه، ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾، أي: جماعة، فكيف أحبَّ ذينَك الاثنين من الجماعة؛ ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾، يعنون في تقديمهما علينا، ومحبَّته إياهما أكثر منا، واختلفوا في أن إخوة يوسف هل كانوا أنبياء أم لا؟ فزعم بعضهم أنه أوحي إليهم بعد ذلك، والصحيح أنه لم يَقُمْ دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحي إليهم، والله أعلم.

وقوله: ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ ﴾، أي: هذا يُزَاحِمُكم في محبة أبيكم لكم، أعْدِموه من

(1) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (34/9) برقم (6228)، وأخرجه أبو نعيم في الحلية (215/5)، كلاهما من حديث معاذ – رضي الله عنه– مرفوعاً، وقال أبو نعيم: غريب من حديث ثور، لم نكتبه إلا من حديث سعيد عالياً.

(2) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (560/15).

وجه أبيكم، ليَخْلُوَ لكم وحدكم، إمّا بأن تقتلوه، أو تلقوهُ في أرضٍ من الأراضي، تستريحوا منه، وتخْتلُوا أنتم بأبيكم، وتكونوا من بعد إعدامه قوماً صالحين، فأضمروا التوبة قبل الذنب.

﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ قال قتادة: "وكان أكبرُهُم، واسمه: رُوبيل، وقيل: يهوذا"(1) ﴿لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾، أي: لا تصِلُوا في عداوته وبغضه إلى قتله، ولم يكن له سبيل إلى قتله؛ لأن الله إن كان يريد منه أمراً، لا بد من إمْضَائِهِ وإتمامِهِ، من الإيحاء إليه بالنبوَّة، فصرفهم الله عنه بمقالة: "روبيل" فيه، وإشارته عليهم بأن يلقوه ﴿ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ﴾، أي: في أسفل البئر غير المطوية، والغيابة: كل موضعٍ سَتَرَ عَنْك الشيء وغيَّبَهُ، ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ ﴾، أي: المارَّةُ من المسافرين، فتستريحوا منه بهذا، ولا حاجة إلى قتله، ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ أي: عازمين على ما تقولون.

﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ .

لما اتفقوا على أخذه وطرحه في البئر، جاؤوا أباهم يعقوب، فقالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴾، وهذه توطئة ودعوى، وهم يريدون خلاف ذلك؛ لمَا لَهُ في قلوبهم من الحسد؛ لحبِّ الله له، ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا ﴾ أي: ابعثهُ مَعَنَا، ﴿غَدًا يَرْتَعْ ﴾، قرأ بعضهم بالياء(2)، قال ابن عباسٍ: "أي يَسْعَى ويَنْشَطُ"(3).

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ أي: ونحن نحفظه ونحُوطُه؛ لأجْلِكَ.

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾

---

(1) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (564/15).

(2) قرأ أبو عمرو وابن عامر: ﴿نَرْتَعْ وَنَلْعَبْ﴾، بالنون فيهما وتسكين العين والباء، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ بالياء وجزم العين والباء، ينظر: السبعة في القراءات –لابن مجاهد البغدادي (346)، وحجة القراءات – لعبد الرحمن بن محمد بن زنجلة (أبو زرعة)، تح: سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: الثانية (1402هـ – 1982م)، (355).

(3) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (570/15).

أخبر – تعالى– عن "يعقوب" أنه قال لبنيه في جواب ما سألوه وتوقعوا عنه: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ﴾، أي: يشقُّ عليَّ مفارقتُهُ مدَّةَ ذهابكم به إلى أن يرجع، وذلك؛ لفَرْطِ محبتِهِ له؛ لما يتوسَّم له من الخير العظيم.

وقوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾، أي: وأخشى أن تشتغلوا عنه، برميِكم ورَعْيكم، فيأتيه ذئبٌ، فيَأكله، وأنتم لا تشعرون، فأَخَذُوا من فمه هذه الكلمة، وجعلوها عُذرهم فيما فعلوه، وقالوا: مجيبين له عنها في الساعة: ﴿لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾، أي: لئن عَدَا عليه الذئب، فأكله من بيننا، ونحن جماعة، إنا إذا لهالكون عاجزون.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾، أي: فلما ذهب به إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له في ذلك، ﴿وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾، وفيه عِظَمُ ما فعلوه من اتفاقهم كُلَّهم على إلقائه في أسفل الجُبِّ، وقد أخذوه من عند أبيهم فيما أظهروه له؛ إكراماً له؛ وشرحاً لصدره، وقيل: إن يعقوب لما بعث يوسف معهم، ضَمَّهُ إليه، وقبَّلَهُ، ودعَا لَهُ، ولم يَكن بين إكرامهم له، وبين إظهار الأذى إلا أن غابوا عن عين أبيه، ثم شرعوا في إيذائه بالشتم والضرب، ونحوه، ثم جاؤوا به إلى الجُبِّ، فربطوه بحبل، ودلّوهُ فِيهِ، فإذا لجأ إلى واحدٍ، لطمَهُ، وشتمَهُ، وإذا تشبَّث بحَافَّات البئر، ضربُوا على يديه، ثم قطعوا به الحبل من نصف البئر، فسقط في الماء، فغَمَرَهُ، فصَعِدَ إلى صَخرة تَكُون في وسطه، يقال له[1]: الراغوفة، فقام فوقها.

قال – تعالى–: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ﴾، أخبر– تعالى– عن لطفه وكرمه، وإنزاله اليُسْر في حال العُسْر، أنه أوحى إلى يوسف في تلك الحال؛ تسكيناً؛ وتطييباً لقلبه، وتثبيتاً لَهُ: لا تحزن فيما أنت فيه، فإن لك منها فَرجاً ومخرجاً، وسينصرك الله عليهم، ويخزيهم بما فعلوا معك، وقوله: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾، أي: بإيحاء الله إليه، قال ابن عباس: "سننبئُهم بصنيعهم هذا في حقك، وهم لا يعرفونك"[2]، قال:

(1) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (374/4): (لها)، وهو الصحيح.

(2) ينظر: تنوير المقياس من تفسير ابن عباس – للفيرُوزأبادي (194).

وذلك أنه لمَّا دخل إخوة يوسف عليه، فعرفهم، وهم له منكرون، قال: جيء بالصُّواع[1]، فوضعه على يده، ثم نقرَهُ، فطنَّ، فقال: إنه ليُخْبِرُني هذا الجام[2]: أنه كان لكم أخ من أبيكم، يقال له "يوسف"، يُدْنِيه دونكم، وأنكم انطلقتم به، وألقيتموه في غيابة الجب، قال: ثم نَقَرهُ فطنَّ، فأتيتم أباكم فقلتم إن الذئب أكله، وجئتم على قميصه بدم كذب، فقال بعضهم لبعض: إن هذا الجام يُخْبِرُكم بخَبرِكم، وهو المراد بقوله: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾، الآية...

﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾.

أخبر – تعالى– عن اعتذار إخوة يوسف بعدما أَلْقَوْهُ في غيابة الجُبِّ عند أبيهم راجعين إليه في ظلمة الليل، يبكون، ويُظهِرون الأسف والجزع على يوسف: ﴿ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ نترامى، ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾، أي: ثيابنا وأثاثنا، ﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾، أي: ونحن نعلم أنك لا تصدقنا – والحالة هذه–، ﴿وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾، فكيف وأنت تتهمُنا في ذلك؟! لأنك خشيت أن يأكله الذئب، فأكله اتفاقاً، فلك العذر في تكذيبك لنا؛ لغرابة ما وقع في أمرنا هذا.

وقوله: ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾، أي: مكذوب مفترى، وهذا من الأفعال التي يؤكدون بها ما تمالؤوا عليه من المكيدة، وهو أنهم عمدوا إلى سَخْلَة[3]، فيما ذكر غير واحدٍ، فذبحوها، فلطَّخُوا ثوب يوسف بدمها، موهمين أن هذا قميصه، الذي أكله فيه الذئب، وقد أصابه من دمه، لكنهم نَسَوْا أن يَخرقُوهُ، فلهذا لم يقع ذلك في خاطر نبي الله، وقال: لو أكله السبع، لخرق القميص، قاله ابن عباس وغير واحدٍ، بل قال لهم معرضاً عن كلامهم[4]: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ ﴾، أي: زيَّنتْ، ﴿ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ

(1) الصواع: الإناء الذي يُشْرَب فيه، ينظر: لسان العرب – لابن منظور، (214/8)، الجذر: "ص و ع".

(2) الجام: الفاثُورُ من اللُّجَيْن، تاج العروس من جواهر القاموس – للزبيدي (429/31)، الجذر: "ج أ م".

(3) السخلة: ولد الشاة من المعز والضأن ذكراً أو أنثى، ينظر: لسان العرب – لابن منظور (322/11)، الجذر: "س خ ل".

(4) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (580/15).

جَمِيلٌ﴾، أي: فسأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر، الذي قد اتفقتم عليه، حتى يفرجه الله بعونه ولطفه، والصبر الجميل: الذي لا شكوى فيه ولاجزع، ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، أي: ما تذكرون من الكَذِبِ والمُحَالِ.

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾

قيل: لما ألقوه في البئر، مكث فيها ثلاثة أيام، فساق له سيارةً، أي قوماً مسافرين، فنزلوا قريباً من ذلك[1] البئر، وأرسلوا واردهم الذي يطلب لهم الماء، فأدلى دلوه فيها، فتشبت بها يوسف، وأخرجه، واستبشر به، وقال: ﴿يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾، فأضاف البشرى إلى نفسه، وحذف ياء الإضافة على الراجح، وهو يرددها، كما تقول العرب: "يا نفس اصبري"، "ويا غلام أقبل"، بحذف حرف الإضافة، ويجوز الكسر والرفع حينئذٍ.

وقوله: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾، أي: وأسرَّه الواردون من بقية السيارة، وقالوا: اشتريناه من أصحاب الماء؛ مخافة أن يشاركوه[2] فيه، إذا عَلِمُوا ذلك، قاله مجاهد وغيره، وقال ابن عباسٍ: يعني إخوة يوسف، أسرُّوا شأنه، وكتموا أن يكون أخاهم[3]، وذلك أنهم لمّا ألقوه في البئر، جلسوا حوله يومهم ذلك، ينظرون ما يصنع، فلما جاءت السيارة وأخرجوه، قالوا: هذا عبدٌ لنا، قد أَبَقَ، وكتم يوسف شأنه؛ مخافة أن يقتله إخوته.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾، أي: يعلم ما يفعله إخوة يوسف ومُشْتَرُوهُ، وهو قادر على تغيير ذلك ولكن بحكمته ترك ذلك؛ ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، وهكذا كان أمر الأنبياء، كانوا يُبْتَلَوْن، والعاقبة للمتقين.

وقوله: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾، أي: وباعه إخوته بثمن قليل، والبخس هو: النقص، أي اعتاض إخوتُه بثمن دونٍ قليلٍ، وكان[4] مع ذلك فيه ﴿مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ أي:

---

(1) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (376/4): (تلك)، وهو الصحيح.

(2) المصدر السابق، بنفس الصفحة: (يشاركوهم)، وهو الصحيح.

(3) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (06/15).

(4) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (377/4): (وكانوا)، وهو الصحيح.

ليس لهم رغبةٌ فيه، بل لو سألوه بلا شيء لأجابوا، قال ابن عباس وغيره: الضمير في ﴿وَشَرَوْهُ﴾ عائد إلى الإخوة، وقال قتادة: بل هو عائد على السيارة، والأول أقوى[1].

وقوله: ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾، إنما أراد إخوتَهُ، لا أولئك السيارة؛ لأنهم استبشرُوهُ، وأسروه بضاعةً، ولو كانوا فيه من الزاهدين لَمَّا اشتَرَوْه، فظهر من هذا أن الضمير لإخوته، وقيل: المراد بقوله: ﴿بَخۡسٍ﴾ حرام، وقيل: ظلم، وهذا لا يخفى، وقيل: المراد هنا بالبخس: الناقصُ الزيوفُ، أي: إنهم إخوته [وقد][2] باعوه بأنقص الأثمان، كما قال ابن مسعودٍ: باعُوه بعشرين درهماً، وكذا قالَ غيره، وزاد، واقتسموها درهمين درهمين[3]، قال مجاهد: كما باعُوه، جعلوا يتبعونهم، ويقولون: استوثقُوا منه، لا يَأْبَقْ، حتى وقفوهُ بمصرَ، فقال: من يبتاعُني؟ فاشتراه ملك مصر، وكان مسلماً[4].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِى مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِى ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ . أخبر – تعالى– بإلطافه بيوسف، أنْ قيَّض [له][5] الذي اشتراه من مصر، حتى اعتنى به، وأكرمه، وأوصى أهله به، وتوسَّم فيه الخير والفلاح، فقال لإمْرَأته: ﴿أَكۡرِمِى مَثۡوَىٰهُ﴾، وكان عزيزَ مصر، ووزيرَها، قال ابن عباس: "اسمُهُ قِطْفِين"[6]، وكان على خزائن مصر، قال ابن إسحاق: "اسمُهُ اطفِرينَ"[7]، واسم امرأته: "راعِيل"، وقيل: "زليخا"، أي أكرمي منزلته ومقامه، ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾، أي: نبيعهُ بربحٍ، أو يكفينا، إذا بلغ بعض أمورنا، ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾، أي نتبنَّاهُ، قال ابن مسعود: أفرس الناس ثلاثة: العزيز في يوسف، حيث قال لامرأته: ﴿أَكۡرِمِى مَثۡوَىٰهُ﴾، وابنةُ شعيب، حيث قالت لأبيها في موسى:

(1) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن– للطبري (10/15).
(2) ساقطة من المؤلف، مثبتة من تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (377/4) .
(3) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (13/15–14).
(4) ينظر: المصدر نفسه (05/15).
(5) ساقطة من المؤلف، مثبتة من تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (378/4) .
(6) ينظر: جامع البيان – للطبري (17/15).
(7) ينظر: تفسير – ابن أبي حاتم (2117/7).

﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُ﴾، وأبوبكر الصديق في عمر، حيث استخلفه[1].

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾، أي: وكما أنقذنا يوسف من إخوته، ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، يعني: بلاد مصر، ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ هو تعبير الرؤيا، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾، أي: إذا أراد شيئاً، فلا يُرَدُّ، وَلا يُمانَعُ، ولا يُخالَفُ، بل هو الغالب لما سِواهُ، وفعَّال لما يشاء.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: لا يدرون حكمتَهُ في خلقه، ولُطْفَهُ لما يريدُهُ.

وقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾، أي: يوسف، ﴿أَشُدَّهُۥٓ﴾، أي: استكمل خلْقَهُ، وخُلُقَهُ، ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾، أي: النبوّة بين أولئك الأقوام، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، أي: إنه كان محسناً في عمَلِه عاملاً بطاعة ربّه، واخْتُلِفَ في المدة التي بلغ أشده، قال ابن عباس: ثلاث وثلاثون سنة، وقيل: عشرون سنة، وقيل: أربعون سنة، وقيل: خمس وعشرون سنة، وقيل: ثلاثون سنة، وقيل: ثماني عشرة سنة، وقيل حد البلوغ والحلم[2].

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

أخبر- تعالى- عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر، وقد أوصاها زوجها به، وبإكرامه، ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾، أي: حاولتْهُ عن نفسه، ودعته إليها، وذلك أنها أحَبَّتْهُ حبًّا شديداً؛ لجماله، وحسنه، وبهائه، فحملها ذلك على أن تجمَّلتْ له، وغلَّقتْ عليه الأبواب، ودعته إلى نفسها، ﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَ﴾، فامتنع من ذلك أشد الامتناع، و﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾، وكانوا يطلقون ذلك على السيد والكبير، أي: إن بعلك ربِّي أكرمَ ﴿مَثۡوَايَ﴾، أي: منزلتي وأحسن إليَّ، فلا أقابله بالفاحشة إلى أهله، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، يعني: إن فعلت هذا، فأنا ظالم

(1) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (19/15).

(2) ينظر: المصدر السابق، (22/15).

خائنٌ، ولا أفلح أبداً، واختلف القراء في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، فقرأ كثيرون بفتح الهاء، وإسكان الياء، وفتح التاء[1]، قال ابن عباس وغير واحد: معناه: أنها تدعُوه إلى نفسها، "أي هَلُمَّ لك"[2]، وقيل: هي سُرْيَانيَّة؛ أي: عليك، وقيل: هَلُمَّ لك، وهي بالحورانية: تعالَ واقترِبْ، وقرأ آخرون: ﴿هِئْتُ لَكَ﴾،بكسر الهاء، والهمز، وضم التاء[3]، بمعنى: تهيَّأْتُ لك، من قول القائل: هِئتُ للأمر أهيءُ هيئَةً، رُوِيَ ذلك عن ابن عباس أيضاً[4]، قال ابن جرير: وكان أبو عمرو والكسائي يُنْكِران هذه القراءة[5]، وقرئ بفتح الهاء وكسر التاء، وهي غريبة[6]، وعامة أهل المدينة بفتح الهاء، وضم التاء[7].

واختار ابن مسعود وكثيرون الأوَّل[8]، قال أبو عبيدة[9] "لا تُثَنَّى ولا تُجْمَعُ ولا تؤنث، بل يخاطب الجميع بلفظ واحد" [10].

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾.

---

(1) ينظر: المصدر السابق (26/16).

(2) قرأ ابن عامر، وأبووائل وأبورجاء ويحيى: ﴿هِئْتُ لَكَ﴾، ينظر: الحجة للقراء السبعة – للحسن بن أحمد بن عبدالغفار الفارسيّ الأصل، أبو علي، تح: بدر الدين قهوجي، وبشير جويجابي، دار المأمون للتراث، دمشق – بيروت، ط: الثانية، (1413هـ – 1993م)، (416/4)، والمحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها – بأبي الفتح عثمان بن جني، وزارة الأوقاف – المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (1420هـ – 1999م)، (336/1).

(3) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (28/16).

(4) ينظر: المصدر نفسه (29/16).

(5) ينظر: المصدر نفسه (29/16).

(6) قرأ ابن عباس بخلاف وابن محيصن وابن أبي إسحاق وأبو الأسود وعيسى الثقفيّ والجحدريّ: ﴿هَيْتِ لَكِ﴾. ينظر: المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها – لابن جني (336/1)، والكامل في القراءات والأربعين الزائدة عليها – ليوسف بن علي بن جبارة بن محمد بن عقيل بن سواده (أبو القاسم) الهذلي اليشكري المغربي، تح: جمال بن السيد بن رفاعي الشايب، مؤسسة سما للتوزيع والنشر، ط: الأولى، (1428هـ – 2007م) (389).

(7) قرأ ابن كثير: ﴿هَيْتُ لَكَ﴾، ينظر: المبسوط في القراءات العشر – للنيسابوري (245)، وحجه القراءات – لأبي زرعة (358).

(8) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (30/16).

(9) معمر بن المثنى التيمي بالولاء، البصري، أبو عبيدة، الأديب اللغوي، النحوي، ولد سنة (110هـ)، كان إباضياً، شعوبياً، من حفاظ الحديث، قال عنه الدارقطني: (لا بأس به، إلا أنه يُتَّهَمُ بشيء من رأي الخوارج)، وقال عنه الجاحظ: (لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي، أعلم بجميع العلوم منه)، من مؤلفاته: (مجاز القرآن)، و(العققة والبررة)، و(نقائض جرير والفرزدق)، توفي بالبصرة سنة (209هـ)، ينظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب – لابن العماد العكري (23/2)، وطبقات المفسرين – للأدنه وي (30)، والأعلام – للزركلي (272/7)، ومعجم المؤلفين – لعمر كحالة (309/12).

(10) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (31/16).

اختلفوا في هذا المقام، قال بعضهم: المراد بهَمِّه بها: همُّ خطرات وحديث النفس، وهذا داخل في حديث: "إذا همَّ عبدي بحسنة، فاكتبوها له حسنة، فإن عَمِلَها، فاكتبوها بعشر أمثالها، وإن همَّ بسيئة، فلم يعملها، فاكتبوها له حسنة، فإنما تركها من جرَّائي، فإن عَمِلَها فاكتبوها بمثلها"(1)، الحديث، وهو مخرَّجٌ في الصحيح، وقيل: هَمَّ بضربها، وقيل: تمنَّاها زوجَة.

وقوله: ﴿ لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾، قال ابن عباس وكثيرون: رأى صورة يعقوب عاضًّا على يديه، يعِظُهُ، أو ضرب على صدر يوسف، وعنه أيضاً في رواية: رأى تمثال الملك، يعني: سيده، وقيل: رأى خيال "اظفير"، سيِّدَهُ حين دنا من الباب(2)، قال القرظي: رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت، فإذا كتاب في حائط البيت(3)، ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ﴾(4)، قال ابن جرير: والصواب أنه رأى من آيات الله ما زجَرَهُ عمَّا كان همَّ به، وجائزٌ أن يكون صورة يعقوب، وأن تكون صورة الملك، وأن يكون ما رآه مكتوباً من الزجر عن ذلك، ولا حجة قاطعة على تعيين شيء من ذلك، والصواب أن يُطْلَقَ كما قالهُ الله تعالى(5).

وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَ ﴾، أي: كما أريناهُ برهاناً صرفه عما كان فيها، كذلك نَقِيهِ السوء والفحشاء في جميع أموره، ﴿ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾، أي: المجتبين المطَّهِرين المختارين المصطفين – عليهم السلام–.

﴿ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾، (2724/6) برقم (7062)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: إذا همّ العبد بحسنة، كتبتْ، وإذا همَّ بسيئةٍ، لم تكتبْ، (82/1)، برقم (349)، كلاهما من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه– مرفوعاً بألفاظٍ متقاربةٍ.

(2) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (41/16).

(3) ينظر: المصدر السابق (47/16).

(4) سورة الإسراء، من الآية 32.

(5) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (49/16).

﴿وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَـٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾.

أخبر- تعالى- عن حالهما حين خرجا يستبقان إلى الباب، يوسف هارب، والمرأة تطلبُهُ؛ ليرجع إلى البيت، فلحقته في أثناء ذلك، فأمسكت بقميصه من ورائه، فَقَدَّت[1] قدًّا فظيعاً، يقال: إنه سقط عنه، واستمر يوسف ذاهباً، وهي في إثره، ﴿وَأَلۡفَيَا﴾ أي: وجَدَا سيِّدها، وهو زوجها، عند الباب، فعند ذلك هَابَتْهُ، وقالت لزوجها على الفور قاذِفةً ليوسف ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا﴾، يعني: فاحشةً، ﴿إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، أي: يُضْرَبُ ضرباً شديداً موجعاً، فعند ذلك انتصر يوسف بالحق، وتبرَّأ ممَّا رمتْهُ به من الخيانة، وقال بارًّا صادقاً: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِي﴾، أي: طلبت مني الفاحشة، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ﴾ أي: من قُدَّامِهِ، ﴿فَصَدَقَتۡ﴾، أي: في قولها: إنه أرادها على نفسها؛ لأنَّه لما دعَاهَا، وأبَتْ عليْهِ، دفعتْهُ في صدره، فقدّت قميصَهُ، فيصحُّ ما قالتْ، ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾، وذلك يكون كمَا وقَعَ، لمَّا هرب منها، وَطلبتْهُ، أمسكت بقميصه من ورائه؛ لِتَرُدَّهُ إليها، فقدّتْ قميصه من ورائه، وقد اختلفوا في هذا الشاهِدِ، هل هُو صغير أو كبير؟ على قولين لعلماء السلف، عن ابن عباس قال: "ذو لُحْيةٍ من خاصَّة الملك"[2]، وقال السُدِّيُّ: "ابن عمها"[3]، وعن جماعةٍ أنه كان صبياً صغيراً في المهد، واختاره ابن جرير[4]، وعن ابن عباس مرفوعاً قال: "تكلم أربعة، وهم صغارٌ: ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى بن مريم"[5].

وقوله: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ﴾، أي: فلما تحقَّقَ زوجها، صَدَّقَ يوسف، وكذَّبها فيما رمتْهُ به، قال: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّ﴾ أي: إن هذا البهت واللطخ من كيدكن،

---

(1) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (383/4)، (فَقَدّته) وهو الصحيح .

(2) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن– للطبري (56/16).

(3) ينظر: المصدر السابق (57/16).

(4) ينظر: المصدر السابق (59/16).

(5) أخرجه الطبري في تفسيره (54/16).

أي: مكركن، ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، ثم قال آمراً ليوسف بكتمان ما وقع: يا ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾، الأمر صفحاً، فلا تذكره لأحدٍ، وقال لامرأته: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾، وقد عذرها؛ لأنها رأت ما لا صَبْرَ لها عنْهُ، أي استغفري للذي وقع منك، من إرادة السوء بهذا الشاب، ثم قَذَفْتِه بما هو بريءٌ منه، ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ أي: من القوم المذنبين، حين راودته عن نفسه، فلما استعصم، كَذَبَتْ عليه.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

لما شاع خبر يوسف وامرأة العزيز في مدينة مصر، حتى تحدَّثَ الناس به، تعجَّبُوا، ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾، مثل نساء الأمراء والكبراء، يُنْكِرنَ على المرأة، ويَعِبْنَ ذلكَ عليها: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾، أي: تحاول غلامها عن نفسه، وتدعوه إلى نفسها، ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: قد وصل حبُّه إلى شغاف قلبها، وهو: غلافُهُ وحجَابُهُ. قال ابن عباس: (الشغف: الحبُّ القاتل، والشعَفُ بالعين المهملة دون ذلك)[1].

﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، أي: في صنيعها هذا من حبّها فتاها، ومراودتها إياه عن نفسه.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾، أي: بقولهن، قال ابن إسحاق: بل بلغهُنَّ حُسْنُ يوسف، فأحببنَ أن يَرَيْنَهُ، فقلن ذلك؛ ليتوصلْنَ إلى رؤيته ومشاهدته، فعند ذلك: ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾، أي: دعتهن إلى منزلها؛ لتُضِيفَهُنَّ، ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ قال الأكثرون: هو المجلس

(1) ينظر: تفسير ابن أبي حاتم (2131/7).

المُعَدُّ فيه مفارش وَمَخَادُّ وطعام، فيه ما يُقْطَعُ بالسكاكين كالأُتْرُجْ[1]، ونحوه، ولهذا قال –تعالى–: ﴿ وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا ﴾، وكان هذا مكيدةً منها، ومقابلة لهن في احتيالهن على رؤيته، ﴿وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ ﴾، وذلك أنها كانت قد خبَّأَتْهُ في مكانٍ آخر، ﴿فَلَمَّا ﴾ خرج، ﴿رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ ﴾، دهشاً من رؤيته، وهن يظنن أنهن يقطعن الأتْرُجّ بالسكاكين، يعني: أنهن حَزَزْنَ أيديهن بها، ويَحْسِبْنَ أنهن يقطعن الأترُجّ، حتى سال الدم منهن، فلما أحسسن بالألم، جعلن يُوَلْوِلْنَ، فقالت: أنتُنْ من نظرةٍ واحدةٍ فعلتُنَّ هكذا، فكيف أُلآمُ أنا؟!

﴿وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ﴾، ولا نَلُومُكِ من بعد؛ لأنهنَّ لم يريْنَ في البشر شبهَهُ، ولا قريباً منه، فإنه – عليه السلام– كان قد أُعْطِي شطر الحسن، كما ثبت في الصحيح: في حديث الإسراء أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– مرَّ بيوسف في السماء الثالثة، قال: " فإذا هو قد أُعْطِيَ شطر الحسن"[2]، أي: حسنَ أهل الدنيا، قال ابن مسعود: وكان وجه يوسف مثل البرق، فكانتِ المرأة إذا أتتْهُ لحاجةٍ، غطَّى وجهَه؛ مخافةَ أن يُفْتَنَ به[3]، ولهذا قال هؤلاء النسوة[4] عند رؤيته: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾، أي: معاذ الله، وقرأ بعضهم: ﴿مَا هَٰذَا بِشِرًى ﴾، أي: بمشترى، ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ ﴾، معذرةٌ إليهن، بأن هذا حقيق بأن يُحَبَّ؛ لجماله وكماله.

﴿ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ ﴾، أي: فامتنع، قال بعضهم: لمَّا رأيْنَ جماله الظاهر، أخبرَتْهُنَّ بصفاته الحسنة التي تخفى عنهن، وهو[5] العفة، مع هذا الجمال، ثم قالت تَتَوَعَّدُهُ: ﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾، أي: ولئن لم يطاوعني فيما أدْعُوهُ إليه، ليُعاقبنَّ بالسجن والإذلال؛ فعند ذلك استعاذ يوسف من

---

(1) الأُتْرُجُّ: المُتْكُ، لسان العرب – لابن منظور (485/10)، الجذر (م ت ك).

(2) جزء من حديث طويل، أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: الإسراء برسول الله – صلى الله عليه وسلم– إلى السمٰوٰت، وفرض الصلوات (99/1)، برقم (429)، من حديث أنس بن مالك – رضي الله عنه– يرفعه.

(3) ينظر: تفسير ابن أبي حاتم (2136/7).

(4) قرأ الحسن وأبو الحويرث الحنفي: ﴿مَا هَٰذَا بِشِرًى﴾، ينظر: المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها – لابن جني (341/1).

(5) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (386/4)، (وهي) وهو الصحيح .

شرهن وكيدهن فقال: ﴿ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ ﴾ أي: من الفاحشة، ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ ﴾، أي: إن وَكَلْتَنِي إلى نفسي، فليس لي من نفسي قدرةٌ، ولا أملك لها ضرًّا، ولا نفعاً، إلا بحْولِك وقوتك، أنت المستعان، وعليك التُّكلان، فلا تكلني إلى نفسي.

﴿أَصۡبُ ﴾ أي: أميل إليهن، وأتابعهن، وأصيرُ حينئذٍ من أهل الجهل والضلال.

﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾؛ لمكرهن ودفعهن، فعصمه الله عصمة عظيمة، وحمَاهُ، فامتنع منها أشد الامتناع، واختار السجن على ذلك، وهذا من أعلى مقامات الكمال: أنه مع شبابه وجماله تدعوه سيدتهُ، وهي في غاية الجمال والمال، والرياسة، فامتنع من ذلك واختار السجن؛ خوفاً من الله، ورجاء ثوابه.

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴾، أي: ثم ظهر لهم المصلحة فيما رأوهُ أنهم يسجنونَهُ إلى مدة، وذلك بعدما عرفوه[1] براءته، وظهرت الأمارات والآيات، وهي الأدلة على صدقه في عفَّتِه ونزاهتِهِ، فكأنهم إنما سَجنُوهُ؛ إيهاماً أن هذا راودها عن نفسها، وأنهم سَجَنُوهُ على ذلك، ولهذا لمَّا طلبَهُ الملك الكبير في آخر المدةِ، امتنع عن الخروج، حتى تتبيَّنَ براءتهُ مما نسب إليه من الخيانة، فلمَّا تقدَّرَ ذلك، خرج، وهو نقيُّ العِرْضِ.

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾، قال قتادة: "كان أحدهما ساقي الملك، والآخر خبَّازَه"[2]، قال ابن إسحاقٍ: "واسم الأول: ينو[3]، واسم الآخر مجلَثْ"[4]، وسبب حبسهما أن الملك توهَّم أنهما تمالآ على سَمِّهِ في طعامِهِ، وشرابِهِ، ثم إن يوسف قد اشتهر في السجن بالجودة[5]، والأمانة، وصدق الحديث، وحسن السَّمْتِ وكثرة العبادة، ومعرفة التفسير والإحسان إلى أهل السجن،

(1) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (387/4): (عرفوا)، وهو الصحيح.
(2) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (95/16).
(3) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (387/4): (نبوا).
(4) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (95/16).
(5) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم– لابن كثير: (387/4): (بالجود)، وهو الصحيح.

ولمَّا دخَل هذان السجن، فألِفَا بِهِ، وأحبَّاهُ حبًّا شديداً، فأخبراه بذلك، فقال: بارك الله فيكما، ما أحبَّنِي أحدٌ، إلا دخل عليَّ من محبتِهِ ضررٌ، ثُمَّ إنهما رأيا مناماً، فرأى الساقي أنه يعصر خمراً، - يعني: عنباً-، كما في قراءة ابن مسعودٍ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ عِنَبًا﴾[1]، وقال له: رأيْتُ فيما يرى النائم أني غرسْتُ حَبَلَةً من عنبٍ، فنبتتْ، فخرج فيه عناقيد، فعصرتهن، ثم سقيتهن الملكَ، فقال: تمكث في السجن ثلاثة أيامٍ، ثم تخرجُ، فتسقِيَهُ خمراً، وقال الآخر، وهو الخبَّازُ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾، أي: أخبرنا بتعبيره، ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: العالِمِين بعبارة الرؤيا، والمشْهُورُ أنهما رأيا منَاماً، وطلبا تَعْبِيرَهُ، وعن ابن مسعود قال: (ما رأى صاحبا يوسف شيئاً، إنما كان تحالَمَا؛ ليُجَرّبَا عليه[2])[3].

﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾.

أخبرهما يوسف أنَّهما مهما رأيَا في منامهما شيئاً، فإنه عارف بتفسيره، ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه، قال مجاهد: "أي: ﴿لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَا﴾"[4]، وهذا من تعليم الله إيايَّ؛ لأني اجتنبتُ ملة الكافرين، الذين لا يرجون ثواباً ولا عقاباً في المعاد، ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾، وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى، واتبع المرسلين مُعْرِضًا عن طريق الضالّين، فإنه يهدي الله قلبه، ويعلّمه ما لم يكن يعلم، ويجعله إماماً يُقْتَدَى به.

﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾، هذا التوحيد، وهو الإقرار بأنه لا إله إلا

---

(1) ينظر: المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها – لابن جني (342/1).

(2) كذا في المخطوط، وفي تفسير الطبري (96/16): (علمه)، وهو الصحيح.

(3) أخرجه الطبري في تفسيره (108/16).

(4) ينظر: تفسير – ابن أبي حاتم (2144/7).

الله وحده لا شريك له، ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا﴾، أي: أوحَاهُ إلينا، وأمرنا بِهِ، ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾، إذا جعَلَنا دُعاةً لهم إلى ذلك.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾، أي: لا يعرفون نعمةَ الله عليهم بإرسالِ الرسل إليهم، بل بدلوا نعمة الله؛ كفراً، وفي هذا الآية أن الْجَدَّ يسمى أباً، وهو بمنزلته، قاله ابن عباس(1).

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، ثم إن يوسف أقبل على الفَتيَيْنِ بالمخاطبة، والدعاءِ إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وخَلْعِ ما سواهُ من الأديان(2)، التي يعبدها قومهما، فقال: ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾، أي: الذي ذلَّ كل شيءٍ لعِزِّ جلاله، وعظيم سلطانه، ثم بيّن لهما أن التي يعبدونها ويسمونها آلهة، إنما هو جَهْلٌ منهم، وتسمية من تلقاء أنفهسم، تلقَّاها خَلَفُهم عن سلفهم، وليس لذلك مستند من عند الله؛ ولهذا قال: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ﴾، أي: حجة ولا برهانٍ، ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشيئة كله لله، وقد أمر عباده جملة ألا يعبدوا إلا إياه، ثم قال: ذلك الدين القيم، أي: هذا الذي أدعوكم من توحيد الله، وإخلاص العمل له، هو الدين المستقيم الذي أمر الله به، وأنزل به الحجة والبرهان، الذي يحبُّه ويرضاه.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، أي: فلهذا كان أكثرهم مشركين، ثم إن يوسف جعل سؤالَهما له على وجه التعظيم؛ وَصْلةً وسبباً إلى دعائهما إلى التوحيد والإسلام، ولِمَا رأى من(3) سجيّتهِمَا من قبول الخير، والإقبال عليه، ولهذا لمَّا فرغ من ذلك، شرع في تفسير رؤياهما، فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا

---

(1) ينظر: المصدر نفسه (2145/7).

(2) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم- لابن كثير(389/4): (الأوثان)، وهو الصحيح.

(3) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم- لابن كثير (390/4): (في)، وهو الصحيح.

﴿ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾، إنما قال: ﴿أَحَدُكُمَا﴾، ولم يُعَيِّنِ الشخصَ؛ لئلا يحزن ذلك[1]، ولهذا أبهَمَهُ في قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ﴾، وهو في نفس الأمر الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً، ثم أعلمهما أن هذا قد فُرِغَ منه، وهو واقع لا محالة؛ لأن الرؤيا على رِجْل طائر، ما لم تُعَبَّرْ، فإذا عُبِّرَت، وَقَعَتْ، وهو حديث مرفوع، رواه أحمد وأبوداود والترمذي، قال ابن مسعود: "لمّا قالا ما قالا وأخبرهما، قالا ما رأينا شيئاً"[2]، قال: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ عنه، ووجب حكم الله بما أخبرتُكما بِهِ، رأيْتُمَا أم لم ترَيَا، وحاصله أن من يحكم بباطلٍ، وفسَّرَهُ، فإنه يُلْزَم بتأويله.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾، أي: قال يوسف للذي ظن نجاته، وهو الساقي خُفْيَةً عن الآخر؛ لئلا يشعِرَهُ أنه المصلوب: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، أي: اذكر حالي عند الملك، فنسِيَ المُوصَى أن يَذْكُرَهُ عند مولاهُ، وكان من جملة مكايد الشيطان؛ لئلا يَخْلُصَ نبيُّ الله من السجن، هذا هو الصواب، أن الضمير عائد في قوله: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ عائد إلى الناجي، كما قاله كثيرون[3]، ورَوَى ابن جرير عن ابن عباسٍ وغير واحدٍ: أن الضمير عائد إلى يوسف، كما روى ابن عباس: أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– قال: "لَوْ لَمْ يَقُلْ – يعني يوسف– الكلمةَ التي قال، ما لَبِثَ في السجن طُولَ ما لَبِثَ، حيث يبتغي الْفَرَجَ من عند غير الله"[4]، والحديث ضعيف جداً، وقد رُوِي مرسلاً، وهو لا يُقْبل ها هنا، والله أعلم.

وأما البضع: فهو ما بين الثلاث إلى التسع، والمشهور أنه مكث في السجن سبع سنين[5]، وقال ابن عباس: "ثنتى عشرة سنةً"، وعن الضحاك: "أربع عشرة سنةً"[6].

---

(1) المصدر السابق: (ذاك)، وهو الصحيح.

(2) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (108/16).

(3) ينظر: تفسير – ابن أبي حاتم (2149/7).

(4) أخرجه الطبري في تفسيره (112/16)، وأخرجه سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني في المعجم الكبير، تح: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، مكتبة الزهراء – الموصل (1404هـ – 1983م)، (249/11) برقم (11640)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، (122/7)، وقال: رواه الطبراني وفيه إبراهيم ابن يزيد القرشي المكي وهو متروك.

(5) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (114/16).

(6) ينظر: تفسير – ابن أبي حاتم (2150/7).

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾

هذه الرؤيا هالت مَلِكَ مصر، وتعجَّب من أمرها، وما يكون من تفسيرها، فجمع الكهنة والحَزاة، والأركان، وقصَّ عليهم ما رأى، وسألهم عن تأويلها، فلم يعرفوا ذلك، واعتذروا إليه بأن هذه ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾، أي: أخلاط، اقتضتْ رؤياك هذا[1]، [وهي][2] جمع ضِغْث، وأصلُهُ الحُزْمَةُ من أنواع الحشيش، والأحلام: جَمْعُ الحُلُم، وهي الرؤيا.

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾، أي: ولو كانت رؤيا صحيحة من غير أخلاطٍ، لَمَا كان لنا معرفةٌ بتأويلها، فعند ذلك تذَكَّر الذي نجا من ذَيْنِكَ الفَتَيَيْن ما كان يوسف وصَّى به من ذكر أمْرِهِ عند الملك، فادَّكَرَ ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾، أي: مدةٍ، وقرأ بعضهم: بعد إِمَّةٍ، أي: نسيانٍ فقال للملك والجماعة: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ أي: بمن يُعَبِّر هذا المنام، وكان ذلك سبباً لخروج يوسف من السجن؛ معززاً مكرماً بقضاء الله، وقدره، ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾، أي: فابعثوني إلى يوسف الصديق إلى السجن، يعني: فبعثُوهُ إليه، فجاءه، فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾، وذكر المنام الذي رآه الملك، فعبَّرها يوسف من غير تعنيفٍ له، في نسيانهِ ذلك، ولا شرَطَ الخروجَ قبل ذلك، بل قال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾، أي: يأتيكم الخِصْبُ، والمطر، سبع سنين متوالياتٍ، فَفَسَّرَ البقر بالسنين؛ لأنه يثير الأرض، التي تُسْتَغَلُّ منها الثمرات والزروع، وهن السنبلات الخضر، ثم أرشدهم

---

(1) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (392/4): (هذه)؛ وهو الصحيح.

(2) ساقطة من المؤلف مثبتةٌ من المحقق.

إلى ما تعتمدونه في تلك السنين، فقال: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾، أي: مهما استغللتم في هذه السبع الخِصْبِ، فاخْزِنُوهُ في سنبله؛ ليكون أبقى له، وأبعدَ من إسراع الفساد، إلا المقدارَ الذي تأكلونه، ولْيَكُنْ قليلاً قليلاً، لا تسرفوا فيه؛ لتنتفعوا في السبع الشداد، وهن السبع السنين المَحْل التي تعقب هذه السبع متواليات، وهي البقرات العجاف، اللاتي يأكلن السِّمان؛ لأن سنين الجدْب يُؤْكل فيها ما جمعوه في سنين الخِصب، وهن السنبلات اليابسات، وأخبرهم أنهُنَّ لا يُنْبِتْنَ شيئاً، وما بَذَرَوه، فلا يرجعون منه إلى شيءٍ؛ ولهذا قال: ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾، أي: تدَّخِرُون، وتُحْرِزُون للبذْر، ثم بشَّرَهم بعد الجدْب العام المتوالي بأنهم[1] يَعْقُبُهُم بعد ذلك ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾، أي: يأتيهم الغيث، وهو المطر، فيُحيِي البلاد، ويعصر الناس ما كانوا يعصرونه على عادتهم، من زيت، ونحوه، وسكر، ويدخل فيه حلب اللبن، كما قالهُ ابن عباس[2].

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

أخبر- تعالى- عن الملِكِ لمَّا رجعوا إليه بتعبير رؤياهُ، [التي كان رآها][3] بما أعجبه فعرف فَضْلَ يوسف وعِلْمَه، وحُسنَ أخلاقه على أهل بلده، قال: ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾، أي: أخرجوه من السجن، وأحضروهُ، فلما جاءه الرسول؛ لذلك امتنع من الخروج، حتى يتحقَّق الملكُ ورعيتُه براءة ساحتِهِ، ونزاهة عرضِهِ، مما نُسِبَ إليه من جهة امرأة العزيز، وأن هذا السجن لم يكن على أمر يقتضيه، بل كان ظُلْماً وعدواناً، فقال: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ

(1) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم- لابن كثير (390/4): (بأنه)، وهو الصحيح.
(2) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (130/16).
(3) ساقطة من المؤلف، مثبتة من تفسير القرآن العظيم (393/4).

﴿فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾، وهو ممدوح بذلك في تَمَكّنِهِ وفضله، كما روى أبوهريرة عن النبي – صلى الله عليه وسلم- في هذه الآية أنه قال: "لو كنت أنا، لأسرعتُ الإجابةَ، وما ابتغيتُ العُذْرَ"(1)، رواه أحمد ونَحْوَه في الصحيحين.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾، إخبارٌ عن الملك، حين جمعَ النسوةَ اللاتي قطعن أيديهن عند امرأة العزيز، فقال: مخاطباً لهن كلِّهن مُريداً به امرأة وزيره العزيز: ﴿مَا خَطۡبُكُنَّ﴾؟ أي: ما شأنكن وخبركُنَّ؟ ﴿إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ يعني: يوم الضيافة، حين أَمَرْنَهُ بطاعتها، ﴿قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ أي: قالت النسوة جواباً للملك: حاش لله، أن يَكُون يوسف مُتَّهَماً، واللهِ، ما علمنا عليه من سوء، فعند ذلك ﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾، وظهر، ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، أي: في قوله ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِي﴾، ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ﴾ أي: إنما اعترفتُ بهذا على نفسي، لِيَعْلَمَ زوجي العزيز أنِّي لم أخنْهُ في نفس الأمر، ولا وقع المحذور الأكبر، وليعلم أني بريئةٌ، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ﴾ تقول المرأة: ولستُ أبرئ نفسي؛ إن النفس تتحدث وتتمنى؛ ولهذا رَاوَدَتْهُ؛ لأنها أَمَّارَةٌ بالسوء، ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ أي: إلا من عصمه الله. ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، وهذا القول أليق وأشهد بسياق القصة، ومعاني الكلام، مما قيل: إن ذلك من كلام يوسف، من قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ﴾، أي: إنَّما ردَدْتُ الرسولَ؛ ليعلم الملِكُ براءتي ولِيَعْلَمَ العزيزُ، ﴿أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ في زوجته، وعن ابن عباس: أنه لمَّا قال يوسف هذا القول، قال جبريل: (ولا يوم هممتَ لِمَا هممتَ به)(2)، فقال: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ﴾، الآية...، ووافقه مجاهد وغير واحد(3)، والقول الأول أقوى وأظهر؛ لأن السياقَ كلَّه من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك، ولم يكن يوسف عندهم، بل بعد ذلك أحضرَهُ الملِكُ.

(1) أخرجه أحمد في مسنده (228/14).

(2) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (143/16).

(3) ينظر: المصدر نفسه (144/16).

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾، قال – تعالى– إخباراً عن الملك حين تحقق براءة يوسف، ونزاهة عِرْضه، مما نسب إليه، قال: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِي﴾، أي: أجعلُهُ من خاصَّتي وأهل مشورتي، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ أي: خاطب المَلِكَ، وعرفه، ورأى فضلَهُ، وبراعتَهُ، وكمالَهُ، قال له: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا﴾ أي: عندنا قد بَقِيتَ ذات مكانة وأمانةٍ، فقال يوسف مادحاً نفسه: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾، وهذا جائزٌ للحاجة، إذا جُهل أمر الشخص، وذكر أنه ﴿حَفِيظٌ﴾ أي: خازن أمينٌ، ﴿عَلِيمٞ﴾ أي: ذو علم وبصر بما يتولاه، وقيل: حفيظٌ لِمَا اسْتَوْدَعْتَنِي، عليمٌ بما ولَّيْتَنِي، وإنما سأل العملَ لعِلْمِهِ وقُدْرَتِهِ عليه، ولِمَا في ذلك من مصالح الناس، وسأل أن يجعله على خزائن الأرض من النقود والأطعمة، وسائر الأموال المجموعة فيها، لما يسْتَقْلِبونه من السنين، التي أخبرهم بشأنها، ليتَصَرَّفَ لهم على الوجه الأصح والأرشد، فأجيب إلى ذلك، رغبةً فيه، وتكرمة له؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾، أي: وكذلك مكنا ليوسف أرضَ مصرَ، وملَّكْنَاهُ، ﴿يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا﴾ أي: يتصرَّفُ فيها كيف يشاء، قال ابن حزم[1]: أي: "يتخذ منها منزلاً حيث يشاء من الضيق والحبس والإسار"[2]، ﴿نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، أي: وما أضعنا صبرَ يوسف على أذى إخوته، وصبرَه على الحبس؛ بسبب امرأة العزيز؛ فلهذا أعقبه الله السلامةَ والنصرَ والتأييدَ، ﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: إنما ادخرته لِيُوسُف في الدار العقبى أعظمُ وأكثرُ مما خوّله من التصرف في الدنيا، كما قال – تعالى– في حق سليمان – عليه السلام–: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾[3]، والغرض أن يوسف ولّاه مَلِكُ مصر الوزارةَ في بلاده مكان

(1) كذا في المخطوط، وفي تفسيرالقرآن العيظم – لابن كثير (396/4): (ابن جرير)، وهو الصحيح.

(2) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (151/16).

(3) سورة ص، الآية 40.

العزيز، وأسلم الْمَلِكُ على يديه، قال ابن إسحق: وذكر لي أن العزيز -وهو إطفير- هلك في تلك الليالي، وأن الملك الريان بن الوليد زوَّج يوسف امرأة إطفير راعيل، وأنها حين دخلت عليه، قال لها: أليس هذا خيرًا مما كنت تريدين؟ فقالت أيها الصِّدِّيقُ، لا تتكلَّمَنَ، فإني كنت امرأةً - كما ترى- حسناء ناعمة جميلة، في مُلْكٍ ودُنيا، وصاحبي لا يأتي النساء، وكنتَ - كما جعلك الله- في حسنك وهيئتك على ما رأيت، فزعموا أنها وجدها عذراء، فأصابها، فولدت له رجلين: أفرائيم، وميشا(1)، وَوُلِدَ لأفرائيم نون، والد يوشع، ورحمة امرأة أيوب - عليهم السلام-، وقال الفُضَيْلُ بن عياض(2): "وقفت امرأة العزيز على ظهر الطريق، حتى مرَّ يوسف، فقالت: الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكاً بطاعته، والملوك عبيداً بمعصيته"(3).

﴿ وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴾

ذكروا أن سبب دخول إخوة يوسف بلاد مصر، أن يوسف لمَّا باشر الوزارةَ بمصرَ، ومضت السبع السنين المخصبة، ثم تلتها السنون المُجْدِبَةُ، وعمَّ القحطُ، وسرى إلى بلاد كنعان(4)، وهي التي فيها يعقوبُ - عليه السلام-، وأولادُه، وحينئذٍ احتاط يوسف للناس في غلاَّتهم، وجمعها أتمَّ جمعٍ، فبلغ مبلغاً عظيماً، ودخائر هائلة، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم يمتارون(5) لأنفسهم وعيالهم، وكان لا يعطي الرجل أكثر من حمل بعير في السنة، وكان - عليه السلام- لا يُشْبِعُ نفسه، ولا يأكل هو، والملك وجنوده، إلا أَكْلَةً واحدةً في وسط النهار، حتى تَكْفِيَ الناس ما في أيديهم

(1) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (151/16).

(2) الفُضَيْل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي، أبو علي، شيخ الحرم المكي، ولد سنة (105هـ)، من أكابر العبَّاد الصلحاء، كان ثقة ثبتاً، فاضلاً عابداً ورعاً، كثير الحديث، قال فيه ابن المبارك: (ما بقي على ظهر الأرض أفضل من الفضيل بن عياض)، توفي بمكة سنة (187هـ)، ينظر: الطبقات الكبرى- لابن سعد (500/5)، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب – لابن العماد العكري (310/1)، والأعلام – للزركلي (153/5).

(3) تفسير – ابن أبي حاتم (2162/7).

(4) بلاد كنعان: هي من أرض الشام، ينظر: معجم البلدان – لياقوت الحموي (484/4).

(5) المِيرَةُ: جلب الطعام للبيع، وهم يمتارُون لأنفسهم، لسان العرب- لابن منظور (188/5)، الجذر "م ي ر".

مدة السبع سنين، وكان رحمة من الله تعالى على أهل مصر.

وما ذكره بعض المفسرين من أنه باعهم الغلَّاتِ في تلك السنين كُلَّ سنةٍ بعِوَضٍ من المال أو المتاع، حتى وصل إلى أن باعوا منه الأولاد ثم أعتقهم وردَّ عليهم الأموال كلَّها، هو من الإسرائيليات، والغرض أن منْ جُمْلة من وَرَدَ لِلْميرَةِ إِخْوَةَ يوسف، بأمر أبيهم لهم في ذلك، لمَّا بلغهم أن عزيز مصر يعطي الناسَ الطعام بثمنه، فأخذوا معهم بضاعةً يعتاضون بها الطعامَ، وكانوا الإخوةَ العشرةَ، واحتبس يعقوب عنده "بنيامين" شقيق "يوسف"، وكان أحبَّ ولدِهِ إليه بعد يوسف، فلما دخلوا على يوسف، وهو جالسٌ على أُبَّهَتِهِ ورياسته وسيادتِهِ، عَرَفَهُمْ حين نظر إليهم، ﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾، أي: لا يعرفونه؛ لأنهم فارقُوه، وهو صغير، وباعوه للسَّيَّارة، ولم يدْرُوا أين ذهبوا به، ولم يستشعروا في أنفسهم أنه يَصِيرُ إلى ما صار إليه، فلهذا لم يعرفوهُ، وأمَّا هو، فعرفهم، قال السُّديُّ وغيرهُ: إنه شرعَ يخاطبُهم، وقال لهم كالمنكِرِ عليهم: ما أَقْدَمَكُمْ بلاديَ؟ قالوا: أيها العزيز، إنا قَدِمْنا للميرة، قال: فلعلَّكم عيونٌ؟ قالوا: معاذ الله! قال: فمن أين أنتم؟ قالوا: من بلاد كنعان، وأبونا يعقوب نبي الله، قال: وله أولاد غيركم؟ قالوا: نعم، كنا اثني عشر، فذهب أصغرنا، هلك في البرّيّة، وكان أحبَّنا إلى أبيه، وبقي شقيقهُ فاحتبسهُ أبوهُ؛ ليتسلَّى به عنه، فأمر بإنزالهم وإكرامهم(1).

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾، أي: وفَّاهُمْ كيلَهُم، وحمَّل لهم أحمالهم، قال: ائتوني بأخيكم الذي ذكرتم؛ لأعلم صدقكم فيما ذكرتم، ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾، فرغَّبهم في الرجوع إليه، ثم رهَّبَهُم فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾، أي: إن لم تقدموا به معكم في المرة الثانية، فليس لكم عندي ميرة، ولا تقربون، ﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾، أي: سَنُحَرِّضُ على مجيئه إليكَ بكل ممكنٍ، ولا نُبْقِي مجهوداً؛ لتعلم صدقنا فيما قلناه، قيل: وأخذ منهم رهائن حتى يقدموا به معهم، وفيه نظرٌ؛ لأنه أحسن إليهم ورغَّبَهُم في الرجوع إليه.

﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ

(1) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن– للطبري (153/16).

﴿يَرۡجِعُونَ﴾، أي: وقال لغلمانه: ﴿ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ﴾، وهي التي قَدِمُوا بها؛ ليمتاروا؛ عوضاً عنها، ﴿فِي رِحَالِهِمۡ﴾، أي: في أمتعتهم من حيث لا يشعرون؛ لكي يرجعوا بها. قيل: تذمم[1] أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضاً عن الطعام، وقيل: خَشِي يوسفُ أن لا يكون عندَهم بضاعةٌ أخرى يرجعون للميرة بها، وقيل: أراد أن يرتدهم[2] إذا وجدوها في متاعهم تحرُّجاً وتورُّعاً؛ لأنه كان يعلم منهم ذلك.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾

أخبر – تعالى– أنهم لمَّا رجَعُوا إلى أبيهم، ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ﴾، يعنُون بعد هذه المرة، إن لم ترسل معنا أخانا "بنيامين"، فأرسله معنا، ﴿نَكۡتَلۡ﴾، قرأ بعضهم بالياء[3]، أي: يكتل هو، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، أي: لا تخف عليه، فإنه سيرجع إليك، وهذا كما قالوا له في يوسف: ﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، ولهذا قال: ﴿هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ﴾، أي: هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل، تُغَيِّبُونَهُ عَنِّي، وتحُولُون بيني وبينه؟ ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حِفۡظٗا﴾، وقرأ بعضهم ﴿حَٰفِظٗا﴾[4]، ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، وسيرحم كِبَري وضعفي، وأرجو أن يردَّهُ عليَّ، ويجمع شملي به، إنه أرحم من كل رحيم.

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ

---

(1) تذمم: استنكف، مختار الصحاح – للرازي (226/1) الجذر "ذ م م".

(2) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (398/4)، (يَردَّهم) وهو الصحيح .

(3) قرأ حمزة والكسائي وخلف: ﴿يَكۡتَلۡ﴾ بالياء، ينظر: المبسوط في القراءات العشر– للنيسابوري (247)، وجامع البيان في القراءات السبع– للداني (1233/3).

(4) قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف: ﴿حَٰفِظٗا﴾ بالألف، ينظر: المبسوط في القراءات العشر– للنيسابوري (247)، وجامع البيان في القراءات السبع – للداني (1234/3).

عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴾.

أي: ولما فتح إخوة يوسف متاعهم، وجدوا بضاعتهم رُدَّت إليهم، وهي التي كان أَمَرَ يُوسُفُ فتيانَه بوضعها في رحالهم، فلما وجدوها في متاعهم، ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِي﴾، أي: ما نريد؟ ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَا﴾، أي: ما نطلب وراء هذا، أن بضاعتَنا رُدَّتْ إلينا، وقد أَوْفَى لنا الكيل.

﴿وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا﴾ أي: إذا أرسلت أخانا معنا، نأتي بالميرة إلى أهلنا، ﴿وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖ﴾، وذلك أن يوسف كان يُعطي الرجلَ حملَ بعيرٍ أو حمارٍ، ﴿ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ﴾، أي: هذا قليل، لا يكفينا وأهلنا، وقيل: أي: سهلٌ، فلا مُؤْنة ولا مشقة.

﴿ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أي: تحلفوا بالعهود والمواثيق، ﴿لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡ﴾ أي: إلا أن تُغْلَبُوا كُلُّكُمْ، ولا تقدرون على تخليصه، ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ﴾، أكَّدَهُ عليهم، فقال: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾، أي: مُطَّلِعٌ، قال ابن اسحاق: وإنما فعل ذلك؛ لأنه لم يجِدْ بُدًّا من بعثهم؛ لأجل الميرة، التي لا غنى لهم عنها، فبعثه معهم.

﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾

أخبر – تعالى– عن يعقوب أنه أمر بنيه لما جهزهم مع أخيهم "بنيامين" إلى مصر أن لا يدخلوا كُلُّهُمْ من باب واحدٍ، ولْيَدْخُلُوا من أبواب متفرقةٍ، قال ابن عباس وغير واحد: إنه خشي عليهم الْعَيْنَ، وذلك أنهم كانوا ذوِي جَمَال وهيئةٍ حسنةٍ؛ فإن العين تستنزلُ الفارس عن فرسه[1].

وقوله: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ ﴾ أي: هذا الاحتراز لا يرد القضاء

---

(1) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (165/16).

والقدر؛ فإن الله إذا أراد شيئاً، كان، ولا ما نع له ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، أي: ما اللحكم إلا لله؛ قاله مُفوّضاً أموره إلى الله، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، أي: اعتمدت.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾، أي: من الأبواب المتفرقة إلى مدينة "قرماء"[1]، ﴿مَّا كَانَ يُغْنِى﴾، أي: يدفع عنهم، ﴿مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾، صدَّق اللهُ يعقوبَ فيما قال، ﴿إِلَّا حَاجَةً﴾، أي: مُراداً ﴿فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾، أشفق عليهم إشفاق الآباء على الأبناء، وجرى الأمر عليهم، ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: يعقوب، ﴿لَذُو عِلْمٍ﴾، أي: كان يعمل ما يعمل بالعلم لا عن الجهل، ﴿لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾، أي: لتعليمنا إيَّاه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما يعلم يعقوب؛ لأنهم لم يسلكوا طريقَ إصابةِ الحق والعلم.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

أخبر - تعالى- عن إخوة يوسف، ومعهم أخوه بنيامين، فأدخلهم دار كرامته، وأفاض عليهم الصلة والإلطاف والإحسان، واختلى بأخيه، فأطلعه على شأنِهِ، وما جرى له، وعرَّفَهُ أنه أخوهُ، وقال له وتواطأ معه، أنه سيحتَال على أنه يبقيه عندهُ معزَّزاً مكرَّماً.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾

أي: لمَّا حمل لهم طعاماً، أمرَ بعضَ فتيانه أن يضع السقاية، وهي: إناء من فضة أو ذهبٍ كان يشرب فيه، ويكيل للناس به من أعز الطعام إذ ذاك، قاله ابن عباس وغير واحدٍ[2]، وكان مثل المكوك[3]، فوضعها في متا ع "بنيامين" من حيث لا يشعر أحدهم، فنادى منادٍ بينهم: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾، فالْتَفَتُوا إلى المنادي، وقالوا: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ أي: صاعه الذي يكيل به، ﴿وَلِمَن

---

(1) قرماء: عظيمة لبني نمير وأخلاط من العرب بشط قرقرى، ينظر: معجم البلدان – لياقوت الحموي (330/4).

(2) ينظر: تفسير – ابن أبي حاتم (2171/7).

(3) المكوك: مكيال معروف لأهل العراق، تاج العروس من جواهر القاموس – للزبيدي (344/27) الجذر "م ك ك".

جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾، أي: من الطعام، ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾، أي: كفيل، يقوله المؤذن.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾، أي: لقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا، أي: بالسيرة الحسنة، أنَّا ما جئنا للفساد في الأرض، ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾، أي: ليست سجايانا تقتضي السرقة، فقال لهم الفتيان المنادون: ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾؟ يعني: أيُّ شيء عقوبةُ السارق، إن كان فيكم، ﴿إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾، قالوا: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾، أي: جزاء السارق أن يُسْلَمَ هو بسرقتِهِ إلى المسرُوقِ منه، فَيسْتَرِقُّهُ، وهكذا كانت شريعَةُ إبراهيم: أن السارق يُدْفع إلى المسروق منه، وهذا هو الذي أراد يوسف؛ ولهذا ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾، أي: فتَّشها قبلُ تورية، فأخذه منهم باعترافهم وإلزامهم، ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: الفاعلين ما ليس لهم فِعْلُهُ من السرقة، ونحوها....

وقوله ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾ الكيد هنا التدبير، أي: كما فعلوا في الابتداء بيوسف فَعَلْنا بهم، وهذا من الكيد المحبوب المراد، الذي يحبه الله ويرضاه؛ لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾، أي: لم يكن له أخذُهُ في حكم مَلِكِ مصر، وإنما قدَّر الله له أنِ التزم له إخوتُهُ بما التزمُوهُ، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم؛ ولهذا مدحه – تعالى- فقال: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ﴾، أي: بالعلم، كما رفعنا درجة يوسف على إخوته.

﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾، قال الحسن: (ليس عالم إلا وفوقهُ عالم، حتى يُنْتَهي إلى الله – عز وجل-)[1]، وفي قراءة ابن مسعود ﴿وَفَوْقَ كُلِّ عَالِمٍ عَلِيمٌ﴾[2].

(1) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (193/16).

(2) ينظر: المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها- لابن جني (345/1).

﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾

لمَّا رأى إخوة يوسف قد أخرج الصواع من متاع بنيامين ﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُ ﴾، متنفرين من التشبه به، ذاكرين أن هذا فعل كما فَعَلَ أخ له من قبل، يعنُونَ به يوسف، قال ابن جبير وقتادة: كان يوسف قد سرق صنماً لجده، أبي أُمِّهِ، فكَسَرَهُ[1]، وعن مجاهد قال: كان أول ما دخل على يوسف من البلاء أن عمَّتَهُ ابنة إسحاق، وكانت أكبر ولد إسحاق، وكانوا يتوارثونها بالكِبر، وكان يعقوب حين وُلِدَ له يوسف قد حضنتْهُ عمته، وكان معها وإليها، فلم يُحب أَحد شيئاً حُبَّهَا إياه، حتى إذا ترعرع، وقعت نفس يعقوب عليه، فأتاها، فقال: يا أُخَيَّةُ، سلِّمِي إِلَيَّ يوسف، فوالله، ما أقدر على أن يغيب عنِّي ساعة، قالت: فوالله، ما أنا بتاركتِهِ، قالت: فدعهُ عِندِي أياماً، أنظرْ إليهِ، لعلَّ ذلك يُسَلِّيني عنه، فلما خرج من عندها، عمدت إلى منطقة إسحاق، فحزمَتْهَا على يوسف من تحت ثيابه، ثم قالت: فقدتُ مَنْطقة إسحاق، فانظروا مَنْ أخذها، ومن أصابها؟ فالتمست، ثم قالت: اكشفوا أهل البيت، فكشفوهم، فوجدوها مع يوسف، فقالت: والله، إنه لمُسلَّمٌ إليَّ، أصنَعُ فيه ما شئتُ، فأُخْبِرَ يعقوب بذلك، فقال: إن كان فعل ذلك، فَسَلَمٌ لَكِ، فأَمسكَتْهُ عِندها، حتى ماتتْ، قال: فهو الذي يقول له إخوة يوسف: ﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُ ﴾[2].

وقوله: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ ﴾، أي: الكلمة التي بعدها، وهي قوله: ﴿أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾، أي: تذكرون، قال هذا في نفسه، ولم يُبْدِهَا لهم، وهذا من الإضمار قبل الذكر، وهو كثير، كقول الشاعر: **[البحر: البسيط]**

جَـزَى بنُـوه أبـا الغـيلانِ عـن كبـرٍ ** وحُسْنِ ظنٍ[3] كما يُجزى سنمّارُ[4]

وله شواهد كثيرة من القرآن والحديث...

﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ

---

(1) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (194/16).

(2) ينظر: المصدر نفسه (196/16).

(3) كذا في المخطوط، وفي كتاب الأغاني – للأصفهاني (138/2): (وحُسْنِ فعلٍ).

(4) هذا البيت من بحر البسيط، ينسب لسليط بن سعد، ينظر: الأغاني – لأبي فرج الأصفهاني، تح: سمير جابر، دار الفكر – بيروت، ط: الثانية (138/2).

﴿ٱلْمُحْسِنِينَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾

لمَّا ظهر ذلك على بنيامين، وتقرَّر تركُه عند يوسف بمقتضى اعترافهم، وشرعوا في الشفاعة له، ويعطفُونَه إليهم، فقالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾، يعنون وتُحبُّونَهُ[1] حُبًّا شدِيداً، وكان يتسلَّى به عن ولِدِهِ الذي فقده، ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾، أي: بدَلَهُ، يكون عندك عوضاً عنه، ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أي: من العادلين المُنصِفِين، ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾، إلى آخره، أي: كما قلتم واعترفتم نفعل، ولا نأخُذُ بريئاً بسقيمٍ، فإنَّا لسنا بظالمين.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾

أي: لمَّا يئس إخوة يوسف من تخليص أخيهم بنيامين، ﴿خَلَصُوا۟﴾، أي: انفردوا عن الناس يتناجون فيما بينهم، ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾، وهو روبيل، وقيل: يهُوذا: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾، لَتَرُدُّنَّهُ إليه، فقد رأيتم كيف يعذِرُ عليكم ذلك، مع ما تقدم لكم من إضاعة يوسف عنه، ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾، أي: لن أفارق هذه البلدة، ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ في الرجوع إليه راضياً عنّي، ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ بأن يمكنني بأخذ أخي سِلْماً أو حَرْباً، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، أي: أعدل من فصل بين الناس، ثم أمرهم أن يُخبروا أباهم بصورة ما وقع، حتى يكون عُذراً لهم عنده فقال: ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ﴾، فأخبرُوهُ أن (بنيامين) سرق، أي: نُسِبَتْ إليه السرقة، ولهذا قرأ بعضهم بضم السين وكسر الراء[2]، ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ أي: ما قلنا هذا إلا بما علمنا، فإنا رأينا إخراج الصُّوَاع من متاعِهِ، ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾، أي: ما علمنا في الغيب أنه سرق شيئاً.

---

(1) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (403/4)، (وهو يُحبُّهُ) وهو الصحيح .

(2) قرأ نهشلي عن علي، وسورة، والناقط، وأبو حيوة: ﴿إِنَّ ٱبْنَكَ سُرِّقَ﴾، ينظر: الكامل في القراءات والأربعين الزائدة عليها – للهذلي (577).

﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ أي: أهل مصر، وقيل: غيرها، ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾، أي: التي رافقناها عن صدقنا وأمَانَتِنا، ﴿ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾ فيما أخبرناك به، من أنه سرق، وأخذوه بسرقتِهِ.

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

قال ابن إسحاق: "لما جاؤا يعقوب، وأخبروه بما جرى، اتهمهُمْ، وظنَّ أنها كفعلتهم بيوسف، فقال: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾"(1)، قيل: ولهذا صحَّ هذا القول منه، ثم ترجى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة: يوسف، وبنيامين، وروبيل، الذي أقام بمصر ينتظر أمر الله فيه، إمَّا أن يرضى عنه أبُوه، فيأمرَهُ بالرُّجُوعِ إليه، وإمَّا أن يأخذ أخاه خفيةً؛ ولهذا قال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بحالي، ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴾ في أفعاله وقضائه، ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾، أي: أعرض عن بَنِيه، وقال متذكِّراً حزن يوسف القديم:﴿ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾، جَدَّد له حزن الابنين، الحزن الأول، ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾، أي: ساكت، لا يشكو أمرَهُ إلى مخلوقٍ، وهو كميدٌ حزينٌ، فحينئذ رقَّ له بنُوهُ، وقالوا له على سبيل الرفق به، والشفقة عليه: ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾، أي: لا تُفَارِقُ وتَذَكُّر يوسف، ﴿ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا ﴾، أي: ضعيفَ الجسم، ضعيف القوة، ﴿ أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ ﴾، يقولون: وإن استمر بك هذا الحال، خشينا عليك الهلاك والتلف.

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾، أي: أجابهم بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى ﴾، أي: همِّي، ﴿وَحُزْنِىٓ ﴾، وما أنا فيه، ﴿إِلَى ٱللَّهِ ﴾ وحده، ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا

(1) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (214/16).

﴿تَعۡلَمُونَ﴾، أي: أرجو منه كلَّ خير، قال ابن عباس: "يعني رؤيا يوسف، إنها صدق، وأن الله لا بد أن يظهرها"[1].

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾

أخبر – تعالى – عن يعقوب أنه ندب بَنِيهِ بالذهاب مستعملين أخبار يوسف وأخيه بنيامين والتحسُّسَ، وهو: التفحُّصُ، يكون في الخير، والتجسُّس بالجيم: يكون في الشر والضّيْم، وبشَّرهم أن لا ييأسوا من روح الله، أي: لا تقنطوا من رحمة الله وفرجه، ولا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرجونه ويقصدون له؛ فإنه لا يقطع الرجاء من الله، إلا القوم الكافرون.

وقوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ﴾ تقديره فذهبوا، فدخلوا مصر، ودخلوا على يوسف، ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾، أي: من الجدب والقحط، ﴿وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾، أي: وَمُنِعْنَا ثَمَنَ الطعام الذي تمتاره، وهو ثمن قليل ردئ، لا يُنْفَقُ؛ لنقصان عَيَاره، وقيل أجناس: مثل: الغرارة، والحِبَالِ، وقيل: الصنوبر، وحبة الخضراء، وأصل الإزْجَاء: الدفع لضعف الشيء، كما قال حاتم الطائي[2]: **[البحر: الطويل]**

لِبَيْكِ عَلَى مِلْحَانَ ضَيْفَ مُدَفَّعُ ** وأرملةٌ تُزْجِى مَعَ الليل أرْمَلَا[3]

وقوله إخباراً عنهم: ﴿فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ﴾ أي: أعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك، وقرأ ابن مسعودٍ: ﴿فَأَوْقِرْ رِكَابَنَا﴾[4]، ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآ﴾ أي: بِرَدِّ أخينا إلينا، وقيل: أي: تَقْبِضُ هذه البضاعة المُزجَاة.

---

(1) ينظر: تفسير – ابن أبي حاتم (2189/7).

(2) حاتم بن عبدالله بن سعد بن الحشرج الطائي القحطاني، أبو عدي شاعر جاهلي، ضُرِبَ به المثل في الجود، قال فيه محمد بن سعد: كان حاتم طيء جواداً، أجود العرب، مات في عوارض، وهي جبل في بلاد طيء سنة (46 ق هـ)، ينظر: تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل – لابن هبة الله الشافعي (357/11)، والأعلام – للزركلي (151/2)، ومعجم المؤلفين – لعمر كحالة (173/3).

(3) أورده أبوبكر محمد بن القاسم الأنباري في كتابه الزاهر في معاني كلمات الناس، تح: د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة (1412هـ – 1992م)، بيروت (91/2).

(4) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (237/16).

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾.

لمَّا ذكر إخوتُه ما أصابهم من الجهد والضِّيقِ وقلة الطعام وعُمُومِ الجدب، وتذكَّرَ يوسفُ أباه، وما هو فيه من الحزن؛ لفقد ولديْهِ، مع ما فيه من الملك والسعة، أخذته رأفة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته، وبَدَرَهُ البكاء، فتعرَّف إليهم، فيقال: إنه رفعَ التاج من جبهته، وكان فيها شامة، وقال: ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾، يعني: كيف فرَّقُوا بينهما، ﴿إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾، أي: إنما حملكم على هذا الجهل بما تولَّ إليه أمر يوسف، وأنتم عَاصُونَ، فإن كل من عصى الله فهو جاهل، والظاهر أن يوسف إنما تعرَّف إليهم بنفسه، بإذن الله له في ذلك، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه في المرتين الأوليين بأمر الله في ذلك والله أعلم، فعند ذلك قالوا: ﴿ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾، وقرأ أُبَيُّ بن كعب[1]: ﴿وَإِنَّكَ يُوسُفُ﴾[2]، وقرأ ابن مُحَيْصن[3]: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾[4]، والمشهورة الأولى؛ لأن الاستفهام يدل على الاستعظام، أي: إنهم تعجبوا من ذلك؛ لأنهم يتردَّدُون إليه من سنتيْنِ وأكثر، وهم لا يعرفونه، وهو يعرفهم، ويكتُمُ نفسه، فلهذا قالوا على سبيل الاستفهام: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ

---

(1) أبيُّ بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار، أبو المنذر، كان قبل إسلامه حَبْراً من أحبار اليهود، ولمَّا أسلم كان أحد كتَّاب الوحي، شهد العقبة وبدراً والمشاهد كلها مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم–، اشترك في جمع القرآن في عهد سيدنا عثمان – رضي الله عنه– قال فيه الرسول – صلى الله عليه وسلم–: (أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدُّهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أبي بن كعب، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة عبيدة بن الجراح)، وقال عنه سيدنا عمر – رضي الله عنه–: (أبيُّ سيد المسلمين)، مات بالمدينة سنة (30هـ)، ولما مات أبيُّ بن كعب، قال سيدنا عمر – رضي الله عنه–: (مات اليوم سيد المسلمين)، ينظر: أُسْدُ الغابة في معرفة الصحابة – لابن الأثير (78/1)، والإصابة في تمييز الصحابة – لابن حجر العسقلاني (27/1)، والأعلام – للزركلي (82/1).

(2) ينظر: المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها– لابن جني (348/1).

(3) محمد بن عبدالرحمن بن محيصن السهمي بالولاء، أبو حفص المكي: قارئ أهل مكة، وأعلم قرائها بالعربية، انفرد بحروف خالف فيها المصحف، فترك الناس هذه القراءة، ولم يلحقوها بالقراءات المشهورة، قال عنه مجاهد: (ابن محيصن يبني ويرص)، يعني: أنه عالم بالعربية والأثر)، مات سنة (123هـ)، ينظر: تهذيب التهذيب – للإمام الحافظ شيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط: الأولى، (1404هـ– 1984م)، (417/7)، والأعلام – للزركلي (189/6).

(4) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (245/16)، وجامع البيان في القراءات السبع – للداني (1235/3)، وتحبير التيسير في القرآت العشر – للجزري (417).

﴿ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآ ﴾، أي: بجمعِهِ بيننا بعد التفرقة، وبعد المدة، ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾، أي: اختارك وفضَّلك علينا، ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾، أي: في صنيعنا بك، قالوا ذلك معترفين له بالفضل والأثرة عليهم في الخَلْقِ والخُلُقِ والملك والنبوة أيضاً، على قول مَن لم يجعلهم أنبياء، وأقرُّوا بأنهم أساؤوا وأخطؤوا في حقه.

﴿ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ ﴾، أي: لا تعيير عليكم، ولا أذكر لكم ذنبكم بعد اليوم، ثم زاد الدعاءَ لهم بالمغفرة، فقال: ﴿ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾، أي: يستُر الله لكم ما فعلتم، وهو أرحم من كل رحيم.

﴿ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴾

كان يعقوب قد عَمِي؛ من كثرة البكاء على حزنه؛ فلهذا [أمرهم يوسف – عليه السلام– أن يلقوا قميصه على وجه أبيهم][1] ﴿ يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾، أي: بجميع بنِي يعقوب، وأهل بيته، ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ ﴾ أي: خرجت من مصر، ﴿ قَالَ أَبُوهُمۡ ﴾، يعني: يعقوبُ لِمن كان عنده من بنيه: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾، أي: لولا تنسبوني إلى الفَنَد، وهو: فساد العقل، وإلى الكِبَرِ، وقيل: أي: تُسَفِّهُون، قال ابن عباس: "لمَّا خرجت العير، هاجَت ريح، فجاءت يَعْقُوبَ بريح قميص يوسف، فوجد ريحَه من مسير ثمانية أيام"[2]، فقال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾، قال الحسن وابن جريج: "كان بينهما ثمانون فرسخاً، وكان بينه وبنيه منذ افترقا ثمانون سنةً"[3].

---

(1) زيادة من المحقق يقتضيها السياق.

(2) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (251/16).

(3) المصدر نفسه، والصفحة.

وقولهم: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ﴾، الضلال: هو الذهاب عن طريق الصواب، أي: في خطئك القديم، يعني من حُبِّ يوسف، لا تنساه، ولا تترك ذكرَه، ولعل هذا القول لم يكن في دينهم مع الأب إثماً.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾

قال ابن عباس وغيره: البشير: "البريد"[1]، وقال مجاهد والسدي: هو "يهوذا بن يعقوب"[2]، وإنما جاء به؛ لأنه هو الذي جاء بالقميص، وهو ملطخ بدم كذبٍ، فأحبَّ أن يغسل ذلك، فجاء بالقميص، فألقاه على وجه أبيه، فرجع بصيراً، فقال لبنيه: ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، أي: أعلم أن الله سيردُّهُ إليَّ، وقلت لكم إني لأجد ريح يوسف، فعند ذلك قالوا لأبيهم خاشعين خاضعين له: ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓ﴾، قال ابن مسعودٍ وغير واحدٍ: "أرجأهم إلى وقت السحر"[3]، وقيل: وكان ليلة جمعة، كما جاء في الحديث المُسْنَدِ، يعني: "حتى تأتي ليلة الجمعة"، وهو قول أخي يعقوب لبنيه، وهو غريب، وموقوفٌ أصحُّ[4].

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

لما أمر يوسفُ إخوتَه أن يأتوا بأهلهم أجمعين، فتحَمَّلُوا عن آخرهم، وترحلوا من

(1) ينظر: تفسير – ابن أبي حاتم (2199/7).

(2) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (259/16).

(3) ينظر: المصدر السابق (260/16).

(4) جزء من حديث طويل أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: الدعوات، باب: في دعاء الحفظ (563/5)، برقم (3570)، من حديث ابن عباس – رضي الله عنه– مرفوعاً، وقال الترمذي: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم.

بلاد كنعان قاصدين ديار مصر، فلما أُخْبِرَ يوسف باقترابهم، خرج لتلقِّيهم، وأمر الملكُ أمراءَه وأكابرَ الناس بالخروج مع يوسف، لتلقي نبي الله يعقوب – عليه السلامُ–، ويقال: إن الملك خرج أيضاً؛ لتلقيه، وهُو الأشبه، وقد أشكل قوله: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ﴾ على كثير من المفسرين، فقال بعضهم: في هذا تقديم وتأخير والمعنى: ﴿وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾، وآوى إليه أبويه، ورفعهما على العرش، وقد رد ابن جرير هذا، وأجاد في ذلك، ثم اختار ما حكاه السُّدِّيُّ: أن يوسف آوى إليه أبويه، لمَّا تلقاهما، ثم لمَّا وصلوا باب البلد، ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾[1]، وفي هذا نظر أيضاً؛ لأن الإيواء إنما يكون في المنزل، كقوله: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُ﴾، وفي الحديث: "من آوى مُحْدِثاً ..."[2]، والمانع أن يكون قال لهم بعدما دخلوا عليه وآواهم إليه: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ﴾، أي: اسكنوا مصر، ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾، مما كنتم فيه من الجهد والقحط.

ويقال: إن الله – تعالى– رفع عن أهل مصر بقية السنين المجدبة، ببركة قدوم يعقوب عليهم، وقوله: ﴿ءَاوَىٰٓ﴾، أي: ضَمَّ إليه أبويه، قال بعضهم: "إنما كان أبُوهُ وخالته، وكانت أمه قد ماتتْ قديماً" [3]، قال ابن جرير: "كان أبُوهُ وأمُّهُ يعيشان، ولم يَقُمْ دليل على موت أمِّهِ، وظاهر القرآن يدل على حياتهما، وهذا هو المنصور الذي عليه السياق"[4].

وقوله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾، قال ابن عباس وغير واحد: "يعني: السرير"[5]؛ أي: أجلسهما معه على سريره، ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا﴾ أي: فسجد له أبواه وإخوته الباقون، وكانوا أحد عشر رجلاً، ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾، أي: التي كان قصَّها على أبيه: ﴿إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾،

---

(1) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (266/16).

(2)جزء من حديث طويل أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الفرائض، باب: إثم من تبرأ من مواليه، (2482/6)، برقم (6374)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: العتق، باب: تحريم تولي العتيق غير مواليه (217/4)، برقم (2867)، كلاهما من حديث علي بن أبي طالب – رضي الله عنه– مرفوعاً.

(3) ينظر: تفسير – ابن أبي حاتم (2201/7).

(4) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (267/16).

(5) تفسير – ابن أبي حاتم (2201/7).

وقد كان هذا سائغاً في شرائعهم، إذا سَلَّمُوا على الكبير، يسْجُدُونَ له، ولم يزل هذا جائزاً من لدن[آدم][1] إلى شريعة عيسى، فحُرِّمَ في هذه المِلَّةِ، وجُعِل مُختصّاً بجناب الرب – تعالى–، هذا مضْمُون قول قتادة وغيره، وفي الحديث أن معاذاً[2] قَدِمَ الشام، فوجدهم يسجدون لأساقفتهم، فلما رجع سجد لرسول الله – صلى الله عليه وسلم–، فقال: ما هذا يا معاذ؟ فقال: إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم، وأنت أحق أن يُسجد لك، يا رسولَ الله، فقال: " لو كنت آمراً أحداً أن يسجُد لأحدٍ، لأمرتُ المرأة أن تسجُدَ لزوجها؛ لعِظَم حَقِّهِ عليها"[3]؛ وهذا صريح في أن ذلك كان جائزاً في شريعتهم؛ ولهذا خرُّوا له سُجَّداً.

وقوله: ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾، أي: صحيحة صدقاً، يذكر نِعَم الله عليه، ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ أي: من البادية، وكانوا أهل باديةٍ وماشية، يسكنون أرض فلسطين من غَوْر الشام[4].

وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ﴾، أي: أفسد بيننا، ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾، أي: إذا أراد أمراً قدَّر له أسباباً، ويسَّرَهُ وقدَّرَهُ، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بمصالح عباده، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وأقواله وقضائه، قال سلمان الخير[5]: كان بين رؤيا يوسف وتأويلها أربعون سنة[6]، وقال الحسن: "كان مُنْذُ فارق يوسف يعقوب إلى

---

(1) ساقطة من المؤلف، مثبتة من تفسير القرآن العظيم– لابن كثير (408/4).

(2) معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي، أبو عبدالرحمن، ولد سنة (20 ق هـ)، شهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها، مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم–، وكان أحد السبعين الذين شهدوا العقبة من الأنصار، بعثه الرسول – صلى الله عليه وسلم– إلى اليمن قاضياً ومرشداً، وبعث معه كتاباً إليهم يقول فيه: (إني بعثت لكم خير أهلي)، قال فيه الرسول – صلى الله عليه وسلم–: (معاذ إمام العلماء يوم القيامة بِرَتْوَة أو رَتْوَتين)، وقال فيه عمر – رضي الله عنه–: (لولا معاذ، لهلك عمر)، وقال ابن مسعود: (إن معاذ بن جبل كان أمة قانتاً لله حنيفاً، ولم يك من المشركين)، توفي في طاعون عَمْوَاس سنة (18 هـ)، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب – لابن عبد البر (1403/3)، وأُسْدُ الغابة في معرفة الصحابة – لابن الأثير (204/5)، والإصابة في تمييز الصحابة – لابن حجر العسقلاني (136/6)، والأعلام – للزركلي (258/7).

(3) جزء من حديث أخرجه أحمد في مسنده (145/32)، وأخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب: النكاح، باب: النكاح (59/3)، برقم (1853)؛ كلاهما من حديث معاذ – رضي الله عنه– مرفوعاً بألفاظٍ متقاربة.

(4) غور الأردن بالشام بين بيت المقدس ودمشق، وهو منخفض عن أرض دمشق، وأرض البيت المقدس، معجم البلدان – لياقوت الحموي (217/4).

(5) سلمان الفارسي، أبو عبدالله، ويعرف بسلمان الخير، مولى رسول الله – صلى الله عليه وسلم–، كان أول مشاهده الخندق، وهو الذي أشار بحفره –، وكان أيضاً من خيار الصحابة زهداً وفضلاً حيث قالت فيه عائشة – رضي الله عنها –: (كان لسلمان مجلس من رسول الله – صلى الله عليه وسلم– بالليل، حتى كان يغلبنا على رسول الله)، جُعِلَ أميراً على المدائن، فأقام فيها إلى أن توفي سنة (36هـ)، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبدالبر (634/2)، وأُسْد الغابة في معرفة الصحابة – لابن الأثير (487/2)، والأعلام – للزركلي (111/3).

(6) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (277/16).

أن التقيا ثمانون سنةً، لم يُفَارقِ الْحُزْنُ قَلْبَهُ، ودُمُوعُه تجري على خدَّيه، وما على وجه الأرض عبدٌ أحَبُّ إلى الله من يعقوب"[1]، قال ابن إسحاق: ذكروا - والله أعلم- أن غَيْبَة يوسف عن يعقوب كانت ثماني عَشرة سنةً، قال: وأهل الكتاب يزعمون أنها كانت أربعين سنةً، أو نحوها، فإن يعقوب بَقِيَ مع يوسف بعد أن قَدِمَ عليه مصر سبع عشرة سنة، ثم قبَضَهُ الله إليه[2]، قال ابن مسعودٍ: دخل بنوا إسرائيل مصر، وهم ثلاثة وستون، وقيل: وثمانون إنساناً، وخرجوا منها وهم ستمائة وسبعون ألفاً[3].

﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

هذا دعاء من يوسف الصديق، دعا بِهِ ربَّهُ - تعالى-، لمَّا تمت النعمة عليه باجتماعه بأبويه وإخوته، وما منَّ به عليه من النبوة والملك، سأل ربه تعالى كما أتم نعمته عليه في الدنيا أن يستمر بها عليه في الآخرة، وأن يتوفَّاه مسلماً، حيث يتوفَّاهُ، وأن يلحقه بالصالحين، وهم إخوته من النبيين والمرسلين، ويُحْتَمَلُ أن يوسف دعا به عند احتضاره، ويُحْتَمَلُ أنه سأل الوفاة على الإسلام، واللحاق بالصالحين، إذا حان أجلُهُ، وانقضى عمره، لا أنه سأل ذلك مُنْجَزاً، ويُحْتَمَلُ أنه يسأل ذلك مُنْجَزاً، وكان ذلك شائعاً في ملتهم، وهو أول من سأل الوفاة على الإسلام، كما قال ابن عباس: إنه أول نبي دعا بذلك، ولكن لا يجوز في شريعتنا أن نسأل الموت مُنْجزاً، لما في الصحيحين: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم- قال: "لا يتمنّين أحدُكُم الموتَ، من ضُرّ أصابَهُ، إما محسناً، فلعله أن يزداد خيراً، وإما مسيئاً، فلعله أن يستعتبَ، ولكن ليقل: اللهم أحيني، ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني، إذا كانت الوفاة خيراً لي"[4]، إلا إذا خاف فتنة في الدين؛ فحينئذٍ يجوز سؤال الموْتِ، كما دعا السحرة لمَّا هدَّدَ بهم فرعون، وأرادهُم عن دينهم،﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾[5]، وكما قال رسول الله -

---

(1) المصدر نفسه (273/16).

(2) المصدر نفسه (275/16).

(3) المصدر نفسه (276/16).

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المرضى، باب: نهي تمني المريض الموت، (2146/5)، برقم (5347)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: كراهة تمني الموت، لضر نزل به، (64/8)، برقم (6990)، كلاهما من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه- مرفوعاً بألفاظٍ متقاربة.

(5) سورة الأعراف، من الآية (126).

صلى الله عليه وسلم-: "اثنتان يكرههما ابن آدم: الموتُ، والموتُ خير للمؤمن من الفتنة؛ ويكرهُ قلَّةَ الْمَالِ، وقلَّةُ المَالَ أقلُّ للحسابِ"[1]، رواه أحمد.

وذكر أن يعقوب لما استغفر لبنيه، بالغ وألحَّ فيه سنين، حتى تاب الله عليهم، وعفا عنهم، وغفر لهم[2]، وذكر السُّدّيّ: أن يعقوب لمَّا حضَرَهُ الموتُ، أوصى إلى يوسف بأن يُدْفَنَ عند إبراهيم وإسحاق، فلمَّا مات، صيرهُ، وأرسله إلى الشام[3]، وَدُفِنَ عندهما – عليهم السلام-.

﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾

لمَّا قصَّ على رسوله محمد – صلى الله عليه وسلم- نبأ إخوة يوسف، وكيفية رَفْعِهِ عليهم، وجعل العاقبة والنصرة مع ما أراد به من النبوة له، قال له من أخبار الغيُوب السابقة ﴿نُوحِيهِ إِلَيۡكَ ﴾، ونعلمك به؛ لما فيه من العبرة، والاتِّعاظ لِمن خلفك، وما كنت حاضراً عندهم، ولا مشاهداً لهم، ﴿إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ ﴾، أي: على إلقائه في الجُبِّ، ﴿وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ﴾ به، ولكنا أعلمناك به وحياً إليك، وإنزالاً عليك، كما قال – تعالى-: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ ﴾[4]، الآية، وغيرها من الآيات، قرَّر- تعالى- أنه رسولُه، وأنه قد أطلعه على أنباء ما قد سبق، مما فيه عبرة للناس، ونجاة لهم في دينهم ودنياهم؛ ومع ذلك ما أَمِنَ أكثرُ الناس، ولهذا قال: ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾[5]، وقوله: ﴿ وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ ﴾ أي: وما تسألهم يا محمد، على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد ﴿مِنۡ أَجۡرٍ ﴾، أي: جُعَالةً ولا أُجْرةً على ذلك، بل تفعَلُهُ؛ ابتغاء وجه الله، ونصحاً لخلقه.

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾، أي: يتذكَّرُون به، ويهتدون، وينجون بسببه في الدنيا والعقبى.

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده (36/39).

(2) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (281/16).

(3) ينظر تفسير – ابن أبي حاتم (2205/7).

(4) سورة آل عمران، من الآية (44).

(5) سورة الشعراء، من الآية (8).

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

أخبر – تعالى – عن غفلة الناس عن التفكير في آيات الله، ودلائل توحيده، بما خلقه في السمٰوٰت والأرض، من كواكب زُهَرَات ثوابت، وسيَّارات، وأفلاكٍ دائراتٍ، وكم في الأرض من قِطَع متجاورات، وحدائق وجنانٍ، وجبالٍ راسيَاتٍ، وبحارٍ زاخراتٍ، وأمواج متلاطمات، وقفار شاسعاتٍ، وكم أحياء وأمواتٍ، وحيوانات ونباتٍ متشابِهَةٍ ومختلفاتٍ، في الطُّعُومِ والروائح والألوان والصفات، فسبحان خالق الأرض والسمٰوٰت، ذي الأسماء والصفات.

وقوله: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾، قال ابن عباس: مِنْ إيمانهم إذا قيل لهم: مَن خلق السمٰوٰت ؟ من خلق الأرض؟ من خلق الجبال؟ قالوا: "الله"، وهم مشركون، ووافقه كثيرون في قوله(1).

وهكذا في الصحيح: أن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لبيك، لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما مَلَكَ، وفي مسلم: أنهم كانوا إذا قالوا: " لبيك لا شريك لك، يقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "قَدْ قَدْ" أي: حَسْبُ، حَسْبُ، لا تزيدوا على هذا(2)، وقال الحسن: ذاك المنافق يعمل إذا عَمِل؛ رياء الناس، وهو مشرك بعمله ذلك(3)، ثمَّ شركٌ آخر خفيٌّ، لا يشعر به غالباً فاعِلُه، كما أن حذيفة(4) دخل على مريضٍ، فرآى في عَضده سيراً، فقطَّعَهُ، وانتزَعَهُ، ثم قرأ: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾(5)، وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله – صلى الله

---

(1) ينظر: تفسير – ابن أبي حاتم (2207/7).

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الحج، باب: التلبية وصفتها ووقتها (08/4) برقم (2872)، من حديث ابن عباس – رضي الله عنهما – مرفوعاً بألفاظٍ متقاربة.

(3) ينظر: تفسير – ابن أبي حاتم (2208/7).

(4) حذيفة بن حسل بن جابر العبسي، أبو عبدالله صحابي، كان صاحب سر النبي – صلى الله عليه وسلم – في المنافقين، لم يعلمهم أحد غيرهُ، خيَّرهُ الرسول – صلى الله عليه وسلم – بين الهجرة والنصرة، فاختار النصرة، شهد مع الرسول – صلى الله عليه وسلم – أحداً، وبعثه يوم الخندق ينظر إلى قريش، فجاءه بخبر رحيلهم، كان عمر – رضي الله عنه – لا يحضر جنازة لم يشهدها حذيفة، توفي في المدائن سنة (36 هـ)، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب – لابن عبدالبر (334/1)، وأُسْدُ الغابة في معرفة الصحابة – لابن الأثير (572/1)، والأعلام – للزركلي (171/2).

(5) تفسير – ابن أبي حاتم (2208/7).

عليه وسلم-: "إن الرُّقى والتمائم والتِّوِلَةَ[1] شِرْكٌ"[2]، رواه أحمد، وأبوداود، وفي لفظٍ لهُمَا عنه مرفُوعاً: "الطِيَرةُ شِرْكٌ وما منَّا إلَّا ولكن الله يُذهبُهُ بالتوكل"[3]، وقوله: ﴿وَمَا مِنَّآ﴾ إلى آخره، قولُ ابن مسعود، وعن أبي هريرة – رضي الله عنه- يقول: " قال الله: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عَمِلَ عَمَلاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه"[4]، رواه مسلم، وعن أبي هريرة – رضي الله عنه-: قال: قال أبوبكر الصديق – رضي الله عنه- يا رسول الله، علِّمْنِي شيئاً أقوله إذا أصبحتُ، وإذا أمسيتُ، وإذا أخذتُ مضجعي، قال: " قل: اللهم فاطر السمٰوٰت والأرض، عالم الغيب والشهادة، رُبَّ كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي، وشر الشيطان وشركه"[5]، رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

وقوله: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾، أي: أفأمن هؤلاء المشركون بالله أن يأتيهم أمر يغشاهم وعقوبة، وقيل: يعني الصواعق والقوارع.

﴿أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ﴾، أي: فجأةً، ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ بقيامها، كما في قوله – تعالى-: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[6]، الآية، وكقوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ﴾[7].

﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، أَمَرَ الله – تعالى- رسولَه – عليه الصلاة والسلام- أن يخبر الناس أن هذه سبيله، أي: طريقه ومسلكُه وسنتُهُ، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله على بصيرة من ذلك، ويقينٍ وبرهان، هو وكل من

---

(1) التِوِلَةَ: هو ما يُحَبّب المرأة إلى زوجها، لسان العرب – لابن منظور (81/11)، الجذر (ت و ل".

(2) جزء من حديث أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: الطب، باب: في تعليق التمائم (11/4)، برقم (388)، وأخرجه أحمد في مسنده (110/6)، كلاهما من حديث ابن مسعود – رضي الله عنه – مرفوعاً.

(3) أخرجه أحمد في مسنده (213/6)، كلاهما من حديث ابن مسعود – رضي الله عنه – مرفوعاً، وأخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطب، باب الطيرة، (24/4) برقم (3912)، واللفظ لأحمد.

(4) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الزهد والرقائق، باب: من أشرك في عمله غير الله (223/8)، برقم (7666)، من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – مرفوعاً.

(5) أخرجه أحمد في مسنده (221/1)، وأخرجه أبو داود في سننه، كتاب: الأدب، باب: ما يقول إذا أصبح، (476/4)، برقم (5069)، وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب: الدعوات، باب: منه (467/5)، برقم (3392)، كلهم من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه- مرفوعاً، واللفظ لأحمد، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(6) سورة النحل، من الآية (45).

(7) سورة الأعراف، الآية (97).

اتبعَهُ، يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله – صلى الله عليه وسلم- على بصيرة ويقين وبرهان شرعي، والبصيرةُ هي: المعرفة التي تميز بها بين الحق والباطل.

وقوله: ﴿ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾، أي: أُنَزِّهُ الله من جميع النقائص، وأُجِلُّهُ وأعظِمُهُ عن أن يكون له شريك، أو نظير، أو عديل، أو وزير- تعالى-، وتنزَّه عن ذلك.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ أخبر- تعالى- إنما أرسل رسلَه من الرجال لا من النساء، وهذا ما عليه الجمهور، كما دلَّ عليه الآية أن الله لم يُوحِ إلى امرأة من بنات آدم وحْي تشريع، وزعم بعضهم: أن سارَّةَ امرأة الخليل، وأُمّ موسى، ومريم أم عيسى، نبيات، واحتجوا في ذلك بأن الملائكة بشرت سارة بإسحاق، ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴾[1]، وبقوله: ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِ ﴾[2]، الآية...، وبأن المَلَك جاء إلى مريم، فبشرها بعيسى، وبقوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾[3]، وهذا القدر حاصل لَهُنَّ، ولكن لا يلزم من هذا أن يكن نبيَّات بذلك، فإن أراد القائل بنبوتهن هذا القدر من التشريف، فهذا لا شك فيه، وبقي معه في أن هذا هل يكفي في الانتظام في سلك النبوة بمجرده أم لا؟ والذي عليه أئمة أهل السنة والجماعة، منهم أبو الحسن الأشعري: أنه ليس في النساء نبيةٌ، وإنما فيهن صِدِّيقات، كما قال – تعالى- مُخْبِراً عن أشرفِهن مريم، حيث قال: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ ﴾[4]، فوصفها في أشرف مقاماتها بالصِّدِّيقية، فلو كانت نبية، لذكر ذلك في هذا المقام، فهي صِدِّيقة بنص القرآن، وقال ابن عباسٍ في قوله: ﴿ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓ ﴾، أي: "ليسوا من أهل السماء كما قلتم"[5]،

---

(1) سورة هود، من الآية (71).

(2) سورة القصص، من الآية (7).

(3) سورة آل عمران، الآيتان (42 – 43).

(4) سورة المائدة، من الآية (75).

(5) تفسير – ابن أبي حاتم (2210/7).

وهذا يعتضد بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾[1]، الآية...، والمراد بالقرى: المدن، لا أنهم من أهل البوادي، وهذا هو المعروف، قال قتادة: "لأن أهل القرى أعلم وأحْكمُ من أهل العمُود[2]"[3]، وعن ابن عمر[4] أن النبي – صلى الله عليه وسلم– قال: "المؤمن الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم، خيرٌ من الذي لا يخالطهم، ولا يصبر على أذاهم"[5]، رواه أحمد.

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أفلم يسير هؤلاء المكذبون لك يا محمد في الأرض، ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم المكذِّبة للرسل، كيف دمَّر الله عليهم، وللكافرين أمثالها، فإذا استعْمَلُوا[6] خبر ذلك، رأوا أن الله قد أهلك الكافرين ونجَّى المؤمنين، وهذه كانت سنَّته تعالى في خلقه؛ ولهذا قال: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي: وكما أنجينا المؤمنين في الدينا، كذلك كتبنا لهم النجاة في الدار الآخرة أيضاً، وهي خيرٌ لهم من الدنيا، وإضافة الدار إلى الآخرة من قبيل "مسجد الجامع"، "وعام الأول"، و"يوم الخميس".

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، أي: أفلا ينتهون لذلك، فيؤمنوا.

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

أخبر – تعالى – أنَّ نصرَه نزل[7] على رسله – عليهم السلام – عند ضيق

---

(1) سورة الأنبياء، من الآية (8).

(2) العَمُودُ: الخشبةُ القائمةُ في وَسط الخِبَاءِ، تاج العروس من جواهر القاموس – للزبيدي (411/8)، الجذر " ع م و د".

(3) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (293/16).

(4) عبدالله بن عمرو بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي، أبو عبدالرحمن، صحابي جليل، ولد سنة (10 ق هـ)، كانت أول مشاهده الخندق، وشهد مؤتة واليرموك، وفتح مصر وإفريقية، كان كثير الاتِّباع لآثار رسول الله – صلى الله عليه وسلم–، وشديد الاحتياط والتَّوقي لدينه في الفتوى، روى أحاديث كثيرة عن الرسول – صلى الله عليه وسلم–، قال فيه جابر بن عبدالله – رضي الله عنه–: (ما منا أحدٌ إلا مالت به الدنيا، ومالَ بها، ما خلا عمر، وابنه عبدالله)، ولما حضرته الوفاة قال: (ما أجد في نفسي من أمر الدنيا شيئاً، إلا أني لم أقاتل الفئة الباغية مع علي بن أبي طالب)، توفي بمكة سنة (73هـ)، وهو آخر من مات من الصحابة فيها، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب – لابن عبدالبر (950/3)، وأُسْدُ الغابة في معرفة الصحابة – لابن الأثير (347/3)، والأعلام – للزركلي (108/4).

(5) أخرجه أحمد في مسنده (64/9).

(6) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (424/4)، (استمعوا)، وهو الصحيح.

(7) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (424/4)، (ينزل) وهو الصحيح.

الحال، وانتظار الفرج من الله في أحوج الأوقات إلى ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[1]، وفي قوله: ﴿كُذِبُوا۟﴾ قراءتان؛ إحداهما بالتشديد، وهي قراءة عائشة، والأكثرون عن عروة بن الزبير[2]: أنه سأل عائشة عن قول الله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ قال: قلت: أَكَذَبُوا أم كُذِبُوا، فقالت عائشة: كُذِّبُوا، فقلت: قد استيقنوا أن قومهم كذبوهم، فما هو بالظنِ؟ قالت: أجل، لعمري، لقد استيقنُوا بذلك، فَقُلْتُ لها: وَظَنُّوا أنهم قد كُذِبُوا؟ فقالت: معاذ الله! [لم تكن الرسل تظن ذلك بربها][3]، قلت: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم، وصَدَقهم، فطال عليهم البَلَاءُ، واستأخر عنهم النَّصْرُ، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾، ممّن كَذَّبَهُمْ من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبُوهم، جاءهم نصر الله عند ذلك[4]، وفي رواية، فقلتُ: لعلَّها قد كُذِبُوا مُخَفَّفَةً؟ قالت: معاذ الله![5] رواه البخاري، قال ابن أبي مُليكة[6]: كانت عائشة تقرأ: ﴿قَدْ كُذِّبُوا۟﴾، مُثقلَة للتكذيب، والقراءة الثانية بالتخفيف، كما قرأ ابن عباس مُخفَّفَةً، وقال: معناه ضَعْفُ قلوبِهِم، يعني: وظنت الرسُلُ أنهم كُذِّبُوا فيما وُعِدُوا من النَّصْرِ، وكانوا بشراً، وضَعُفُوا، ويَئِسُوا، وَظَنُّوا أنهم أُخْلِفوا[7]، ثم تلا: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾[8]، وهي قراءة أهل الكوفة، وأبي جعفر[9]، وقد رُوي عن ابن عباسٍ وعن ابن مسعودٍ بالتشديد أيضاً[10]، وقد أنكرت عائِشَة من فسَّرَها على وجه التخفيف، وانتصر لَهَا ابن جرير، وَوَجَّه المَشْهُور

(1) سورة البقرة، من الآية (214).

(2) عروة بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي، أبو عبدالله، العالم الفقيه ولد سنة (22 هـ)، كان عالماً بالسيرة حافظاً ثبتاً، قال عنه بن شوذب: كان يقرأ ربع القرآن، كل يوم في المصحف، ويقوم به في الليل، توفي في المدينة سنة (94 هـ)، ينظر: تذكرة الحفاظ – للذهبي (50/1)، وصفة الصفوة – لابن الجوزي (85/2)، والأعلام للزركلي (226/4).

(3) كذا هو لفظ البخاري، وهو الصحيح، وفي المخطوط: (لم يكن الرسل ظن ذلك بربهم).

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ (1239/3)، برقم (3209)، من حديث عائشة – رضي الله عنها– مرفوعاً.

(5) المصدر السابق (1731/4).

(6) عبدالله بن عبيد الله بن عبدالله بن أبي مليكة بن عبدالله بن جدعان، أحد رجال الحديث الثقات، وكان إمام الحرم، وشيخه، ومؤذنه الأمين، وقاضي مكة، والطائف، في أيام ابن الزبير توفي سنة (117هـ)، ينظر: الطبقات الكبرى – لابن سعد (472/5)، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب – لابن العماد العكري (147/1)، والأعلام – للزركلي (102/4).

(7) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (307/16).

(8) سورة البقرة، من الآية (214).

(9) ينظر: المبسوط في القراءات العشر – للنيسابوري (248)، وحجة القراءات – لابن زرعة (366).

(10) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (307/16).

عـن الجمهـور، وزيَّـفَ القـول الآخـر بالكليـة، وَرَدَّهُ، وأبَـاهُ، ولـم يقبلـه، ولا ارتضَـاهُ، والله أعلم[1].

وقوله: ﴿جَآءَهُمۡ﴾ أي: الرسل، ﴿نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾، قراءة العامَّة بنُونَيْنِ، أي: نحن نُنْجِي من نشاء، وقراءة عاصم ويعقوب بنون واحدة مضمومة وتشديد الجيم[2]، ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا﴾، أي: عذابنا، ﴿عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، يعني: المشركين.

﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾، أي: لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم، وكيف نجَّيْنَا المؤمنين، وأهلكنا الكافرين، ﴿عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾، أي: لذوي العقول، ما كان هذا القول أن يُفْتَرَى من دون الله، أي: يكذب ويُخْتلق ﴿وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ أي: من الكتب المُنْزَلَة من السماء، هو يُصَدِّق ما فيها من الصحيح، ويَنْفِي ما وقع فيها من تحريف، وتبديل، وتغييرٍ، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير، ﴿وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ من تحليل وتحريمٍ، ومحبوب ومكروهٍ، وغير ذلك من الأمر بالطاعات، والواجبات، والمستحبات، والنهي عن المحرَّمات، وما شاكلها من المكروهات، والأخبار عن الرب بالأسماء والصفات، وتنزيهه عن مماثلة المخلوقات، ولهذا كان ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾، تهتدي به قلوبهم من العمى إلى الرشاد، ومن الضلالة إلى السداد، ويبتغون به الرحمة من رب العباد، في هذه الحياة الدنيا، ويوم المعاد، فنسأل الله أن يجعلنا منهم في الدنيا والآخرة.

---

(1) نفس المصدر والصفحة.

(2) ينظر: المبسوط في القراءات العشر – للنيسابوري (248)، والتيسير في القراءات السبع – للداني (130).

تفسير سورة الرعد

[تمهيد](1)

[هذه السورة وسميت بهذا الاسم: نسبة لورود الرعد فيها.

والسورة تتناول محتويات كثيرة، نذكرها على النحو الآتي:

- إثبات صدق الرسول – صلى الله عليه وسلم– فيما أُوحِي إليه، وتوحيد الألوهية والربوبية.
- بيان أن القرآن من عند الله – تعالى–، وأن الله متفرد في هذا الكون، تصرّفاً وتدبيراً.
- تفنيد أقوال المشركين ومزاعمهم في إنكار البعث، وتهديدهم أن يَحِلَّ بهم ما حلَّ بالأمم السابقة.
- بيان نعم الله – تعالى–، وأنه المستحق للعبادة دون آلهتهم.
- التهديد بالحوادث الجوية، فقد يكون فيها عذابٌ للمكذبين، كما حلَّ بالأمم قبلهم.
- التخويف من يوم القيامة، وأن الدنيا ليست دار قرار.
- مشاهدة الطبيعة المتقابلة: من سماء وأرض وشمس وقمر... إلخ.
- ما لقيه الرسول – صلى الله عليه وسلم– من قومه شبيه بما لقيَهُ الرسل –عليهم السلام– قبله.
- الإشارة إلى حقيقة القدر، ومظاهر المحو والإثبات.
- الثناء على فريق من أهل الكتاب، يؤمنون بأَنَّ القرآن منزل من عند الله تعالى.
- مشاهد يوم القيامة، وما فيه من نعيم وعذاب](2).

وهي مكية، قيل: إلا قَوْلَه: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم﴾ ... الآية، وقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗا﴾.

---

(1) إضافة من المحقق.

(2) ينظر: في ظلال القرآن – للسيد قطب (2038/4)، والتحرير والتنوير – للطاهر بن عاشور (75/13).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾

سبق الكلام في حروف أوائل السور في أول سورة البقرة، وإن كل سورةٍ تبتدئ بهذه الحروف، ففيها الانتصار للقرآن، وتبيان أنه نزل من عند الله، حق لا شك فيه، ولا ريب، ولهذا قال: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، أي: هذه آيات الكتاب، وهو القرآن، وقال مجاهد وقتادة: (التوراة والإنجيل)[1]، وهو بعيد، ثم عطف عليه عطف صفات بقوله: ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾، أي: يا محمد، ﴿مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾، خبر المبتدأ، وهو قوله: ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾، هذا هو الصحيح المطابق لتفسير مجاهد وقتادة، وعند ابن جرير أن الواو زائدة، أو عطف صفةٍ على صفةٍ كما سبق، واستشهد بقول الشاعر **[البحر: المتقارب]:**

إِلـى المَلِـكِ القَـرْمِ وابْـنِ الهُمَـام ** وَلَيْـثِ الْكَتِيبَـةِ فـي المُـزْدَحَمْ[2]

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: مع هذا البيان والجلاء والوضوح لا يؤمن أكثرهم؛ لما فيهم من الشقاق والنفاق.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾

أخبر - تعالى- عن كمال قدرته، وعظيم سلطانه، الذي بإذنه وأمره رفع السمٰوٰت بغير عمدٍ، بل بأمره وبإذنه وتسخيره رفعهما[3] على الأرض، بعداً لا يدرك معه مدَاهَا، فالسماء الدنيا محيطة بجميع الأرض، وما حولها من الماء والهواء من جميع جهاتها ونواحيها وأرجائها، مرتفعة عليها من كل جانبٍ على السواء، بُعدُ ما بينها وبين الأرض من كل جانبٍ مسيرة خمسمائة عام، وسمكها في نفسها كذلك، ثم

---

(1) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (320/16).

(2) ذكره الطبري في تفسيره، ولم ينسب لقائله (321/16)، وذكره عبدالقادر بن عمر البغدادي في كتابه خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تح: محمد نبيل طريفي، وإميل بديع اليعقوب، دار الكتب العلمية (429/1)، ونسبه لابن الزيات (ت 233هـ).

(3) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (428/4): (رفعها)، وهو الصحيح.

السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حَوَتْ، وبينها من البعد مسيرة خمسمائة عام، وسمكها أيضاً كذلك، ثم الثالثة المحيطة بالثانية بما فيها، وبينها وبينها خمسمائة عام، وسمكها أيضاً، كذلك، وهكذا إلى السابعة ...، كما قال الله – تعالى–: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾[1]، الآية ...، وفي الحديث: "ما السمٰوٰت السبع، وما فيهن وما بينهن، في الكرسي، إلا كحلقة ملقاةٍ بأرض فلاةٍ، والكرسي في العرش كذلك[2]، الحلقةِ في تلك الفلاة"[3]، وفي رواية "والعرش لا يُقَدِّرُ قدره إلا الله"[4]، وهو من ياقوتة حمراءَ.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾، أي: هي مرفوعة بغير عمدٍ، كما ترونها، وهذا هو اللائق بسياق الآية، الأكمل في القدرة، لا ما نُسبَ إلى ابن عباسٍ وجماعة أنهم قالوا: (لها عُمُدٌ، ولكن لا يُرَى) [5]؛ لظاهر قوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾[6].

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، سبق تفسيره في سورة الأعراف، وأنه يُمَرُّ– كما جاء – من غير تكييفٍ، ولا تشبيهٍ، ولا تعطيل، ولا تمثيل تعالَى الله علواً كبيراً.

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾، قيل: المراد أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة، وقيل: إلى مستقرهما تحت العرش، ممَّا يلي الأرض من الجانب الآخر، فإنهما وسائرَ الكواكب إذا وصلوا هنالك، يكونون أبعد ما يكون عن العرش؛ لأنه – على الصحيح الذي قام عليه الدليل–، مما يلي العالَم من هذا الوجه، وليس بمحيط كسائر الأفلاك؛ لأن له قوائمَ، وحملةً يحملونه. ولا يَتَصَوَّرُ مُتصَوِّرٌ هذا في الفلك المُسْتدِيرِ، وهذا واضح لمن تدبَّر، على ما وردت به الآيات والأحاديث

---

(1) سورة الطلاق، من الآية (12)

(2) كذا في المخطوط، وفي كتاب العرش – لابن أبي شيبة (90): (كتلك).

(3) أخرجه: أبو جعفر محمد بن عثمان بن أبي شيبة العبسي في كتابه: العرش وما رُوي فيه، تح: محمد بن خليفة بن علي التميمي، مكتبة الرشد، الرياض – المملكة العربية السعودية، ط: الأولى، (1418هـ – 1998م)، (89)، من حديث أبي درّ – رضي الله عنه– مرفوعاً بألفاظٍ متقاربة.

(4) المصدر السابق، (90)، من حديث عبدالله بن عباس – رضي الله عنهما– مرفوعاً.

(5) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (323/16).

(6) سورة الحج، من الآية (65).

الصحيحة، ولله الحمد، وذِكْرُ الشمس والقمر، لأنهما أظهر الكواكب السيَّارة السبعة، التي هي أشرف وأعظم من الثوابت، فإذا كان قد سخَّر هذه، فَلَأَنْ يَدْخُلَ في التسخير سائرُ الكواكب بطريق الأولى، ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ أي: يقبضة وحدة.

وقوله: ﴿يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾، أي: نوضح الآيات والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو، وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما ابتدأ خلقَهُ؛ لكي يُوقِنوا بوعدِهِ، ويُصَدِّقُوه فيما أنزل على عبدهِ من عنده.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾

لمَّا ذكر الله – تعالى– العالم العلوي، شرع في بيان قدرته وحكمته في العالم السفلي، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ﴾، أي: جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض، وأحكمها بجبالٍ راسياتٍ، وأجرى فيها الأنهار والعيون؛ ليسقي ما فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح، ﴿وَمِن كُلِّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ أي: من كل شكل صنفين، ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾، أي: جعل كلًّا منهما يطلب الآخر، طلباً حثيثاً، فإذا ذهب هذا، غشِيَه هذا، وإذا انقضى هذا، جاء الآخر، فينصرف أيضاً في الزمان، كما ينصرف أيضاً في المكان.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: إن في آلاء الله وحكمه ودلائله.

وقوله: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ﴾، أي: تجاور بَعْضُها بعضاً، مع أن هذه طيبة، تنبت ما ينتفع الناس به، وهذه سَبِخَةٌ مالحةٌ، لا تُنبت شيئاً، هكذا عن ابن عباسٍ وموافقيه(1)، وكذلك يدخل في الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض، فهذه حمراء، وهذه بيضاء، وهذه صفراء، وهذه سوداء، وهذه سهلة، وهذه محجَّرَة، ونحو ذلك، وكلها يدل على الفاعل المختار.

---

(1) ينظر تفسير – ابن أبي حاتم (2219/7).

وقوله: ﴿وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾، يجوز أن تكون معطوفاً على جنات فتكونا مرفوعين، وأن يكون معطوفاً على أعنابٍ فيكونا مجرورين.

وقوله: ﴿صِنْوَانٌ﴾ هو الأصول المجتمعة في منبتٍ واحدٍ، كالرُّمَّان والتين، ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾، ما كان على أصل واحدٍ كأكثر النخلات وسائر الأشجار، ومنه سُمِّي عمُّ الرجل صِنوُ أبيه، وبه ورد الحديث الصحيح[1].

وقوله: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾، أي: يُسْقَى ذلك كُلُّه بماء واحدٍ، ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾، في الثمر والطعم، وجاء في الحديث الغريب: أي: "الدَّقَل والفارسي، والْحُلْو، والحامض"[2]، أي: هذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزروع، في أشكالها وطعومها، وأوراقها، فهذا في غاية الحلاوة، وهذا في غاية الحموضة، وهذا عَفِص[3]، وهذا يُسْتَمَدُّ من طبيعة واحدة، وهو الماء، ومع هذا لا ينحصر، ولا ينضبِطُ؛ لكثرته، ففي ذلك آيات لمن كان واعياً، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار، الذي بقدرته فاوت بين الأشياء؛ ولهذا قال – تعالى-: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بالمعاد، مع ما يشاهدونه من آيات الله ودلالاته في خلقه، على أنه القادر على ما يشاء، ومع ما يعرفون[4] به من أنه ابتدأ خلق الأشياء، فكونها بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً، ثم هم بعد هذا يكذِّبون خبرَهُ في أنه سُيعيد العالمين خلقاً جديداً، ويعجبون من ذلك، وقد علم كل عالِم وعاقِلٍ

---

(1) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب: في تقديم الزكاة ومنعها، (68/3) برقم (2324)؛ من حديث عمر بن الخطاب – رضي الله عنه– مرفوعاً، ونَصُّه: "ما يَنْقِمُ ابْنُ جَمِيلٍ إلا أَنَّهُ كان فقيراً، فأغناهُ الله، وأمَّا خالدٌ، فإنكم تظلمون خالداً، قد احتبس أَدْرَاعَهُ وأَعْتَادَهُ في سبِيلِ الله، وأمَّا العباسُ، فهِيَ عَلَيَّ، ومثلها معَها"، ثم قال: " ياعمر، أما شَعَرْتَ أن عمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ".

(2) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: تفسير القرآن، باب سورة الرعد (294/5)، برقم (3118)، من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه– مرفوعاً، وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

(3) عَفِص: بَشِعٌ، وفيه عُفُوصةٌ ومرارةٌ، وتقبُّض يعسُر ابتلاعه، لسان العرب– لابن منظور (54/7) الجذر " ع ف ص ".

(4) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم– لابن كثير (432/4): (يعترفون)، وهو الصحيح.

أن خلق السمٰوٰت والأرض أعظم من خلق الناس، وأن مَنْ بَدَأَ الخلق، فالإعادة عليه سَهْلَةٌ، ثم نعتهم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡ﴾، أي: يوم القيامة يُسْحَبُون بها في النار، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، أي: ماكثون فيها أبداً، لا يُحَوَّلُون عنها ولا يُزالُون.

﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾، أي: ويستعجلك هؤلاء المكذِّبُون ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾، أي: بالعقوبة، ﴿قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾، كما قال في آية أخرى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾[1] الآية ...، وغيرها من الآيات الظاهرات...، وكانوا يطلبون من الرسول أن يأتيهم بعذاب الله من شدة كفرهم وعنادهم، ﴿وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُ﴾، أي: قد أَوْقَعْنَا نقمتنا بالأمم السالفة، وجعلناهم مَثُلَةً وعبرةً وعِظَةً لمن اتعظ به، والمَثُلَاثُ: جمع المَثُلَة بفتح الميم وضم الثاء.

ثم أخبر – تعالى- أنه لولا حِلْمهُ وعَفْوُهُ، لعاجلَهُمْ بالعقوبة كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡ﴾ أي: ذو صفحٍ وعفو وستر للناس مع أنهم يظلمون ويُخطئُون بالليل والنهار.

ثم قَرَنَ هذا الحكم بأنَّه شديد العقاب؛ ليعتدل الرجاء والخوف، كما في أمثالها من الآيات التي تجمع بين الرغبة والرهبة، قال ابن المُسَيَّب[2]: لمَّا نزلت هذه الآية، قال رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم-: "لولا غفرُ الله، وتجاوُزهُ، ما هَنَأَ أحداً العيشُ، ولولا وعيدُهُ وعقابُه، لاتَّكَلَ كلُّ أحدٍ"[3]، رواه ابن أبي حاتمٍ.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾

---

(1) سورة العنكبوت، من الآية (53).

(2) سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي القرشي، أبو محمد، من سادات التابعين، وكان من فقهاء المدينة السبعة، ولد سنة (13هـ)، كان جامعاً، ثقةً، كثير الحديث، فقيهاً ورعاً مفتياً مأموناً، قال عنه عبدالرحمن بن حرملة: (ما كان إنسان يجترئ على سعيد ابن المسيب، يسأله عن شيءٍ، حتى يستأذنه، كما يستأذن الأمير)، وقال عنه في ردّ مولى ابن المسيب: (ما نودي بالصلاة منذ أربعين سنة، إلا وسعيد في المسجد)، توفي بالمدينة سنة (94هـ)، ينظر: الطبقات الكبرى – لابن سعد (119/5)، وصفة الصفوة – لابن الجوزي (79/2)، والأعلام للزركلي (102/3).

(3) أخرجه – ابن أبي حاتم في تفسيره (2224/7).

أي: يقول المشركون كفراً وعناداً: لولا يأتينا بآية، أي: حجة وعلامة على نبوته، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾، أي: إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التي أمرك بها، وتُخَوِّفَهَم من سوء العاقبة، وليس عليك هُدَاهُمْ.

وقوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾، قال مجاهد: أي: نَبِيٌّ، وقيل: قائد، وهو محمد[1] – صلى الله عليه وسلم–، وقال ابن عباس: (أنت يا محمد، منذر، وأنا هادي كل قومٍ)[2]، وعن بعضهم قال: وَضَعَ رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم– يَدَهُ على صدره، فقال: "أنا المنذر"، وأومأ بيده على مِنْكَبِ عَلِيٍّ، فقال: "أنت الهادي يا علي، بك يهتدِي المهتدُونَ من بعدي"[3]، قال الشيخ: وفي هذا الحديث نكارةٌ شديدة.

﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴾

أخبر– تعالى– عن تمام علمه، الذي لا يخفى عليه شيء، وأنَّه محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات، كما قال: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِ﴾[4]، ومعنى ﴿تَغِيضُ﴾: تنقُصُ، وغيضُ الأرحام: الحيض على الحمل، وعن ابن عمر: أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– قال: "مفاتيح الغيب خمس، لا يعلمهن إلا الله، ما يعلم ما في غدٍ إلا الله، وما يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المَطر أحدٌ إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله"[5]، رواه البخاري، قال ابن عباسٍ: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ﴾، يعني: السقط[6]، ﴿وَمَا تَزۡدَادُ﴾ ما زادت الرحم في الحمل، على ما غاضتْ، حتى ولدتْهُ تماماً، وذلك أن من النساء

---

(1) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (356/16).

(2) المصدر نفسه (355/16).

(3) أخرجه الطبري في تفسيره (357/16)، وأخرجه محمد ناصر الدين بن الحاج نوح الألباني، في كتابه سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة، مكتبة المعارف، الرياض، ط: الأولى (1412هـ – 1992م)، (535/10)، وقال: موضوع، وهذا إسناد مظلم؛ وله ثلاث علل: الأولى اختلاط عطاء بن السائب، والثانية: معاذ بن مسلم، وقال الذهبي: مجهول، والثالثة: الحسن بن الحسين الأنصاري وهو العوني، وهو متهم.

(4) سورة لقمان، من الآية (34).

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: سورة الرعد (1733/4)، برقم (4420)؛ من حديث ابن عمر – رضي الله عنه– مرفوعاً.

(6) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (359/16).

من تنقص، فذلك الغيظُ[1]، ومنهن من تزيد في الحمل، وكل ذلك بعلمِهِ – تعالى–، قال الضحَّاك: "حملتني أمي في بطنها سنتين، وولدتني وقد نبتَتْ ثنيَّتي"[2]، قال مجاهد: "إذا رأت المرأة الدم دونَ التسعة، زاد على التسعةِ، مثل أيام الحيض"[3]، قال قتادة: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾، أي: بأجل، حفظ أرزاق خلقهِ، وآجالهم، وجعل لذلك أجلاً معلوماً[4].

وقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: يعلم كل شيءٍ مما يُشاهدهُ العباد، ومما يغيب عنهم، ولا يخفى عليه مِنْهُ شيءٌ، ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾: الذي هو أكبر من كل شيءٍ، ﴿ٱلۡمُتَعَالِ﴾ أي: على كلِّ شيءٍ، قد أحاط بكل شيءٍ علماً، وقهر كل شيءٍ، فخضَعتْ له الرقاب، ودار لَهُ الْعِبَادَ، طوعاً وكرهاً.

﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾

أخبر– تعالى– عن إحاطة علمه بجميع خلقه، وأنه سواءً منهم من أسرَّ قوله أو جهر به، فإنه يسمعه، ولا يخفى عليه شيء، كما قال: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾[5]، وقال: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾[6].

وقوله: ﴿وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ﴾، أي: مختفٍ في قَعْرِ بيتِهِ في ظلام الليل، ﴿وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾، أي: ظاهر مَاشٍ في بياضِ النَّهار، وضيائِهِ، فإن كِلاهُمَا[7] في علم الله على السواء.

---

(1) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (436/4): (الغيض)، وهو الصحيح.

(2) تفسير – ابن أبي حاتم (2226/7).

(3) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (360/16).

(4) تفسير – ابن أبي حاتم (2227/7).

(5) سورة طه، الآية (7).

(6) سورة النمل، من الآية (25).

(7) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (437/4)، (كليهما) وهو الصحيح .

وقوله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾، أي: للعبد ملائكة يتعاقبون عليه، حَرَسٌ بالليل، وحَرَسٌ بالنهار، يحفظونه من الأسواء والحادثات، كما يتعاقب ملائكة آخرون، يحفظون الأعمال من خير أو شر، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فاثنان عن اليمين، وعن الشمال، يكتبان الأعمال، فصاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرُسَانِهِ، واحد من ورائه، وآخر من قُدَّامِهِ، فهو بين أربعةِ أملاك بالنهار، وأربعة بالليل بدلاً، حافظان وكاتبان، كما جاء في الصحيح: أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– قال: "يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح، وصلاة العصر، فيصعد إليه الذين باتوا فيكم، فيسألهم، وهو أعلم بكم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يُصَلُّون، وتركناهم وهم يُصلون"[1]، وقال مجاهد: ما من عبدٍ إلا به ملك موكَّلٌ بحفظِهِ في نومه ويقظته، من الجن والإنس والهوام، فما منها شيء يأتيه يريدهُ إلا قال: وراءك، إلا شيء يأذن الله فيه، فيُصِيبُهُ"[2]، وعن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: "ما منكم من أحدٍ إلا وقد وُكِّلَ به قرينُهُ من الجن، وقرينُهُ من الملائكة"، قالوا: وإيَّاك يا رسول الله، قال" "وإيَّاي، ولكن الله أعانني عليه، فلا يأمرني إلاَّ بخير"[3]، رواه مسلم.

وقوله: ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾، قيل: المراد: حفظهم له من الله وبه، قال ابن عباسٍ وغير واحدٍ[4]، وفي بعض القراءات: ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ بِأَمۡرِ ٱللَّهِ﴾[5] قال أبو أمامة[6]:

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التوحيد، باب: قوله الله تعالى: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ وقوله جل ذكره: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾، (2702/6) برقم (6992)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: المساجد، باب: فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، (113/2) برقم (1464)؛ من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – مرفوعاً بألفاظٍ متقاربةٍ.

(2) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (373/16).

(3) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قريناً (139/8)، برقم (7286)؛ من حديث عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه– مرفوعاً.

(4) ينظر: تفسير – ابن أبي حاتم (2232/7).

(5) قرأ علي بن أبي طالب وابن عباس – رضي الله عنهما– وعكرمة وزيد بن علي وجعفر بن محمد: ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ بِأَمۡرِ ٱللَّهِ﴾. المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها – لابن جنّي (354/1).

(6) صدى بن عجلان بن وهب، أبو أمامة الباهلي، صحابي جليل، كان مع جيش علي – رضي الله عنه– في صفين، روى عن النبيّ – صلى الله عليه وسلم– عدة أحاديث توفي بحمص سنة (81 هـ)، وهو آخر من مات مِنَ الصحابة بالشام، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب – لابن عبدالله (736/2)، وأُسْدُ الغابة في معرفة الصحابة – لابن الأثير (16/3)، والأعلام – للزركلي (203/3).

ما من آدَميٍّ إلا معه ملك يَذُودُ عنه، حتى يُسَلِّمَهُ للذي قُدِّر لَهُ[1]، وقيل: يحفظونه من أمر الله بأمر الله، كما جاء في الترمذي أنهم قالوا: يا رسول الله، أرأيْتَ رُقًى نَسْترقِي بها، ودواءً نتداوَى به، هل تَرُدُّ من قدر الله؟ فقال: "هي مِن قدر الله"[2]، وعن بعضهم: أن الله أوحى إلى نبيٍّ من الأنبياء: أن قل لقومك: إنه ليس من أهل قريةٍ، ولا أهل بيتٍ، يكونون على طاعة الله، فيتحوَّلُون منها إلى معصية الله، إلا تَحَوَّلَ لهم ما يُحبُّونَ إلى ما يكرهون، وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[3]، رواه ابن أبي حاتمٍ.

﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا﴾، أي: عذاباً ونِقْمَةً وهلاكاً، ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾، أي: لا رادَّ ولا مانع له، ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾، أي: ملجأٍ يلجؤون إليه، أو يلي أمرهم، ويمنع العذابَ عنهم.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾

أخبر – تعالى- أنه يُسَخِّرُ البرق، وهو ما يرى من النور اللامع ساطعاً من خلل السحاب؛ خوفاً وطمعاً، قال قتادة خوفاً للمسافر، يخاف أذاه ومشقته، وطمعاً للمقيم، يرجو بركته ومنفعته، ويطمع في رزق الله.

﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ﴾، أي: يخلقها مُنْشَأَةً جديدة، وهي؛ لكثرة مائها، ثقيلة قريبة إلى الأرض.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾، كما قال –تعالى-: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾[4]، وعن شيخ من بني غفار قال: سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم- يقول: "إن

(1) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (378/16).

(2) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: الطب، باب: الرقى والأدوية (399/4) برقم (2065)؛ من حديث أبي خزامة – رضي الله عنه – مرفوعاً، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(3) تفسير – ابن أبي حاتم (2232/7).

(4) سورة الإسراء، من الآية (44).

الله ينشئ السحاب، فينطق أحسن المنطِقِ، ويضحك أحسن الضحك"(1)، رواه أحمد، والمراد – والله أعلم-: أنْ نَطْقَهَا الرعد، وضَحِكَها البرق، كما قال بعضهم: يبعث الله الغيث، فلا أحسن منه مُضْحِكاً، ولا آنس منه مَنْطِقاً، فضَحِكُهُ البرق، ونطقُه الرَعدُ، وعن ابن عمر قال: كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم- إذا سمع الرعد والصواعق قال: "اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك، وعافِنا قبل ذلك"(2)، رواه البخاري، وكان عبدالله بن عمرو(3) إذا سمع الرعد، ترك الحديث، وقال: سبحان الذي يسبح الرعد بحمده، والملائكة من خِيفته! ويقول: إن هذا لوعيد شديد لأهل الأرض(4)، رواه مالك في الموطأ، والبخاري في الأدب.

وقوله: ﴿ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ ﴾ أي: يرسلها؛ نقمة، ينتقم بها ممن يشاء، ولهذا تكثر في آخر الزمان، كما روى أبو سعيد الخدري أن النبي – صلى الله عليه وسلم- قال: "تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة، حتى يأتي الرجل القوم، فيقول من يُصْعَقُ منكم(5) الغداة؟ فيقولون: صَعِقَ فلان، وفلان، وفلان(6)، وفي سبب نزولها أقوال، منها قصة عامر بن الطفيل، وأربد بن ربيعة، لمَّا قدِما على رسول الله – صلى الله عليه وسلم- المدينة، فسألاه أن يجعل لهما نصف الأمر، فأبا عليهما رسول الله – صلى الله عليه وسلم-، فقال له عامر بن الطفيل: أما والله، لأملأنَّها عليك خيلاً جَرْداً، ورجالاً مُرْداً، فقال له رسول الله – صلى الله عليه وسلم-: يأبى الله عليك، وأبناءُ قَيْلَةَ،

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده (91/39).

(2) أخرجه: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، في كتابه في الأدب المفرد، تح: محمد فؤاد عبدالباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط: الثالثة، (1409هـ – 1989م)، كتاب: الأذكار، باب: الدعاء عند الصواعق (251)، برقم (721)، من حديث ابن عمر – رضي الله عنه – مرفوعاً.

(3) كذا في المخطوط، والصحيح ما ورد في تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (442/4): (عبدالله بن الزبير)، وهو: عبدالله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبدالعزى بن قصي القرشي الأسدي، (أبا بكر) ولد في السنة الثانية للهجرة، وهو أول مولود في الإسلام من المهاجرين بالمدينة، جيء به للرسول – صلى الله عليه وسلم- وحنَّكه بتمرة لا كَها في فيه، فكان أول شيءٍ دخل جوفه ريق رسول الله – صلى الله عليه وسلم- غزا مع عبدالله بن أبي السرح إفريقية، وشَهِد الجمل مع أبيه، توفي بمكة سنة (73هـ)، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب – لابن عبدالبر (905/3)، وأُسْدُ الغابة في معرفة الصحابة – لابن الأثير (245/3)، والأعلام – للزركلي (87/4).

(4) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، الكتاب: الأذكار، باب: إذا سمع الرعد (252)، برقم (723)، وأخرجه مالك بن أنس، أبو عبدالله الأصبحي، في الموطأ، تح: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي – مصر، كتاب: الكلام، باب: القول إذا سمعت الرعد (992/2)، برقم (1801)، كلاهما من حديث عبدالله بن الزبير – رضي الله عنهما- مرفوعاً.

(5) كذا هو الصحيح، والموافق لما في مسند الإمام أحمد، وفي المخطوط: (قبلكم).

(6) أخرجه أحمد في مسنده (163/18).

يعني: الأنصار، ثم إنَّهُمَا هَمَّا بالفتك بالنبي – صلى الله عليه وسلم–، وجعل أحدهما يخاطبه، والآخر يستل سيفَهُ، ليقْتله من ورائه، فحماهُ الله – تعالى– منهما، وعصَمه، فخرجا من المدينة، فانطلقا في أحياء العرب، يجمعان الناس؛ لحربِهِ – عليه الصلاة والسلام–، فأرسل الله على أربَدَ سحابَةً فيها صاعقة، فأحرقتْهُ، وأما عامر بن الطفيل، فأرسل الله عليه الطاعون، فخرجتْ فيه غُدّة عظيمة، فجعل يقول: يا آل عامر، غُدَّةٌ كغدَّة البكْرِ، وموت في بيت سَلُولية، حتى مات، وأنزل الله في مثل ذلك: ﴿ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ ﴾، وفي ذلك يقول لبيد بن ربيعة، أخو أربد بن ربيعة، يرثيه، **[البحر: المنسرح]:**

أخشى على أربد الحُتُوفَ ولا ** أرْهَبُ نَوْءَ السِّماكِ والأسدِ

فجعنِي الرَّعْدُ والصَّواعِقُ بالـ ** فارِسِ يَوْم الكَرِيهَةِ النَّجُدِ[1]

وروى هذه القصة أبو القاسم الطبراني[2] بأبسط منها.

وقوله ﴿ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ ﴾، أي: يشكُّون في عظمته، وأنه لا إله إلا هو، ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾، قال ابن جريرٍ: شديدة مماحلتُهُ، أي مماكرتهُ، ومغالَبَتُهُ في عقوبة مَن طَغَى علَيْهِ، وعَتَى، وتمادى في كفرهِ[3]، والمِحالُ يطلق على القوة والحِقْد والعقوبَة والمكر، وهذه الآية شَبيهة بقوله: ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا ﴾[4]، الآية ...

﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾، قال علي، وابن عباس: دعوة الحق التوحيد، وهو لا إله إلا الله[5].

(1) هذه الأبيات أوردها الأصفهاني في كتابه الأغاني، ونسبها للبيد بن ربيعة (ت 941هـ)، (67/17).

(2) سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، الطبراني، أبو القاسم، الحافظ الإمام العلامة، الحجة، ولد سنة (260هـ)، رحل في طلب الحديث إلى الشام والعراق والحجاز واليمن ...، قال عنه ابن منده: (الطبري أحد الحفاظ المذكورين)، ومن مؤلفاته: (دلائل النبوة)، و(الأوائل) و(المعجم الصغير)، توفي بأصبهان سنة (360هـ)، ينظر: تذكرة الحفاظ – للذهبي (85/3)، والأعلام – للزركلي (121/3)، ومعجم المؤلفين – لعمر كحالة (253/4).

(3) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (394/16).

(4) سورة النمل، من الآية (50).

(5) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (398/16).

﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾، أي: ومَثَلُ الذين يعبدون آلهة غير الله، ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ﴾، أي: كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده، وهو لا يناله أبداً بيده، فكيف يبلغ فاهُ؟ وقال مجاهد: يدعو الماء بلسانه، ويشير إليه، فلا يأتيه أبداً، وقيل: أي كقابض يده على الماء، فإنه لا يحكم منه على شيءٍ، كما قال الشاعر **[البحر الطويل]:**

فــإني وإيَّــاكم وشــوقاً إلــيكُمُ ** كقـابِضِ مـاءِ لـم تَسْـقِه[1] أنامِلُـه[2]

والمعنى: أن هذا الذي يبسط يده إلى الماء، إما قابضاً أو متناولاً من بُعْدٍ، كما أنه لا ينتفع بذلك، فكذلك هؤلاء المشركون، لا ينتفعون بآلهتهم أبداً، لا في الدنيا، ولا في العقبى؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾، أي: وما دعاؤُهُم أصنامَهُم، إلا في ضلالٍ وخسَار.

﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾.

أخبر – تعالى – عن عظمته وسلطانه الذي قهر كل شيء؛ ولهذا يسجد له كلُّ شيء طوعاً وكرهاً من الكافرين، ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ﴾، أي: بالبكرات، ﴿وَٱلۡأٓصَالِ﴾: جمع أصيل، وهو آخر النهار.

كما قال – تعالى –: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ﴾[3] الآية ....

﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾

قرر – تعالى – أنه لا إله إلا هو؛ لأنهم معترفون أنه هو الذي خلق السمٰوٰت والأرض، وهو ربها، ومُدبِّرها، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم، وأولئك الآلهة لا تملك لأنفسها ولا لعابديها بطريق الأولى نفعاً، ولا ضرًّا، فهل يستوي من عبد هذه الآلهة مع الله، ومن عبد الله وحده لا شريك له، فهو على نور من ربه، ولهذا قال:

---

(1) كذا في المخطوط، وفي خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب – لعبد القادر البغدادي (327/9): (تطعه)، وهو الصحيح.

(2) هذا البيت لضابئ البرجمي (ت 930هـ)، ينظر: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب – لعبد القادر البغدادي (327/9).

(3) سورة النحل، من الآية (48).

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ﴾، أي: أَجَعَلَ هؤلاء المشركون مع الله آلهةً تُناظر الرَّبَّ وتماثِله في الخلق؟ فخلقوا كخلقه، فتشابه الخلق عليهم، ولا يدرون أنها مخلوقة من مخلوقٍ غيره، أي: ليس الأمر كذلك، فإنه لا يشابهُه شيءٌ، ولا يماثلهُ، ولا نِدّ لَهُ ولا عِدْلَ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً، وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة، هم يعترفون أنها مخلوقة له، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً، هو لك، تملكه وما ملك، وكما أخبر – تعالى– عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾[1]، فأنكر– تعالى– عليهم، حيث اعتقدوا ذلك، وهو – تعالى– لا يشفع عنده أحدٌ إلا بإذنه، ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾[2]، ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾[3]، فإذا كان الجميع عبيداً، فلِمَ يَعْبُدُ بعْضُهُمْ بعضاً بلا دليلٍ ولا برهانٍ؟ بل بمجرد الاختراع والابتداع، ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم، تزجرهم عن ذلك، ونهتهم عن عبادة سوى الله، فكذبوهم وخالفوهم، فحقت عليهم كلمة العذاب، ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾.

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾

هذ الآية مشتملة على مَثَلَيْنِ مضروبين للحق، والباطل في اضمحلاله وفنائه، فقال تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾، أي: مطراً، ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾، أي: أخذ [كل][4] وادٍ بحسبه، فهذا كبير، وسع كثيراً من الماء، وهذا صغير، أخذ بقدره، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يسع علماً كثيراً، ومنها ما لا يتسع لكثير من العلوم، بل يضيق عنها، ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾ أي: فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زبدٌ، وهو: الخبث الذي يظهر على وجه الماء، ﴿رَّابِيًا ﴾ أي: عالياً مرتفعاً فوق الماء، هذا مثل.

---

(1) سورة الزمر، من الآية (3).

(2) سورة سبأ، من الآية (23).

(3) سورة النجم، الآية (26).

(4) ساقطة من المؤلف، مثبتة من تفسير – ابن كثير (447/4).

وقوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ﴾ مثلٌ آخر، وهو ما يسيل في النار من ذهبٍ أوفضةٍ؛ ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾، أي: ليُجْعَلَ حليةً، أو من نحاسٍ أو حديدٍ؛ ليجعل متاعاً، فإنه يعلوه زبدٌ، كما يعلو ذلك زبدٌ منه، ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾، أي: إذا اجتمعا، لا ثبات للباطل ولا دوام، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء، ولا مع الذهب ونحوه، مما يسيل في النار، بل يذهب ويضمحِلُّ؛ ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾، أي: لا ينتفع به، بل يتفرق ويتمزق، ويذهب في جانبي الوادي، ويعلق بالشجرة، ويَنْشفهُ[1] الرياح، وكذلك خبث الذهب والفضة والنحاس والحديد يذهب، لا يرجع منه إلى شيءٍ، ويبقى الماء، وذلك الذهب ونحوه، ينتفع به، ولهذا قال: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾، قال ابن عباس: هذا مثل ضربه الله، احتملت منه القلوب على قدر يَقِينِها وشكِّها، فأما الشكُّ، فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين، فينفعُ الله به أهله، وهو قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾، وهو الشك، ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وهو اليقين، وكما يُجْعَل الحَلْيُ في النار، فيؤخذ خالِصُه، ويترك خبيثُهُ في النارِ، فكذلك يَقْبلُ الله اليقين، ويترك الشكَّ[2]، وفي رواية أخرى قال: وكذلك يضمحلّ الباطل يوم القيامة، وأقيم الناس، وعرضت الأعمال، فَيَزِيغُ الباطل، ويهلك، وينتفِع أهل الحق بالحق[3]، قيل: وهذا تسلية للمؤمنين، يعني: أن أمر المشركين كالزبد، يرى في الصورة شيئاً، وليس له حقيقة، وأمر المؤمنين كالماء المستقر في مكانه، له البقاء والثبات.

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾

أخبر- تعالى- عن مآل السعداء والأشقياء، فقال: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ﴾، أي: أطاعوا الله ورسوله، وانقادوا لأوامره وصدَّقوه، فلهم ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾، وهو الجزاء الحسن يعني الجنة.

---

(1) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (447/4): (وتنسفه)؛ وهو الصحيح.

(2) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (410/16).

(3) المصدر السابق، (411/16).

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ﴾، أي: لم يُطيعُوا الله، ﴿لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾، أي: في الآخرة، لو أن يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهباً، ﴿وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ﴾، ولكن لا يُتَقَبَّلُ منهم؛ لأنه – تعالى- لا يتقبل منهم يوم القيامة لا صرفاً ولا عدلاً، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ﴾، أي: في الآخرة يُنَاقَشُونَ على النقير والقطمير، ومَنْ نُوقِشَ الحساب، عُذِّبَ؛ ولهذا قال: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾، أي: ومرجعهم ومصيرهم جهنم في الآخرة، وبئس القرار ما مُهِّدَ لَهُمْ.

﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، أي: لا يستوي من يعلم من الناس أن الذي ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾، أي: لا شكَّ فيه ولا لبس، بل هو كلمة حقٍ يُصَدِّقُ بعضُه بعضاً، لا يُضَادُّ شيء منه شيئاً آخر، فأخباره كلها حق، وأوامره ونواهيه عدل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗا﴾(1) أي: صدقاً في الإخبار، وعدلاً في الطلب، فلا يستوي من تَحَقَّقَ صحة ما جئت به يا محمد، ﴿كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓ﴾، لا يهتدي إلى خير، ولو فهمه، ما انقادَ لَهُ، ولا يفهمه، ولا صدَّقَه، ولا اتَّبَعَهُ، يعني: أفهذا كهذا؟ لا سواء(2) ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أي: يتعظ ويعتبر أولو العقول السليمة الصحيحة.

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾

أخبر– تعالى– عمَّن اتصف بهذه الصفات الحميدة، بأن لهم ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾، وهي العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة.

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾ ليسوا كالمنافقين، الذين إذا عاهد أحدهم،

---

(1) سورة الأنعام، من الآية (115).

(2) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (450/4)، (لا استواء) وهو الصحيح .

غدر، وإذا خاصم، فجر، وإذا حدَّث، كذب، وإذا أؤتمن خان.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾ من صلة الأرحام، والإحسان إليهم، وإلى الفقراء والمحاويج، ﴿ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ﴾ أي: فيما يأتون وفيما يذرُون من الأعمال، يراقبون الله في ذلك، ﴿ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴾ في الآخرة، فلهذا أمرهم على السداد والاستقامة في جميع حركاتهم وسكناتهم، وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدّية.

﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ ﴾، أي: عن المحارم والمآثم، ففطموا أنفسهم عن ذلك لله؛ ابتغاء مرضاته، ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها وخشوعها، على الوجه الشرعي المرضي، ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ ﴾، أي: على الذي يجب عليهم الانفاق لهم، من زوجات وأقارب وأجانب، من فقراء، ومحاويج ومساكين، ﴿ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ ﴾ أي: في السرِّ والجهر، لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال، في آناء الليل وأطراف النهار، ﴿ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ أي: يدفعون القبيح بالحسن، فإذا آذاهم أحدٌ، قابلوه بالجميل صبراً واحتمالاً وصفحاً وعفواً، ولهذا أخبر عن هؤلاء بأن لهم عقبى الدار، ثم فسَّر ذلك بقوله: ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ ﴾، أي: جنات إقامة يخلدون فيها، قال الضحاك: ﴿ عَدۡنٖ ﴾: مدينة الجنة، فيها الرسل والأنبياء والشهداء والصلحاء وأئمة الهدى، والناس لهم بَعْدُ، والجنات حولها، ﴿ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ ﴾ أي: يجمع بينهم وبين أحبَابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء، ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين؛ لتقر أعينهم بهم، حتى إنهم[1] تُرْفَعُ درجة الأدنى إلى درجة الأعلى، من غير تنقيصٍ لذلك الأعلى، عن درجتِهِ، بل امتناناً من الله وإحساناً، كما قال – تعالى–: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ ﴾[2]، وقوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴾، أي: تدخل عليهم الملائكة من هاهنا، وهاهنا للتهنئة بدخول الجنة عند دخولهم إيَّاها، فتدخل عليهم الملائكة مُسَلِّمِينَ مهنئين لهم؛ لما

---

(1) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (451/4): (إنه)؛ وهو الصحيح.

(2) سورة الطور، من الآية (21).

حصل لهم من الله من التقريب والإنعام، والإقامة دار السلام(1)، عن عبدالله بن عمرو(2) أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– قال: "هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله"؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: "أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون، الذين تُسَدُّ بهمُ الثغُورُ، وَيُتَّقَى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره، لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله لمن يشاء من ملائكته: ائتوهم، فَحيُّوهُم، فتأتيهم الملائكة عند ذلك، فيدخلون عليهم من كل بابٍ، ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾(3)، أي: من أبواب قصور الجنة قائلين: سلام عليكم بما صبرتم عليه في الدنيا من المكاره والمشاق، فنعم المُقَامُ والمنزل جنة الخلد.

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

هذا حال الأشقياء وصفاتهم، وذكر مآلهم في الآخرة، ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون، كما اتصفوا بخلاف صفاتهم في الدنيا، فأولئك كانوا يوفون بعهد الله، ويصلون ما أمر الله أن يوصل، وهؤلاء ﴿يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ولهذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾ وهي الإبعاد عن الرحمة، ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾، وهي سوء العاقبة والمآل، ومأواهم جهنم، وبئس القرار.

﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾

ذكر– تعالى– أنه هو الذي يوسع الرزق على من يشاء، ويُقَتِّرُه على من يشاء، ولما لَهُ في ذلك من الحكمة والعدل، وفرح هؤلاءالكفار بما أوتوا في الحياة الدنيا استدراجاً لهم، وإمهالاً، ثم حقَّر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادخره الله لعباده المؤمنين

---

(1) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (451/4) (والإقامة في دار السلام).

(2) عبدالله بن عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد القرشي السهمي، أبو محمد، كان فاضلاً عالماً بالقرآن والكتب المتقدمة، شهد مع أبيه فتح الشام، وكانت معه راية أبيه يوم اليرموك، قال عنه أبوهريرة – رضي الله عنه–: ما كان أحد أحفظ لحديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من عبدالله بن عمرو بن العاص، فإنه كان يكتب، ولا أكتب، اخْتُلِف في وفاته، فقيل: سنة (63 هـ)، وقيل: (67 هـ)، وقيل: (73 هـ)، وقيل: (55 هـ)، وقيل (65 هـ)، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب – لابن عبدالبر (956/3)، وأُسْد الغابة في معرفة الصحابة – لابن الأثير (356/3)، والإصابة في تمييز الصحابة – لابن حجر العسقلاني (192/4).

(3) أخرجه أحمد في مسنده (131/11).

في العقبى، فقال: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ أي: قليل ذاهب، كما قال: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾(1)، وعن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– أنه قال: "والله، ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أُصْبُعَه [في اليم](2)، فَلْيَنْظُرْ بم يرجع"(3)، رواه مسلم.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾

أخبر– تعالى– عن قيل المشركين: ﴿لَوۡلَآ﴾، أي: هلَّا ﴿أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، كما قالوا: ﴿فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾(4)، وسبق الكلام عليه غَيْرَ مرةٍ، وفي الحديث: أن الله أوحى إلى رسوله لَمَّا سألوه أن يحوِّل لهم الصفا ذهباً، وأن يجري لهم ينبوعاً، وأن يزيح الجبال من حول مكة، فيصير مكانها مروج وبساتين، إن شئت يا محمدُ، أعطيتُهُم ذلك، فإن كفروا، فإني أعذبهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت، فَتَحْتُ عليهم باب التوبة والرحمة، فقال: "بل أَفْتَحُ لهم باب التوبة والرحمة"(5)؛ ولهذا قال لرسوله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾ أي: هو المضلُّ والهادي، سواء بعث الرسول بآية على وفق ما اقترحوا، ولم يجبهم(6) إلى سؤالهم؛ فإن الهداية والإضلال ليس منوطاً بذلك، ولا عدَمِه، ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾، أي: ويهدي من أناب إلى الله، ورجع إليه، واستعان، وتضرع لديه.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: تطيب وتركن إلى الله، وتسكُنُ عند

---

(1) سورة النساء، من الآية (77).

(2) ساقطة من المخطوط، مثبتة من صحيح مسلم: (156/8).

(3) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: فَنَاْء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (156/8)، برقم (7376)، من حديث المستورد بن شداد الفهري – رضي الله عنه – مرفوعاً.

(4) سورة الأنبياء، من الآية (5).

(5) أخرجه أحمد في مسنده (60/4)، من حديث ابن عباس – رضي الله عنه– مرفوعاً بألفاظٍ متقاربة.

(6) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (454/4)، (أولم يجبهم) وهو الصحيح .

ذكره، وترضى به مولًى ونصيراً؛ ولهذا قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾، أي: هو حقيق بذلك، فإن بالقرآن تسكن قلوب المؤمنين ويستقر فيها اليقين، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ﴾، أي: نعم مآلهم من الخير والغبطة، ﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾، أي: مرجع، وقال ابن عباس: طُوبى بالحبشية: أرضُ الجنة، وقيل: اسمها بالهندِيّةِ[(1)]، وقيل: طوبى: شجرةٌ بالجنة، كل شجر الجنة منها، أغصانها من وراء سُور الجنة، وهكذا عن أبي هريرة، وابن عباسٍ، وغير واحدٍ: أن طوبى شجرة في الجنة في كل دار منها غصنٌ منها[(2)]، وعن أبي سعيد الخُدري قال: إنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، طوبى لمن رآك، وآمن بك، قال: "طوبى لمن رآني، وآمن بي، ثم طوبى، ثم طوبى، ثم طوبى، لمن آمن بي، ولم يرني"، قال له رجل: وما طوبى؟ قال: "شجرة في الجنة، مسيرةَ مائة عامٍ، ثياب أهل الجنة يخرج من أكمامها"[(3)]، وفي الصحيحين عن سهل بن سعد[(4)] قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم-: " إن في الجنة شجرة، يسير الراكب الجَوَادُ الْمضَمَّر السريع في ظلِّها مائة عام، لا يقطعُهَا"[(5)].

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾

أي: وكما أرسلناك يا محمد، في هذه الأمة؛ ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، أي: لتبلغهم رسالات الله إليهم، كذلك أرسلنا في الأمم الماضية الكافرة بالله، وقد كُذِّب الرسل من قبلك، فلك فيهم إسوة حسنة، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك، فَلْيَحْذَرْ هؤلاء من حلول النِّقَمِ بهم، فإن تكذيبهم لك أشد من تكذيب غيرك من المرسلين.

(1) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (436/16).

(2) المصدر نفسه (438/16).

(3) أخرجه أحمد في مسنده (211/18)، من حديث أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه- مرفوعاً.

(4) سهل بن سعد بن مالك بن خالد بن ثعلبة، الأنصاري الساعدي، أبو العباس، كان يسمَّى حَزَنًا، فسمَّاه رسول الله – صلى الله عليه وسلم- سهلاً، وشهد قضاء رسول الله – صلى الله عليه وسلم- في المتلاعنين، وأنه فرَّق بينهما، اختلف في وقت وفاته، سنة (88هـ)، وقيل: (91هـ)، وهو آخر من مات بالمدينة من الصحابة، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب – لابن عبدالبر (664/2)، وأُسْد الغابة في معرفة الصحابة- لابن الأثير (547/2)، والإصابة في تمييز الصحابة – لابن حجر العسقلاني (200/3).

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار، (2398/5) برقم (6186)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، (144/8) برقم (7316)؛ كلاهما من حديث سهل بن سعد – رضي الله عنه- مرفوعاً بألفاظٍ متقاربة.

وقوله: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾، أي: هذه الأمة التي بعثناك فيهم يكفرون ﴿بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، لا يُقِرُّونَ به؛ لأنهم كانوا يأبَوْنَ من وصف الله بالرحمن الرحيم؛ ولهذا أَنِفُوا يوم الحديبية أن يكتبوا: "بسم الله الرحمن الرحيم"، وقالوا: لا ندري ما الرحمَنُ الرحيم[1]، كما هو مبسوط في البخاري...

وقوله: ﴿قُلۡ هُوَ رَبِّي﴾ أي هذا الذي تكفرون به، أنا معترف مقرٌّ بربوبيته والهيتهِ، ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ أي: في جميع أموري، ﴿وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾ أي: إليه أرجع وأنيبُ، فإنه لا يستحق أحد ذلك سواه.

﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾

قال – تعالى– مادحاً للقرآن الذي أنزله على محمد – صلى الله عليه وسلم–، ومُفضِّلاً له على سائر الكتب المنزلة قبله، ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾، أي: ولو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها، أو تقطع به الأرض وتَشَقَّقُ، أو تُكلَّمُ به الموتى في قبورها، لكان هذا القرآن هو المتَّصِف بذلك دون غيره، وبطريق الأولى أن يكون كذلك؛ لما فيه من الإعجاز، الذي لا يستطيع الإنس والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثلِهِ، ولا بسورة من مثله، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون جاحدون له.

﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًا﴾ أي: مرجع الأمور كلها إلى الله – عز وجل–، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وقد يُطْلَقُ القرآن على كل من الكتب المتقدمة؛ لأنه مشتق من الجميع، عن أبي هريرة أن النبي – صلى الله عليه وسلم– قال: "خُفِّفَ على داود القرآن، وكان يأمر بدوابه، فيقرأ القرآن قبل أن تُسَرَّحَ دوابه، ولا يأكل إلا من عمل يديه"[2]، رواه البخاري، والمراد بالقرآن هنا الزبور.

---

(1) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الشروط، باب: الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (974/2) برقم (2581)؛ من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم – رضي الله عنهما– مرفوعاً.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأنبياء، باب: قوله تعالى ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾، (1256/3) برقم (3235)، من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه– مرفوعاً.

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: من إيمان جميع الخلق، ويعلموا ويتبينُوا ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾، فإنه ليس ثم حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع في النفوس والعقول من هذا القرآن، الذي لو أنزله الله على جبلٍ، لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله، وفي الصحيح: أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– قال: "ما من نبي إلا وقد أوتي ما آمَنَ على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيتُهُ وحْياً، أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثر تابعاً يوم القيامة"[1]، معناه: أن معجزة كل نبي انقرضتْ بموته، وهذا القرآن حجة باقية إلى الأبد، لا تنقضي عجائبه، ولا يخلقُ عن كثرة الردِّ، ولا يشبع منه العلماء، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار، قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره، أضلَّه الله.

عن عطية العوفي[2] قال: قالوا لمحمد – صلى الله عليه وسلم–: لو سيّرتَ لنا جبال مكة، حتى يتسع، فنحرث فيها، أو قطعت لنا الأرض، كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح، أو أحييت لنا الموتى، كما كان عيسى يُحْيِي الموتى لقومه؛ فأنزل الله هذه الآية، وكذا رُوِيَ عن ابن عباسٍ، وجماعةٍ في سبب نزول هذه الآية[3]، وقيل: معنى ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ﴾: أفلم يعلم، وقرأ بعضهم: ﴿أَفَلَمْ يَتَبَيَّنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾[4]، قال أبوالعالية: قد أيس الذين ءامنوا أن يهدوا، ولو شاء الله، لهدى الناس جميعاً[5].

وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾، أي: بسبب تكذيبهم، لا تَزَالُ القوارع تصيبهم في الدنيا، أو تصيب من حولهم؛ ليتَّعظُوا ويَعْتَبِرُوا.

وقوله: ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ أي: القارعة، هذا هو الظاهر من السياق، وقال ابن عباس: تصيبهم بما صنعوا قارعة، أي: عذاب من السماء ينزل عليهم، ﴿أَوْ تَحُلُّ

---

(1) سبق تخريجه.

(2) عطية بن سعد بن جنادة العوفي الجدلي القبسي الكوفي، (أبو الحسن) من رجال الحديث، كان من بين الخارجين مع ابن الأشعث، فكتب الحجاج إلى محمد بن القاسم الثقفي أن أُدْعُ عطية لِلَعْنِ علي – رضي الله عنه–، وإلا اضربه أربعمائة سوط، فأبى فضربه، وحلق لحيته ورأسه، توفي في الكوفة سنة (111هـ)، ينظر: الطبقات الكبرى – لابن سعد (304/6)، والأعلام – للزركلي(237/4).

(3) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (447/16).

(4) ينظر: المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها – لابن جنِّي (390/1).

(5) ينظر: زاد المسير في علم التفسير، لعبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط: الثالثة، (1404هـ)، (332/4).

﴿ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ﴾، يعني: نزول رسول الله – صلى الله عليه وسلم– بهم، وقتالَه إيَّاهم، وكذا قال مجاهد وغير واحدٍ(1).

وقوله: ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ ﴾، قالوا: يعني فتح مكة، وقال الحسن: يعني يوم القيامة(2).

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾، أي: لا ينقُض وعدَهُ لرسله بالنصر لهم، ولأتباعهم، في الدنيا، والعقبى كما قال: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾(3).

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾

قال – تعالى– مسلِّياً لرسوله في تكذيب مَنْ كَذَّبَهُ من قومه: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾، أي: فلك فيهم إسوة حسنةٌ.

﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾، أي: أنظرْتُهُمْ وأمهلتُهُمْ، ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ أخذة رابية، فكيف بلغك ما صنعت بهم وعاقبتهم؟ كما قال: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا ﴾(4) الآية...، وفي الصحيحين: "إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذهُ، لم يفلتْهُ" ثم قرأ رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾.

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾.

أي: فمن هو حفيظ عليهم، رقيبٌ على كل نفسٍ منفوسة صالحةٍ أو طالحة، يعلم ما يعمل العاملون من خير وشرٍ، ولا يخفى عليه خافية، كما قال: ﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾(5)، وغير ذلك من الآيات في الأصنام التي عبدوها، لا تسمع ولا تُبصر ولا

(1) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (457/16).
(2) المصدر نفسه (458/16).
(3) سورة إبراهيم، من الآية (47).
(4) سورة الحج، من الآية (48).
(5) سورة طه، من الآية (7).

تعقل، فحُذِف هذا الجواب؛ بدلاً لَهُ [وهو][1] قوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾، أي: عبدوا معه من أصنام وأنداد، ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي: أعلمونا بهم، واكشفوا عنهم، حتى يُعْرَفُوا، فإنه لا حقيقة لهم؛ ولهذا قال: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: لا وجود له؛ لأنه لو كان لها وجُودٌ في الأرض، لعلمها.

﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾، أي: بظَنٍ وباطل من القول، أي: إنما عبدتم هذه الأصنام بظنٍ منكم أنها تنفع وتضر، فسميتموها أنتم وءاباؤكم آلهة، ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾[2].

﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ﴾، أي: ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه، ﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، وقرئ بفتح الصاد، أي: وصَدُّوا الناس عن اتباع طرق الرسل، وبالضم أيضاً[3]، أي: بما زُيِّنَ لهم من صحة ما هُمْ عليه، صُدُّوا به عن سبيل الله، ولهذا قال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾، كما قال: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾[4].

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾.

ذكر- تعالى- عقاب الكفار وثواب الأبرار، فقال بعد إخباره عن حال المشركين، وما هم عليه من الشرك والكفر: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: بأيدي المؤمنين قتلاً وأسراً، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ المؤخَّر لهم مع هذا الخزي في الدنيا ﴿أَشَقُّ﴾ من هذا بكثير، فإن عذاب الدنيا له انقضاء، وذلك دائم أبداً، في نار، هي بالنسبة إلى

(1) ساقطة من المؤلف، مثبتة من تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (463/4).
(2) سورة النجم، من الآية (23)
(3) ينظر: السبعة في القراءات – لابن مجاهد البغدادي (359)، و المبسوط في القراءات العشر – للنيسابوري (255).
(4) سورة المائدة، من الآية (41).

هذه سبعون ضعفاً، هكذا في الحديث[1]، ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أي: من عذابه، ﴿مِن وَاقٍ﴾، أي: مانعٍ يمنعهم منه.

وقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي: صِفَتُها ونَعْتُها أنها ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: سارحةً في أرجائها، وجوانبها، وحيث شاء أهلها، يفجرونها تفجيراً، أي: يصرفونها كيف شاؤوا وأين شاؤوا.

وقوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ أي: فيها الطعام والفواكه والمشارب، لا انقطاع لها ولا فناء، وفي الصحيحين في حديث صلاة الخسوف قالوا: يا رَسُولَ الله، رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا، ثم تَكَعْكَعْتَ، فقال: "إني رأيت الجنة، أو أُريتُ الجنة، فتناولت منها عنقوداً، ولو أخذته، لأكلتم منه ما بقيت الدنيا"[2]، وفي مسند أحمد والنسائي: قال زيد بن أرقم[3]: جاء رجل من أهل الكتاب، فقال: يا أبا القاسم، تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون؟ قال: نعم، والذي نفس محمد بيده، [إن أحدهم][4] ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع والشهوة"، قال: فإن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة، وليس في الجنة أذًى؟ قال: "تكون حاجة أحدهم رشحاً، يفيض من جُلودهم، كرشح المسك، فيُضْمَرُ بطنُهُ"[5]، وكذلك ظلها لا يزول ولا ينقص ولا يتقلَّصُ، كما قال تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾[6]، وكثيراً ما يَقْرِنُ الله بين صفة الجنة وصفة النار، ليرغَبَ في الجنة، ويُحَذِّرَ من النار؛ ولهذا قال: ﴿تِلْكَ عُقْبَى

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب اللعان، باب: وحدثنا يحيى بن يحيى (206/4) برقم (3819)، قوله – صلى الله عليه وسلم- للمتلاعنين: "أن عذاب الدنيا أهونُ من عذاب الآخرة ..." من حديث ابن عمر – رضي الله عنه عنهما-.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: صفة الصلاة، باب رفع البصر إلى الإمام في الصلاة، (261/1)، برقم (715)، وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب: الكسوف، باب: ما عرض على النبي في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار، (33/3)، برقم (2147)، كلاهما من حديث ابن عباس – رضي الله عنهما- مرفوعاً بألفاظ متقاربة.

(3) زيد بن أرقم بن زيد بن قيس بن النعمان الأنصاري، أُخْتُلِفَ في كنيته، فقيل: أبو عمر، وقيل: أبو عامر، وقيل: أبو سعد، وقيل أبو سعيد، وقيل: أبو أنيسة، غزا مع الرسول – صلى الله عليه وسلم- تسع عشرة غزوة، وقيل: إن أول مشاهده المريسيع، وشهد مع علي – رضي الله عنه- صفين، وروى عن النبي – صلى الله عليه وسلم- أحاديث كثيرة، توفي بالكوفة سنة (68 هـ)، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب – لابن عبدالبر (535/2)، وأُسْد الغابة في معرفة الصحابة – لابن الأثير (328/2)، والإصابة في تمييز الصحابة – لابن حجر العسقلاني (589/2).

(4) ساقطة من المخطوط، مثبتة من مسند أحمد بن حنبل (19/32).

(5) أخرجه أحمد في مسنده (19/32)، من حديث زيد بن أرقم مرفوعاً.

(6) سورة النساء، من الآية (57).

ﭐلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ ﴾

أي: القائمون بمقتضى كتاب الله، ﴿يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به، كما في آية أخرى، ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾[(1)] الآية...

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥ﴾، أي: ومن الطوائف من يكذب ببعض ما أنزل إليك، وهم اليهود والنصارى، ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ﴾ أي: إنما بُعِثْتُ بعبادة الله وحده لا شريك له، كما أُرْسِلَ الأنبياء من قبلي، ﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ﴾ أي: إلى سبيله أَدعو الناسَ، ﴿وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾، أي: مرجعي ومصيري.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗا﴾، أي: وكما أرسلنا قبلك المرسلين، وأنزلنا عليهم الكتب من السماء، كذلك أنزلنا عليك القرآن مُحْكَماً مُعْرَبًا، شرَّفناك به يا محمد، وهو الذي ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾[(2)].

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾، أي: آراءهم، ﴿بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾، أي: من عند الله، ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ﴾، أي: من ناصرٍ ولا حافظٍ، وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سُبُل الضلالة، بعدما صاروا إليه من سبيل الهدى.

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾

أي: كما أرسلناك يا محمد، رسولاً بشراً، كذلك قد بعثنا المرسلين قبلك بشراً

---

(1) سورة البقرة، من الآية (121).

(2) سورة فصلت، الآية (42).

يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ويأتون الزوجات، ويولد لهم، وجعلنا لهم أزواجاً وذرية، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾[1]، وفي الصحيحين أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– قال: "أمّا أنا فأصوم، وأفطر، وأقوم، وأنام، وآكُلُ اللحم، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي، فليس مني"[2].

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ ﴾، أي: بمعجزة وخارق عادةٍ، إلا إذا أذن الله له في ذلك، ليس ذلك إليه، بل إلى الله تعالى، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

وقوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾، أي: لكل مدةٍ مضروبة كتاب مكتوبٌ بها، وكل شيء عنده بمقدارٍ، وقال الضحَّاك: أي: لكل كتاب أنزله من السماء مُدةٌ مضروبةٌ عند الله، ومقدار معين[3]، فلهذا يمحو الله ما يشاء منها ويثبت، يعني حتى نُسِخَتْ كُلُّها بالقرآن، الذي أنزله على محمد – عليه الصلاة والسلام–، قال ابن عباس: في قوله ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾، أي: يُدَبِّرُ أمر السنة، فيمحو ما يشاء، إلا الشقاوَةَ والسعادَةَ، والحياةَ والموتَ، فإنه قد فَرَغَ منها، فلا يَتَغَيَّرُ أبداً[4]، أي: في القضاء الْمُبْرَم، وأمَّا في المعلَّق، فهو كما كان شقيق بن سلمة[5] كثيراً يدعو بهذا الدعاء: "اللهم إن كنت كتبتنا أشقياء، فامحُهُ، واكتبنا سعداء، فَأَثْبِتْنَا، فإنك تمحو ما تشاءُ، وتثبتُ، وعندك أم الكتاب"[6]، وهذا الدعاء منقول عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه– وعن ثوبان[7] قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: "إن الرجل ليُحْرَم

---

(1) سورة الكهف، من الآية (110).

(2) جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: النكاح، باب: الترغيب في النكاح، (1949/5)، برقم: (4776)، وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب: النكاح، باب: استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، وجد مؤنة، واشتغال من عجز عَنِ المُؤَنِ بالصوم، (129/4) برقم (3469)، كلاهما من حديث أنس بن مالك – رضي الله عنه– مرفوعاً بألفاظٍ متقاربة.

(3) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (475/16).

(4) المصدر نفسه (478/16).

(5) شقيق بن سلمة الأسدي، أبو وائل، أدرك زمان النبي – صلى الله عليه وسلم–، ولم يلقه، وسمع من الصحابة كعمر وعثمان وعلي وغيرهم – رضي الله عنهم أجمعين–، كان ثقة كثير الحديث، قال عنه عمرو بن قيس: كان شقيق بن سلمة يدخل المسجد، يصلي، ثم ينشج كما تنشج المرأة، مات (982)، ينظر: الطبقات الكبرى – لابن سعد (96/6)، وصفة الصفوة – لابن الجوزي (28/3)، وتذكرة الحفاظ – للذهبي (48/1).

(6) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (481/16).

(7) ثوبان بن بُجْدُد، أبو عبدالله مولى رسول الله – صلى الله عليه وسلم–، أصابه سباءً، فاشتراه الرسول – صلى الله عليه وسلم–، ثم أعتقه، وخدم الرسول – صلى الله عليه وسلم– إلى أن مات في حمص سنة (54هـ)، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب– لابن عبدالبر (218/1)، وأُسْدُ الغابة في معرفة الصحابة – لابن الأثير (366/1)، والإصابة في تمييز الصحابة – لابن حجر العسقلاني (413/1).

الرزق بالذنب يصيبُه، ولا يَرُدُّ القَدَرَ إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر"[1]، رواه النسائي وابن ماجه، وثبت في الصحيح: أن صلة الرحم تزيد في العمر[2]، وعن ابن عباس أيضاً قال: يُبْدِلُ ما يشاء، فينسَخُهُ، ويُثْبِتُ ما يشاءُ، فلا يُبَدِّلُه[3].

﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، وجملة ذلك عنده في أم الكتاب الناسخ، وما يبدل، وما يُثْبَتُ، كل ذلك في كتاب، وهو اللوح المحفوظ.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾، أي: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ﴾، يا محمد، ﴿بَعۡضَ ٱلَّذِي﴾ نعد أعداءك من الخزي والنكال في الدنيا، ﴿أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل ذلك، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ﴾ أي: إنما أرسلناك؛ لتبلغهم رسالتي، وقد فعلتَ ما أُمِرْتَ به، ﴿وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ أي: حسابهم وجزاؤهم.

وقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾، قال ابن عباس: أولم يروا أنا نفتح لمحمد الأرض[4]، وفي رواية أولم يروا [إلى][5] القرية تخرب، حين يكون العمران من نحاية[6]؟[7] ﴿نَنقُصُهَا﴾، أي: نُخْرِبُها بنقصان أهلها بالموت وثمراتها، وقال:الحسن والضحاك: هو ظهور المسلمين على المشركين، وقال ابن عباس في رواية: خرابها بموت الفقهاء والعلماء، وأهل الخير منها[8].

كما قال الشاعر **[بحر البسيط]**:

الأرض تحيـى إذا مـا عـاش عالمهـا ** متـى يَمُـتْ عـالمٌ منهـا يَمُـتْ طَـرَفُ
كـالأرض تَحْيَـا إذا مـا الغيثُ حَلَّ بهـا ** وإن أبـى عـاد فـي أكتافهـا التَّلَـفُ[9]

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده (68/37)، وأخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب: الدعاء، باب: كتاب الفتن، (152/5)، برقم (4022)، كلاهما من حديث ثوبان – رضي الله عنه– مرفوعاً واللفظ لأحمد.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: البر والصلة والأدب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، (8/8)، برقم (6687)، من حديث أنس بن مالك – رضي الله عنه– مرفوعاً.

(3) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (485/16).

(4) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم– لابن كثير (472/4): (أولم يروا أنا نفتح لمحمد الأرض بعد الأرض)، بزيادة (بعد الأرض).

(5) ساقطة من المؤلف، مثبتة من تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (472/4).

(6) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (472/4)، (في ناحية) وهو الصحيح .

(7) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (493/16– 495).

(8) المصدر نفسه، (494/16 – 497).

(9) هذه الأبيات أوردها ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (256/37)، ونسبها لأحمد بن عزال الواسطي (ت 707هـ).

والأولى القول الذي هو ظهور الإسلام على الشرك قريةً بعد قريةٍ، وكفراً بعد كفرٍ، كما قال – تعالى-: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ﴾[1] الآية...، وهو اختيار ابن جرير[2].

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾، أي: مكر أهل الضلال من الأمم السالفة برسلهم، وأرادُوا إخراجهم من بلادهم، فمكر الله بهم، وجعل العاقبة للمتقين، كما قال – تعالى-: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[3]، الآية...

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي: الله عالم بجميع السرائر والضمائر، وَسَيَجْزِي كل عاملٍ بعمله.

﴿وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ﴾ وقرئ ﴿الْكُفَّارُ﴾[4]، ﴿لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾، أي: لمن تكون الدائرة والعاقبة، لهم أو لأتباع الرسل؟ كلَّا، بل هي لأتباع الرسل في الدارين.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾.

أي: ويكذبك هؤلاء الكفار، ويقولون: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ من عند الله، ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾، أي: حسبي الله، هو الشاهد عليَّ وعليكم، شاهد عليَّ فيما بَلَّغْتُ عنه من الرسالة، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترُونه من البهتان.

وقوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾، قيل: نزلتْ في عبدالله بن سلام[5]، وأمثاله، وهذا غريب منكر؛ لأن الآية مكية وهو وأمثاله أسلم بالمدينة بعد الهجرة، والأظهر أن المراد به اليهود والنصارى، وقال مجاهد: هو الله تعالى[6]، والصحيح أن ﴿وَمَنْ عِندَهُ﴾

---

(1) سورة الأحقاف، من الآية (27).

(2) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (499/16).

(3) سورة الأنفال، من الآية (30).

(4) قرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبوعمرو: ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ﴾، بالألف قبل الفاء على واحدة، وقرأ الباقون: ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ﴾، بالألف بعد الفاء على الجمع، ينظر: المبسوط في القراءات العشر للنيسابوري (255)، وحجة القراءات – لأبي زرعة (375).

(5) عبدالله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي الأنصاري، أبو يوسف، من ذرية يوسف النبي – عليه السلام–، كان اسمه الحصين، فغيَّره الرسول – صلى الله عليه وسلم– عبد الله، أسلم عند قدوم الرسول – صلى الله عليه وسلم– المدينة مهاجراً، نزلت فيه آيات من القرآن الكريم، وقال عنه الرسول – صلى الله عليه وسلم–: إنه عاشر عشرة في الجنة، توفي سنة (43 هـ)، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب – لابن عبدالبر (421/3)، وأُسْدُ الغابة في معرفة الصحابة – لابن الأثير (268/3)، والإصابة في تمييز الصحابة – لابن حجر العسقلاني (118/4).

(6) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (505/16).

اسم جنسٍ، احتمل علماء أهل الكتاب، الذين يجدون صفة محمد – صلى الله عليه وسلم– ونعته في كتبهم المتقدمة، من بشارات الأنبياء به، كما قال – تعالى–: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[1]، الآية ...، وغيرها من الآيات الناطقة بذلك...، وما رَوَى الحافظ أبو نعيم الأصبهاني[2] في "دلائل النبوة" أن ابن سَلام أسلم بمكة قبل الهجرة، فكتم إسلامه، وهو ضعيف جدًّا غريب، مخالف لما في الصحيحين، والله أعلم.

---

(1) سورة الشعراء، من الآية (197).

(2) أحمد بن عبدالله بن أحمد الأصبهاني، أبو نعيم: حافظ مؤرخ ولد سنة (336هـ)، كان أصحاب الحديث يقولون عن الحافظ (أبونعيم): إنه بقى أربع عشرة سنة بلا نظير، لا شرقاً ولا غرباً، أعلى إسناداً منه، ولا أحفظ منه، من مؤلفاته: (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء)، و (دلائل النبوة)، و(ذكر أخبار أصبهان)، توفي بأصبهان سنة (430هـ)، ينظر: تذكرة الحفاظ – للذهبي (195/3)، والأعلام – للزركلي (157/1)، ومعجم المؤلفين – لعمر كحالة (282/1).

تفسير سورة إبراهيم – عليه السلام –

[تمهيد][1]

[هذه السورة مكية، وسميت بهذا الاسم؛ نسبةً لذكر إبراهيم – عليه السلام – فيها، رغم أن ذكر إبراهيم – عليه السلام –، وَرَدَ في كثير من السور، ذوات (ألر)، وقد مُيِّزَتْ بعضها من بعض بإضافة أسماء الأنبياء – عليهم السلام – التي جاءت قصصهم فيها، إليها في التسمية، والسورة تتناول محتويات كثيرة تذكرُ على النحو الآتي:

- ابتداء السورة بالتنبيه إلى إعجاز القرآن، وأنه جاء؛ لإخراج الناس من الظلمات إلى النوع، وأنه بلسان عربي.
- بيان حقيقة الرسول – صلى الله عليه وسلم – البشرية، وأنه لا يملك أن يأتي بخارقة، إلا بإذن الله.
- تحقق وعد الله للرسل، والمؤمنين بهم إيماناً حقًّا في الدنيا والآخرة.
- ضرب مثل للرسول – صلى الله عليه وسلم – بموسى – عليه السلام –، عندما أرسل إلى بني إسرائيل؛ لهدايتهم، وتذكيرهم بنعم الله، وشكرها، والعظة بما حلَّ بالأقوام التي قبلهم.
- إقامة الحجة على تفرده – سبحانه وتعالى – بالإلهية، بدلائل مصنوعاته.
- إبراز معالم المعركة بين الفريقين، ونتائجها الأخيرة.
- صبر وشكر سيدنا إبراهيم – عليه السلام – في موقف خاشعٍ، ودعاؤه عند بيت الله الحرام.
- وعد الرسول – صلى الله عليه وسلم – بالنصر والتثبيت.
- خَتْمُ السورة بكلمات جامعة من قوله: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ ﴾ إلى آخرها...][2].

---

(1) إضافة من المحقق.

(2) ينظر: في ظلال القرآن – للسيد قطب (2077/4)، والتحرير والتنوير – للطاهر بن عاشور (177/13).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾

سبق الكلام على حروف أوائل السور في أول سورة البقرة، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾، أي: هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن العظيم، الذي هو أشرف كتاب، أنزله الله من السماء، على أشرف رسول بعثه الله في الأرض، إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم.

﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، أي: إنما بعثناك يا محمد، بهذا الكتاب؛ لتخرج الناس مِمَّا هم فيه من الضلال والغيّ، إلى الهدى والرُّشد، كما قال: ﴿لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[1].

وقوله: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾، أي: هو الهادي لمن قدَّر له الهداية على يد رسوله المبعوث عن أمره، يهديهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾، أي: العزيز الذي لا يمانَعُ ولا يغالَبُ، بل هو القاهر لكل ما سواه، ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾ أي: المحمود في جميع أفعاله وأقواله، وشرعه وأمره ونهيه، الصادقِ في خبره.

وقوله ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، قرأ بعضهم مُسْتَأْنَفًا مرفوعاً، وقرأ آخرون على الإتبَاعِ؛ صفةً للجلالة[2].

وقوله: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾، أي: ويل لهم يوم القيامة، إذا خالفوك يا محمد، وكذبوك، ثم وصفهم بأنهم: ﴿يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، أي: يقدمونها

(1) سورة الحديد، من الآية (9).

(2) قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَهُۥ﴾ بالرفع على الاستئناف، وقرأ الباقون: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ﴾ بالخفض، ينظر: المبسوط في القراءات العشر – للنيسابوري (256)، وحجة القراءات – لأبي زرعة (376).

ويؤثرونها عليها، ويعملون للدنيا، ونسُوا الآخرة، وتركوها وراء ظهورهم، ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وهي اتِّباع الرسل، ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾، أي: ويُحِبّون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة، وهي مستقيمة في نفسها، لا يضرها من خالفها، ولا من خذلها، فهم في ابتغائهم ذلك في جهل وضلال، بعيد من الحق، لا يُرجى لهُمْ – والحالة هذه – صلاح.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾

هذا من لطفِهِ تعالى بخلقه حيث أرسل إليهم رسلاً منهم، وَبِلُغَاتِهِم؛ ليَفْهَمُوا عنهم ما يريدون، وما أُرْسِلُوا به إليهم، كما قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: " لَمْ يَبْعَثِ الله نبيّاً إلا بِلُغة قومه"(1) رواه أحمد.

وقوله: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾، أي: بعد البيان وإقامة الحجة عليهم، يضل الله من يشاء على وجه الهدى، ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ إلى الحق، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي ما شاء، كان، وما لم يشأ، لم يكن، ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في أفعاله، فيُضل من يستحق الإضلال، ويهدي من هو أهل لذلك، هذا وقد اختص محمد رسول الله – صلى الله عليه وسلم– بعموم الرسالة إلى سائر الناس، كما في حديث جابر في الصحيحين: أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– قال: "أُعْطِيتُ خمساً لمْ يُعطَهُنَّ أحدٌ من الأنبياء"، منها: "وكان النبي يُبْعث إلى قومه، وبُعثْتُ إلى الناس عامة"(2)، كما قال – تعالى–: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾(3).

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾، أي: وكما أرسلناك يا محمد، وأنزلنا عليك الكتاب؛ لتخرج الناسَ كلَّهم، تدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور، كذلك أرسلنا موسى في بني إسراءيل بآياتنا، وهي التسع الآيات.

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده (323/35)، من حديث أبي ذر – رضي الله عنه– مرفوعاً.

(2) جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: مقدمة الشارح، باب: كتاب التيمم، (128/1)، برقم (328)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: المساجد، باب: منه (63/2)، برقم (1191)، كلاهما من حديث جابر – رضي الله عنه– مرفوعاً بألفاظٍ متقاربة.

(3) سورة الأعراف، من الآية (158).

﴿أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ﴾ أي: أمرناه قائلاً[1] له: ﴿أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ﴾ أي: ادعهم إلى الخير؛ ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان، ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ أي: بأياديه ونِعَمه عليهم، في إخراجهم إيّاه[2] من أسر فرعون، وقهره وظلمهِ، وإنجائه [إيّاهم][3] من عدوهم، وفلقِهِ لهم البحر، وتظليله إياهم بالغمام، وإنزاله عليهم المنَّ والسلوى، إلى غير ذلك من النِّعم. قاله مجاهد وغيرُ واحدٍ[4].

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾، أي: فما صنعنا بأوليائنا بني إسراءيل حين أنقذناهم من يد فرعون، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين، لعبرةً ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٖ﴾ أي: في الضرَّاء ﴿شَكُورٖ﴾ أي: في السّراء، كما جاء في الصحيح أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– قال: "إن أمر المؤمن كلَّه عجبٌ، لا يقضي الله له قضاء، إلا كان خيراً؛ إن أصابته ضَرَّاءُ، صبَر، فكان خيراً له، وإن أصابته سَرَّاءُ، شَكَرَ، فكان خيراً له"[5].

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾

أخبر– تعالى– عن موسى حيث ذَكَّر قومه بأيام الله عندهم، ونِعَمه عليهم، إذ أنجاهم من آل فرعون، وما كانوا يسومونهم به من العذاب والإذلال، حيث كانوا يَذْبحون مَن وُجِد من أبنائهم، ويتركون إناثهم، فأنقد الله بني إسرائيل من ذلك، وهي نعمة عظيمة؛ ولهذا قال: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ﴾، أي: نعمة عظيمة مِنْهُ عليكم في ذلك، أنتم عاجزون عن القيام بشكرها، وقيل: وفيما يصنعه بكم قوم

---

(1) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (478/4)، (قائلين) وهو الصحيح .

(2) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (478/4)، (إيَّاهم) وهو الصحيح .

(3) ساقطة من المؤلف، مثبتة من تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (478/4).

(4) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (521/16).

(5) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب: المؤمن أمره كله خير (227/8)، برقم (7692)، من حديث صهيب –رضي الله عنه – مرفوعاً.

فرعون من هذه الأفاعيل ﴿بَلَآءٌ﴾، أي: اختبار عظيم، ويَحْتَمِلُ أن يكون المراد كليهما، والله أعلم، كما قال – تعالى–: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1].

وقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾، أي: آذنكم وأعلمكم بوعده لكم، ويَحْتَمِلُ أن يكون المعنى: وإذ أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه، كما قال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾[2]، وقال ههنا: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ﴾، أي نعمة الله ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ منها، ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾، أي: النعم وسترتموها وجحدتموها، ﴿إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ وذلك بسلبها عنهم، وعقابه إياهم على كفره[3]، وقد جاء في الحديث: "إن العبد لَيُحْرَمُ الرزق بالذنب يصيبه"[4].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ﴾، أي: هو غنيٌّ عن شكر عباده، ﴿حَمِيدٌ﴾، أي: محمود في أفعاله وأحواله، وإن كفَرَهُ مَنْ كفَرَهُ، كما قال: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾[5]، الآية...، وعن أبي ذرٍّ عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيما يروي عن ربه – عز وجل–: أنه قال: " يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وجِنَّكم وإنسكم، كانوا على أتقى قلب رجل منكم، ما زاد في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجَرِ قلب رجُلٍ منكم، ما نَقَصَ ذلك من ملكي شيئاً، إلا كما يَنْقُص المخيط إذا دخل في البحر"[6]، رواه مسلم.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾

قال ابن جرير: هذا من تمام قول موسى لقومه[7]، من تِذْكارِهِ إيّاهم بأيام الله،

(1) سورة الأعراف، من الآية (168).

(2) سورة الأعراف، من الآية (167).

(3) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (479/4): (كفرها)؛ وهو الصحيح.

(4) سبق تخريجه.

(5) سورة الزمر، من الآية (7).

(6) جزء من حديث طويل، أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: البر والصلة والأدب، باب: تحريم الظلم، (16/8)، برقم (6737)، من حديث أبي ذر – رضي الله عنه– مرفوعاً بألفاظ متقاربة.

(7) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن– للطبري (529/16)

بانتقامه من الأمم المكذبة للرسل، وفيه نظرٌ! والظاهر أنه خبر مستأْنَفٌ من الله تعالى لهذه الأمة، فإنه قد قيل: إن قصة عادٍ وثمود ليست في التوراة، فلو كان من تتمة كلامه، لكانت فيها، وبالجملة فالله – تعالى– قد قصَّ علينا خبر قوم نوحٍ وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل، ممن لا يُحْصِي عددَهُ إلا الله، أتتهم رسلهم بالبينات، أي: بالحجج والدلائل الواضحات، وقال ابن مسعود: أي: لا يعلم أحدٌ ما بعد معدّ بن عدنان إلا الله، وقال: كَذَبَ النسابون[1]، وقال ابن عباس: ما بين إبراهيم وبين عدنان ثلاثون قرناً، لا يعلمهم إلا الله[2]، وكان مالك بن أنس[3] يكْرهُ أن يَنْسبَ الإنسانُ نفسَه أباً أباً إلى آدم، حتَّى في حق النبي – صلى الله عليه وسلم– لأنه لا يعلم أولائك الآباء أحد إلا الله[4].

وقوله: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾، قيل: إنهم أشاروا إلى أفواه الرسُلُ، يأمرونهم بالسكوت عنهم، لمَّا دعوهم إلى الله، وقيل: بل وضعوا أيديهم على أفواههم؛ تكذيباً لهم، وقيل: بل هو عبارة عن سكوتهم عن جواب الرسل، وقال مجاهد وغير واحدٍ: معناه أنهم كذبوهم، وردّوا عليهم قولَهم بأفواههم[5]، وهذا أظهر، وبيَّنتُهُ تمام الكلام: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ إلى آخره...، فإن هذا تفسير لذلك، وقال ابن مسعود: (عضّوا عليها غَيْظاً)[6]، كما في قوله عن المنافقين: ﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ﴾[7] قال ابن عباس: (لمَّا سمعوا كلامَ الله، عجبُوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم)[8]، ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾، يقولون: لا نصدقكم فيما جئتم به؛ فإن عندنا شكًّا قويًّا.

---

(1) ينظر: المصدر نفسه (530/16).

(2) ينظر: تفسير– السمعاني (106/3).

(3) مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري، أبو عبد الله، إمام دار الهجرة وأحد أئمة أهل السنة الأربعة، ولد سنة (95هـ)، كان صلباً في دينه، بعيداً عن الأمراء والملوك، وإذا أراد أن يُحدِّث حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم–، اغتسل وتبخَّر وتطيب، إجلالاً لحديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم–، ولم يجلس للفُتْيَا، حتى شهد له سبعون أنَّهُ أهل ذلك، وعن حنبل بن إسحاق قال: سألت أبا عبدالله عن مالك، فقال: (مالك سيد من سادات أهل العلم، وهو إمام في العلم والفقه)، من مؤلفاته: (الموطأ)، ورسالة في (الرد على القدرية)، و(تفسير غريب القرآن)، مات بالمدينة سنة (179هـ)، ينظر: طبقات الفقهاء – للشيرازي، (67)، وصفة الصفوة – لابن الجوزي (177/2)، والأعلام – للزركلي (257/5).

(4) ينظر: تفسير – السمعاني (106/3).

(5) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (534/16).

(6) ينظر: المصدر نفسه (531/16).

(7) سورة آل عمران، من الآية (119).

(8) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (533/16).

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

أخبر- تعالى- عمّا دار بين الكفار وبين رُسُلهم من المجادلة، وذلك أن أممهم لمَّا واجهوهم [بالشك فيما جاؤوهم](1) به من عبادة الله وحده لا شريك له، قالت الرسل: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ ﴾؟! أي: في وجوده شكٌّ، أو في إلهيته، وتفرُّدِهِ بوجوب العبادة له شكٌّ، لا سبيل إلى الأول؛ لأن الفِطَرَ شاهدةٌ بوجودِهِ، مجبولة على الإقرار به، فإن الاعتراف به ضروري في الفِطرِ السليمة، ولكن يعرض لبعضها شك واضطراب، فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده؛ ولهذا قالت لهم الرسل، مرشدين لهم إلى طريق معرفته، بأنه ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، أي: خالقهما، ومبدعهما على غير مثال سَبَقَ، ولا بُدَّ لهُمَا من صانعٍ، وهو الله خالق كل شيء، ولا سبيل إلى الثاني أيضاً؛ لأنه الخالق لجميع الموجودات، فلا يستحق العبادة إلا هو وحده، لا شريك له، فإن غالب الأمم كانت مُقِرة بالصانعِ، ولكن تعبدهم(2) معَهُ غيرهُ من الوَسَاطِ(3) التي يظنونها تنفعهم، أو تقربهم إلى الله زلفى، وقالت لهم الرسل: ﴿ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾، أي: في دار الآخرة، ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾، أي: في الدنيا، فقالت لهم الأمم محاجِّين في مقام الرسالةِ، بعد تقدير تسليمه للمقام الأول: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾، أي: كيف نتبعكم بمجرد قولكم، ولمَّا نرى منكم معجزة؟ ﴿ فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾، أي: حجةً بيّنة واضحة على صحة دعواكم، ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ

(1) ساقطة من المؤلف، مثبتة من تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (482/4).
(2) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم- لابن كثير (482/4): (تعبد)، وهو الصحيح.
(3) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (482/4)، (الوسائط) وهو الصحيح .

﴿ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ ﴾، أي صحيح أنا بشر مثلكم في البشرية، ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ ﴾ أي: بالرسالة والنبوة، ﴿ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾، أي: بعد سؤالنا إيَّاه، وإذنه لنا في ذلك، ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾، أي: في جميع أمورهم، ثم قالت الرسل: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ ﴾، وما يَمْنَعُنَا من التوكل عليه، ﴿ وَقَدۡ هَدَىٰنَا ﴾ لأقوم الطرق وأصحها وأبْيَنِهَا، ﴿ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ ﴾، أي: من الكلام السيء والأفعال السخيفة، ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ﴾

أخبر – تعالى – عمَّا توعدتْ به الأمم الكافرة رسلَهم، من الإخراج عن أرضهم، والنفي من بين أَظْهُرِهم، كما قال قوم شعيب: ﴿ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ ﴾[1]، الآية...، وقال قوم لوط: ﴿ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡ ﴾[2]، الآية، وقال – تعالى – إخباراً عن مشركي قريش: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَا ﴾[3]، وقال – تعالى–: ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾[4]، إلى آخره ...، وكان من صُنعه – تعالى– أنه أظهر رسُوله ونصرهُ، وجعل بعد خروجه من مكة أنصاراً وأعواناً، يقاتلون في سبيل الله، إلى أن فتح له مكة، التي أخرجوهُ منها، ومكَّن له فيها، ونصره، حتى دخل الناسُ في دين الله أفواجاً، وظهرت كلمة الله وملّتهُ على سائر المِلل، في مشارق الأرض ومغاربها، في أيسر زمان؛ ولهذا قال: ﴿ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ ﴾، كما قال – تعالى–: ﴿ وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾[5] الآية...، وغيرها

(1) سورة الأعراف، من الآية (88).
(2) سورة النمل، من الآية (56).
(3) سورة الإسراء، من الآية (76).
(4) سورة الأنفال، من الآية (30).
(5) سورة الصافات، الآية (171).

وقوله: ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾، أي: وعْدِي، يعني: لمن خاف مقامه بين يدي يوم القيامة، ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾، أي: وخشِيَ من وعيدي، أي: تخويفي وعذابي، كما قال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[1].

وقوله: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ﴾، أي: استنصرت الرسل ربها على قومها، قاله ابن عباس وموافقوهُ[2]، وقيل: استفتحت الأمم على أنفسها كما قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً﴾[3]، الآية...، ويَحْتَمِلُ أن يكون المراد كليهما.

﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: متجبِّرٌ في نفسه، معاند للحق، كما قال – تعالى–: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

وقوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾، أي: من أمامه، كما قال – تعالى–: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾[4]، وكان ابن عباس يقرؤها: ﴿وَكَانَ أَمَامَهُم مَّلِكٌ﴾[5]، أي: من وراء الجبَّار العنيد جهنم، أي: هي له بالمرصاد، يسكنها مخلَّداً يوم المعاد، ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾، أي: في النار ليس له شراب، إلا من حميمٍ أو غساق، فهذا حار في غاية الحرارة، وهذا في غاية البرد والنَّتنِ، قال مجاهد: الصديد: من القيح والدم، وقال قتادة: هو ما يسيل من لحمه وجلده[6]، وهو عصارة أهل النار.

وقوله: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾، أي: يتغصَّصُهُ، ويتكرَّهَهُ، أي: لشربه قهراً وزجراً، لا يضعه في فمِهِ، حتى يضربه الملك بمطراقٍ من حديد.

---

(1) سورة الرحمن، الآية (46).

(2) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (544/16).

(3) سورة الأنفال، من الآية (32).

(4) سورة الكهف، من الآية (79).

(5) ينظر: النشر في القراءات – لشمس الدين (أبو الخير) ابن الجزري محمد بن محمد بن يوسف، تح: علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى (14/1).

(6) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (548/16).

﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ أي لا يجيزه، ولا يزدرده؛ لسوء لونه وطعمه وريحِهِ، وحرارته وبرودتِهِ التي لا تستطاع.

﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾، أي: يجد ألم الموت في جميع بدنه وجوارحه وأعضائه، وكل عظمٍ وعرقٍ وعصب، حتى من أطراف شعره، وقال ابن جريرٍ: أي: من أمامه وورائه، وعن يمينه وشماله، وفَوْقِه وتحتِهِ، ومن بين سائر أعضاء جسده[1]. وقال ابن عباس: أنواع العذاب ليس منها نوعٌ، إلا الموت يأتيه منه، لو كان يموت، ولكن لا يموت[2]؛ لأنه – تعالى– قال: ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ﴾[3]، الآية...، بل يخلد في دوام العذاب؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖ﴾.

وقوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ﴾، أي: وله من بعد هذا الحال عذاب آخر مُؤلم، صعب، أغلظ من الذي قبله، وهذا كما قال – تعالى–: ﴿فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ﴾[4]، الآية...، وغيرها من الآيات البينات لأنواع العذاب عليهم، وتَكْرَارِهِ وأشكاله، مما لا يُحْصِيه إلا الله؛ جزاء وفاقاً.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾، هذا مثلٌ ضربه الله لأعمال الكفار الذين عبدوا مع الله غيره، وكَذَّبُوا رسله، وبَنَوْا أعمالهم على غير أساس صحيحٍ، [فانهارت وعَدِمُوها، أحوج ما كانوا إليها، فقال – تعالى–: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾][5]، أي: مثل أعمالهم يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله؛ لأنهم كانوا يحسبون أنهم على شيءٍ، فلم يجدوا شيئاً، ولا أَلِفُوا حاصلاً، إلا كما يُحَصَّل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة، في يوم ذي ريح عاصفٍ[6] قوية، فلا يقدرون على

---

(1) المصدر نفسه (550/16).

(2) ينظر: تفسير القرآن العظيم – للإمام الحافظ عبدالرحمن بن محمد ابن إدريس ابن أبي حاتم، تح: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة – الرياض، ط: الأولى (1417هـ – 1997م)، (2239/7).

(3) سورة فاطر، من الآية (36).

(4) سورة الدخان، الآية (47)، و (48).

(5) ساقطة من المؤلف مثبتة من تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (487/4)

(6) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (487/4)، (عاصفة) وهو الصحيح .

شيءٍ من أعمالهم التي كسبوها في الدنيا، إلا كما يقدرون على جمع هذا الرماد في هذا اليوم، كما قال – تعالى–: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾[1]، وغيره من الآيات...، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾، أي سعيهم وعملهم على غير أساس الاستقامة، حتَّى فقدوا ثوابَهم، أحوجَ ما هُمْ إليه، هذا ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾.

أخبر– تعالى– عن قدرته على إعادة الأبدان يوم القيامة، بأنه خلق السمٰوٰت والأرض، التي هي أكبر من خلق الناس، أفليس الذي يقدر على خلق هذه السمٰوٰت، في ارتفاعها واتساعها، وعظمتها، وما فيها من عجائب قدرته، وهذه الأرض وما فيها من أنواع المخلوقات المكونة بإرادته، بقادر على أن يعيد الأبدان، ويحيي الموتى؟ كما قال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2].

وقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾، أي: سواكم أطوع لله منكم، ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾، أي: بعظيم ولا ممتنع، بل هو سهل عليه، إذا خالفتم أمره أن يُذْهِبَكم ويأتي بآخرين على غير صفتكم، كما قال: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾[3]، وغيره من الآيات...

﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾

أي: وبرزت الخلائق كلها، بَرَّها وفاجِرُها لله الواحد القهار، يعني: اجتمعوا له في براز من الأرض، وهو المكان الذي ليس فيه شيء.

(1) سورة الفرقان، الآية (23).

(2) سورة الأحقاف، الآية (33).

(3) سورة محمد، من الآية (38).

﴿ فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ ﴾، وهم الأتباع لقادتهم وكبرائهم، الذين استكبروا عن عبادة الله وحده، وعن موافقة الرسل: ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾، أي: مهما أمرتمونا أئتمرنا وفعلنا، ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا ﴾، أي: فهل تدفعون عنا شيئاً من عذاب الله، كما كنتم تعَدُونَنَا؟ فقالت القادة لهم: ﴿ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ ﴾، أي: لو هدانا الله، لدعوناكم إلى الهدى، فلمّا أضلّنا، دعوناكم إلى الضلالة.

﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾

أي: ليس لنا خلاصٌ مما نحن فيه، إن صبرنا عليه أو جزعنا منه، قال ابن زيدٍ[1]: إن أهل النار قال بعضهم لبعضٍ: تعالوا، فإنما أدرك أهل الجنةِ الجنةَ، ببكائهم وتضرعهم إلى الله، تعالوا نبكِي، ونتضرع إلى الله، فبكوْا وتضرعوا، فلمّا رأوا ذلك لم ينفعهم، قالوا تعالوا: فإنما أدرك أهل الجنةِ الجنةَ بالصبر، تعالوا نصبر، فصبروا صبراً لم يُرَ مِثلَهُ ...، فما نفعهم ذلك، فحينئذ قالوا: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾[2]، والظاهر أن هذه المراجعة بعد دخولهم النار، كما قال: ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ ﴾[3]، الآية، وغيرها من الآيات الظاهرات...، فأمّا تخاصمُهُمْ في المحشر، فقال – تعالى-: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ ﴾[4]، الآيات...

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا

---

(1) زيد بن أسلم العمري المدني، أبوعبدالله، الإمام، الفقيه، كان له حلقة للعلم بمسجد الرسول – صلى الله عليه وسلم- وكان من العلماء الأبرار، قال فيه ابن عجلان: ما هِبْتُ أحداً هيبتي زَيْدَ بن أسلم، توفي سنة (136هـ)، ينظر: تذكرة الحفاظ – للذهبي (99/1)، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب – لابن العماد العكري (188/1)، والأعلام- للزركلي (56/3).

(2) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (559/16).

(3) سورة غافر، من الآية (47).

(4) سورة سبأ، من الآية (31).

﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾

أخبر- تعالى- عما خَطَبَ به إبليسُ أتباعَه، بعدما قضى الله بين عباده، فأدخل المؤمنين الْجَنَّات، وأسكن الكافرين الدَّرَكَات، فقام فيهم إبليس خطيباً؛ ليزيدهم حُزناً إلى حُزنهم، وغبناً إلى غبْنِهِم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾، أي: على ألسنة رسلِهِ، ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعداً حقًّا، وخبراً صدقاً، وأما أنا فوعدتكم، فأخلفتكم، كما قال – تعالى-: ﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[1]، ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم﴾، أي: فيما دعوتكم إليه ﴿مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾، أي: من سبيل، ولا حجة على صدق ما وعدتكم به، ﴿إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِي﴾ بمجرد ذلك، وخالفتم الرسل وصرتم إلى ما أنتم فيه، ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾ اليوم، ﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾، فإن الذنب لكم، بمخالفَتِكُم حُجَجَ الحقّ، وموافقَتِكم أمرَ الباطل، ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾، أي: بنافعكم ومنقذكم مما أنتم فيه، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾، أي: بنافِعِيَّ ومخلصيَّ مما أنا فيه من العذاب، ﴿إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُ﴾، أي: كفرتُ بجَعْلِكُمْ إيَّايَ شريكاً لله – تعالى- في عبادته، وتبرأتُ من ذلك، جاحداً لما تشركوني من قبل.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: في إعراضهم عن الحق واتباعهم [الباطل][2] ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، وتكون هذه الخطبة من إبليس بعد دخولهم النار، كما هو الظاهر من سياق الآية، وعن عقبة بن عامر[3] مرفوعاً: إن الكفار يقولون يوم القيامة: هذا قد وجد المؤمنون مَنْ يشفع لهم، فمن يشفع لنا؟ ما هو إلا إبليسُ الذي أضلَّنا! فيأتون إبليسَ، فيقولون: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم، فقُمْ أنت، فاشفَعْ لنا، فإنك أنت أضللتنا، فيقوم، ثم يعظهم بجهنم، ويقول الشيطان: ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ

---

(1) سورة النساء، من الآية (31).

(2) ساقطة من المؤلف، مثبتة من تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (490/4).

(3) عقبة بن عامر بن عبس الجهني، أبو حماد، وقيل: أبو أسيد، وقيل أبو سعد، وقيل: أبو الأسود، وقيل غير ذلك، شهد الفتوح، وكان هو البريد إلى عمر بفتح دمشق، وشهد مع معاوية صفين، وأمَّره بعد ذلك على مصر، قال: أبو سعيد بن يونس: كان عقبة عالماً بالفرائض والفقه، فصيحَ اللسان، شاعراً كاتباً، فضلاً عن أنه أحد الذين جمعوا القرآن الكريم، توفي بمصر سنة (958): ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب – لابن عبدالبر (1073/3)، وأُسْدُ الغابة في معرفة الصحابة – لابن الأثير (59/4)، والإصابة في تمييز الصحابة – لابن حجر العسقلاني (520/4).

وَعَدَكُمْ ﴾[1]، إلى آخره ... رواه ابن أبي حاتم.

ثم لمَّا ذَكَرَ حالَ الأشقياء وما صاروا إليه، عَطَفَ عليه حالَ السعداء، وأنهم يدخلون يوم القيامة جنات تجري من تحتها الأنهار، سارحةً فيها، حيث شاؤوا، وأين شاؤوا، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، ماكثين أبداً لا يُحَوَّلُون، ولا يزولون، ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾، كما قال – تعالى–: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾[2]، وقال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾[3].

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾

قال ابن عباس: هي شهادة أن لا إله إلا الله، ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾، وهو المؤمن، أصلها ثابت، يقول لا إله إلا الله في قلب المؤمن[4]، ﴿وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء، وهكذا عن أكثر التابعين: أن ذلك عبارة من[5] المؤمن، وقوله الطيّب، وعمله الصالح، وأن المؤمن كشجرة النخيل، لا يزال يُرْفَعُ له عملٌ صالحٌ في كل حين، وصباح ومساءٍ، وهكذا عن ابن مسعودٍ، وقال: هي النخلة[6]، وفي الصحيحين بروايات عن ابن عمر قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم– يوماً لأصحابه: "إن شجرة من الشجر لا يُطْرَحُ ورقها مثل المؤمن"، قال: فوقع الناس في شجر البوادي، ووقع في قلبي أنها النخلة، فاستحييت، حتى قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: "هي النخلة"[7].

---

(1) ينظر: تفسير – ابن أبي حاتم (2240/7).

(2) سورة الزمر، من الآية (73).

(3) سورة الرعد، من الآية (23).

(4) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (567/16).

(5) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (491/4)، (عن) وهو الصحيح .

(6) المصدر نفسه (570/16).

(7) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: العلم، باب: الحياء في العلم، (61/1)، برقم (131)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: مثل المؤمن مثل النخلة (137/8)، برقم (7276)، وكلاهما من حديث ابن عمر – رضي الله عنهما– مرفوعاً بألفاظٍ متقاربة.

وقوله: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾، قيل: أي: غدوةً وعشيةً، وقيل: كلَّ شهر، وقيل: كلَّ سنة شهرين، أو أشهرًا، والظاهر: أن المؤمن مَثَلُه كمثل شجرة، لا يزال يوجد منها ثمر في كل وقتٍ من صيف أو شتاء، أو ليلٍ أو نهارٍ، كذلك المؤمن، لا يزال يرفع له عمل صالح آناءالليل وأطراف النهار، في كل وقت وحين.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾، أي: كاملاً حسناً كثيراً طيباً، ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هذا مثل كفر الكافر، لا أصل لهُ ولا فرع ولا نبات، وشُبِّه بشجرة الحنظل، هكذا في الحديث المرفوع(1).

وقوله: ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾، أي: استؤصِلتْ، ﴿مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾، أي: لا أصل لها ولا نبات، كذلك الكفر، لا أصل لَهُ ولا فرع، ولا يصعد له عمل، ولا يُقبل منه شيءٌ.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾، في الصحيحين: عن البراء بن عازب أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– قال: "المسلم إذا سُئِل في القبر، يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾(2)، وفي رواية فيها أيضاً عن النبي – صلى الله عليه وسلم– قال: "﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ نزلت في عذاب القبر، يقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله ونبيِّي محمد [– صلى الله عليه وسلم– فذلك قوله –عز وجل–: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾](3)"(4)، وعن البراء قال: خرجنا مع

---

(1) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: تفسير القرآن، باب: سورة إبراهيم (295/5)، برقم (3119)، ونَصُّهُ: عن أنس بن مالك قال: أُتِيَ رسول الله – صلى الله عليه وسلم– بِقِنَاعٍ عليه رطب، فقال: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾، قال: هي النخلة، ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾، قال: هي الحنْظَلُ، قال: فأخَبرتُ بذلك أبا العالية، فقال: صَدَقَ وأحْسَنَ.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: سورة إبراهيم (1735/4)، برقم (4422)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه (162/8) برقم (7398)؛ كلاهما من حديث البراء بن عازب مرفوعاً، واللفظ للبخاري.

(3) ساقطة من المؤلف، مثبتة من صحيح مسلم (162/8).

(4) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر، والتعوذ منه (162/8)، برقم (7398)، من حديث البراء بن عازب – رضي الله عنه– مرفوعاً.

النبي – صلى الله عليه وسلم– في جنازة [رجل من الأنصار][1]، فانتهينا إلى القبر، ولمَّا يُلْحَدْ، فجلس رسول الله – صلى الله عليه وسلم–، وجلسنا حوله، كأنَّ على رؤوسنا الطيرَ، وفي يده عودٌ ينكث في الأرض، فرفع رأسه، فقال: "استعيذوا بالله من عذاب القبر" مرتين أوثلاثًا، ثم قال: "إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال إلى الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء، بيض الوجُوهِ، كأَنَّ وجُوهَهُم الشمسُ، معهم كفنٌ من أكفان الجنّة، وحَنُوطٌ من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت، حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيّتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرةٍ من الله ورضوانٍ"، قال: "فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فيِّ السِّقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لَمْ يَدَعُوهَا في يده طرفة عينٍ، حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنُوط، ويخرج منها كأطيبِ نفحة مسكٍ، وُجِدَتْ على وجه الأرض، فيصعَدُون بها، فلا يمرُّون – يعني بها– على ملأ من الملائكة، إلا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأحسن أسمائه، الذي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيُفْتَحُ له، فيُشَيِّعُه من كل سماء مقرَّبوها إلى السماء التي تليها، حتى يُنْتَهَى بها إلى السماء السابعة، فيقول الله: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوهُ إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، ومنها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى"، قال: "فتعادُ روحُهُ في جسده، فيأتيه ملكان، فيُجْلِسَانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، فيقولان له: وما عِلْمُك؟ فيقول: قرأت كتاب الله، فآمنت به، وصدقت، فينادي منادٍ من السماء: أنْ صَدَقَ عبدي فأفرشوه من الجنة، وألبسُوهُ من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة قال: فيأتيه من رَوْحِها وطيبها، ويفسح له في قبره مدَّ بصره، ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، حسن الريح، فيقول: أبشِر بالذي يسُرُّك، هذا يومك الذي كنت توعدُ، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجئ بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: ربِّ، أقم الساعة ربِّ، أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي".

قال: "وإن العبد الكافر، إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل

(1) ساقطة من المؤلف، مثبتة من سنن أبي داود (383/4).

من إليه من السماء ملائكة سود الوجُوه، معهم المُسُوحُ، فجلسوا منه مدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت، حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيّتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سَخَطٍ من الله وغضبٍ"، قال: "فتُفَرَّقُ في جسده، فينتزِعُهَا كما يُنتَزَعُ السَّفُّود[1] من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها، لَمْ يَدَعُوها في يده طرفة عينٍ، حتى يجعلوها في تلك المسُوح، ويخرج منها كأنتن ريحِ جيفةٍ وُجدت على وجه الأرض، فيصعدُونَ بها، ولا يمرُّونَ بها على ملأ من الملائكة، إلا قالوا: "ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يسمَّى بها في الدنيا، حتى يُنْتَهَى به إلى السماء الدنيا، فيستفتح له، فلا يفتح له"، ثم قرأ رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾[2]، فيقول الله: "اكتبوا كتابه في سجّين من الأرض السفلى، فتُطْرَحُ روحُه طرحاً، ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[3]، "فتُعَادُ روحُهُ في جسده، ويأتيه ملكان، فيُجْلِسَانِه، ويقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول هاه هاه، لا أدري، فيقولان له من هذا الرجل الذي بُعِثَ فيكم؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري. فينادي مُنادٍ من السماء: أنْ كَذَب، فأفرشوهُ من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرّها وسَمُومها، ويُضَيَّقُ عليه قبرُهُ، حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجُل قبيح الثياب، مُنتن الريح، فيقول: أبشِرْ بالذي يسوءك، هذا اليومُ الذي كنت تُوعَدُ، فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه يجئ بالشرِّ، فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: ربِّ، لا تقم الساعة"[4] رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه، وفي رواية لأحمد: "إذا خرج روحُهُ، صلّى عليه كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك في السماءِ، وفتحت له أبواب السماء، ليس من أهل باب، إلاَّ وهُمْ يدعون الله أن يُعْرَجَ

---

(1) السَّفُّود: الحديدة التي يشوى بها اللحم، مختار الصحاح – للرازي (326)، الجذر "س ف د".

(2) سورة الأعراف، من الآية (40).

(3) سورة الحج، من الآية (31).

(4) أخرجه أحمد في مسنده (499/30)، وأخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب الجنائز، باب: منه (497/2) برقم (1548)، وأخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب: في المسألة في القبر وعذاب القبر، (383/4) برقم (4755)، وأخرجه النسائي في سننه، كتاب: الجنائز وتمني الموت، باب: الوقوف للجنائز، (646/1)، برقم (2128)، كلهم من حديث البراء بن عازب – رضي الله عنه– مرفوعاً بألفاظٍ متقاربة.

بروحِه من قِبَلِهم، وتُنْزَعُ نفسه، يعني الكافر مع العَرُوقِ، فيلعنُه كلُّ ملك بين السماء والأرض، وكل ملكٍ في السماء، وتغلق له أبواب السماء، ليس من أهل بابٍ إلاَّ وهم يدعُون الله أن لا تُعرجَ روحهُ من قبلهم..." [1]، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم-: "إذا قُبِرَ الميت، أو قال: (أَحَدَكُمْ)، أتاهُ ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما: المنكر، وللآخر: النكير، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: هو عبدالله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسُوله، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا، ثم يُفسَحُ له في قبرِهِ سبعون ذراعاً، في سبعين ذراعاً، ثم يُنوَّرُ له فيه، ثم يقالُ له: نَمْ، فيقول: أرجع إلى أهلي، فأُخْبِرُهم، فيقولان: نَمْ كنومة العروس، الذي لا يوقظُهُ إلا أحبُّ أهله إليه، حتى يبعثَهُ الله إليه من مضجعه ذلك، وإن كان منافقاً، قال: سمعتُ الناس يقولون قولاً، فقلتُ مثله، لا أدري، فيقولان: قد [كُنَّا][2] نعلم أنك تقول ذلك، ويقال للأرض التئمي عليه، فتلتئم عليه، حتى تختلف أضلاعُهُ، فلا يزال فيها مُعذَّباً، حتَّى يبعثه الله من مضجعه ذلك"[3]، رواه الترمذي وحسَّنَه وغرَّبَهُ، قال طاوس[4]: القول الثابت في الحياة الدنيا: لا إله إلا الله، وفي الآخرة: المسألة في القبر[5]، ولهذا رُوي عن عثمان – رضي الله عنه- قال: كان النبي – صلى الله عليه وسلم- إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: "استغفروا لأخيكم ثم سلوا له بالتثبيتِ، فإنه الآن يُسْأَل"[6]، رواه أبوداود، وقوله: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: لا يهدي المشركين إلى الجواب الصواب في القبر، ﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من التوفيق والتثبيت، والإضلال والتخذيل.

---

(1) جزء من حديث طويل أخرجه أحمد في مسنده (576/30)، من حديث البراء بن عازب – رضي الله عنه- مرفوعاً بألفاظٍ متقاربة.

(2) ساقطة من المؤلف، مثبتة من سنن الترمذي (383/3).

(3) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: الجنائز، باب: عذاب القبر، (383/3)، برقم (1071)، من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه- مرفوعاً، وقال الترمذي: حديث أبي هريرة حديث حسن غريب.

(4) طاوس بن كيسان اليماني، أبو عبدالرحمن، كان رأساً في العلم والعمل، وأدرك خلقاً كثيراً من الصحابة، وأكثر روايته عن ابن عباس، وروى عنه من كبار التابعين أمثال مجاهد وعطاء وغيرهم، قال عنه عمرو بن دينار: ما رأيت أحداً مثل طاوس، وقال ابن أبي رواد: رأيت طاوساً وأصحابه، إذا صلوا العصر، استقبلوا القبلة، ولم يكلموا أحداً، وابتهلوا في الدعاء، توفي بمكة (106هـ)، ينظر: الطبقات الكبرى- لابن سعد (537/5)، وصفة الصفوة – لابن الجوزي (284/2)، وتذكرة الحفاظ – للذهبي (69/1).

(5) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (602/16).

(6) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: الجنائز، باب: الاستغفار عند القبر للميت في وقت الانصراف، (209/3)، برقم (3223)، من حديث عثمان بن عفان – رضي الله عنه – مرفوعاً.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾

قال البخاري: قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: ألم تعلم؟ كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾، و﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا﴾[1]، البوار :الهلاك، بار يبُورُ بوراً [﴿قَوْمًا بُورًا﴾][2] هالكين[3]، قال ابن عباس: ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾، هم: أهل مكة، وعنه أيضاً: هم جبلَةُ بن الأيهم، والذين اتَّبَعُوهُ من العرب، فلحقوا بالروم[4]، والمشهور عنه الأول، وإن كان المعنى يعُم جميع الكفار، فإن الله بعث محمداً – صلى الله عليه وسلم– رحمة للعالمين، ونعمة للناسِ، فمَنْ قَبِلَها، وقامَ بشُكْرِها، دخلَ الجنةَ، ومَنْ رَدَّها، وكَفَرها، دخلَ النارَ، وقال علي: هم منافقو قريش، ومشركوهم[5]، وذكر السُّدِّيُّ عن علي أنه قال: هما الأفجران من قريشٍ: بنو أمية، وبنو المغيرة، فأحلُّوا قومهم دار البوار يوم بدر، وأمَّا بنو أميَّة، فأحلُّوا قومهم دار البوار يوم أحدٍ، وكان أبُو جهل يوم بدر، وأبو سفيان يوم أُحُدٍ، وأمَّا دار البوار فهي جهنم، ونحوه عن عمر بن الخطاب.

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾، أي: جعلوا لله شركاء عبدوهم معه، ودَعُوا الناس إلى ذلك، ثم قال– تعالى– متهدداً لهم ومتوعداً على لسان نبيه – صلى الله عليه وسلم –: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾، أي: مهما قدرتم عليه في الدنيا، فافعلوا فيها، ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ﴾، أي: مرجعكم وموئلكم إلى النار، كما قال – تعالى–: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾[6].

﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾.

أمر– تعالى– عباده بالطاعة والإحسان إلى خلقه بأن يقيموا الصلوة، وهي

---

(1) سورة البقرة، من الآية (243).
(2) ساقطة من المؤلف، مثبتة من تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (1735/4).
(3) ينظر: صحيح البخاري (1735/4).
(4) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (8/16 – 10).
(5) المصدر السابق (7/16).
(6) سورة لقمان، الآية (24).

عبادة الله وحده لا شريك له، وأن ينفقوا ممَّا رزقهم بأداء الزكوات، والإنفاق على القرابات، والإحسان إلى الأجانب، والمراد بإقامتها: هو المحافظة عليها بالنهج المشروع، وأمر- تعالى- بالإنفاق في الخفية والجهر، وليبادروا في ذلك؛ لخلاص أنفسهم، ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾، وهو يوم القيامة، لا يقبل فيه من أَحَدٍ فِدْيَةٌ، بأن يبتَا ع نفسه، ﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾، أي: ليس هناك مُخَالَّةُ خليلٍ، فيُصْفَحُ عمن استوجب العقوبة عن العقاب، بل هناك العدل القسط، والخِلَال: مصدر خاللتُ فلاناً أخالُّهُ مُخَالَّةً، وخِلالاً، وقال قتادة: إن الله قد علم أن في الدنيا بيوعاً وخلالاً يتخالُّون بها في الدنيا، فينظر رجل من يُخالل، وعلى ما يُصاحب، فإن كان لله، فليداوم، وإن كان لغير الله، فسيقطع عنه، والمراد أنه أخبر- تعالى- أنه لا ينفع أحداً بيعٌ ولا فديةٌ، ولو افتدى بملء الأرضِ ذهباً، لو وجده، ولا ينفعه صداقة أحدٍ، ولا شفاعة أحدٍ، إذا لَقِيَ الله كافراً، قال- تعالى-: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾[1]، الآية...

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾

عدَّدَ – تعالى- نعمهُ على خلقه، بأن خلق لهم السمٰوٰت سقفاً محفوظاً والأرض فراشاً، وأنزل من السماء ماءً، فأخرج به أزواجاً من نبات شتّى، ما بين ثمار وزروعٍ مختلفة الألوان والأشكال، والطعوم والروائح والمنافع، وسخَّر الفلكَ بأن جعلها طافية على تيار البحار، تجري عليه بأمرالله، وسخّر البحر، يحملها؛ ليقطعَ المسافرون بها من بلدٍ إلى بلدٍ، وإقليم إلى إقليمٍ، وآخر للمصَالحَ، وسخَّر الأنهار، تشقُّ الأرض من قُطر إلى قُطر؛ رزقاً للعباد.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ﴾، أي: يسيران لا يَفْتُرَانِ ليلاً ولا نهاراً، فالشمس والقمر يتعاقبان، والليل والنهار يتعارضان، فتارة، يأخذ هذا من هذا، فيطول،

---

(1) سورة البقرة، من الآية (123).

ثم يأخذ الآخر، من الآخر فيقصر، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[1].

وقوله: ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾، أي: وهيأ لكم كل ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم، مما تسألونه بحالكم، وقالكم، وما لم تسألوه أيضاً، وقرأ بعضهم: ﴿مِنْ كُلٍّ﴾[2] بالتنوين.

وقوله: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾، هذا إخبار عن عجز العباد عن تعداد النعم، فضلاً عن القيام بشكرها، كما قال طلق بن حبيب[3]: إن حقَّ الله أثقلُ من أن يقوم به العباد، وإن نِعَمَ الله أكثرُ من أن يحصيها العباد، ولكن أصبِحُوا توَّابين، وأمسُوا توَّابين[4]، وفي البخاري: أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– كان يقول: "اللهم، لك الحمد غيْرَ مَكْفِيٍّ، ولا مُوَدَّعٍ، ولا مستغنًى عنه، ربَّنا"[5]، وفي الأثر أن داود – عليه السلام– قال: يا ربِّ، كيف أشكرك، وشكري لك نعمة منك عليَّ؟ فقال الله: الآن شكرتني[6]، يا داود، حين اعترفت بالتقصير عن أداء شكر النِّعم، وقال الإمام الشافعي: الحمد لله الذي لا يؤدَّى شكرُ نعمةٍ من نِّعَمِهِ، إلا بنعمةٍ حَادثةٍ توجب على مُؤدِّي ماضِي نعمةٍ بأدائها، نعمةً حَادثةً، توجب عليه شُكْرَهُ بها[7]، وقال الشاعر في ذلك**[البحر: البسيط]:**

لو كل جارحة مني لها لغةٌ ** تثنى عليك بما أوليت من حَسَنِ

لكان ما زاد شكري إذْ شكرتُ به ** إليك أبلغ في الإحسان والمِنَنِ[8]

---

(1) سورة الزمر، من الآية (29).

(2) قرأ ابن عباس والحسن والضحاك ومحمد بن علي وجعفر بن محمد وعمرو بن فائد ويعقوب وسلام: ﴿مِنْ كُلٍّ﴾ بالتنوين، ينظر: المبسوط في القراءات العشر – للنيسابوري (257)، والمحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها – لابن جني (362/1).

(3) طلق بن حبيب العنزي، كان ثقة، وكان مُرْجِئاً، روى عن ابن عباس، وجابر بن عبدالله – رضي الله عنهما–، وكان يقول: إني لأحب أن أقوم لله، حتى أشتكي ظهري، فيقوم، فيبتدئ بالقرآن، حتى يبلغ الحجر، ثم يركع، ينظر: الطبقات الكبرى – لابن سعد (227/7)، وصفة الصفوة – لابن الجوزي (258/3).

(4) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (16/17).

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأطعمة، باب: ما يقول إذا فرغ من طعامه، (2078/5)، برقم (5142)، من حديث أبي أمامة – رضي الله عنه– مرفوعاً.

(6) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (239/6).

(7) ينظر: الرسالة – للإمام محمد بن إدريس الشافعي، تح: أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية (8).

(8) هذه الأبيات أوردها: محمد الكلاباذي، أبوبكر، في كتابه: التعرف لمذهب أهل التصوف، دار الكتب العلمية، بيروت(1400هـ) (100)، ونسبها لأبي علي الروذباري (ت 322هـ).

والظلوم: الذي يشكر غير من أنعم إليه، والكافر: من يجحد مُنْعِمَهُ.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

احتجَّ – تعالى– على مشركي العرب، بأن البلد الحرام مكة، إنما وضعتْ أول ما وضعتْ على عبادة الله وحده، لا شريك له، وأن إبراهيم الذي كانت بسببه آهلة عامرة تبرأ ممَّن عبد غير الله، وأنه دعا لمكة بالأمن، فقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾، فاستجاب الله له، فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا ﴾[1]، الآية...، وكان إبراهيم دعا بالأمن لها بعد بناء البيت، ولهذا قال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾، ومعلومٌ أن إسماعيل كان أكبرَ من إسحاق بثلاث عشرة سنة، لكن حين ذهب بإسماعيل وأمه، وهو رضيع إلى مكان مكة، قد دَعَا أيضاً فقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾[2]، كما سبق في سورة البقرة، وقال: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾، ينبغي لكل داعٍ أن يدعو هكذا لنفسه، ولوالديه، ولذريته، ثم ذكر أنه افْتُتِنَ بالأصنام خلائقُ من الناس، وأنه بريءٌ مِمَّنْ عبدها، وردَّ أمرهم إلى الله، إن شاء، عذبهم، وإن شاء غفر، لهم كما قال عيسى بن مريم: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾[3]، الآية...، فقوله: ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّى ﴾، أي: من أهل ديني، ﴿وَمَنْ عَصَانِى ﴾، أي: فيما دون الشرك والكفر.

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾

هذا دعاء ثانٍ بعد الدعاء الأول، الذي دعَا بِهِ، بعدما ولَّى عن هاجر وولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا بعد بنائه؛ تأكيداً، ورغبةً إلى الله؛ ولهذا قال: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾.

وقوله: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾، هو متعلِّق بقوله: ﴿ٱلْمُحَرَّمِ ﴾، أي: إنما جعلته

(1) سورة العنكبوت، من الآية (67).
(2) سورة البقرة، من الآية (126).
(3) سورة المائدة، من الآية (118).

محرماً؛ ليتمكن أهله لإقامة[1] الصلاة عنده.

﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾، قال ابن عباس: "لو قال أفئدة الناس، لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم، ولكن قال: ﴿ مِّنَ النَّاسِ ﴾، فاختص به المسلمون"[2].

وقوله: ﴿ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ ﴾، أي: ليكون ذلك عوناً لهم على طاعتك، وكما أنه ﴿ وَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾، فاجعل لهم ثماراً يأكلونها، وقد استجاب الله ذلك، كما قال: ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾[3]، وهكذا كان، ويكون آمناً أبداً؛ لطفاً من الله، وكرامةً لأهل مكة.

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۝ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ۝ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ۝ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾

أي: أنت تعلم قصدي في دعائي، وما أردت بدعائي لأهل هذا البلد، وإنما القصد إلى رضاك، والإخلاص لك، [فإنك][4] تعلم الأشياء كلها، ظاهرَها وباطنَها، ولا يخفى عليك منها شيءٌ، ثم حَمِد ربَّهُ على ما رزقه من الولد بعد الكبر، فقال: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾، أي: إنه ليستجيب لمن دعَاهُ، وقد استجاب لي فيما سألته من الولد.

ثم قال: ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ ﴾، أي: محافظاً عليها، مقيما لحدودها، ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾، أي: اجعلهم كذلك مقيمين للصلاة، ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴾، أي: فيما سألتك فيه كُلِّه.

---

(1) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (508/4)، (من إقامة) وهو الصحيح .

(2) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (26/17).

(3) سورة القصص، من الآية (57).

(4) ساقطة من المؤلف، مثبتتة من تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (514/4).

﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ ﴾، وقرأ بعضهم: ﴿وَلِوَٰلِدِي﴾[1] على الإفراد، وهذا كان قبل أن يتبرأ من أبيه، وقوله: ﴿وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾، أي: كُلّهم، ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴾، أي يوم تُحَاسِبُ عبادك، فَتَجْزِيهِمْ بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شرًّا فشرٌ.

﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ ﴾

أي: لا تحسبن الله يا محمد، إذا أَنْظَرَهُمْ، وأَجَّلَهُمْ، أنه غافل عنهم، مُهْمِل لهم، لا يعاقبهم على صنيعِهِمْ، بل هو يُحصي ذلك عليهم، ويعدُّهُ عدًّا، ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾، أي: من شدة أهوال يوم القيامة.

ثم ذكر – تعالى – كيفية قيامهم من قبورهم، ومجيئهم إلى مقام المحشر، فقال: ﴿مُهۡطِعِينَ ﴾، أي: مسرعين إلى الداعي.

وقوله: ﴿مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ ﴾، قال ابن عباس وغير واحدٍ: أي: رافعي رؤوسهم[2].

﴿ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡ ﴾، أي: لا يُرْجَعُ إليهم أبصارُهم، بل طائرة شاخصة، يُديمون النظر، لا يتطرفون لحظة؛ لكثرة ما هم فيه من الهول، والفكرة، والمخافة لما يحل بهم؛ ولهذا قال: ﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ﴾، أي: وقلوبهم: خاوية: خالية ليس فيها شيء؛ لكثرة الفزع والخوفِ، وقيل: ﴿هَوَآءٞ ﴾، أي: خراب لا تعي شيئاً، ولشدة ما أخبر – تعالى – عنهم، قال لرسوله: ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ ﴾، وهو يوم القيامة.

﴿ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ

(1) قرأ سعيد بن جبير ومجاهد ﴿وَلِوَٰلِدِي﴾، ينظر: المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها – لابن جني (364/1)، والكامل في القراءات والأربعين الزائدة عليها – لأبي القاسم الهذلي (581).

(2) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (28/17).

﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾

أخبر – تعالى– عن قِيلِ الذين أشركوا عند معاينة العذاب: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ﴾، أي: أمهِلْنا، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾، أي: أَرْجِعْنَا إلى الدنيا، كما قال – تعالى–: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾[1]، الآية... وغيرها من الآيات...، فقال ردًّا عليهم في قولهم هذا: ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ﴾، أي: أولم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحال: أنه لازوال لكم عمَّا أنتم فيه، وأنه لا معاد ولا جزاء؟ فذوقوا، فهذا بذاك، وقال مجاهد: ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة.

وقوله: ﴿وَسَكَنتُمۡ﴾، أي: قد رأيتم، وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذِّبة قبلَكم، ومع هذا لم يكن لكم فيهم مُعْتَبَرٌ، ولم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر، وحكمة بالغة، وقوله: ﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ﴾، قرأ علي وابن مسعود[2]: ﴿وَإِن كَادَ﴾، بالدال، وقراءة العامة بالنون[3]؛ ﴿لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ قراءة العامة: ﴿لِتَزُولَ﴾، بكسر اللام الأولى ونصب الثانية[4]، أي: وما كان مكرُهم، قال الحسن: إن كان مكرهم لأضعف أن تزول منه الجبال[5]، وقراءة ابن جُريجٍ والكسائي: بفتح اللام الأولى، ورفع الثانية[6] أي: إن كان مكرهم، وإن عَظُم، حتى بلغ محلًّا تزول الجبال، لم تقدروا على إزالة أمر محمد – صلى الله عليه وسلم–، وقال علي في هذه الآية: أخذ الذي حَاجَّ إبراهيم في ربه نِسْرَيْنِ صغيرين، فربّاهما، حتى استغلظا، فشبَّا، قال: فأوثَقَ رِجْلَ كل واحدٍ منهما بوتدٍ إلى تابوتٍ، وجوَّعَهُمَا، وقعد هو ورجل آخر في التابُوت، قال: ورفع في التابوت عصاً، على رأسه اللحم، فطارا، قال: وجعل يقول لصاحِبِه: انظر ما ترى؟ قال: أرى كذا وكذا، حتى قال: أرى الدنيا كلها، كأنها ذباب، فقال: صوِّبِ العصا، فصوَّبها، فهبطا، قال: فهو قول الله: ﴿وَإِن كَادَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾[7]، هكذا

---

(1) سورة المؤمنون، الآية (99).

(2) ينظر: حجة القراءات – لأبي زرعة (379).

(3) المصدر السابق.

(4) ينظر: المبسوط في القراءات العشر – للنيسابوري (257)، وحجة القراءات – لأبي زرعة (379).

(5) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن– للطبري (63/7).

(6) ينظر: المبسوط في القراءات العشر – للنيسابوري (257)، وحجة القراءات – لأبي زرعة (379).

(7) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (39/17).

بالدال، كما سبق آنفاً، وكان ذلك الرجل هو: نمرُود ملك كنعان، وذكر مجاهد هذه القصة عن بخت نصر، وأنه لما انقطع عن الأرض، وأهلها، نُودِي أيها الطاغية، أين تريد؟ ففرق، ثم سمع الصوتَ فوقه، فصوَّب الرِّمَاحَ، التي عليها اللحم، فصوَّبَتِ النُّسُورُ، فَفَزِعَت الجبال من هَدَّتِهَا، وكادت الجبال أن تزول من حِسِّ ذلك، فذلك قوله: ﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾(1).

﴿ فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾

قال – تعالى– مقرراً لوعده ومؤكداً: ﴿ فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾، أي: من نصرتهم في الحياة الدنيا، وفي الآخرة.

ثم أخبر أنه ذو عزةٍ لا يمتنع عليه شيء أراده، ولا يُغَالَبُ، وذو انتقام ممن كفر به وجحده؛ ولهذا قال: ﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾، أي: وَعْدَهُ هذا حاصِل يوم تبدل الأرض، وهي هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة، كما في الصحيحين، عن سهل بن سعدٍ قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: "يُحْشَرُ الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراءَ، كقُرْصَةِ النَّقِيّ، ليس فيها عَلَمٌ لأحدٍ"(2)، وعن عائشة " أنها قالت: أنا أول الناس سأل رسولَ الله – صلى الله عليه وسلم– عن هذه الآية: ﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾ قالت: قلت: أين الناس يومئذ، يا رسول الله؟ قال: "على الصراط"(3)، رواه مسلم، ورُوِيَ عن عليّ وابن عباسٍ وغير واحد: أنها تُبدَّلُ يوم القيامة بأرض من فضةٍ، وعن علي أنه قال: تصير الأرض فضة، والسماء ذهباً، وقال ابن جبير: تُبَدّل خبزةً بيضاء، يأكل المؤمن من تحت قدميه، وقال كعب: تصير السمٰوٰت جناناً، وتصير مكانَ البحر النارُ، وتُبَدَّلُ الأرض

---

(1) ينظر: نفس المصدر والصفحة.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الرقاق، باب: يقبض الله الأرض يوم القيامة، (2390/5)، برقم (6156)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: في البعث والنشور وصفة الأرض يوم القيامة، (127/8) برقم (7233)، كلاهما من حديث سهل بن سعد – رضي الله عنه– مرفوعاً واللفظ لمسلم.

(3) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: صفة القيامة، والجنة والنار، باب: في البعث والنشور، وصفة الأرض، يوم القيامة، (127/8)، برقم (7234)، من حديث عائشة – رضي الله عنهما– مرفوعاً.

غيرها[1]، وقد جاء في الحديث المرفوع: "لا يركب البحر إلاَّ غازٍ أو حاجٌّ أو مُعْتَمِرٌ، فإن تحت البحر ناراً، وتحت النارِ بَحْراً"[2]، رواه أبو داود.

وقوله: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ﴾، أي: خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله، ﴿ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾، أي: الذي قهرَ كل شيء، وغلبَه، ودانت له الرقاب، وخضَعتْ له الألباب.

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾

أي: يوم برز الخلائق لديَّانها، ترى يا محمد، يومئذ المجرمين، أي: الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم، ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾: مشدودين بَعْضُهم إلى بعضٍ، قد جمع بين النَّظَرَاءِ والأشكال منهم كُلَّ صنفٍ، كما قال – تعالى-: ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾[3]. وقوله ﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ أي: في القيود والأغلال، واحدُها: صِفْدٌ، وهو مشهور في اللغة، قال عمرو بن كلثوم[**البحر الوافر]**:

فـــــآبُوا بالنِّهـــــابِ وبالسَّـــــبَايَا ** وأُبْنَـــــا بـــــالملوك مُصَـــــفَّدينَا[4]

وقوله: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾، أي: ثيابهم التي يلبسونها عليهم من قطران، وهو الذي تُهَنَّأُ به الإبل، أي: يُطْلَى، وقال ابن عباس: القطِران هو: النحاس المذاب في غاية الحرارة[5]، أي: بكسر القاف، وسكون الطاء.

وقوله: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾، كقوله: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾[6]، وعن أبي مالك الأشعري[7] قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم-: "النائِحةُ إذا لم تَتُبْ

---

(1) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (48/17).

(2) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: الجهاد، باب: في ركوب البحر في الغزو، (314/2)، برقم (2491)، والألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة (691/1)، وقال: منكر، وأخرجه أبوداود والخطيب في التلخيص وعنه البيهقي من طريق بشير أبي عبدالله عن بشير بن مسلم عن عبدالله بن عمرو مرفوعاً، وقال الخطيب: قال أحمد: حديث غريب وعلَّق الألباني بقوله: وهذا سند ضعيف فيه جهالة واضطراب..

(3) سورة الصافات، من الآية (22).

(4) هذا البيت أورده الأصفهاني في كتابه الأغاني (97/9)، ونسبه لعمرو بن كلثوم (ت 40 ق هـ)، (97/9).

(5) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (56/17).

(6) سورة المؤمنون، من الآية (104).

(7) أبو مالك الأشعري، أُخْتُلِف في اسمه، قيل: كعب بن مالك، وقيل: كعب بن عاصم، وقيل: عبيد، وقيل: عمرو، وقيل: غير ذلك، قدم مع الأشعريين في السفينة إلى النبي – صلى الله عليه وسلم-، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب – لابن عبدالبر (17451/4)، وأُسْدُ الغابة في معرفة الصحابة – لابن الأثير (286/6).

قبل موتها، تقامُ يوم القيامة وعليها سِرْبالٌ من قطرانٍ، ودِرْعٌ من جَرَبٍ"[1]، رواه مسلم.

وقوله: ﴿ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ ﴾ أي: يقيم يوم القيامة ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴾[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾، يحتمل أن يكون المراد به كقوله: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾[3]، ويحتمل أنه في حال محاسبته لعبده، سريع الفصل والإحصاء؛ لأنه – سبحانه– يعلم كل شيءٍ، ولا يخفى عليه خافية، وأن جميع الخلائق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم، كقوله: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾[4]، ويحتمل أن يكون المعنيان مُرَادَيْنِ، والله أعلم.

﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

أي: هذا القرآن بلاغٌ للناس، كقوله: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾[5]، أي: هو بلاغ لجميع الخلائق من الإنس والجن.

﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ ﴾، أي: يتَّعظوا به، ﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾، ويستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا الله، ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾، أي: ذوو العقول.

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الجنائز، باب: التشديد في النياحة، (45/3)، برقم (2203)، من حديث أبي مالكٍ الأشعري – رضي الله عنه– مرفوعاً.

(2) سورة النجم، من الآية (31).

(3) سورة الأنبياء، الآية (1).

(4) سورة لقمان، الآية (28).

(5) سورة الأنعام، من الآية (19).

تفسير سورة الحجر وهي مكية

[تمهيد][1]

[هذه السورة مكية، وسميت بهذا الاسم؛ نسبة لذكر الحِجْر فيها، ولم يُذْكَرْ في غيرها.

والسورة تتناول محتويات كثيرة نذكرها على النحو الآتي:

- أُفْتُتِحَتْ بالحروف المقطعة التي فيها تعريضٌ بالتحدي وبإعجاز القرآن.
- عدم إسلام المشركين، الذي سيندمون عليه؛ لأن الله أنذرهم.
- إنذار المشركين بالهلاك الذي عيَّنه الله في علمه.
- إبراز طبيعتهم ودوافعهم الأصلية للتعذيب.
- بعض آيات الله في هذا الكون في السماء والأرض وما بينهما.
- تناول قصة البشرية وأصل الهدى والغواية، ومصير الغاوين والمهتدين في النهاية.
- مصارع الغابرين من قوم لوط وشعيب وصالحٍ.
- البعث ودلائل إمكانه.
- قصة لوطٍ وإبراهيم – عليهما السلام– وأصحاب الأيكة وأصحاب الحجر.
- ختامة السورة تثبيت للرسول – صلى الله عليه وسلم–، وانتظار ساعة النصر، وصفحه عن الذي يؤذونه به][2].

(1) إضافة من المحقق.

(2) ينظر: في ظلال القرآن – للسيد قطب (2121/4)، والتحرير والتنوير – للطاهر بن عاشور (5/14).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾.

سبق الكلام في حروف أوائل السور في أول سورة البقرة، ﴿تِلۡكَ﴾، أي: هذه ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، وهو القرآن، ﴿مُّبِينٖ﴾ أي: يبين الحلال من الحرام والحق من الباطل، والكتابُ ما يكتب، والقرآن ما يُجْمَعُ بعضه إلى بعض.

وقوله: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾، إخبار عنهم، أنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر، ويتمنون لو كانوا في الدنيا مع المسلمين، وعن ابن مسعود وغير واحدٍ من الصحابة: أن كفار بدر لمَّا عُرِضوا على النار، تمنوا أن لو كانوا مسلمين، وقيل: هذا عامٌّ، فإن كل كافر يَوَدُّ عند احتضاره أن لو كان مؤمناً، وقيل: إخبار عن يوم القيامة، كما في قوله – تعالى–: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ﴾[1]، الآية...، وعن ابن مسعود قال: هذا في الجهنميين، إذا رأوهم يخرجون من النار، وقال مجاهد: يقول أهل النار للموحدين: ما أغنى عنكم إيمانكم؟ قال: فإذا قالوا ذلك، قال – تعالى–: أخرجوا من كان في قلبه مثقالُ ذرة من إيمان، قال فعند ذلك: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾[2]، وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: "إن أناساً من أهل لا إله إلا الله يدخلون النار بذنوبهم، فيقول لهم أهل اللات والعزى: ما أغنى عنكم قولكم: لا إله إلا الله وأنتم معنا في النار؟ فيغضب الله لهم، فيُخْرِجُهُمْ، فيلقيهم في نهر الحياة فيبرؤوا من حَرْقِهِمْ، كما يبرأ القمر من كسوفه، فيدخلون الجنة، ويسمُّون فيها الجهنّميين"، فقال رجل: يا أنس، أنت سمعت هذا من رسول الله – صلى الله عليه وسلم–؟ فقال أنس: سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم– يقول: "من كذب عليَّ متعمداً، فَلِيتبوأ مقعده من النار"[3]،

(1) سورة الأنعام، من الآية (30).

(2) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (62/17).

(3) أخرجه الطبراني في معجمه (209/7)، برقم (7293)، من حديث أنس بن مالك – رضي الله عنه– مرفوعاً، وأورده نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي في كتابه: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الفكر، بيروت (1412هـ)، (364/1)، وقال: رواه الطبراني في الصغير وفيه الربيع بن بدر وقد أجمعوا على ضعفه.

نعم، أنا سمعتُه يقول هذا، رواه الطبراني

وقوله: ﴿ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ ﴾ تهديد لَهُمْ شديد، كقوله: ﴿ قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾[1]، ولهذا قال: ﴿وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ﴾، أي يشغلهم الأمل عن التوبة والإنابة. ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾، أي: عاقبة أمرهم يوم القيامة.

﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴾ أي: ما أهلك قرية إلا بعد قيام الحجة عليها، وانتهاء أجلها، وإنه لا يؤخر أمة حَان هلاكهم[2] من ميقاتها، ولا يتقدمون عن مدَّتهم، وهذا تنبيه لأهل مكة، وإرشاد لهم إلى الإقلاع عمَّا هم فيه من الشرك والعناد.

﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾.

أخبر – تعالى– عن كفرهم وعتوهم وعنادهم في قوله: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ ﴾، أي: الذي يدَّعي ذلك، ﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴾، أي: في دعائك إيّانا إلى اتباعك، وتَرْكِ ما وجدنا عليه آباءَنا، ﴿ لَّوۡ مَا ﴾، أي: هلاَّ ﴿تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ ﴾، أي: يشهدون لك بصحة ما جئت به، ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾.

﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾، أي: بالرسالة والعذاب، ولو نزلت: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ﴾، أي: مؤخرين عن النكال، بل عذِّبوا في الحال، ثم قرر – تعالى– أنه هو الذي أَنْزَلَ الذكر، وهو القرآن، وهو الحافظ له من التغيير والتبديل، وقيل: الضمير في ﴿لَهُۥ﴾ للنبي – صلى الله عليه وسلم–، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[3]، والأول أولى، وهو ظاهر السياق.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾، قال الله – تعالى–

(1) سورة إبراهيم، الآية (30).

(2) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم– لابن كثير (526/4)، (هلاكها)، وهو الصحيح.

(3) سورة المائدة، من الآية (67).

مسلياً لرسوله في تكذيب من كذَّبَه من كفار قريش: إنه أرسل من قبله من الأمم الماضية، وإنه ماأَتَى أمّةً رسولٌ، إلا كذبوه، واستهزؤوا به، ثم أخبر أنه سَلَكَ التكذيب والشرك في قلوب المجرمين، الذين استكبروا عن اتباع الهدى، وقولهم: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أي: قد عُلم ما فعل – تعالى– بمن كذب رسلَهُ، من الدمار والهلاك، وكيف أنجى الأنبياء، وأتباعهم في الدارين.

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾

أخبر– تعالى– عن غلطة كفرهم، وعنادِهم، ومكابرتهم للحق: أنه لو فتح لهم باب[1] من السماء، فجعلوا يصعدون فيه، لما صدَّقوا بذلك، بل قالوا: ﴿سُكِّرَتْ﴾، أي سُدَّتْ ﴿أَبْصَٰرُنَا﴾، وأُخِذَت، وشُبِّهَ علينا، وإنما سُحِرْنا.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾.

ذكر– تعالى– خلقَهُ السماء في ارتفاعها، وما زينها به من الكواكب الثواقب، لمن تأمَّلَها، يرى فيها من العجائب والآيات ما يحَار طرفُهُ فيه، ولهذا قالوا: البروج هاهنا: الكواكب كما في قوله – تعالى–: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾[2]، وقيل: البروج: هي منازل الشمس والقمر، وقال عطية: البروج هنا: هي قصور فيها الحَرَسُ[3]، وجعلَ الشُّهُبَ حرساً لها من مردَة الشياطين، فمن تمرَّد منهم، وتقدَّم لاستراق السمع، جاءه ﴿شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾، وأحرقه، وربما يكون قد ألقى الكلمة التي سمعها قبل أن يدركه الشهاب، إلى من دونه فيأخذها الآخر، ويأتي بها إلى وَلِيِّه، كما جاء به مصرَّحاً بِهِ عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم– يقول: " إن الملائكة تنزِل في العَنَانِ، وهو السحابُ، فَتَذْكُرُ الأمر قُضِيَ في السماء، فتسترق الشياطينُ السَّمْعَ فتسمَعُهُ فَتُوحِيهِ إلى الكُهَّانِ فيكذبون معَهاً

---

(1) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (528/4): (بابًا)، وهو الصحيح.

(2) سورة الفرقان، من الآية (61).

(3) تفسير – السمعاني (132/3).

مائَة كذْبَةٍ من عند أنفسهم"[1]، رواه البخاري.

ثم ذكر – تعالى– خلقهُ الأرض، ومدَّهُ إياها، وتوَسُّعهَا وبسطها، وما جعل فيها من الجبال الرواسي، والأودية والأراضي، وما أنبت فيها من الزروع والثمار المتناسبة، قال ابن عبّاس: ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾، أي: معلوم[2]، وقيل: مقدَّر يقدّر ويوزن، والمعايش: جمع معيشة؛ وهي صنوف ما يعيش به الشخص.

﴿وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾، قال مجاهد: هذ الدوابّ والأنعام، وزاد بعضهم الإماء والعبيد[3] أيضاً، منَّ الله عليهم بما يسَّر لهم من أسباب المكاسب، ووجُوه الأسباب، وبما سخّر لهم من الدوابِ، التي يركبونها، والأنعام التي يأكلونها، والعبيد والإماء اللاتي[4] يستخدمونها، ورِزْقُهُمْ على خَالقِهِمْ، لا عليهم.

﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾

أخبر– تعالى– أنه مالك كل شيء، وأن كل شيء سهلٌ عليه، يسيرٌ لديه، وأنه عنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف، ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾، كما يشاء، وكما يريد، ولِمَا لَهُ في ذلك من الحكمة البالغة، قال ابن مسعود: ما من عام بأمطر من عامٍ، ولكن الله يقسمُه حيث شاء، عاماً هاهنا، وعاماً هاهنا، ثم قرأ هذه الآية[5]، رواه ابن جرير، وفي الحديث المرفوع: "خزائن الله الكلام، فإذا أراد شيئاً قال له: كن؛ فكان"[6].

وقوله: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾، أي: يُلَقِحُ السحاب، فَيَدُرُّ ماءً، ويُلَقِّحُ الشجر،

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة (1175/3)، برقم (3038)، من حديث عائشة – رضي الله عنها– مرفوعاً.

(2) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (79/17).

(3) المصدر نفسه (82/17).

(4) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (529/4): (التي)، وهو الصحيح.

(5) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (84/17).

(6) أخرجه: أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبدالخالق العتكي المعروف بـ (البزار) في مسنده، تح: محفوظ زين الله، وآخرون، مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة، ط: 1 (بدأت 1988م، وانتهت 2009) (314/17) بعد حديث آخر وقال: (ولا نعلمُ أحدًا رَوى هذين الحديثين عن هشام إلا أغلب، ولا نعلمُ رواهُما عن أغلب إلا ابنه، والأغلب لم يكن بالقوي، وقد حدَّث عنه غير واحدٍ من المتقدمين)، وأورده ابن أبي الفرج، عبدالرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، في جامع العلوم والحكم، دار المعرفة، بيروت، ط:1، (1408هـ)، (230) وعَزَاه للبزار، وقال: (إسناده فيه نظر).

فتتفتح عن أوراقها وأكمامها، وهذه الرياح ذكرها بصيغة الجمع؛ ليكون منها الإنتاج، بخلاف الريح العقيم، فإنه أفردها، ووصفها بالعقيم، وهو عدم الإنتاج، قال ابن مسعود: يرسل الله الريح، فتحمل الماء من السماء، ثم يَجْرِي في السحاب، حتى يُدِرُّ، كما يُدِرُّ اللُّقْحَة[1]، وبه قال ابن عباس وغير واحد[2]، وقال عُبَيْدُ بن عُمير[3]: يبعث الله المُبشّرة، فتقِمُّ الأرض قمًّا، ثم يبعث الله المثيرة، فتثير السحاب، ثم يبعث الله المؤلفة، فيؤلف السحاب، ثم يَبْعَثُ الله اللواقح، فتلقح الشجر، ثم تلا: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾[4]، واللواقح الحوامل؛ لأنها تحمل الماء على السحاب، جمع لاقحة إذا حملت الولد.

وقوله: ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾، أي: أنزلناه لكُمْ عَذْباً، يمكنكم أن تشربوا منه، ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ﴾، كما بيَّنه – تعالى– على ذلك في سورة الواقعة.

وقوله: ﴿بِخَازِنِينَ ﴾، أي: بمانعين، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم، ويجعله الله معيناً، وينابيع في الأرض، ولو شاء، لأغاره، وذهب به، ولكن من رحمته أنزله، وجعله عذباً، ووعَاهُ في العيون والآبار، لمصالح العباد.

وقوله: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ ﴾، إخبار عن قدرته – تعالى– على بدء الخلق وإعادته، وأنه هو الذي أحْيَا الخلقَ من العدم، ثم يميتهم، ثم يبعث[5] كُلَّهُم ليوم الجمع. وأخبر أنه – تعالى– يرث الأرض ومن عليها، وإليه يرجعون.

ثم قال مخبراً عن تمام علمه بهِمْ، أوّلِهم وآخِرِهم: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ ﴾، قال ابن عباس: المستقدمون: كل من هلك من لدن آدم، والمستأخرون: من هو حي، ومن يأتي إلى يوم القيامة[6]، وبه قال الأكثر، وقال بعض التابعين: كان

---

(1) اللَّقْحَةُ: الناقة القريبة العهد بالنتاج، تاج العروس من جواهر القاموس– للزبيدي، (98/7)، الجذر "أل ل ق ح ة".

(2) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (86/17).

(3) عبيد بن عمير بن قتادة الليثي، أبو عاصم، كان عالماً وواعظاً كبير القدر، وكان ثقة كثير الحديث، رَوَى عن كثير من الصحابة، أمثال عمرو وأبي ذر وعلي وعائشة وغيرهم – رضي الله عنهم– أجمعين، وروى عنه من كبار التابعين أمثال مجاهد وعطاء وغيرهم – رضي الله عنهم– أجمعين، توفي سنة (74هـ)، ينظر: الطبقات الكبرى – لابن سعد (463/5)، وصفة الصفوة – لابن الجوزي (207/2)، وتذكرة الحفاظ – للذهبي (41/1).

(4) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (88/17).

(5) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (531/4): (يبعثهم)، وهو الصحيح.

(6) ينظر: جامع البيان – للطبري (91/17).

أناس يستأخرون في صف الصلاة من أجل النظر إلى صف النساء، وزينتهن، فأنزل الله هذه الآية[1]...، وفيه غرابة جداً!! وقيل: المراد في صف القتال والجهاد.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي يميت الكل، ثم يحشر الأولين والآخِرين، ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ في أفعاله وأقواله.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾، قال ابن عباس وغير واحدٍ: المراد بالصلصال: التراب اليابس[2]، والظاهر أنه كما في قوله – تعالى-: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّـارِ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾[3]، وقيل: الصلصال المنتن، وتفسير الآية الثالثة في الآية الأولى.

وقوله: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ أي: من الطين الأملس، كما قال الشاعر **[البحر: الخفيف]**:

ثم خَاصَرْتُها إلى القُبَّةِ الخَضْراءِ ** تمشي في مَرْمَرٍ مَسنونِ[4]

أي: أملس صقيل.

ولهذا رُوِيَ عن ابن عباس: أنه التراب الرطب، وقيل: هو المُنْتِنُ، وقيل: المصبُوبُ[5].

وقوله: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ﴾، أي: من قَبْلِ الإنسان، ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ أي: التي تقتُل، وقيل: السموم بالليل والنهار، وقال ابن مسعود: هذه السموم التي في الدنيا جزء من سبعين جزءاً من السموم، التي خلق منها الجان، وقال ابن عباس: أي من لهب النار، وقيل: من نار الشمس[6]، وقد ورد في الصحيح: "خُلِقَتِ الملائكةُ من

---

(1) ينظر: مسند أحمد بن حنبل (5/5)، والترمذي في سننه، كتاب: تفسير القرآن، باب: سورة الحجر (296/5) برقم (3122)، وقال أبو عيسى: وروى جعفر بن سليمان هذا الحديث عن عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء نحوه ولم يذكر فيه عن ابن عباس وهذا أشبه أن يكون أصح من حديث نوح.

(2) ينظر جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (96/17).

(3) سورة الرحمن، الآيتان (14 ، 15)

(4) هذا البيت أورده الأصفهاني في كتابه الأغاني (106/15)، ونسبه لعبدالرحمن بن حسان (ت 104 هـ).

(5) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (97/17).

(6) المصدر نفسه (100/17).

نورٍ، وخُلِقَتِ الجانُّ من مارج من نارٍ، وخُلِقَ آدم ممَّا وُصِفَ لَكُم"[1]، وفيه التنبيه على شرف آدم، وطيب عنصره، وطهارة مَحْتَدِه.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾

ذكر- تعالى- لملائكته آدمَ قبل خلقه؛ تشريفاً له، وتعريضاً بالأمر لهم بالسجود، وذكر تخلف إبليس عن السجود له، من بين سائر الملائكة؛ حسداً وكفراً، وعناداً واستكباراً؛ ولهذا قال: ﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾.

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ ﴾، أي: عدَّلْتَ صورتَه، وأتممت خِلْقَتَهُ، والروح: جسم لطيف يحيا به الإنسان، وأضاف إلى نفسه؛ تشريفاً، ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ سجود تحية، لا سجود عبادة.

﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾

أمر- تعالى- إبليس أمراً كونياً، لا يُخالَفُ ولا يمانَعُ، بالخروج من المنزلة التي كان فيها من الملإِ الأعلى، وإنه ﴿رَجِيمٌ ﴾، أي: مرجوم، وأنه قد أتبعه لعنة لا تزال متصلة به متواترة عليه إلى يوم القيامة، قال سعيد بن جبير: " لما لعن الله إبليس، تغيَّرتْ صورته عن صورة الملائكة، ورنَّ رَنَّةً، فكل رنةٍ في الدنيا إلى يوم القيامة منها"[2]، رواه ابن أبي حاتم.

وإنه لمَّا تحقق الغضب الذي لا مردّ لَهُ، سأل من تمام حسده لآدم وذريته، النَّظِرَةَ والإمهالَ إلى يوم القيامة، وأنه أجيب إلى ذلك؛ استدراجاً وإمهالاً، فلمّا تحقق النَّظِرَة، ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الزهد والرقائق، باب: في أحاديث متفرقة (226/8) برقم (7687)، من حديث عائشة – رضي الله عنها– مرفوعاً.

(2) ينظر: تفسير – ابن أبي حاتم (2265/7).

ٱلْمُخْلَصِينَ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾.

قال – تعالى– مخبراً عن إبليس وتمرده وعُتُوِّهِ، وأنه قال للرب: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾، أي: أضللتني، قيل: هذا قَسَمٌ بإغواء الله إيّاه، ويحتمل أنه بسبب ما أغويتني، ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾ أي: لذريَّة آدم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: أُحَبِّبَ إليهم المعاصِيَ، وأرغّبهُمْ فيها وأُزْعِجَهُمُ إليها، ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾، أي: كما أغويتني، وقَدَّرْتَ عليَّ ذلك.

﴿أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، كما قال: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1]، قال – تعالى– له متوعِّداً ومهدِّداً ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾، أي: مرجعكم كُلّكُم إليَّ، فأجازيكم بأعمالكم، وقيل: طريق الحق مرجعُهَا كُلّها إلى الله، وإليه يَنْتَهِي، وقرأ بعضهم ﴿عَلِيٌّ﴾[2]، بالتنوين، كقوله: ﴿لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[3]، أي: رفيع، والمشهور القراءة الأولى.

وقوله ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾، أي: الذي[4] قُدِّرَتْ لهم الهداية، فلا سبيل لك عليهم، ولا وُصُولَ لك إليهم، ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ أي: الضالّين، استثناء منقطع، ومُعظم أسباب تغلب إبليس على ابن آدم الغضب والهوى، هكذا نقِلَ عنه، أخزاه الله.

وقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، أي: موعد جميع من اتَّبع إبليس.

ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب، ﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾، أي: قد كُتِب لكل بابٍ منها جزءٌ من أتباع إبليس، يدخلونه لا محالة، أجارنا الله منها، وكلٌّ يدخل من باب بحسب عمله، ويستقر في درك فعلهِ. قال علي بن أبي طالب: إن أبواب جهنم

---

(1) سورة الإسراء، الآية (62).

(2) قرأ مجاهد وابن سيرين والنخعي وقتادة ويعقوب: ﴿عَلِيٌّ﴾ بالرفع والتنوين. ينظر: المبسوط في القراءات العشر – للنيسابوري (260)، والمحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها – لابن جني (392/1).

(3) سورة الزخرف، من الآية (4).

(4) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (535/4): (الذين)، وهو الصحيح.

هكذا، أطباقاً بعضها فوق بعضٍ، فيُمْلَأ الأوَّل، ثم الثاني، ثم الثالث، حتى تُمْلَأُ كُلَّها[1].

وعن ابن عباس وأتْبَاعه سبعة أبواب؛ أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم سعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية، وقال قتادة: ﴿مِّنۡهُمۡ جُزۡءٌ مَّقۡسُومٌ﴾ هي والله منازل أعمالهم[2].

وعن ابن عمر عن النبي – صلى الله عليه وسلم– قال: " لجهنم سبعة أبواب: باب منها لمن سلَّ السيف على أمتي، أو على أمة محمد"[3]، رواه الترمذي.

وعنه – عليه الصلاة والسلام– في قوله: ﴿لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٌ مَّقۡسُومٌ﴾، قال: " إن أهل النار من تأخذه النار إلى كعبيه، وإن منهم من تأخذه النار إلى حُجزته، ومنهم من تأخذه النار إلى تراقيه، مَنَازِلَ بأعمالهم"[4]، رواه ابن أبي حاتم.

﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴾

لمّا ذكر تعالى حال أهل الكتاب[5]، شرع في ذكر أهل الجنة، وأنهم في جنات وعيون.

وقوله: ﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ﴾، أي: سالمين من الآفات مُسَلَّمًا عليكم، ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ من كل خوفٍ وفزعٍ، لا يخشوا من إخراج، ولا انقطاع ولا فناء.

وقوله: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ ﴾، قال أبو أمامة: "يدخل أهل الجنة، الجنة على ما في صدورهم في الدنيا من الشحناء، والضغائن، حتى إذا توافوا وتقابلوا، نزع الله ما في صدورهم في الدنيا من غلٍّ"، وفي رواية عنه: "لا يدخل المؤمن الجنة،

---

(1) ينظر جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (106/17).

(2) ينظر: المصدر نفسه (107/17).

(3) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: تفسير القرآن، باب: سورة الحجر (297/5)، برقم (3123)، من حديث ابن عمر – رضي الله عنهما– مرفوعاً، وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه، إلا من حديث مالك بن مغول.

(4) تفسير – ابن أبي حاتم (2265/7).

(5) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (537/4): (النار)، وهو الصحيح.

حتى يَنْزِعَ الله ما في صدورهم من غل"، كما ورد في الصحيح: أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– قال: "يخلُصُ المؤمنون من النار، فَيُحْبَسُون على قَنْطَرَةٍ بين الجنة والنار، فيُقْتَصُّ لبعضهم من بعضٍ مظالم، كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا، أُذِن لهم في دخول الجنةِ"[1].

وعن عليّ أنه قال: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾، وهكذا قال في شأن طلحة لابنِهِ في قضية الجمل، وكذا قال في شأن الزبير لقاتله ابن جُرموز: إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة[2] والزبير [3] ممن قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾[4]، قال مجاهد: في قوله: ﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾، أي: لا ينظر بعضهم في قَفَا بعض[5]، وفي الحديث المرفوع: "متقابلين في الله، ينظر بعضهم إلى بعض"[6].

وقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾، يعني: المشقة والأذى، كما جاء في الصحيحين: " إن الله أمرني أن أُبَشِّرَ خديجةَ ببيتٍ في الجنة من قصبٍ، لا صَخَبَ فيه، ولا نصب"[7].

---

(1) جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الرقاق، باب: القصاص يوم القيامة، (2394/5)، برقم (6170)، من حديث أبي سعيد الخذري – رضي الله عنه – مرفوعاً.

(2) طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب القرشي التيمي، أبو محمد، أحد السابقين إلى الإسلام، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، آخى الرسول – صلى الله عليه وسلم– بينه وبين أبي أيوب الأنصاري، شهد أحداً، والمشاهد التي بعدها، سمَّاهُ رسول الله – صلى الله عليه وسلم– يوم أحد: طلحَةَ الخيْرِ، ويوم العسرة: طلحة الفياض، ويوم حنين: طلحَةَ الجود، وقال فيه الرسول – صلى الله عليه وسلم–: من أحبَّ أن ينظر إلى شهيد، يمشي على وجه الأرض، فلينظر إلى طلحَةَ، توفي سنة (36هـ)، يُنْظَرُ: الاستيعاب في معرفة الأصحاب – لابن عبدالبر (764/2)، وأُسْدُ الغابة في معرفة الصحابة – لابن الأثير (83/3)، والإصابة في تمييز الصحابة – لابن حجر العسقلاني (529/3).

(3) الزبير بن العوام بن خويلد بن أَسَد بن عبدالعزى بن قصي القرشي الأسدي، أبو عبدالله، أحد السابقين إلى الإسلام، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، آخى الرسول – صلى الله عليه وسلم– بينه وبين سلمة بن سلَّامة وَقْش، شهد بدراً، والمشاهد كلها، وهو أول من سلَّ سيفاً في سبيل الله، قال فيه الرسول – صلى الله عليه وسلم–: (إن لكل نبيّ حَوَارِي وحوارِيّي الزبيرُ بن العوَّام)، توفي سنة (36هـ)، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب– لابن عبدالبر (510/2، وأُسْد الغابة في معرفة الصحابة – لابن الأثير (295/2)، والإصابة في تمييز الصحابة – لابن حجر العسقلاني (553/2).

(4) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (107/17).

(5) ينظر: المصدر نفسه (110/17).

(6) أخرجه ابن أبي حاتم (2268/7) في تفسيره ونصُّه: "المتحابين في الله في الجنة ينظر بعضهم إلى بعض".

(7) جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: فضائل الصحابة، باب: تزويج النبي – صلى الله عليه وسلم– خديجة – رضي الله عنها– وفضلها (1389/3)، برقم (3609)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل خديجة أم المؤمنين (133/7)، برقم (6426)، من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه– مرفوعاً بألفاظٍ متقاربة.

وقوله: ﴿وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ﴾، كما جاء في الحديث الصحيح: "يقال: يا أهل الجنة إن لكم أن تصحُّوا، فلا تَسْقَمُوا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا، فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشِبُّوا، فلا تَهْرَمُوا أبداً، وإن لكم أن تُقِيمُوا فلا تظعنوا أبداً"[1].

وقوله: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ﴾، أي: أخبر يا محمد، أني ذو رحمةٍ، وذو عقابٍ أليمٍ وفيه بيان مقامي الرجاء والخوف، وذكر في سبب نزولها: أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– مرَّ على أناسٍ من أصحابه يضحكون، فقال: "اذكروا الجنة، اذكروا النار"، فنزلت: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ﴾[2]، الآية...، وقال قتادة في هذه الآية: بلغنا أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم قال: " لو يعلم العبد قدر عفوِ الله، لَمَا تورَّع من حرامٍ، ولو يعلم قدر عقابِهِ، لبَخَعَ نفسه"[3].

﴿وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾

أي: أَخْبِرْهم يا محمد، عن قصة ضيف إبراهيم، والضيف: يطلق على الواحد والجمع، كالزور[4]، والسَّفْرِ[5]، وكيف ﴿دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ﴾، أي: خائفون.

وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه لهم؛ ضيافةً، وهو العجل السمين الحنيد، ﴿قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ﴾، أي: لا تخف، ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾[6]، هو إسحاق – عليه السلام–، كما سبق في سورة هود، فقال متعجباً من كبره وكبر زوجته ومتحققاً للوعد: ﴿أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾، أي: في حال الكبر، ﴿فَبِمَ

---

(1) سبق تخرجه.

(2) تفسير – ابن أبي حاتم (2267/7).

(3) أخرجه الطبري في تفسيره (111/17).

(4) الزَّوْرُ: الزائر، وهو الذي يزورك، ويطلق على الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث بلفظ واحد، لأنه مصدر، ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس – للزبيدي (459/11)، الجذر "ز و ر".

(5) سَفْرٌ: أي: مسافر، ويُطلق على الواحد والجمع؛ لأنه في الأصل مصدر، فيقال: رجلٌ سَفْرٌ، وقوم سفْرٌ، الجذر " س ف ر"، المصدر نفسه (38/12).

(6) سورة الذاريات، من الآية (28).

تُبَشِّرُونَ ﴾، أي بأيِّ شيءٍ تبشِّرُون؟ فأجابوه مؤكدين لِمَا بشَّرُوهُ به تحقيقاً، قالوا: ﴿بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴾، أي: الآيسين من المولد، فأجابهم بأنه ليس يقنط، ولكن يرجو من الله الولد، وإن كان قد كبر، وأسنَّتْ امرأته، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك.

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴾

أخبر– تعالى– عن إبراهيم لمَّا ذهب عنه الروع، وجاءته البشرى، أنه شرع يسألهم عما جاؤوا له، فقالوا: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ يعنون: قوم لوطٍ، وأخبروه أنه سَيُنْجُون آل لوطٍ من بينهم، إلا امرأته، فإنها من المُهْلَكِين؛ فلهذا قالوا: ﴿ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴾، أي: الباقين المهلكين.

﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾.

أخبر– تعالى– عن لوطٍ لمَّا جاءته الملائكة في صورة شباب حِسَان الوجوه، فدخلوا عليه دارهُ، قال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾، يعنون: بعذابهم وهلاكهم، الذي كانوا يشُكُّون في وقوعه بهم، وحلُولِه بساحتهم، ﴿ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾، كما قال: ﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾، ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾؛ تأكيداً لخبرهم إياه بما أخبروه به، من نجاته وإهلاك قومه.

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾

ذكر– تعالى– عن الملائكة أنهم أَمَرُوه أن يسري بأهله بعد مضيّ جانب من الليل، وأن يكون لوط يمشي وراءهم؛ ليكون أحفظ لهم، وهكذا كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم– في الغزو، إنما يكون ساقة يُزْجي الضعيف، ويحمل المُنْقَطِعَ.

وقوله: ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾، أي: إذا سمعتم الصيحة بالقوم، فلا تلتفتوا

إليهم، وذروهم فيما حلَّ بهم من العذاب والنكال، ﴿وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ﴾، كأنَّهُ كانَ معهم من يهديهم السبيلَ.

﴿ وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ ﴾، أي: تقدمنا إليه في هذا، ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ﴾، أي: وقت الصباح، كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴾(1).

﴿ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾

أخبر – تعالى– عن مجيء قوم لوط إليه، لمَّا علموا بضيفانه وصباحة وجوههم، وأنهم جاؤوا مستبشرين بهم، ﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي ﴾، أي: حق على الرجل إكرام ضيفه، ﴿فَلَا تَفۡضَحُونِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴾، أي: ولا تُخْجِلُونِي فيهم، قال لهم قبل أن يعلم أنهم رسل الله، كما في سورة هود، وأمَّا هاهنا، ففيه تقديم وتأخير، مع أن الواو لا تقتضي الترتيب، ولا سيما إذا دل دليل على خلافه، فقالوا مجيبين له: ﴿أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾، أي: أومَا نهيناك أن تضيف أحداً؟ فأرشدهم إلى نسائهم، وما خَلَقَ لهم ربهم منهن من الفروج المباحة، هذا وَهُمْ غافلون، عما يُراد بهم من الهلاك، وما يَصْحَبُهم من العذاب المستقر؛ ولهذا قال – تعالى– لنبيه محمد – صلى الله عليه وسلم–: ﴿ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾، أقسم الله – تعالى– بحياته – عليه الصلاة والسلام–؛ تشريفاً وتعظيماً له، ولهذا قال ابن عباس: ما خلق الله، وما ذرأ، وما بَرَأ نفساً أكرم إليه من محمد – صلى الله عليه وسلم–، وما سمعتُ الله أقسم بحياة أحدٍ غيرَهُ(2)، أي: وحياتك، وعمرك، وبقائك في الدنيا، إنهم لفي ضلالتهم يلعبون ويتمرَّدُونَ.

﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

الصيحة: هي ما جاءتهم من الصوت العاصِفِ عند شروق الشمس، وهو طلوعها، وذلك مع رفع بلادهم إلى أعنان السماء، ثم قلْبِهَا، وجعلها عاليها سافلها،

---

(1) سورة هود، من الآية (81).

(2) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (118/17).

وإرسال حجارة السجِّيل عليهم.

وقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾، أي: إن هذه آثار النقم الظاهرة على تلك البلاد، لمن تأمَّلها، وتوسَّمها بعين بصره، وبصيرتِهِ، قال مجاهد: أي: للمتفرسين، وقال غيره: للناظرين المعتبرين. وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: " اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله"[1]، رواه الترمذي، وهو ضعيف جداً.

وعن أنس: أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– قال: "إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسُّم"[2]، رواه ابن جرير، وهو أيضاً ضعيف جداً.

وقوله: ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾، أي: وإن قرية "سدوم" التي أصابها ما أصابها من القلب الصُّوري والمعنوي، والقذف بالحجارة لبطريق مَهْيَعةٍ سالكةٍ مستمرة إلى اليوم، كما قال: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴾[3]، وقيل: أي: بسبيل مُعْلَمٍ، وطريق واضحٍ، بصقعٍ من الأرض.

وقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾، أي: إن في الذي صنعنا بقوم لوطٍ من الهلاك، وإنجائنا إياه وأهله، لَدَلالةً واضحة للمؤمنين بالله ورسله.

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾

هم قوم شعيب، والأيكة: الشجر المُلْتَفُّ، وكان ظلمهم بشركهم بالله، وقطعهم الطريق، ونقصهم المكيال والميزان، فانتقم الله منهم بالصيحة، والرجفة، وعذاب يوم الظُّلة، وكانوا قريباً من قوم لوطٍ، بَعْدَهم في الزمان، ومُسامِتِينَ لهم في المكان؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾، أي: طريقٌ ظاهرٌ مُبَيَّنٌ.

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

---

(1) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: تفسير القرآن، باب: سورة الحجر (298/5)، برقم (3127)، من حديث أبي سعيد الخذري – رضي الله عنه– مرفوعاً، وقال الترمذي: هذا حديث غريب، إنما نعرفه من هذا الوجه، وقد رُوي عن بعض أهل العلم.

(2) أخرجه الطبري في تفسيره (121/17)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (473/10)، وقال: رواه البزار والطبراني في الأوسط وإسناده حسن.

(3) سورة الصافات، الآية (137).

هم قوم ثمود، الذين كذبوا صالحاً نبِيَّهُم، ومن كذَّب نبيًّا، فقد كذبَ جميعَ الرُّسل؛ ولهذا أُطْلِقَ عليهم تكذيب المرسلين.

وذكر – تعالى– أنه آتاهم من الآيات ما يدلّهم على صدقِ ما جاء به صالح، كالناقة التي أخرجها لهم، بدعاء صالح من الصخرة الصَّمَّاء، فكانت تسرحُ في بلادهم، لها شِرْبٌ، ولهم شِرْبُ يوم معلوم، فلما عَتَوْا، وعقروها، قال لهم: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾[1]، ذلك وعد غير مكذوب، وقال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[2]، وذلك أنهم ﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾، أي: من غير خوفٍ ولا احتياج إليها، بل أَشَرٌ وبطرٌ وعبثٌ، كما هو المشاهد من صنيعهم بوادي الحِجْر، الذي مرَّ به رسول الله – صلى الله عليه وسلم–، وهو ذاهب إلى "تبوك"[3]، فقنَّعَ رأسه، وأسرع دابّتَه، وقال لأصحابه: "لا تدخلوا بيُوت القوم المعذبين، إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تبكوا، فتباكوا؛ خشية أن يصيبكم ما أصابهم"[4].

وقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾، أي: وقت الصباح من اليوم الرابع، ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾، أي: ما كانوا يشتغلونه من زروعهم، وثمارهم، التي ضَنُّوا بمائها عن الناقة، حتى عقروها؛ لئلّا يُضَيَّقَ عليهم في المياه، فما دفعت عنهم تلك الأموالُ العذابَ.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾

﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، أي: إلا بالعدل، ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾[5].

---

(1) سورة هود، من الآية (65).

(2) سورة فصلت، من الآية (17).

(3) تبوك: موضع بين وادي القُرى والشام، معجم البلدان – لياقوت الحموي (14/2).

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: سورة الحجر (1737/4)، برقم (4425)، من حديث عبدالله بن عمر – رضي الله عنهما– مرفوعاً، ونصُّه: "لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين، فلا تدخلوا عليهم، أن يصيبكم مثل ما أصابهم"، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الزهد والرقائق، باب: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين (220/8)، برقم (7655)، من حديث عبدالله بن عمر – رضي الله عنهما– مرفوعاً، ونصُّه: "لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذبين، إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين، فلا تدخلوا عليهم، أن يصيبكم مثل ما أصابهم".

(5) سورة النجم، من الآية (31).

وقد أخبر – تعالى – نبيَّهُ بقيام الساعة، وأنها كائنة لا محالة، ثم أمره بالصفح الجميل، أي: بالإعراض والعفو الْحَسَنِ عن المشركين، في أذاهم له، وتكذيبهم بما جاءهم به، كما قال: ﴿ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞ ﴾(1)، وكان هذا قبل القتال، فإنها مكية، والقتال إنما شُرِعَ بعد الهجرة.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾: تقرير للمَعَاد، وأنه قادر على إقامة الساعة، فإنه الخلَّاق الذي لا يُعجزه خلْقُ ما يشاء، وهو العليم بما تمزَّقَ من الأجساد، وتفارق(2) في الأقطار، كما قال – تعالى –: ﴿ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾(3)، إلى آخره...

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

أي: كما آتيناك القرآن العظيم، فلا تَنْظُرَنَّ إلى الدنيا وزينتها، وما متعنا به أهلها من الزهرة الفانية؛ لنفتنهم فيه، فلا تغبطهم بما هم فيه، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات؛ حزناً عليهم في تكذيبهم لك، ومخالفتهم دينك، ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ ﴾، أي: لَيِّنْ جانبَكَ ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾، كما قال – تعالى –: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾(4).

واختلفوا في السبع المثاني، قال ابن مسعودٍ وابن عمر وابن عباس وكثير من التابعين: هي السبع الطُّوَل: البقرة، وآل عمران، إلى تمام السبع.

وقالوا فيهن: الفرائض، والحدود، والقصص، والأحكام، والأمثال، والخبر، والعِبَر (5).

وقيل: أي أعطيتك سبعة أجزاء: مُرْ، وانْهَ، وأبشِر، وأنذِر، واضربِ الأمثال، وأُعْدُادِ النعم، وأنبئك بنبأ القرآن.

(1) سورة الزخرف، من الآية (89).

(2) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (546/4): (وتفرق)، وهو الصحيح.

(3) سورة يس، الآية (81).

(4) سورة التوبة، من الآية (128).

(5) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (129/17).

وقيل: هي الفاتحة، فإنها سبع آيات، وبه قال كثير من الصحابة والتابعين، كما سبق في فضل سورة الفاتحة، وعليه ابن جرير[1]، وقد نصَّ أن الفاتحة السبع المثاني، ولكن لا ينافي وصْفُ غيرها من السبع الطُّوَل بذلك، لما فيها من هذه الصفة، كما لا ينافي وَصْفَ القرآن بكماله بذلك أيضاً، كما – تعالى-: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾[2]، فهو مثاني من وجهٍ، ومتشابه من وجه، وهو القرآن العظيم أيضاً، كما أنه – عليه الصلاة والسلام- لمَّا سُئِلَ عن المسجد الذي أسس على التقوى، فأشار إلى مسجده، والآية نزلت في مسجد قباء، فلا تنافِي؛ لأن ذكر الشيء لا يُنافِي ما عداه، إذا اشتركا في تلك الصفة.

وقوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ﴾، أي: اسْتَعِنْ بما آتاك الله من القرآن العظيم، عمّا هم فيه من المتاع والزهرة الفانية، وقيل: هم الأغنياء، والأزواج هنا: الأصناف[3] الكفار، وفيه نَهْيُ الشخص عن تمنِّي ما لصاحِبِهِ.

﴿وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾

أمر– تعالى– نبيَّه – عليه الصلاة والسلام– أن يقول للناس: إنه ﴿ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ﴾، النذارة، نذير لهم من عذاب أليمٍ، أن يَحِلَّ بهم على تكذيبه، كما حلَّ بمن تقدمهم من الأمم المكذِّبة لرسلها من العذاب.

وقوله: ﴿ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾، أي: المتحالفين، أي: تحالفوا على مخالفة الأنبياء، وتكذيبهم، وأذاهم، كما قال – تعالى – إخباراً عن قوم صالحٍ: إنهم ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ﴾[4]، أي: لَنَقْتُلَنَّهُمْ ليلاً، فكأنهم كانوا لا يكذبون بشيء، إلا اقتسَمُوا عليه، فسُمُّوا مقتسمين.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ﴾، أي: جَزَّؤوا كتبهم المنزلة عليهم أجزاءً،

(1) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (136/17).

(2) سورة الزمر، من الآية (23).

(3) كذا في المخطوط، والصحيح: (أصناف).

(4) سورة النمل، من الآية (49).

فآمنوا ببعض، وكفروا ببعضٍ، وهم أهل الكتاب[1]، قاله ابن عباس وغير واحدٍ، وقيل: أي: سحراً وكهانة، قال بعضهم: هو ساحرٌ، وآخر: مجنون، وآخر: كاهن، فذلك العضين، والعِضَة بلسان قريش: السِّحْرُ[2]، قال ابن عباس: إن الوليد بن المغيرة اجتمع عليه نفر من قريشٍ، وكان ذا سنٍّ فيهم، وقد حضر الموسم، فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسِمُ، وإن وُفود العرب سَتَقْدُم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأَجْمِعُوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا، فيُكَذِّبَ بعضكم [بعضاً] [3]، ويرد قولُكُمْ بعضاً[4] بعضاً، فقالوا: وأنت يا أبا عبد شمسٍ، فقل، وأَقِم لنا رأياً، نقول به، قال: لا، بل أنتم تقولوا[5]؛ لأستمع، قالوا: نقول: كاهن، قال: ما هو بكاهن! قالوا: فتقول: مجنون، قال: ما هو بمجنون! قالوا: فنقول: شاعر، قال: ما هو بشاعر! قالوا: فنقول: ساحر، قال ما هو بساحر! قالوا: بماذا نقول؟ قال: والله؛ إن لِقَوْلِهِ حلاوةً، فما أنتم بقائلين من هذا شيئاً، إلا عُرِف أنه باطل، وإن أقرب القول أن تقولوا: هو ساحر، فتفرَّقوا عنه بذلك، فأنزل الله: ﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾ أصنافاً[6].

قوله: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾، أي: يوم القيامة، ﴿ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾، أي: في الدنيا، يعني عن قول لا إله إلا الله، قال ابن مسعود: والذي لا إله غيره، ما منكم من أحد إلا سيخلو الله به يوم القيامة، كما يخلو أحدكم بالقمر، ليلة البدر، فيقول: ابْنَ آدم، ماذا غرَّك بي؟ ماذا عملت فيما علمت؟ ابْنَ آدم ماذا أجبت المرسلين[7]؟ وعن معاذ قال: قال لي رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: " يا معاذ، إن المؤمن يوم القيامة يُسْأَلُ عن جميع سعيه، حتى كُحْلِ عينيه، وحتى فُتَاتِ الطيب[8] بأُصْبُعِهِ، فلا أُلْفِيَنَّك تأتي يوم القيامة، وأحدٌ أسعدُ بما أتاك الله منك[9]"، رواه ابن أبي حاتم.

---

(1) ينظر جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (142/17).
(2) المصدر نفسه، (146/17).
(3) ساقطة من المؤلف، مثبتة من تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (550/4).
(4) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (550/4): (بعضه)، وهو الصحيح.
(5) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (550/4): (قولوا)، وهو الصحيح.
(6) ينظر: دلائل النبوة – للبيهقي (200/2).
(7) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (150/17).
(8) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (551/4): (الطينة).
(9) تفسير – ابن أبي حاتم (2273/7).

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾.

أمر- تعالى- رسوله، بإبلاغ ما بعثه به وانفاذِهِ والصَّدع به، وهو مواجهة المشركين به، كما قال ابن عباس: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾، أي: أمْضِهِ، وافعل بما تؤمر. وقال مجاهد: هو الجهر بالقرآن في الصلاة[1]، كما قال ابن مسعود: ما زال النبي – صلى الله عليه وسلم- مستخفيا، حتى نزلت: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾ فخرج هو وأصحابه[2]، وقوله: ﴿ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴾، أي: بَلِّغْ ما أنزل إليك من ربك، ولا تَلْتَفِتْ إلى المشركين، الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله، ﴿ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ﴾[3] ولا تَخَفْهُم؛ فإن الله كافيك إيَّاهم، وحافظك منهم كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ ﴾[4]، الآية...، قال ابن إسحاق: كان عظماء المستهزئين خَمْسَةَ نفر، كانوا ذوي أسنانٍ، وشرف في قومهم، من بني أسد بن عبدالعزى: الأسود بن المطلب، أبو زمعة، كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم- قد دعا عليه؛ لمَا كان يبلغه من أذاه واستهزائه، فقال: اللهم أَعْمِ بَصَرَه، وأَثْكِلْهُ بولده، ومن بني زهرة: الأسود بن عبد يغوث، ومن بني مخزوم: الوليد بن المغيرة، ومن بني سهم: العاص بن وائل، ومن خزاعة: الحارث بن الطلاطلة، فلمّا تمادوا في الشرِّ والاستهزاء برسول الله – صلى الله عليه وسلم- أنزل الله: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾، ثم إن جبريل أتى النبي – صلى الله عليه وسلم-، وهو يطوف بالبيت، فقام، وقام رسول الله – صلى الله عليه وسلم- إلى جنبه، فمرَّ به الأسود بن عبد يغوث، فأشار إلى بطنه، فاستسقى بطنه، فمات منه حَبَنًا[5]، ومرَّ به الوليد بن المغيرة، [فأشار][6] إلى

---

(1) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (151/17).
(2) المصدر نفسه (152/17).
(3) سورة القلم، الآية (9).
(4) سورة المائدة، من الآية (67).
(5) الحَبَنُ: داء في البطن يَعظُمُ منه ويَرِمُ، تاج العروس من جواهر القاموس – للزبيدي (392/34)، الجذر "ح ب ن".
(6) ساقطة من المؤلف، مثبتة من تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (552/4).

أثر جُرحٍ، بأسفل كعب رجله، فكان أصابه قبل ذلك بسنتين، وهو يجرُّ إزاره، فتعلَّقَ به نحاتةُ نبْل، فخدش رجله، فانتفض به فمات، ومرَّ به العاص بن وائل، فأشار إلى أخمص قدمه، فخرج على حمارٍ له يريدُ "الطائف"، فنزل شِعْباً، فربض على شِبْرِقَةٍ نَبْتٌ ذو شوكٍ، فدخلت في أَخْمُص رجله منها شوكة، فقتله[1]، ومرَّ به الحارث بن الطلاطلة، فأشار إلى رأسه، فامتخط قيْحاً، فقتله، قال ابن عباس: كان رأسهم الوليد بن المغيرة[2].

وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ تهديد شديد، ووعيد أكيد للمشركين.

وقوله: ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾، أي: وإنا لنعلم أنك يحصُل لك من أذاهم حُزن، وانقباض، وضيق صدرٍ، فلا يُبْهِتَنَّكَ[3] ذلك عن إبلاغ رسالتي، ولا تَفْتُر عنه، وتوكل على الله، فإنه كافيك، وناصرك عليهم، فَاشْتَغِلْ بذكر الله، وتحميدِهِ، وتسبيحه، وعبادته التي هي الصلاة؛ ولهذا قال: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾، كما قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: " قال الله: يا ابن آدم، لا تُعْجِزْ عن أربع ركعات في أول النهار، أَكْفِكَ آخره"[4]، رواه أبو داود والنسائي.

ولهذا كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا حَزَبَهُ أمرٌ، صلَّى.

وقوله: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾، قالوا: هو الموت، كما في قوله – تعالى– إخباراً عن أهل النار: أنهم قالوا: ﴿لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ إلى قوله: ﴿ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾، وفي الآية أن الصلاة واجبة على كل مسلم، ما دام عقله ثابتاً، فيصلي بحسب حاله، كما في الصحيح عن عمران بن حصين[5]، أن رسول الله – صلى الله

---

(1) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (552/4): (فقتلته)، وهو الصحيح.

(2) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (153/17).

(3) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (553/4): (يثنينك)، وهو الصحيح.

(4) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: التطوع، باب: صلاة الضحى (497/1)، برقم (1291)، وأخرجه النسائي في سننه، كتاب الصلاة الأول، باب: الحث على الصلاة أَوَّلَ النهار، (177/1)، برقم (468)، من حديث نُعَيْم بن حَمَّار –رضي الله عنه– مرفوعاً، واللفظ للنسائي.

(5) عمران بن حصين بن عبيد الله بن خلف بن عبد نُعْم بن حذيفة الخزاعي، أبو نُجيد، أسلم عام خيبر، وغزا عدة غزوات، وكان صاحب راية خزاعة يوم الفتح، بعثه عمر بن الخطاب – رضي الله عنه– إلى البصرة فقيهاً، قال فيه محمد بن سيرين: لم نر في البصرة أحداً من أصحاب النبي يفضُلُ على عمران بن حصين، توفي بالبصرة سنة (52هـ)، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب – لابن عبدالبر (1208/3) وأُسَدُ الغابة في معرفة الصحابة – لابن الأثير (299/4)، والإصابة في تمييز الصحابة – لابن حجر العسقلاني (705/4).

عليه وسلم– قال: "صلِّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإنْ لم تستطعْ فعلى جنبٍ"[1].

ويُسْتَدَلُّ بها على تخطئة مَن قال مِن الملاحدة: إن اليقين: المعرفة، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة، سقط عنه التكليف عندهم! وهذا كفر وضلال وجهل، فإن الأنبياء – عليهم السلام– كانوا هم وأصحابه[2] أعلمَ الناسِ بالله، وأعرَفهم بحقوقه وصفاته، وكانوا مع هذا أعبدَ الناس، وأكثرهم مواظبةً على فعل الخيرات، إلى حين الوفاة، وإنما المراد باليقين هاهنا: الموت، كما ذكر، ولله الحمد على الهداية.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: أبواب تقصير الصلاة، باب: إذا لم يُطِقْ قاعداً صلى على جنب، (376/1)، برقم (1066)، من حديث عمران بن حصين – رضي الله عنه– مرفوعاً.

(2) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (554/4): (وأصحابهم)، وهو الصحيح.

تفسير سورة: النحل

[تمهيد](1)

[وسَمِّيَتْ بهذا الاسم، نسبةً لذكر اسم النحل فيها، ولم يُذْكَر في سورة أخرى، والسورة تتناول محتويات كثيرة، نذكرها على النحو الآتي:

- تميَّزت هذه السورة بالإكثار المتنوع من الأدلة على تفرده – سبحانه وتعالى- بالإلهية، والأدلة على فساد دين الشرك، والأدلة على إثبات رسالة محمد – صلى الله عليه وسلم-.
- شريعة الإسلام قائمة على أصول ملّةِ إبراهيم – عليه السلام-، وإثبات البعث والجزاء.
- الاستدلال على إبطال عقيدة المشركين في هذا الكون، بما فيه من سمٰوٰت وأرض وشمس وقمر ونجوم وجبال ونبات...، إلخ.
- خُصَّ النَّحلُ بالكلام؛ لِما فيه من من منافع وللاعتبار بإلهامها.
- العظة والاعتبار بما حلَّ بالأمم السابقة.
- الحذر من الرِّدَّة عن الإسلام، والرخصة فيمن أُكرِه على الكفر؛ تُقْيةً من المُكرِهين.
- تطبيق أصول الشريعة بما فيها من عدل وإحسانٍ، ومواساة، وأمر بمعروفٍ، ونهي عن منكرٍ ... إلخ.
- الحذر من الوقوع في مصائد الشيطان.
- الحذر من عواقب كفران النعمة.
- الدعوة إلى الإسلام تكون بالحكمة والموعظة الحسنة.
- التوبة لِمَنْ عَمِل السوء بجهالة.
- تثبيت الرسول – صلى الله عليه وسلم-، ووعده بتأييد الله له](2).

وهي مكية قيل: إلا قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم﴾ إلى آخر السورة(3)...

---

(1) إضافة من المحقق.

(2) ينظر: التحرير والتنوير – للطاهر بن عاشور (93/14).

(3) ينظر: تفسير – السمعاني (158/3).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾

أخبر – تعالى– عن اقتراب الساعة، ودُنُوِّها، مُعَبِّراً بصيغة الماضي الدالّ على التحقيق، والوقوع لا محالة، كما قال – تعالى–: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾(1).

وقوله: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾، أي: قَرُبَ ما تباعدَ، فلا تستعجلوه، يَحْتَمِلُ أن يعود الضمير على الله، وأن يعود على العذاب، وكلاهما متلازم، كما قال – تعالى–: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾(2)، الآية...، وما قال الضحاك: من أن المراد من أمر الله: فرائضُه وحدودُهُ(3)، فقد ردَّهُ ابن جرير، فإنه لم يُعْلم أن أحداً استعجل الفرائض والشرائع قبل وجودها، بخلاف العذاب، فإنهم استعجلوه قبل كونه؛ استبعاداً وتكذيباً(4).

ثم إنه – تعالى– نزَّه نفسه عن شِركهم به غيرَه، وعبادتهم معه ما سوَاه، من الأوثان والأنداد، تعالى وتَقَدَّس علوًّا كبيراً، فقال: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾

﴿بِٱلرُّوحِ﴾، أي: بالوحي، كما قال – تعالى–: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾(5)، الآية...

وقوله: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾، هم الأنبياء، كما قال الله – تعالى–: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾(6).

وقوله: ﴿أَنۡ أَنذِرُوٓاْ﴾ أي: ليُنْذِرُوا ويُعَلِّمُوا ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾، أي: فاتقوا عقوبتي، ولا تخالفوا أمري، ولا تعبدوا غيري.

---

(1) سورة الأنبياء، من الآية (1).
(2) سورة العنكبوت، من الآية (53).
(3) ينظر: زاد المسير في علم التفسير – للجوزي (427/4).
(4) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (164/17).
(5) سورة الشورى، من الآية (52).
(6) سورة الأنعام، من الآية (124).

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ﴾.

أخبر- تعالى- عن خَلْقه العالمَ العلويَّ، وهو السمٰوٰت، والعالمَ السفليَّ وهو الأرض، بما حَوَتْ، وأن ذلك مخلوق بالحق، لا العبث[1]، بل ﴿ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ﴾[2].

ثم نَزَّه نفسه عن شِرْك مَنْ عَبَدَ معه غيرَه من الأصنام، التي لا تخلق شيئاً، وهم يُخْلَقُون، فقال: ﴿ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾.

ثم نبَّهَ عن خلق جنس الإنسان﴿ مِن نُّطۡفَةٖ ﴾، أي: ضعيفة مَهِينَةٍ، فلما استقل ودَرَج، إذا هو يخاصمُ ربَّه – تعالى-، ويكذِّبُه، ويحاربُ رسلَه، وهو إنما خُلِقَ؛ ليكون عبداً لا ضدًّا، كما قال: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ﴾[3]، وعن بشر بن حَجَّاشٍ[4] قال: بصَقَ رسول الله – صلى الله عليه وسلم- في كفِّهِ، ثم قال: "يقول الله: ابْنَ آدمَ، أنَّى تُعجزني؟ وقد خَلَقْتُكَ من مثل هذه، حتى إذا سوَّيتُكَ، فعدلْتُكَ، مشيتَ بين برديك، وللأرض منك وئِيدٌ، فجَمَعْتَ، ومنعْتَ، حتى إذا بلغتِ الحلقومَ، قلتَ: أتصدَّقُ! وأنَّى أوانُ الصَّدَقَةِ؟"[5]، رواه أحمد وابن ماجه.

﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾

قد منَّ الله على عباده بما خلق لهم من الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم، كما

---

(1) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (555/4): (للعبث)؛ وهو الصحيح.

(2) سورة النجم، من الآية (31).

(3) سورة يس، من الآية (77).

(4) بُسْرُ بن جِحَاش القرشي، روى عنه جبير بن نفير – رضي الله عنه-، عِدَادُه في الشاميين، حيث نزل حمص، وبها مات، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب – لابن عبدالبر (167/1)، وأُسْدُ الغابة في معرفة الصحابة – لابن الأثير (270/1)، والإصابة في تمييز الصحابة – لابن حجر العسقلاني (291/1).

(5) أخرجه أحمد في مسنده (387/29)، وأخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب: الوصايا، باب: الوصايا (12/4)، برقم (2707)، من حديث بُسْرِ بن جَحَّاشٍ – رضي الله عنه- مرفوعاً.

فَصَّلَها في سورة الأنعام إلى ثمانية أزواج، وبما جعل لهم منها من المصالح والمنافع، من أصوافها وأوبارها وأشعارها، يلبسون ويَفْرِشُون ويَعْرِشُون، ومن ألبانها يشربون، ويأكلون من أولادها، وما لَهُمْ فيها من الجَمَالِ؛ ولهذا قال: ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾، وهو وقت رجوعها عشيًّا من الرعي، فإنها تكون أَمَدَّه خواصِرَ، وأعظمَه ضروعاً، وأعلاهُ أَسْنِمةً.

﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أي: غُدْوةً، حين تبعثونها إلى المرعى، ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾، وهي الأحمال الثقيلة التي تَعْجِزُون عن نقلها وحملها، ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾، وذلك في الحج والعمرة والغزو والتجارة ونحوها...، تستعملونها أنواع الاستعمال من ركوبٍ وتحميل، كما قال – تعالى-: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾(1)، الآية....

﴿إِنَّ رَبَّكُمْ﴾، أي: الذي خلق لكم هذه الأنعام وسخَّرَها لكم، ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ بخَلْقه، حيث جعل لهم هذه المنافع، قال ابن عباس: ﴿دِفْءٌ﴾، أي: ثياب ولباس تُنْسَجُ، والمنافع: ما ينتفعون به من الأطعمة والأشربة، ونَسْلِ كلِّ دابة(2).

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، هذا صنف آخر مما خلق الله – تعالى- لعبادِهِ، مَنَّ به عليهم، وهو: الخيل والبغال والحمير، التي جعلها للركوب والزينة بها، وذلك أكبر المقاصد منها، ولما فَصَلَهَا عن الأنعام، وأفردها بالذكر، استدلّ مِن العلماء على تحريم لحوم الخيل بذلك، كأبي حنيفة(3) – رحمه الله- ومن وافقه؛ لأنه – تعالى- قَرَنَها بالبغال والحمير، وهي حرام، كما ثبت به السنة، وذهب إليه أكثر الأئمة(4)، وكان ابن عباس يكره لحوم الخيل، كما يكره

(1) سورة المؤمنون، من الآية (21).

(2) ينظر: تفسير – ابن أبي حاتم (2276/7).

(3) النعمان بن ثابت بن زوطا التيمي الكوفي، أبو حنيفة، الإمام الأعظم الفقيه المجتهد المحقق، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وُلد سنة (80هـ)، كان قوي الحجة، كريماً في أخلاقه، جواداً حسن المنطق والصورة، أدرك بعض الصحابة كأنس بن مالك، وجابر بن عبدالله ومعقل بن يسار وغيرهم – رضي الله عنهم –، قال أبو يوسف القاضي: ما رأيت أعلم بتفسير الحديث من أبي حنيفة، وقال ابن المبارك: أبو حنيفة أفقه الناس، وقال الشافعي: الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة، من مؤلفاته: (المسند)، و(الفقه الأكبر) توفي ببعداد سنة (150هـ)، ينظر: تذكرة الحفاظ– للذهبي (126/1)، والجواهر المضية في طبقات الحنفية – لعبد القادر بن أبي الوفاء محمد بن أبي الوفاء القرشي أبو محمد، الناشر: مير محمد كتب خانه، كراتشي (26)، والأعلام – للزركلي (36/8).

(4) يُكره لحم الفرس عند أبي حنيفة، وهو قول مالك، وقال أبو يوسف ومحمد والشافعي – رحمهم الله-: لا بأس بأكله، والكراهة هنا كراهة تحريم، ينظر: الهداية شرح بداية المبتدى – لأبي الحسن علي بن أبي بكر بن عبدالجليل الرشداني المرغياني، المكتبة الإسلامية، (68/4).

لحوم البغال والحمير[1]، قائلاً: ﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ ﴾ إلى آخره ...، هذه للأكل، ﴿ وَٱلۡخَيۡلَ ﴾ إلى آخره ...، وهذه للركوب، كما قال خالد بن الوليد[2] " نَهَى رسول الله – صلى الله عليه وسلم– عن أكل لحوم الخيل، والبغال، والحمير "[3]، رواه أحمد وأبوداود والنسائي، وإسناده ضعيف، ولو ثبت هذا، لكان نصًّا في تحريم لحوم الخيل، ولكن يدفعه ما ثبت في الصحيحين: عن جابر قال: " نهى رسول الله – صلى الله عليه وسلم– عن لحوم الْحُمُرِ الأهليَّة، وأَذِن في لُحُوم الخيل[4]"، وعن أسماء بنت أبي بكر[5]، قالت: "نَحَرْنَا على عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم– فرساً، فأكلناه، ونحن بالمدينة"[6]، رواه مسلم، فهذه أقوى وأثبت، وإليه ذهب جمهور العلماء: مالك والشافعي وأحمد وأصحابهم، وأتباعهم سلفاً وخلفاً[7]، قال ابن عباس: كانت الخيل وحشيةً، فذلَّلها الله لإسماعيل[8] – عليه السلام–.

---

(1) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (172/17).

(2) خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبدالله بن عمر مخزوم القرشي المخزومي، أبو سليمان، وقيل: أبو الوليد، أحد أشراف قريش، وشهد مع قريش الحروب، بما فيها عمرة الحديبية، أسلم في السنة الثامنة للهجرة، شهد مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم– فتح مكة وغزوة مؤتة وحنيناً والطائف، فتح الله على يديه اليمامة في عهد أبي بكر الصديق – رضي الله عنه–، وقتل أكثر أهل الردة، منهم مسيلمة الكذاب، قال فيه الرسول – صلى الله عليه وسلم–: نِعْمَ عبدُالله، وأخو العشيرة، وسيفٌ من سيوف الله، سلَّه الله على الكفار والمنافقين، وعندما حضرته الوفاة قال: لقد شهدت مائة زحف أوزهاءها، وما في جسدي موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية، ثم هأنذا أموت على فراشي كما يموت العَيْر، فلا نامت أعين الجبناء، توفي بالمدينة سنة (21هـ)، وقيل: توفي بحمص سنة (21هـ)، أو (22هـ)، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب– لابن عبدالبر (427/2)، وأُسْدُ الغابة في معرفة الصحابة – لابن الأثير (135/2)، والإصابة في تمييز الصحابة – لابن حجر العسقلاني (251/2).

(3) أخرجه أحمد في مسنده (18/28)، وأبو داود في سننه، كتاب: الأطعمة، باب: في أكل لحوم الخيل (413/3)، برقم (3792)، والنسائي في سننه، كتاب: الصيد والذبائح، باب: تحريم أكل لحوم البغال (159/3)، برقم (4844)، بزيادة "وكل ذي ناب من السباع"، من حديث خالد بن الوليد – رضي الله عنه – مرفوعاً.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المغازي، باب: غزوة خيبر (1544/4)، برقم (3982)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الصيد والذبائح، باب: في أكل لحوم الخيل (65/6)، برقم (5134)، من حديث جابر بن عبدالله – رضي الله عنهما– مرفوعاً بألفاظ متقاربة.

(5) أسماء بنت أبي بكر الصديق القُرَشيةُ التَّيْمية، ذات النطاقين، وهي زوج الزبير بن العوام، أسلمت قديماً، وهاجرت إلى المدينة، روى عنها عددٌ من الصحابة، أَمْثَالُ عبدالله بن عباس، وابْنِها عروة، وعبَّاد بن عبدالله بن الزبير، وغَيْرِهم، – رضي الله عنهم وأرضاهم–، ثم إنها تُوُفِّيَتْ بعد سنة (73هـ)، وقيل: عاشت بعده عشرة أيام، وقيل: عشرون يوماً، وقيل بضع وعشرون يوماً، وقد بلغت مائة سنة، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب– لابن عبدالبر (1781/4)، وأُسْدُ الغابة في معرفة الصحابة – لابن الأثير (11/7)، والأعلام – للزركلي (305/1).

(6) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الصيد والذبائح، باب: في أكل لحوم الخيل (66/6)، برقم (5137)، من حديث أسماء بنت أبي بكر – رضي الله عنها– مرفوعاً

(7) ينظر: بداية المجتهد ونهاية المقتصد – لأبي الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي، الشهير بابن رشد الحفيد، مطبعة البابي الحلبي وأولاده – مصر، ط: الرابعة (1395هـ – 1975م)، (469/1)، وشرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك – لمحمد بن عبدالباقي بن يوسف الزرقاني، دار الكتب العلمية، بيروت (1411هـ) (123/3).

(8) الدر المنثور – لعبد الرحمن بن الكمال، جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت (1993م) (111/5).

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

لما ذكر- تعالى- من الحيوانات ما يُسَار عليه في السُّبل الصورية، نبَّه على الطُّرق المعنوية، وكثيراً ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسية إلى المعنوية الدينية، كما قال – تعالى-: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[1]، ولمَّا فرغ – تعالى- من بيان منافع الحيوانات على ما سبق، شَرَع في بيان الطُّرُق التي يسلكها الناس إليه، فقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾، قال مجاهد: طريق الحق على الله[2]، وقال السُّدِّيُّ: هو الإسلام، يعني: على الله أن يبين الهُدى والضلالة؛ لأنه – تعالى- أخبر أنَّ ثَمَّ طرقاً تسلك إليه، فليس يصل إليه منها إلا طريق الحق، وهي طريق الشريعة، وما عداها مسْدُودة، والأعمال فيها مردُودةٌ؛ ولهذا قال: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾، أي: مائل زائغ عن الحق، قال ابن عباس: هي الطرق المختلفة، والآراء والأهواء المتفرقة[3]، كاليهودية والنصرانية والمجوسية، ثم أخبر – تعالى- أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيئته، فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، كما قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[4].

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

لمَّا ذكر- تعالى- ما أنعم به عليهم من الأنعام والدوابِّ، شرع في ذكر نعمته عليهم، في إنزاله المطر من السماء، وهو العلو، ممَّا لَهُمْ فيه بُلْغَة، ومتاع لهم ولأنعامهم، فقال: ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾، أي: جعله عذباً زلالاً، يَسُوغُ لكم شرابه، ولم يجعله ملحاً أُجَاجاً.

﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾، أي: وأُخْرِجَ لكم به شجر، أنتم ترعُون فيه

(1) سورة البقرة، من الآية (197).

(2) تفسير – ابن أبي حاتم (2278/7).

(3) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (176/17).

(4) سورة يونس، من الآية (99).

أنعامكم، كما قال ابن عباس وغير واحدٍ، ﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾، أي: ترعَوْن[1]، ومنه الإبل السائمة، والسَّوْمُ: الرَّعْيُ.

وقوله: ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ ﴾ أي: يُخْرِجُها من الأرض بهذا الماء الواحد، على اختلاف صُنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾، أي: دلالةً وحجّةً على أنه لا إله إلا إلا الله.

ثم قال – تعالى–: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴾

نبَّه – تعالى– عبادَه على آياته العظام ومِنَنِهِ الجِسَام، في تسخيره الليل والنهار يتعاقبان، والشمس والقمر يدوران، والنجوم الثوابت والسيَّارات، في أرجاء السمٰوٰت نوراً وضياءً؛ ليهتدي بها في الظلمات، وكل منها يسير في فلكه الذي جعله – تعالى– يَسيرُ بحركة مقدَّرة، لا يزيد عليها، ولا ينقص منها، والجميع تحت قهره، وسلطانه، وتسخيره، وتقديره، وتسييره، كما قال – تعالى–: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾، إلى قوله: ﴿ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[2]؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾، أي: لَدلالات على قدرته – تعالى– وسلطانه، لقوم يعقلون عن الله، ويفهمون حُجَجَهُ.

وقوله: ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓ ﴾، لمَّا نبَّه على معالم السمٰوٰت، نبَّه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة، والأشياء المختلفة من الحيوانات والمعادن والنبات والجمادات، على اختلاف ألوانها وأشكالها، وما فيها من الخواص والمنافع، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أي: آلاء الله ونِعَمَهُ فيشكرونها.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ

---

(1) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (178/7).

(2) سورة الأعراف، من الآية (54).

تَلۡبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾

أخبر- تعالى- عن تسخيره البحر المتلاطم الأمواج، ومنَّ على عبادِهِ بتذليله له(1)، وتيسيره للركوب فيه، وَجَعْلِه السمكَ والحيتانَ فيه، وإحْلالِهِ لعباده لحمها حيًّا وميّتاً، في الحلِّ والإحرام، وما يخلقه فيه من اللآلئ والجواهر، وفيه تسهيله للعباد اسْتِخْرَاجَها من قعرها؛ حلية يلبسونها، وتسخيره البحر؛ لحمل السفُن التي تمخرُهُ، أي: تشقه، وقيل: تمخر الرياح، وكلاهما صحيح، وأصل المَخْرِ: الرفع والشقُّ.

وقوله: ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾، أي: جواري مملوءة، مُقبلة ومُدبرةً، وهو أنك ترى سفينتين أحدهما تُقبل، والأخرى تُدبِرْ، تجريان بريح واحدة، بأمر الله(2)، قاله قتادة، قال: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾، أي: التجارة ونحوها... ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾، أي: نعمَهُ وإحسانهُ.

ثم ذكر- تعالى- الأرض، وما جعل فيها من الرواسي الشامخات، والجبال الراسيات؛ لتقر الأرض، ولا تميد، أي: لا تضطرب بما عليها من الحيوانات، فلا يَهنأ لهم عيش بسبب ذلك، قال الحسن: لمَّا خُلِقَتِ الأرض، كانت تميد، قالت الملائكة: إن هذه غيرُ مُقَررة(3) أحداً على ظهرها، فأصبحوا، وقد خُلقت الجبال، ولم تدْرِ الملائكة مِمَّ خُلِقت الجبال؟(4).

وقوله: ﴿وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا﴾، أي: وجعل فيها أنهاراً، تجري من مكان إلى مكان آخر؛ رزقاً للعباد، ينبع من موضع، وهو رزق لأهل موضعٍ آخر، فتقطع البراري والقفار، وتخرق الجبال، والآكام؛ ليصل إلى البلد الذي سُخِّر لأهله، وكذلك جعل في الأرض سُبلاً، أي: طُرقاً يُسْلَكُ فيها من بلادٍ إلى بلادٍ.

---

(1) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (562/4): (لهم)، وهو الصحيح.

(2) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (182/17).

(3) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم– لابن كثير (562/4): (مقرّة)، وهو الصحيح.

(4) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (184/17).

وقوله: ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ ﴾، أي: دلائل من جبال كبارٍ، وآكام صغار، ونحو ذلك...، يَسْتَدِلُّ بها المسافرون برًّا وبحراً، إذا ضَلُّوا الطريق بالنهار.

وقوله: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾، أي: في ظلام الليل.

ثم قال – تعالى– منبهاً على عظمته، وأنه لا تنبغي العبادة إلا له، دون ما سواه من الأوثان، التي لا تخلقُ شيئاً، بل هم يخلقون؛ ولهذا قال: ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

ثم نبَّههم على كثرة نِعَمِهِ عليهم، وإحسانه إليهم، فقال: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ ﴾، أي: لا تحفظوها ولا تعدّوها، أي: مُتَجَاوِزٌ عنكم، ولو طالبكم بشكر جميع نِعَمِهِ عليكم، لَعَجَزْتُم عن القيام بذلك، ولو أمركم به، لَضَعُفْتُم، وتركتم، ولو عذبكم، لعذبكم، وهو غير ظالم لكم، ولكنه غفور رحيم، يغفر الكثير، ويجازي على اليسير، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ ﴾ لما كان منكم من تقصير في شكر بعض نِعَمِه، إذا تُبْتُم، ﴿ رَّحِيمٞ ﴾ بكم، أن يعذِّبكم بعد الإنابة.

﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾

أخبر– تعالى– أنه يعلم الضمائر والسرائر، كما يعلم الظواهر، وسيجزي كل عاملٍ بعمله يوم القيامة، ثم أخبر أنَّ الأصنام التي تدعونها من دون الله لا يخلقون شيئاً، كما قال الخليل: ﴿أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴾[1].

وقوله: ﴿ أَمۡوَٰتٌ ﴾، أي: هي جمادات لا أرواح لها[2]، فلا تسمع ولا تبصر، ولا تعقل.

﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾، أي: لا يدرون متى تكون الساعة، فكيف يُرْتَجَى

---

(1) سورة الصافات، الآيتان (95 – 96).

(2) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (564/4): (فيها)، وهو الصحيح.

عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء؟ إنما يُرْتَجَى ذلك من الذي يعلم كل شيءٍ، وهو خالق كل شيء.

﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾

أخبر – تعالى– أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد، وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك، كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك، أنهم قالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾[1].

وقوله: ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾، أي: عن عبادة الله، مع إنكار قلوبهم لتوحيده.

وقوله: ﴿ لَا جَرَمَ ﴾، أي: حقًّا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾، أي: سيجزيهم على ذلك أتمَّ الجزاء، ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾، أي: المتعظِّمِينَ والمتجبِّرين.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾.

أي: وإذا قيل لهؤلاء المكذبين: ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ ﴾، قالوا مُعرِضين عن الجواب: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾، أي: لم يُنْزِلْ شيئاً، إنما هذا الذي يُتْلَى علينا أساطير الأولين، أي: مأخوذ من كتب المتقدمين، أي: يفترون على الرسول – عليه الصلاة والسلام–، ويقولون فيه أقوالاً متضادةً، كلها باطل[2]؛ لأن من أعرض عن الحقّ، فمهما قال أخطأ، فقالوا: يقولون ساحر وشاعر، كما سبق قريباً في قصة الوليد بن المغيرة، وقال – تعالى–: ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ ﴾ أي: إنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك؛ ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ ﴾، أي: يصير عليهم خَطِيئَةُ ضَلَالِهم في أنفسهم، وخطيئة إغوائهم لغيرهم، والذين اقتدَوْا في ذلك بهم، كما جاء في الحديث: "من دعا إلى

(1) سورة ص، الآية (5).

(2) كذا في المخطوط، وتفسير القرآن العظيم– لابن كثير (565/4): (باطلة)، وهو الصحيح.

ضلالةٍ، كان عليه من الإثم مِثْلُ آثام من اتبعه، لَا يَنْقُصُ من آثامهم شيئاً"[1].

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾، أي: يحكمون من الآثام، وهذا كقوله: ﴿ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ ﴾[2]، أي: ذنوبهم، وذنوب من أطاعَهُمْ.

﴿ قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾

قال ابن عباس: الذي مكر هو: نَمْرُود، حين بنى الصرح[3]، وأول جبَّار كان في الأرض نَمْرُود، فبعث الله عليه بعوضةً، فدخلتْ في مِنْخَرِه، أربعمائة سنة يضرب بالمطاريق، وأرحم الناس به من جمع يديه، فضرب بها[4] رأسهُ، وكان معذباً تلك المدة، حتى أماته الله، وقال آخرون: بل هو بُخت نصَّر، وقال آخرون: هذا من باب التمثيل؛ لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله، وأشركوا في عبادته غَيْرَهُ، كما قال نوح: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا﴾[5]، أي: احتالوا في إضلال الناس بكل حيلةٍ، وأمالوهم إلى شركهم بكل وسيلة.

وقوله: ﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ ﴾، أي: اجْتَثَّهُ من أصله، وأبطل عملهم وأصلها، كما قال – تعالى-: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُ﴾[6]، وقوله: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْ﴾[7]، وقال هاهنا: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ﴾، أي: فعمد [إلى][8] تخريب بنيانهم من أصولها، ﴿فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ﴾، يعني: أعلى

(1) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: العلم، باب: من سنَّ سنة حسنة أو سيئة، ومن دعا إلى هدى أو ضلالة (62/8) برقم (6980)، من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – مرفوعاً.
(2) سورة العنكبوت، من الآية (13).
(3) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري، (193/17).
(4) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (566/4): (بهما)، وهو الصحيح.
(5) سورة نوح، الآية (22).
(6) سورة المائدة، من الآية (64).
(7) سورة الحشر، من الآية (2).
(8) زيادة من المحقق يقتضيها السياق.

البيوت، ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾، أي: يهينُهم بالعذاب، ويُظهر فضائحَهم، ويجعل سرائرَهم علانيةً كما قال – تعالى-: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾[1]، أي: تظهر وتشتهر، كما في الصحيحين عن ابن عمر قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم-: "يُنْصَبُ لكل غادر لواءٌ يوم القيامة عند استه، بقدر غَدْرته، فيقال: هذه غدرة فلان بن فلان"[2]، وهكذا هؤلاء، يظهر للناس ما كانوا يُسِرُّونَهُ من المكر، ويخزيهم الله على رءوس الخلائق، ويقول الرب – تعالى- مقرّعاً وموبخاً: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾، أي: تُخَالِفُونَ المؤمنين في شأنهم، وتحاربُونهم في مسألتهم، يعني أين هم عن نصركم وخلاصكم هاهنا؟ هل ينصرونكم أو يدفعون العذاب عنكم؟ فإذا توجهتْ عليهم الْحُجَّة، وحقتْ عليهمُ الكلمةُ، ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾، وهم السادة في الدنيا والآخرة المخبرون عن الحق: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، أي: الفضيحة اليوم، والعذاب في الآخرة لمن كفر بالله، وأشرك به مالا يضُرهُ، ولا ينفعه.

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾

أخبر- تعالى- عن حال المشركين عند احتضارهم؛ ومجيء الملائكة إليهم لِقَبْضِ أرواحهم، ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾، أي: أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾، كما يقولون يوم المعاد: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، قال الله مكذباً لهم في قيلهم ذلك: ﴿بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾، أي: بئس المَقِيل والمُقام والمكان من دار هوانٍ، لمن كان متكبراً عن آيات الله واتباع رسله، وهم يدخلون جهنم من يوم موتهم بأرواحهم، ويأتي أجسادَهم في قبورها من حرِّها وسمُومهَا، فإذا كان يوم القيامة سُلِكَتْ أرواحهم في أجسادهم، وخُلِّدَتْ في نار جهنم، ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾[3]

(1) سورة الطارق، الآية (9).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأدب، باب: ما يدعى الناس بآبائهم (2285/5)، برقم (5823)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الجهاد والسير، باب: تحريم الغدر (141/5) برقم (4627)، من حديث ابن عمر – رضي الله عنهما – مرفوعاً بألفاظٍ متقاربة.

(3) سورة فاطر، من الآية (36).

كما قال تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا ﴾[1] الآية....

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾

أخبر – تعالى – عن السعداء، بخلاف ما أَخْبَرَ به عن الأشقياء، فإن أولئك قيل لهم: ﴿ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ ﴾، فقالوا معرضين عن الجواب: أي: لم يُنْزِلْ شيئاً، إنما هذا أساطير الأولين، وهؤلاء ﴿ قَالُواْ خَيۡرٗا ﴾، أي: أنزل خيراً ورحمة وبركة، لمن اتَّبعهُ وآمن.

ثم أُخْبِرُوا عمَّا وعد الله به عباده فيما أنزل على رُسُله فقالوا: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞ ﴾، أي: من أحسن عمله في الدنيا، أحسن اللهُ عملَه في الدنيا والآخرة.

ثم أُخْبِرُوا بأن دار الآخرة خير، أي: من الحياة الدنيا، والجزاء فيها أَتَمُّ من الجزاء في الدنيا، كما قال – تعالى –: ﴿ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ ﴾، وأبقى، ثم وَصفُوا الدار الآخرة، فقالوا: ﴿ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾.

وقوله: ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ ﴾ بدل من قوله: ﴿ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾، أي: لهم في الآخرة ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ ﴾، أي: إقامة يدخلونها، ﴿ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾، أي: بين أشجارها وقصورها، ﴿ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ﴾، كما قال – تعالى –: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ ﴾[2]، وفي الحديث: " إن السحابة لتمر بالملأ من أهل الجنة وهم جُلوسٌ على شرابهم، فلا يشتهي أحد منهم شيئاً، إلا أمْطرته عليهم، حتى إن منهم لَمَنْ يقول: أمطِرينا كواعبَ أتراباً[3]، فيكون كذلك".

وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾، أي: هكذا يجزي الله كل من آمن به،

(1) سورة غافر، من الآية (46).

(2) سورة الزخرف، من الآية (71).

(3) أخرجه الطبري في تفسيره (642/21).

واتَّقاهُ، وأحسن عملَهُ.

ثم أخبر عن حَالهم عند الاحتضار، وهم طيّبُون، أي: مخلصُون من الشِّرك وكل سوءٍ، بأن الملائكة تسلم عليهم، ويبشرونهم بالجنة، كما قال – تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾، إلى قوله: ﴿غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾[1]، وسبق الحديث المبسوط في قبض روح المؤمن، وروح الكافر، في قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾[2] الآية....

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

هدَّد الله المشركين على تماديهم في الباطل، وإغرارهم[3] بالدنيا، فقال: هل ينتظر هؤلاء إلا الملائكة أن تأتيهم لقبض أرواحهم، ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ يعني: يوم القيامة وما يعاينونه من الأهوال.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: هكذا تمادى في شِركِهِم أسلافُهُم، وأشباهُهُم من المشركين، حتى ذاقوا بأس الله، وحلّوا فيما هُمْ فيه من العذاب والنكال. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ لأنه أعذر إليهم، وأقام حُجَجَه عليهم بإرسال رسُلِه وإنْزَالِ كتبِهِ، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، أي: بمخالفة الرُّسُل وتكذيبهم، فلهذا أصابهم[4] عقوبةُ الله، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾، أي: أحاط بهم من العذاب الأليم، ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: يسخرون من الرسل إذا تواعدوهم بعذاب الله.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ

---

(1) سورة فصلت، الآيات (30 – 32).

(2) سورة إبراهيم، من الآية (27).

(3) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (569/4): (واغترارهم)، وهو الصحيح.

(4) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (569/4): (أصابتهم)، وهو الصحيح.

﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾

أخبر – تعالى– عن اغترار المشركين بما هم فيه من الشرك محتجِّين بالقدر، في قولهم: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾، أي: من البحائر والسوائب والوصائل، وغير ذلك، مما كانوا ابتدعوه واخترعوه...، يعنون: [أنه][1] لو كان – تعالى– كارهاً لِمَا فعلناهُ، لأنكرَهُ علينا بالعقوبة، ولما مكَّننَا منْهُ، قال – تعالى–: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، أي: من أسلافهم وأشباههم ونُظرائهم من أهل الشرك، بل قد أنكَرَهُ عليكم أشدَّ الإنكار، ونهاكم عنه آكدَ النهي، وبعث في كل أمة، أي: قَرْنٌ من الناس، ﴿رَّسُولًا﴾، وكلُّهم يدعو إلى عبادة الله، وينهى عن عبادة ما سِواهُ، ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، ولم يزل هذا الإرسال منذ حدث الشرك في بني آدم في قوم نوحٍ إلى أن خُتم بِهِم محمد – صلى الله عليه وسلم–، كما قال – تعالى–: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾[2]، فكيف يسوغ للمشركين بعد هذا أن يقولوا: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾، فمشيئة الله الشرعية منتفية؛ لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله، وأمَّا مشيئتُهُ الكونية، وهي تمكينهم من ذلك قدراً، فلا حجَّة لهم فيه؛ لأنه – تعالى– خلق النار، وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك حكمة بالغة، ثم إنه – تعالى– قد أخبر أنه قد عيَّرَهم، وأنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا، بعد إنذار الرسل؛ فلهذا قال: ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ﴾، أي: وجبت ﴿عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ بالقضاء السابق حتى مات على الكفر، ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾، أي: اسألوا عمَّا كان من أمر من خالف الرسُلَ، وكذَّب بالحقِ، كيف أهلكهم الله.

ثم أخبر – تعالى– رسوله أنَّ حرصَهُ على هدايتهم، لا ينفعهم إذا أراد ضلالهم،

(1) ساقطة من المؤلف، مثبتة من تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (570/4).

(2) سورة الأنبياء، الآية (25).

كما قال: ﴿ مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ ﴾[1]، الآية...

وقوله: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ ﴾، أي: شأنه وأمرُه أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ فلهذا قال: ﴿لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ ﴾، أي: من أضله، فمن ذا يهديه من بعد الله؟ أي: لا أحد، ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾، أي: في إنقاذهم من عذابه ووثاقِهِ.

﴿ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

أخبر- تعالى- عن المشركين أنهم حلفوا بالله، واجتهدوا في الحلف، وغلَّظُوا الأيمان، على أنه: ﴿لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾، أي: استبعدوا ذلك، وكذبوا الرسل في إخبارهم لهم بذلك، وحلفوا على نقيضه، فقال – تعالى- رادًّا عليهم، ومكذبا لهم: ﴿بَلَىٰ ﴾، أي: بلى، سيكون ذلك، ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا ﴾، أي: لا بُدَّ مِنْهُ، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾، أي: فَلِجَهْلهم يخالفون الرسل، ويقعون في الكفر.

ثم ذكر- تعالى- حكمته في المعاد، وقيام الأجساد يوم التناد، فقال: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ﴾، أي: للناس ﴿ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ ﴾، أي: من كل شيءٍ، و ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ ﴾[2]، أي: في أيمانهم وأقسامهم، لا يبعث الله من يموت.

ثم أخبر- تعالى- عن قدرته على ما يشاء، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وإنما أمرهُ إذا أراد شيئاً أن يقول له: "كن"، فيكون، والمعاد من ذلك، إذا أراد كونه فإنما يأمر به مرّةً واحدةً، فيكون كما يشاء، كما قال: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴾[3]، فهكذا في هذه الآية يأمر به واحدةً فإذا هو كائنٌ كما قال الشاعر **[البحر: الطويل]:**

---

(1) سورة الأعراف، من الآية (86).

(2) سورة النجم، من الآية (31).

(3) سورة القمر، الآية (50).

إذا ما أراد الله أمراً فإنما ** يقول له: كن قولة، فيكونُ(1)

يعني: أنه – تعالى- لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر بِهِ، فإنه لا يُمَانَع ولا يُخَالَف؛ لأنه الواحد القهار، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾.

أخبر- تعالى- عن جزائه للمهاجرين في سبيله؛ ابتغاء مرضاته، الذين فارقوا الدار، والإخوان والخِلَّانَ؛ رجاء ثواب الله وجزائه، ويحتمل أن يكون سبب نزول هذه الآية هجرةَ الحبشة؛ وذلك أنه اشتدَّ أذى الكفار على المؤمنين بمكة، حتى خرجوا من بين أَظْهُرِهم إلى بلاد الحبشة؛ ليتمكنوا من عبادة ربهم، ومن أشرافهم: عثمان بن عفان مع زوجته رقيّة، بنت رسول الله – صلى الله عليه وسلم-، وجعفر بن أبي طالب(2)، وأبو سلمة بن عبدالأسد(3)، في جماعة قريبة من ثمانين، ما بين رجل وامرأةٍ – رضي الله عنهم وأرضاهم-، وقد فعل، فوعدهم بالمجازاة الحسنة في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾، قال ابن عباس وغير واحدٍ: هي المدينة(4)، وقيل: الرزق الطيب، فإن من ترك لله شيئاً، عوضه الله بما هو خيرٌ لهُ منه، وكذلك وقع، فإن الله مكّنهم في البلاد، وحكَّمهم على رقاب العباد، فصاروا أمراءَ حُكَّاماً، وكل منهم

---

(1) هذا البيت ذكره أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزُباني في كتابه نور القبس المختصر من المقتبس، تح: رودلف زلهايم، دار فرانتس شتايز بقيسبادن (1384هـ – 1964م)، (341)، ونسبه لابن كُنَاسة (ت 207هـ).

(2) جعفر بن أبي طالب، عبد مناف بن عبدالمطلب القرشي الهاشمي، أبو عبدالله، أحد السابقين إلى الإسلام، وكان يُشبه رسول الله – صلى الله عليه وسلم- خَلْقاً وخُلُقاً، وقد هاجر إلى الحبشة، وغزا غزوة مؤتة، وقاتل فيها، حتى قُطِعَتْ يداه، ثم قُتِلَ، فأبدله الله جناحين في الجنة يطير بهما، فَسُمِّي: جعفر الطيَّار، وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم- يسميه: أبا المساكين، وقال فيه: "وأما أنت يا جعفر، فأشبهت خَلْقي وخُلُقِي، وأنت من عترتي التي أنا منها"، توفي سنة: (8 هـ)، وَوُجِدَ في جِسمه تسعون جراحةً، ما بين ضربة سيف، وطعنة رمح.، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب – لابن عبدالبر (242/1)، وأُسْدُ الغابة في معرفة الصحابة – لابن الأثير (421/1)، والإصابة في تمييز الصحابة – لابن حجر العسقلاني (485/1).

(3) عبدالله بن عبد الأسد بن هلال بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم القرشي المخزومي، أبو سلمة، أحد السابقين إلى الإسلام والمهاجرين إلى الحبشة، وهو أخو الرسول – صلى الله عليه وسلم- من الرضاعة، شَهِدَ بدراً، وتوفي بالمدينة سنة (3هـ)، وقال عند وفاته: (اللهم أَخْلُفْنِي في أهلي بخير)، فخلفهُ رسول الله – صلى الله عليه وسلم- على زوجه أم سلمة – رضي الله عنها-، فصارت من أمهات المؤمنين، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب- لابن عبدالبر (939/3)، وأُسْد الغابة في معرفة الصحابة – لابن الأثير (299/3)، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني (152/4).

(4) تفسير القرآن – لأبي المظفر منصور بن محمد بن عبدالجبار السمعاني، تح: ياسر بن إبراهيم، وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض – السعودية (1418هـ – 1997م)، (173/3).

للمتقين إماماً، وأخبر- تعالى- أن ثوابهم في الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا، فقال: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ﴾، أي: مما أعطيناهم في الدنيا، ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ ما ادَّخر الله لمن أطاعه واتَّبع رسولَه، ثم وصفهم – تعالى-، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على أذى من آذاهُم من قومهم، متوكلين-، على الله الذي أحسن لهم العاقبة في الدارين.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

قال ابن عباس: لما بعث الله محمداً – صلى الله عليه وسلم- رسولاً أنكرت العرب، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسُوله بشراً، فأنزل الله هذه الآية[1]: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾، يعني: أهل الكتب المتقدمة، أبشراً كانت الرسل التي أتتكم أم ملائكة؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتم، وإن كانوا بشراً، فلا تنكروا أن يكون محمداً رسولاً؟ وبه قال مجاهد[2].

وقال ابن زيد: المراد بالذكر: القرآن، مُسْتَشْهِداً بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[3]، هذا مُسَلَّمٌ، وليس المراد هاهنا: أن الحالف[4] [لا][5] يرجع في إثباته بعد إنكاره، وكذلك قال محمد الباقر[6]: نحن أهل الذكر[7]، ومراده أن هذه الأمة أهل القرآن، فإنهم أعلم من جميع الأمم السالفة، والغرض أن هذه الآية الكريمة أخبرت بأن الرسل الماضينَ قبل محمد – صلى الله عليه وسلم – كانوا بشراً، كما هو بشر، كما [قال][8] – تعالى-: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾[9] وغيرها من الآيات البينات...

---

(1) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (208/17).

(2) المصدر نفسه (211/17).

(3) ينظر: المصدر نفسه (209/17).

(4) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم- لابن كثير (573/4): (المخالف).

(5) ساقطة من المؤلف، مثبتة من تفسير القرآن العظيم- لابن كثير (573/4).

(6) محمد بن علي بن الحسين الهاشمي العلوي، أبو جعفر الباقر، الإمام الثبت، وخامس الأئمة الاثنى عشر عند الإمامية، ولد سنة (56هـ)، كان من النُّسَّاك والعُبَّادِ، روى عن أبي سعيد الخدري وجابر بن عبدالله وابن عمر وعبدالله بن جعفر وغيرهم – رضي الله عنهم-، وسُمِّيَ بالباقر؛ لأنه بَقَر العلمَ، أي: شقَّهُ وعرفَ أصلَه وخفيَّه، وتوسعَ فيه، مات سنة (114هـ)، وقيل سنة (117هـ)، ينظر: تذكرة الحفاظ – للذهبي (93/1)، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب – لابن العماد العكري (143/1)، والأعلام – للزركلي (270/6).

(7) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (209/7).

(8) ساقطة من المؤلف، مثبتة من تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (574/4).

(9) سورة الإسراء، الآية (94).

ثم ذكر – تعالى– أنه أرسلهم ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ﴾، أي: بالدلائل والحجج، ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾: هي الكتب، جمع الزبور، تقول العرب: زَبَرْتُ الكتاب، إذا كتبته، وقال – تعالى–: ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾[1].

ثم قال – تعالى– ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ ﴾، يعني: القرآن، ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾، من ربهم، أي: لعلمك بمعنى ما أُنْزِلَ عليك، وحِرْصِك عليه، واتِّباعِك له؛ لعلمنا بأنك أفضل الخلائق، فتفصِّل ما أُجْمِل، وتبيِّن لهم ما أَشْكَل: ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾، أي: ينظرون لأنفسهم، فيهتدون.

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

أخبر– تعالى– عن حلمِهِ وإنظَارِهِ العصاةَ، الذين يعملون السيئات، ويمكرون بالناس في دعائهم إليها، وحملهم عليها، مع قدرته، ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾، [أي: من حيث لا يعلمون][2] مجيئه إليهم، وقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ ﴾ في المعاش بها من أسفارٍ ونحوها من الأشغال المُلْهِيَة، وقيل: أي: أسفارهم، وقيل: أي: في الليل والنهار، كما قال: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾[3]، الآية...

وقوله: ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾، أي: لا يُعجزون الله على أي حالٍ كانوا عليه.

وقوله: ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾، أي: أو يأخذهم الله في حال خوفهم من العذاب، فإنه يكون أبلغ، فإن حصول ما يتوقع مع الخوف، شديدٌ.

ثم قال – تعالى–: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾، أي حيث لم يعاجلكم بالعقوبة، كما ثبت في الصحيحين: " لا أحَد أصبر على أذىً يسمعه، من الله، إنهم يجعلون له

(1) سورة القمر، الآية (52).

(2) ساقطة من المؤلف، مثبتة من تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (575/4).

(3) سورة الأعراف، الآية (97).

الولد، وهو يرزقهم ويعافيهم"[1].

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾

أخبر – تعالى – عن عظمته وجلاله وكبريائه، الذي خضع له كل شيءٍ، ودانت الأشياء والمخلوقات بأسرها، فأخبر أن كل ما لَهُ ظلٌّ، يتفيَّؤُ ذات اليمين، وذات الشمال، أي: بكرة وعشيًّا، فإنه ساجدٌ بظلِّه لله – تعالى –، قال مجاهد وغيره: إذا زالت الشمس، سجد كل شيءٍ لله – عز وجل –[2].

قوله: ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾، أي: صاغرون .

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾، أي: من كل حيوان يدِبُّ، ويقال السجود الطاعة، والأشياء كلها مطيعة لله من حيوان وجمادٍ، وقيل: سجودُ الأشياء: تذللها وتسخيرها لما أريد وسُخِّر له، وسجود الجمادات وما لا يعقل: ظهورُ أثر الصنع فيه، على معنى أنه يدعو الغافلين إلى السجود لله عند التأمل، والتدبرِ فيه.

وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾، أي: ويسجد لله الملائكةُ غيْرَ مستكبرين عن عبادته، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم﴾، أي: يسجدون خائفين وجلين منه – تعالى –، ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، أي: ملتزمين لطاعته في امتثال أوامره، وترك زواجره، وتخصيص الملائكة بالذكر مع دخولهم في عموم ما في السمٰوٰت والأرض؛ تشريفاً، ورفعاً لشأنهم.

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

أخبر – تعالى – أنه لا إله إلا هو، وأنه لا ينبغي العبادة إلا له وحده لا شريك

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأدب، باب: الصبر على الأذى (2262/5)، برقم (5748)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: لا أحد أصبر على أذى من الله – عز وجل – (133/8)، برقم (7258)، من حديث أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه – مرفوعاً بألفاظٍ متقاربة.

(2) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (217/17).

له، ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾، قال ابن عباس وغير واحدٍ: أي: دائماً واجباً خالصاً، أي: له العبادة وحده، ممن في السمٰوٰت والأرض، وقال مجاهد: أي: راهبُون أن تشركوا به شيئاً، وأخلصوا له الطاعة[1]، كما في قوله: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾[2]، ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾، أي: أتخافون غير الله، وهو المستحق أن يُخاف منه؟! استفهام إنكار.

ثم أخبر أنه مالك النفع والضَّرِّ، وأن ما بالعباد من نعمة ورزقٍ وعافيةٍ ونصرٍ، فمِنْ فضْلِهِ عليهم، وإحسانِه إليهم.

﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾، أي: تَضِجُّون وتصيحون بالدعاء والاستغفار، أي: لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو، فإنكم عند الضرورات تلجؤون إليه، وتسألونه، وتُلحُّونَ في الرغبة إليه، مستغيثين به، كما قال – تعالى-: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ﴾، إلى قوله: ﴿كَفُورًا﴾[3].

وقوله: ﴿لِيَكْفُرُواْ﴾، أي: لِيَجْحَدُوا، ﴿بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ﴾، أي: أعطيناهم من النِّعم الكاشفةِ عنهم النقَمَ، وهذا[4] اللام قيل: للعاقبة، وقيل: للتعليل.

ثم توعدهم قائلاً: ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾، أي: اعملوا ما شئتم، وتمتعوا، وعيشوا بما أنتم فيه قليلاً، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، أي: عاقبة ذلك.

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

أخبر – تعالى– عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره بغير علمٍ من

---

(1) المصدر السابق (222/17).
(2) سورة الزمر، من الآية (3).
(3) سورة الإسراء، الآية (67).
(4) كذا في المخطوط، والصحيح (هذه).

الأصنام والأوثان، وجعلوا لله نصيباً مما رزقهم الله، فقالوا: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ ﴾[1]، الآية...، أي: جعلوا لآلهتهم نصيباً مع الله، وفضلوها[2] أيضاً على جانبه!

فأقسم – تعالى– بنفسه الكريمة، ليسألنَّهم عن ذلك الذي افْتَرَوْهُ، وليجزينهم أوفر الجزاء في نار جهنم، فقال: ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾

ثم أخبر– تعالى– عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، وجعلوها بَنَاتِ الله، وعبدوها معه، فأخطؤُوا خطأً كبيراً في كل مقام من هذه المقامات الثلاث، فنسبوا إليه – تعالى– أنَّ له ولداً، ولا ولَدَ له! ثم أعطوهُ أخسَّ القسمين من الأولاد، وهو البنات، وهم لا يرضونها لأنفسهم، كما قال: ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾[3].

﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي: عن قولهم وإفكهم.

وقوله: ﴿ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾، أي: يختارون لأنفسهم الذكور، وينسبون إلى الله الإناث، فإنه: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾، أي: كئيباً من الهمِّ، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾، ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن، ﴿ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ ﴾، أي: يكره ما[4] يراه الناس، ﴿مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ﴾، أي: إن أبقاها، أبقاها مُهانَة، لا يُورثِها، ولا يعتني بها، ويُفَضِّلُ أولاده الذكور عليها، ﴿أَمْ يَدُسُّهُ﴾، أي: يدفِنها حية في التراب، كما كانوا يفعلون في الجاهلية! ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾، أي: بئس ما قالوا، وبئس مَا قسموا، وبئس ما نسبوا إليه.

وقوله: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ﴾، أي: النقص إنما يُنْسَبُ إليهم، ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ﴾، أي: الكمال المطلق، من كل جهة، هو منسوب إليه، ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾.

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ

(1) سورة الأنعام، من الآية (136).

(2) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (77/4): (وفضلوهم)، وهو الصحيح.

(3) سورة النجم، من الآيتين (21 – 22).

(4) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (578/4): (أن)، وهو الصحيح.

﴿أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ‎ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾

أخبر– تعالى– عن حِلْمِه بخلقه مع ظُلمهم، وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا، ما ترك على ظهرها من دابة، أي: لَأَهْلَكَ جميع دوابِ الأرض، تبعاً لإهلاك بني آدم، ولكن الرب – جل جلاله– يَحْلِمُ ويَسْتُر، ويُنْظِرُ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: لا يعاجلهم بالعقوبة، إذ لو فعل ذلك بهم، لما أبقى أحداً.

قال أبو الأحوص[1] (كاد الجُعْلُ[2] أن يُعَذَّبَ بذنبِ بني آدم)[3]، وعن ابن مسعود نَحْوُه، وسمع أبو هريرة رجلاً يقول: إن الظالم لا يضر إلا نفسه، فالتفت إليه فقال: (بلى، والله، حتى إن الحُبَارى لتموت في وكرها بظلم الظالمِ) [4].

وقوله: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: يمهلهم بحلمِهِ إلى منتهى آجالهم، وانقضاء أعمارهم، وعن أبي الدرداء قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: "إن الله لا يؤخر شيئاً إذا جاء أجله، وإنما زيادة العمُر بالذرية الصالحةِ، يرزقها الله العبدَ، فيدعون له من بعده، فَيَلْحَقُهُ دعاؤُهم في قبره، فذلك زيادة العمر"[5]، رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾، أي: من البنات والشركاء الذين هم عبيده، وهم يأنفون أن يكون عند أحدهم شريكاً[6] له في ماله.

وقوله: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ ﴾، إنكاراً عليهم في دعواهم مع ذلك، أن لهم الحسنى في الدنيا، وإن كان ثَمَّ معاد، ففيه أيضاً لهم الحسنى! كما في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾[7]، قال ابن جرير: ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾،

---

(1) سالم بن سليم الحنفي الكوفي، أبو الأحوص، الحافظ الثقة، كان كثير الحديث، صالحاً فيه، وموصوفاً بالعبادة والفضل، قال يحيى ابن معين: ثقة متقن، وقال العجلي: صاحب سنة واتباع، مات بالكوفة سنة (199هـ)، ينظر: الطبقات الكبرى – لابن سعد (379/6)، وتذكرة الحافظ – للذهبي (183/1).

(2) الجُعْلُ: الدابةُ. ينظر: تاج تاج العروس من جواهر القاموس – للزبيدي (392/2)، الجذر "ج ع ل".

(3) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (230/17).

(4) المصدر نفسه (231/17).

(5) تفسير – ابن أبي حاتم (3174/10)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (402/7)، وقال: رواه الطبراني في الأوسط وفيه سليمان بن عطاء وهو ضعيف.

(6) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (579/4): (شريك)، وهو الصحيح.

(7) سورة مريم، الآية (77).

أي: يوم القيامة، وهو الصواب؛ ولهذا قال – تعالى– راداً عليهم في تمَنِّيهِم ذلك: ﴿لَا جَرَمَ﴾، أي: حقاً، لا بدَّ منه، ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾، أي: يوم القيامة، ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ قالوا: أي: منسِيُّون، مُضَيَّعُون، كما قال – تعالى–: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ﴾[1]، الآية...، وقيل: أي: مُعَجَّلُون إلى النار، من الْفَرَطِ، وهو السابق إلى الورد.

﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾

ذكر – تعالى– أنه أرسل إلى الأمم الخالية رسلاً، فكُذِّبت الرسل، فلك يا محمد، فيهم أسوة حسنة، فلا يَهُمَّنَّكَ تكذيب قومك لك، وإنما حَمَلَهُمْ على تكذيب الرسل تزيينُ الشيطان لهم ما فعلوه، ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾، أي: هُمُ اليوم تحت العقوبة والنكال، والشيطان وليُّهم، لا يملك لهم خلاصاً، ولا صريخ لهم، ولهم عذاب أليم.

ثم قال – تعالى– لرسوله: إنه إنَّمَا أنزل عليه الكتاب؛ ليبين للناس الذي يختلفون فيه، فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه، ﴿وَهُدًى﴾ للقلوب، ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن تَمَسَّكَ به، ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وكما جَعَلَ القرآنَ حياةً للقلوب الميتة بكفرها، كذلك يحيي الأرض بعد موتها، بما نَزَّلَهُ عليها من السماء من ماءٍ، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، أي: يفهمون الكلام ومعناه.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ۞ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

أي: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ﴾ أيها الناس، ﴿فِى ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، وهي: الإبل والبقر والغنم، ﴿لَعِبْرَةً﴾، أي لآية ودلالة على قدرة خالقها، وحكمته ولُطْفِهِ، ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾، الضمير المفرد هَاهُنَا يعود على معنى النِّعَمِ، أو عائد على الحيوان، أي: نسقيكم مما في بطن هذا الحيوان.

---

(1) سورة الأعراف، من الآية (51).

وفي الآية الأخرى: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾[1]، وكلاهما جائز.

وقوله: ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا﴾، أي: يتخلص الدم بياضه وطعمُه وحلاوته من بين فرث، ودم في باطن الحيوان، فيسري كلٌّ إلى موطنِهِ، إذا نضُج الغِذاءُ في معدته، يُصْرَفُ منه دم إلى العروق، ولبنٌ إلى الضرع، وبول إلى المثانة، وروث إلى المخرج، وكل منهما لا يشوب الآخر، ولا يمازجه بعد انفصاله عنه، ولا يتغير به، ﴿لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾، أي: لا [يَغَصُّ][2] أحدٌ به.

ثم ذكر- تعالى- ما يتخذه الناس من الأشربة من ثمرات النخيل والأعناب، وما كانوا يصنعونه من النبيذ المسكر قبل تحريمه، ودلَّ على التسوية بين مسكر العنب والنخل، كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد والجمهور، وكذا حكم سائر الأشربة المتخَذة من الحِنْطَة والشعير والذرة والعسل[3]، كما جاءت السّنّة بتفصيل ذلك، قال ابن عباس: "السكر: ما حَرُمَ من ثمرتيهما، والرزق الحسن: ما أُحِلَّ من ثمرتيهما، والسكر حَرامُه، والرزق الحسن حلاله رَطْباً ويابساً"[4]، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾، ناسب ذكر العقل هاهنا، فإنه أشرف ما في الإنسان؛ ولهذا حرَّم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة؛ صيانةً لعقولها.

﴿ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

الوحي هنا: الإلهام والهداية والإرشاد؛ أي: ألهم الله النحل، وقذف في نفسها أن تتخذ من الجبال بيوتاً، تأوي إليها، ﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ﴾، ثم هي مُحْكَمَةٌ في غاية الاتقاق في تسديدها، ورصفها، بحيث لا يكون بينهما خلل.

---

(1) سورة المؤمنون، من الآية (21).

(2) ساقطة من المؤلف، مثبتة من تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (581/4).

(3) ينظر: بداية المجتهد ونهاية المقتصد (471/1 – 472)، والفقه على المذاهب الأربعة – لعبد الرحمن بن محمد الجزيري (16/5).

(4) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (241/17).

ثم أذن لها – تعالى- إذناً قدرياً تسخيرياً أن تأكل من كل الثمرات، وأن تسلك الطريق التي جعله[1] الله مذلَّلَةً لها، أي: سَهْلَةً عليها، حيث شاءت، وهذا الجوّ العظيم، والبراري الشاسعة، والأدوية والجبال الشاهقة، ثم تعود كل واحدةٍ إلى موضعها وبيتها، لا تحيد عنه يَمْنةً ولا يَسْرةً، بل إلى بيتها سواءً، وما لها فيه من فراخٍ وعسلٍ، فتبنى بالشمع من أجنحتها، وتقيء العَسَل من فِيها، وتبيض الفراخ من دُبُرِها، ثم تُصْبِحُ إلى مراعيها.

وفي الحديث المرفوع الغريب: "عمر الذباب أربعون يوماً، والذباب كله في النار، إلا النحل"[2].

وقوله: ﴿ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ ﴾، أي: ما بين أبيض وأصفر وأحمر، وغير ذلك من الألوان الحسنة، على اختلاف مراعيها وأكلها منها.

وقوله: ﴿فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِ ﴾، أي: في العسل شفاء للناس من أدواءٍ تَعْرِضُ لهم، قال بعض من تكلم على الطب النبوي: "لو قال: فيه الشفاء، لكان دواءً لكل داءٍ، ولكن ﴿فِيهِ شِفَآءٞ ﴾، أي: يَصْلُحُ لكل أحدٍ من أدواء باردةٍ، فإنه حارٌّ، والشيء يُدَاوَى بضدِّهِ"، وقال مجاهد: "يعني: في القرآن"[3]، وهذا صحيح، ولكن الظاهر أن الضمير عائد إلى العسل، فإن الآية لبيانه، وإن الذي قاله مجاهد ذكروه في قوله: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[4]، ويؤيد الْقَوْلَ ما في الصحيحين: عن أبي سعيد أن رجلاً جاء إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال: إن أخي استطلق بطنُهُ، فقال: "اسقِهِ عسلاً"، فذهب، فسقاه عَسَلاً، ثم جاء، فقال: يا رسول الله، سقيتُهُ عسلاً، فما زادهُ إلا استطلاقاً! قال: "اذهب، اسقِهِ عسلاً"، فذهب، فسقاه، ثم جاء، فقال: يا رسول الله، ما زاده إلا استطلاقاً! فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم-: "صدق الله، وكذب بطن أخيك! اذهب، فاسقِهِ عسلاً"، فذهب، فسقاه فبرأ[5]، قال بعض علماء

---

(1) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (582/4): (جعلها)، وهو الصحيح.

(2) أخرجه أحمد بن علي بن المثنى، أبو يعلى الموصلي التميمي، في مسنده، تح: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، ط:1، 1404هـ – 1984م، (230/7)، من حديث أنس بن مالك – رضي الله عنه- مرفوعاً، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، (60/4): رجاله ثقات.

(3) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (250/17).

(4) سورة الإسراء، من الآية (82).

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الطب، باب: الدواء بالعسل (2152/5) برقم (5360)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: السلام، باب: التداوي بسقي العسل (26/7) برقم (5901)، كلاهما من حديث أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه- مرفوعاً.

الطب: كان هذا الرجل عنده فضلات، فلما سقاهُ عسلاً، وهو حار، تحلَّلت، فأسرعت في الاندفاع، فزاد إسهاله، فاعتقد الأعرابي أن هذا مَضَرَّةٌ، وهو مصلحة لأخيه، ثم سقاهُ، فازداد التحلل والدفع، ثم سقاهُ، فكذلك، فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن، استمسك بطنه، وصلُحَ مراجه واندفعت الأسقام ببركة إشارته – عليه الصلاة والسلام–[1] ، وفي الصحيحين: أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– كان يعجبُهُ الحلواء والعسل[2]، وفي البخاري: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: " الشفاء في ثلاثة: في شَرْطَةِ مِحْجَمٍ، أو شَرْبَةِ عسل، أو كَيَّةٍ بنار، وأنا أنهى أمتي عن الكَيِّ"[3].

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: إن في إلهام الله لهذه الدوابِّ الضعيفة الخِلْقَةِ إلى السلوك في هذه المهامِهِ، والاجتناء من سائر الثمار، ثم جمعها للشمع والعسل، وهو من أطيب الأشياء، ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، في عظم خالقها، ومُقَدِّرِها ومسخِّرها وميُسِّرها، فيستدلون بذلك على أنه القادر الحكيم.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.

أخبر – تعالى– عن تصرفه في عباده، وأنه هو الذي أنشأهم من العدم، ثم بعد ذلك يتوفاهم، فمنهم من يتركهم، حتى يُدْرِكَهُم الهرم، وهو الضعف في القُوى والخِلْقَة، قال علي – رضي الله عنه–: "أرذل العمر من خمسٍ وسبعين سنة غالباً"[4] ، وقيل: من ثمانين، وقيل: تسعين، وحينئذٍ يظهر سوء الحفظ والخرافَةُ، ويقلُّ العِلم؛ ولهذا قال: ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾، أي: بعد ما كان عالماً، أصبح لا يدري شيئاً من الفَنَدِ

---

(1) ينظر: زاد المعاد في هدي خير العباد– لمحمد بن أبي بكر الزرعي أبو عبدالله، ، تح: شعيب الأرناؤوط، وعبدالقادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، مكتبة المنار الإسلامية بيروت، الكويت، (1407هـ – 1986م)، (34/4)، وفتح الباري شرح صحيح البخاري– لأحمد بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة – بيروت، (1379هـ)، (169/10).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأشربة، باب: شراب الحلوى والعسل، (2129/5)، برقم (5291)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الطلاق، باب: وجوب الكفارة على من حرَّم امرأته ولم ينو الطلاق (185/4)، برقم (3752)، كلاهما من حديث عائشة – رضي الله عنها– مرفوعاً.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الطب، باب: الشفاء في ثلاث (2152/5)، برقم (5357)، من حديث ابن عباس – رضي الله عنه– مرفوعاً.

(4) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (251/17).

والخَرَفِ، وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم– يدعو: "أعوذ بك من البخل والكسل، وأرذل العمر، وعذاب القبر، وفتنة الدجال، وفتنة المحيا والممات"[1]، رواه البخاري، وقال زهير بن أبي سلمى**[البحر: الطويل]:**

سئمتُ تكاليفَ الحياة ومَن يَعِشْ ** ثمانين عاماً لا أبا لك يَسْأمِ
رأيتُ المنايا خَبطَ عشواءَ من تصِبْ ** تُمِتْهُ ومَن تخطئ تعمَّرْ ثم تَهْرمُ[2] [3]

﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾

بيَّن – تعالى– للمشركين جهلهم، وكفرهم فيما زعموهُ لله من الشركاء، وهم يعترفون أنها عبيدٌ له، كما كانوا يقولون في تلبياتهم وحجهم: "لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً، هو لَكَ، تملكه وما ملك"!! فأنكر الله عليهم قائلاً: أنتم لا ترضَون أن تساووا عبيدَكم فيما رزقناكم، فكيف يرضى هو – تعالى– بمساواة عبيده له في الإلهية والتعظيم؟ قال ابن عباس: في هذه الآية: لم يكونوا ليُشْرِكُوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني؟! فذلك قوله: ﴿ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾[4]، وفي رواية عنه أيضاً: فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسهم[5]، وقال قتادة: هذا مثل ضربه الله، فهل منكم من أحدٍ شارك مملوكه في زوجته وفي فراشه؟ فتعدلُون بالله خلقه وعبادَهُ؟! فإن لم ترض لنفسك هذا، فإن الله أحق أن يُنَزَّهُ من ذلك.

وقوله: ﴿ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾، أي: أنهم جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، فجحدوا نعمته، وأشركوا معه غيْرَهُ.

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ﴾

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: سورة الحجر (1741/4)، برقم (4430)، من حديث أنس بن مالك – رضي الله عنه– مرفوعاً.

(2) كذا في المخطوط، وفي ديوان زهير بن أبي سلمى(110): (تُمِتْهُ ومَن تُخْطيء يُعمَّرْ فيَهرَم).

(3) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(4) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (252/17).

(5) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (586/4): (لأنفسكم)، وهو الصحيح.

ذكر – تعالى – نعمةُ على عبيده، بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلِهِم وزيّهم، ولو جعل الأزواج من نوع آخر لما حصل ائتلاف ومودة ورحمةٌ، ولكن من رحمته خلق من بني آدم ذكوراً وإناثاً، وجعل الإناث أزواجاً للذكور.

ثم ذكر – تعالى – أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة، وهم أولاد البنين وقال ابن عباس: "بنوك حين يَحْفِدُونك، ويرفدونك، ويعينونك، ويَخْدِمونك"[1]، قال جميل[2]**[البحر: الكامل]:**

حفد الولائد حولهُنَّ وأسلمتْ ** بأكُفِّهِنَّ أزِمَّةَ الأجْمَالِ[3]

وقال مجاهد وغير واحد: الحفدةُ: الأنصار والأعوان والخدم[4]، وقيل: هم الأصهار، وهذه الأقوال داخلة في معنى الحفد، وهو الخدمة، ولمَّا كانت الخِدمة، قد تكون من الأولاد والأصهار والخُدَّام، والنعمةُ حاصلةٌ بهذا كله، قاله ابن جرير[5].

وقوله: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، أي: الرزق من المطاعم والمشارب.

ثم قال تعالى منكراً على من أشرك في عبادة المنعِم غيرَه: ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ﴾، وهو الأصنام والأنداد، ﴿وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾، أي: يسترون نعمة الله عليهم، ويضيفونها إلى غيره، وفي الصحيح: "إن الله يقول للعبد يوم القيامة: ألم أُزَوِّجْك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأَذَرُكَ تَرْأَسُ وتَرْبَعُ؟"[6].

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾

---

(1) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (257/17).

(2) جميل بن عبدالله بن معمر العذري القضاعي، أبو عمرو، شاعر، كان مفتوناً ببثينة، ويهواها منذ الصغر، وفد في آخر عمره على عبدالعزيز بن مروان، فأحسن جائزته، ووعَدَهُ في أمر بثينة، فأقام قليلاً، ومات سنة (82هـ)، ينظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب – لابن العماد العكري (85/1)، والأعلام – للزركلي (138/2)، ومعجم المؤلفين– لعمر كحالة (160/3).

(3) هذا البيت أورده أبوعبيدة معمر بن المثنى في كتابه: مجاز القرآن، تح: محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، (364/1)، ونسبه لجميل بن عبدالله العذري، (ت 82هـ).

(4) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (256/17).

(5) المصدر نفسه (258/17).

(6) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب: حدثنا قتيبة بن سعيد (216/8)، برقم (7628)، من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – مرفوعاً.

أخبر- تعالى- عن المشركين الذين عبدوا معه غيره، مع أنه هو المنعم المتفضل الخالق الرازق وحده، لا شريك له، ومع هذا يعبدون من دونه من الأصنام والأوثان، ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا ﴾، أي: لا يقدر على إنزال مطر، ولا إنبات زرعٍ ولا شجرٍ، ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾، أي: لا يملكون ذلك، يعني: ليس إليهم ذلك، ولا يقدرون عليه لو أرادُوهُ، ولهذا قال – تعالى-: ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾، أي: الأشباه والأنداد، فإنه واحد لا مثيل له، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾، أي: إنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا هو، وأنتم لجهلكم، تشركون به غيرَهُ!

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ﴾

قال ابن عباس: هذا مَثَلٌ ضربه الله للمؤمن والكافر، واختاره ابن جرير[1]، فالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء مثل الكافر، والمرزوق الرِّزْقَ الْحَسَنَ، فهو ينفق منه سراً وجهراً، هو المؤمن، وقال مجاهد: هو مَثَلٌ مضروب للوثن، وللحق – تعالى-[2]، فهل يستوي هذا وهذا؟!!

ولمَّا كان الفرق بينهما بيناً ظاهراً لا يجهله إلا كل غبي، قال – تعالى-: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، أي: ليس الأمر كما يقول هؤلاء الضُلاَّل، بل الحمد الكامل لله المنعم، الخالق الرازق، ولكن أكثر الكفار لا يعملون.

ثم قال – تعالى-: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

هذا أيضاً المراد به الوثن والحق – تعالى-، يعني: أن الوثن أبكم لا يتكلم بشيءٍ، ولا يقدر على شيءٍ بالكلّيّة، فلا مقال ولا فِعال، وهو مع هذا ﴿ كَلٌّ ﴾، أي: عيال،

---

(1) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (263/17 – 264).

(2) المصدر نفسه (263/17).

وكُلفَة على مولاه، ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾، أي: يبعثه، ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾، ولا يَنْجَحُ مسعاه، ﴿هَلْ يَسْتَوِى﴾ مَنْ هذه صفاتُه، ﴿وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾، أي: بالقسط، فمقالُهُ حقٌّ، وفعاله مستقيمة، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، قاله مجاهد وغير واحد واختاره ابن جرير[1].

وقال ابن عباس: هو مَثَلُ الكافر والمؤمن، كما تقدم، وكما نزل المَثَلُ السابق في رجل من قريش وعبده، كذلك نزل هذا في عثمان بن عفان، ومولى له، كان عثمان ينفق عليه، ويكفيه مُؤْنَتَهُ، وكان الآخر يكره الإسلام ويأباه، وينهاه عن الصدقة والمعروف، فنزلت فيهما.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

أخبر- تعالى- عن كماله وقدرته على الأشياء، في علمه غيب السمٰوٰت والأرض، واختصاصه بذلك، ولا اطّلاع لأحدٍ على ذلك، إلا باطّلاعه – تعالى- على ما يشاء، وفي قدرته التامة التي لا تُخَالَفُ ولا تُمَانَعُ، وأنه قادر على المُمْكِنَات، وإذا أراد شيئاً، يكون بإرادته كطرف العين، كما قال – تعالى-: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾[2]، ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾، أي: بل هو أقرب، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، نزلت في الكفار المستعجلين للقيامة استهزاءً.

ثم ذكر- تعالى- مِنَّتَهُ على عباده، في إخراجه إياهم من بطون أمهاتهم، لا يعلمون شيئاً، ثم بعد هذا يرزقهم السمع، الذي به يُدْرِكُون الأصْوَاتَ، والأبصار، اللاتي بها يُحِسُّون المرئيات، والأفئدة، وهي العقول التي مركزها القلب على الصحيح، وقيل: الدماغ، وبالعقل تُمَيِّزُ بين الأشياء، ضارّها ونافعها، وهذه القُوَى والحواس تحصل للإنسان على التدريج، كُلَّما كبُرَ، زِيد في سمعه وبصره، وَقَوِيَ عقله، حتى

(1) المصدر السابق (264/17).

(2) سورة القمر، الآية (50).

يبلغ أَشُدَّه، وإنما جعل – تعالى– هذه في الإنسان؛ ليتمكن بها من عبادة ربه – تعالى–، فيستعين بكل جارحة، وعضو، وقوة، على طاعة مولاه، كما في البخاري، عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– أنه قال: "يقول الله: من عادى لي ولياً، فقد بارزني في الحرب، وما تقرب إلي عبدي، بأفضل من أداء ما افترضتُ إليه[1]، ولا يزال عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافل، حتى أحبَّهُ، فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، وبَصَرَهُ الذي يبصر بِهِ، ويَدَهُ التي يبطش بها، وَرِجْلَه التي يمشي بها، ولئن سألني لأعْطَيْتُهُ، ولئن دعاني، لأجيبَنَّهُ، وما ترددتُ في شيءٍ أنا فاعله، تردُّدِي في قبض عبدي الْمُؤْمِنِ، يكره الموت، وأكره مَسَاءَتَهُ"[2]، ولا بدَّ له منه، فمعنى الحديث: أن العبد إذا أخلص الطاعة، صارت أفعالُه كلُّها لله، فلا يسمع إلا لله، ولا يبصر إلا لله، أي: ما شرعه الله له، ولا يبطش، ولا يمشي إلا في طاعة الله، مستعيناً بالله في ذلك كله.

ثم نبَّهَ – تعالى– عبادَه على النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض، كيف جعله يطير بجناحيه بين السماء والأرض، في جو السماء، ما يمسكه هناك إلا الله بقدرته – تعالى–، الذي جعل فيها قُوىً، تفعل ذلك، وسخَّر الهواء لحملها، ويسَّر الطير لذلك، كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ﴾[3]، الآية...، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾، أي: لدلالات واضحات على كمال قدرته، ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾

ذكر– تعالى– تمام نعَمِهِ على عبيده، بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن

---

(1) كذا في المخطوط، وفي صحيح البخاري (2384/5): (عليه)

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الرقاق، باب: التواضع (2384/5)، برقم: (6137)، من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه– مرفوعاً بألفاظٍ متقاربة.

(3) سورة الملك، من الآية (19).

لهم يأوون إليها، ويستقرون بها، وينتفعون بها سائر وجوه الانتفاع، وجعل لهم أيضاً ﴿مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾، أي: من الأُدُمِ، يستخفون حملها في أسفارهم؛ ليضربُوها لهم في إقامتهم في السفر، ولهذا قال: ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾، أي: الغنم ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾، أي: الإبل، ﴿وَأَشْعَارِهَآ﴾، أي: المعز، والضمير عائد على الأنعام، ﴿أَثَٰثًا﴾، أي: تتخذون منه أثاثاً، أي: المال والمتاع واللباس، ونحوها من الفُرُشِ وغيرها...

وقوله: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾، أي: إلى أجل مسمى، ووقت معلوم.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ قال قتادة: يعني: الشجر[1]، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾، أي: حصوناً ومعاقل، كما ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾، وهي الثياب من القطن والكَتَّان والصوف، ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾، كالدُّروع من الحديد المصفَّح والزَّرد[2]، وغير ذلك...، ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾، أي: هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم، وما تحتاجون إليه؛ ليكون عوناً لكم على طاعَتِهِ وعبادته، ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾، هكذا فسَّروهُ وقرؤوه، بكسر اللام من الإسلام، ورُوِي أن ابن عباس كان يقرأ ﴿تَسْلَمُونَ﴾[3]، بفتح اللام، يعني من الجراح، وردّ ابن جرير هذه القراءة[4].

وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾، أي: بعد هذا البيان، وهذا الامتنان، فلا عليك منهم، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، وقد أدَّيتَهُ إليهم.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾، أي: يعرفون أن الله – تعالى– هو المُسدي إليهم ذلك، والمتفضل به عليهم، ومع هذا ينكرون ذلك، ويعبدون معه غيره، ويُسْنِدُونَ السمع

(1) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (269/17).

(2) الزَّرْدُ: هو تداخل حَلَق الدرْع، بعضها في بعض، والزَّرَد: الدرع المزرودة، فعَلٌ بمعنى مفعول، وجمعها: زُرُودٌ، والزرَّادُ: صَانِعُها ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس – للزبيدي (141/8 – 142)، الجذر "زرد".

(3) أخرجها الطبري في تفسيره (270/17).

(4) المصدر نفسه (271/17).

والبصر والرزق إلى غيره!! ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾، أي: الجاحدون ذلك.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾

أخبر – تعالى – عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الآخرة، وأنه يبعث من كل أمة شهيداً، وهو نبيها، يشهد عليها بما أجابتهُ فيما بلغها عن الله – تعالى –، ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: في الاعتذار؛ لأنهم يعلمون بُطلانه وكذبَه، كما قال ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾(1)، ولهذا قال: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾، أي: لا يَسْتَرْضُونَ، يعني: لا يكلفون أن يُرْضُوا ربهم بالتوبة ونحوها؛ لأن الآخرة ليست بدار التكليف. والاستعتابُ: التعرُّضُ لطلب الرضا.

وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: أشركوا ﴿الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾، أي: لا يُفَتَّرُ عنهم ساعة واحدة، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾، أي: ولا يؤخر عنهم، بل يأخذهم من الموقف سريعاً بلا حسابٍ، كما قال – تعالى –: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ﴾، إلى قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾(2).

ثم أخبر – تعالى – عن تبرئ آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾، أي: الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا، ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، أي: قال لهم الأوثان كذبتم، نحن ما أمرناكم بعبادتنا، كما قال – تعالى –: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ

---

(1) سورة المرسلات، الآيتان (35 – 36).

(2) سورة الأنبياء، الآيتان (39 – 40).

﴿ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾[1]، ﴿ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ﴾، أي: ذُلُّوا واستسلموا لله جميعهم، فلا أحد إلا سامع مُطيع، كما قال – تعالى–: ﴿ أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا ﴾[2].

﴿ وَضَلَّ عَنۡهُم ﴾، أي: ذهب واضمحلّ عنهم ما كانوا يعبدونه، افتراءً على الله، فلا ناصر لهم ولا معين ولا مُجِير.

ثم قال – تعالى–: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، أي: منعوا الناس عن طريق الحقّ، ﴿ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابًا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ ﴾، أي: عذاباً على كفرهم، وعذاباً على صدِّهم الناسَ عن اتِّباع الحق، وهذا دليل على أن الكفار يتفاوتون في العذاب، كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم ودرجاتهم في الجنة، قال ابن مسعود: "زيدوا عقارِبَ أنيابها كالنخل الطويل"[3]، وقال ابن عباس: "هي خمسة أنهار تحت العرش، يعذبون ببعضها في الليل، وببعضها بالنهار"[4].

﴿ وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴾

قال – تعالى– مخاطباً رسوله محمداً – صلى الله عليه وسلم–: ﴿ وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾، يعني: أمَّتَهُ، أي: اذكر ذلك اليوم وهوْلَهُ، وما منحك الله فيه من الشرف العظيم، والمقام الرفيع، وهذه الآية شبيهة بقوله – تعالى– في صدر سورة النساء: ﴿ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ ﴾[5].

وقوله: ﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ ﴾، قال ابن مسعود: " قد بين لنا في هذا القرآن كُلَّ علمٍ، وكُلَّ شيءٍ"[6]، يعني: من الأحكام وغيرها، ممَّا الناسُ إليه

---

(1) سورة الأحقاف، من الآية (5).

(2) سورة مريم، من الآية (38).

(3) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (276/17).

(4) ينظر: تفسير – ابن أبي حاتم (2297/7).

(5) سورة النساء، من الآية (41).

(6) ينظر: تفسير – ابن أبي حاتم (2297/7).

محتاجون في أمور دينهم ودنياهم ومعاشهم ومعادهم، ﴿ وَهُدًى ﴾ أي: للقلوب، ﴿وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

أخبر- تعالى- أنه يأمر عباده بالعدل، وهو القسط والموازنة، ويَنْدِبُ إلى الإحسان، كما قال – تعالى-: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ﴾[1]، وغيرها من الآيات الدالة على شرعية العدل والندب إلى الفضل...، قال ابن عباس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ﴾، أي: (شهادة أن لا إله إلا الله) [2]، وقال ابن عيينة[3]: العدل هاهنا: استواء السريرة والعلانية من كل عامل لله عملاً، والإحسان: أن تكُون سريرته أحسن من علانيته، والفحشاء والمنكر: أن تكون علانيته أَحْسَنَ من سريرته)[4].

وقوله: ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾، أي: يأمر بصلة الأرحام، كما قال: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾[5] الآية...

وقوله: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ ﴾، فالفواحش: المحرمات، والمنكرات: ما ظهر من فاعلها. وأما ﴿ وَٱلْبَغْىِ ﴾، فهو: العدوان على الناس، وفي الحديث: " ما ذنبٌ أجدرُ أن يعجِّل الله عقوبتَه في الدنيا، مع ما يدَّخَرُ لصاحبه في الآخرة، من البغي وقطيعة الرحم، وقوله: ﴿يَعِظُكُمْ ﴾، أي: يأمركم بما يأمركم به من الخير، وينهاكم عن الذي نهاكم عنه من الشر، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾، أي: تَتَّعِظُون، قال ابن مسعود: " إن

---

(1) سورة المائدة، من الآية (45).

(2) تفسير – ابن أبي حاتم (2299/7).

(3) سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي، أبو محمد، العلامة الحافظ شيخ الإسلام، المحدث الفقيه، ولد سنة (107هـ)، كان مُحدِّث الحرم المكي، وواسع العلم، كبير القدر، حدَّث عنه ابن المبارك والشافعي وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين وإسحاق بن راهوية وغيرهم، قال عنه الشافعي: (لولا مالك وسفيان، لذهب علم الحجاز)، وقال ابن وهب: (لا أعلم أحداً أعلم بالتفسير منه)، توفي بمكة سنة (198هـ)، ينظر: صفة الصفوة – لابن الجوزي (231/2)، وتذكرة الحفاظ – للذهبي (193/1)، والأعلام – للزركلي (105/3)، ومعجم المؤلفين – لعمر كحالة (235/4).

(4) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (280/17).

(5) سورة الإسراء، من الآية (26)

أجمع آية في القرآن، في سورة النحل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾"[1]، رواه ابن جرير، وقال قتادة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾، "ليس من خُلُقٍ حسنٍ كانوا يعملون به في الجاهلية، ويستحسنونه إلا أَمَرَ الله به، وليس من خُلقٍ سيّءٍ كانوا يتعايرونهُ بينهم، إلا نهى الله عنه"[2]، وقد جاء في الحديث: " إن الله يحب معاليَ الأخلاق، ويكره سفسافها"[3]، وقال عكرمة[4]: إن النبي – صلى الله عليه وسلم– قرأ على الوليد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾، الآية...، فقال: "يا ابن أخي، أعِدْ، فأعاد عليه، فقال [أي الوليد]: إن له والله، لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاهُ لمُثْمِرٌ، وإن أسفله لمغدق[5]، وما هو بقول البشر[6].

﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾.

أمر الله عباده بالوفاء بالعهود والمواثيق، والمحافظة على الأيمان المؤكَّدة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾ والمراد بها: الأيمان الداخلة في العهود والمواثيق، لا الأيمان التي هي واردة على حثٍّ أو منعٍ، حتى لا يُتَصوَّرَ التعارض بين هذه وبين قوله: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ﴾[7]، الآية، ونحوها

---

(1) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (280/17).

(2) المصدر نفسه (281/17).

(3) أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق – لأبي بكر محمد بن جعفر، تح: سعاد سليمان الخندقاوي، مطبعة المدني، مصر القاهرة، (1411 – 1991م)، (4)، من حديث سهل بن سعد الساعدي – رضي الله عنه– مرفوعاً.

(4) عكرمة بن عبدالله البربري المدني الهاشمي، أبو عبدالله، الحبر العالم، أحد أئمة التابعين، ولد سنة (25هـ)، وهو مولى لابن عباس، كان أعلم الناس بالتفسير والمغازي، روى عن مولاه وعائشة وأبي هريرة وغيرهم – رضي الله عنهم–، قال فيه الشعبي: (ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة)، وقال أبو الشعثاء: (عكرمة مولى بن عباس، أعلم الناس)، توفي بالمدينة سنة (107هـ)، ينظر: تذكرة الحفاظ – للذهبي (73/1)، ولسان – الميزان – لابن حجر العسقلاني (308/7)، والأعلام – للزركلي (244/4).

(5) الغدق: الماء الكثير، وإن لم يك مطراً، تاج العروس من جواهر القاموس – للزبيدي (235/26)، الجذر "غ د ق".

(6) ينظر: دلائل النبوة – للبيهقي (198/2 – 199).

(7) سورة البقرة، من الآية (224).

من الآيات، وحديث: "إني لا أحلف على يمينٍ، فأرى غيرها خيراً منها" [1]، الحديث...، وقال مجاهد: المراد بذلك: حَلِفُ الجاهلية[2]، ويؤيده ما رواه جبير بن مطعم[3]، قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم-: "لا حِلْف في الإسلام، وأيُّما حلفٍ كان في الجاهلية، لم يزدْهُ في الإسلام إلا شِدَّةً"[4]، رواه مسلم، يعني: أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحَلِفَ، الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه، فإن في التمسك بالإسلام كفايةً عما كانوا فيه.

وقيل: نزلت هذه في بيعة النبي – صلى الله عليه وسلم- مع من أسلم على الإسلام، ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾، هذه البَيْعَةَ التي بايعتم على الإسلام، فقال: ﴿ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾، البيعة، أي: لا يَحْمِلَنَّكُم قلَّةُ محمدٍ وأتباعه، وكثرة المشركين، أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾، تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها.

وقوله: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا ﴾، قال السدي وغيره: هذه امرأة كانت بمكة خرقاء، كلما غزلت شيئاً، نقضتهُ بعد إبرامه[5]، وقال مجاهد وغير واحدٍ: هذا مثلٌ لمن نقض عهده بعد توكيده[6]، وهذا أرجح وأظهر.

وقوله: ﴿أَنكَٰثًا ﴾، يحتمل أن تكون اسم مصدر، نقضت غزلها أنكاثاً،

---

(1) جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: كفارات الأيمان، باب: الاستثناء في الأيمان، (2470/6)، برقم (6340)، ونصُه: "ما أنا حملتكم، بل الله حملكم، إني والله، إن شاء الله، لا أحلف على يمين، فأرى غيرها خيراً منها، إلا كفرت عن يميني، وأتيت الذي هو خير، وكفرت"، من حديث أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه– بنحوه.

(2) ينظر: تفسير – ابن أبي حاتم (2299/7).

(3) جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف بن قصي القرشي النوفلي، أبو محمد، كان من حلماء قريش وساداتهم، ومن أكابر وعلماء النسب، أسلم جبير بين الحديبية والفتح، وقيل: في الفتح، وقيل: عام خيبر، قال فيه الرسول – صلى الله عليه وسلم– ليله قربه من مكة في غزوة الفتح: (إن بمكة أربعةَ نفرٍ من قريشٍ، أربأ بهم عن الشرك، وأرغب لهم في الإسلام: عتاب بن أسيد، وجبير بن مطعم، وحكيم بن حزام، وسهيل بن عمرو)، توفي جبير بالمدينة سنة (57هـ)، وقيل: (59هـ)، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب – لابن عبدالبر (232/1)، وأُسدُ الغابة في معرفة الصحابة – لابن الأثير (397/1)، والإصابة في تمييز الصحابة – لابن حجر العسقلاني (462/1).

(4) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: فضائل الصحابة، باب: مؤاخاة النبي بين أصحابه (183/7)، برقم (6628).

(5) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (284/17).

(6) المصدر نفسه (285/17).

أي: أنقاضاً، وأن يكون بدلاً عن خبرِ كان، أي: لا تكونوا أنكاثاً، جمع نِكْثٍ من ناكثٍ؛ ولهذا قال بعده: ﴿ تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ﴾، أي: خديعةً ومكراً، ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾، أي: يحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم، ليَطْمَئِنُّوا إليكم، فإذا أمكنكم الغدر بهم، غدرتم، فنهى الله عن ذلك؛ لينبه بالأدنى على الأعلى، فإنه إذا نهى عن الغدر، والحالةُ هذه، فَلَأَن ينهى عَنْهُ، مع التَّمَكُّن والقُدرة بطريق الْأَوْلى.

وقال ابن عباس: ﴿أَرْبَىٰ ﴾، أي: أكثر، وقال مجاهد: كانوا يُحالفون الحلفاء، فيجدون أكثر منهم وأعزَّ، فَيَنْقُضُون حلف هؤلاء، ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز، فَنُهُوا عن ذلك.

وقوله: ﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ﴾، قال ابن جبير: أي: بالكثرة(1)، وقال ابن جرير: أي: يختبركم الله بأمره إياكم بالوفاء بالعهد(2).

﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ في الدنيا، فَيُجَازِي كلَّ عامل بعمله.

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ ﴾، أيها الناس، ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ أي: على ملة واحدةٍ، ولوفَّقَ بينكم، ورفع الاختلافَ والتباغضَ والشحناءَ، ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾، ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم، فيُجَازِيكم عليها على النقير والفتيل والقطمير.

(1) ينظر: تفسير – ابن أبي حاتم (2300/7).

(2) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (287/17).

ثم حذَّر – تعالى– عباده عن اتخاذ الأيمان ﴿دَخَلًا﴾، أي: خديعة ومكراً؛ لئلا تزل قدم ﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾، وهذا مثل لمن كان على استقامة، فحاد عنها، وزلَّ عن طريق الهدى، بسبب الأيمان الحانثة، المشتملة على الصدِّ عن سبيل الله؛ لأن الكافر إذا رأى المؤمن قد عاهَدَهُ، ثم غدر بهِ، لم يبقَ لهُ وثُوقٌ بالدين، فانصدَّ بسببه عن الدخول في الإسلام؛ ولهذا قال: ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، قيل: أي: سهلتم طريق نقض العهد على الناس، بنقضكم العهد، ﴿وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، بسبب ذلك.

ثم قال: ﴿ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾، أي: [لا][1] تعتاضُوا عن الأيمان بالله عَرَض الحياة الدنيا وزينتها، فإنها قليلة، ولو حيزَتْ لابن آدم الدنيا بحذافيرها، لكان ما عند الله من الثواب والجزاء خيرٌ لَهُ، إن آمن به، وطلبه، وحفظ عهده؛ رجاء موعِدِه؛ ولهذا قال: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ﴾، أي: ينقضي، ويفرغ، فإنه إلى أجلٍ معدود محصورٍ مقدَّر متناه، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾، أي: ثوابه لكم في الجنة باقٍ، لا انقطاع له، ولا نفاد، فإنه دائم لا يُحَوَّل، ولا يَزُول، ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾، أي: على الوفاء في السَّراء والضرَّاء، ﴿بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾، قَسَمٌ مؤكَّدٌ من الربِّ – تعالى–، أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم، أي: ويتجاوز عن سيئها.

﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾

هذا وعد من الله للصلحاء ذكوراً وإناثاً، أي: من عمل على وَفْق الكتاب والسنة، وقلبُه مؤمن بالله ورسوله، بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا، وأن يُجْزَى بأحسن عمله في الآخرة، والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أيِّ جهة كانت، وقد فسَّرها بعضهم بالرزق الحلال الطيب، وبعضهم بالقناعة، وآخر بالسعادة والعبادة في الدنيا، والانشراح بها، وقال مجاهد وغيره: لا يطيب لأحدٍ الحياة إلا في الجنة[2]،

(1) ساقطة من المؤلف، مثبتة من تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (600/4).

(2) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (290/17 – 291).

والصحيح أنها تشمل جميع ذلك، كما قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: "قد أفلح من أسلم ورُزقَ كَفَافاً، وقنَّعهُ [الله][1] بما آتاه"[2]، رواه مسلم، وقال – عليه الصلاة والسلام–: "إن الله لا يظلمُ المؤمن حسنةً، يُعْطى بها في الدنيا، ويثاب عليها في الآخرة، وأما الكافر فيُطْعَمُ بحسناته في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرةِ، لم تكُنْ له حسنة، يُعطى بها خيراً"[3]، رواه مسلم أيضاً.

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾

أمر الله على لسان نبيه – عليه الصلاة والسلام– أنه إذا أرادوا قراءة القرآن، أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم، ندباً غير واجبٍ بالإجماع، والمعنى في الاستعاذة عند ابتداء القراءة؛ لئلا يُلْبِسَ الشيطان على القارئ قراءته، ويخلط عليه، ويمنعه التدبُّر والتفكُّر؛ فلهذا ذهبوا إلى أن الاستعادة إنما تكون قبل التلاوة، وهو الصحيح الراجح.

وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾، قال الثوري[4]: أي: ليس له عليهم أن يوقعهم في ذنبٍ، لا يتوبُون منه[5]، وقيل: لا حُجَّةَ له عليهم.

﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ ﴾، قال مجاهد: أي: يُطيعونه[6]، وقيل: اتخذوه وليًّا من دون الله.

---

(1) ساقطة من المؤلف، مثبتة من صحيح مسلم (102/3).

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب: في الكفاف والقناعة (102/3)، برقم (2473)، من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما– مرفوعاً.

(3) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: جزاء المؤمن بحسناتِهِ في الدنيا والآخرة، وتعجيل حسناتِ الكافرِ في الدنيا، (135/8)، برقم (7267)، من حديث أنس بن مالك – رضي الله عنه – مرفوعاً بنحوه.

(4) سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب بن رافع الثوري الكوفي، أبو عبدالله، الإمام الحافظ، أحد الأئمة الأعلام، ولد في الكوفة سنة (97هـ)، كان ثقة مأموناً، ثبتاً، كثير الحديث، حجة، وكان يقول: تعلموا هذا العلم، فإذا تعلقتموه، فاحفظوه، فإذا حفظتموه، فاعملوا به، فإذا عملتم به، فانشروهُ، من مؤلفاته: (الجامع الكبير)، و(الجامع الصغير)، و(الفرائض)، طلبه المهدي، فتوارى وانتقل إلى البصرة، فمات فيها مستخفياً سنة (161هـ)، ينظر: الطبقات الكبرى – لابن سعد (371/6)، ولسان الميزان – لابن حجر العسقلاني (233/7)، والأعلام – للزركلي (104/3).

(5) ينظر: تفسير – ابن أبي حاتم (2302/7).

(6) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (294/17).

﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴾، أي: أشركوه في عبادة الله، وقيل: أي: صاروا بسبب طاعتهم له مشركين بالله.

﴿ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴾.

أخبر – تعالى – عن ضعف عقول المشركين، وقلة ثباتهم، وأنه لا يُتَصَوَّر منهم الإيمانُ، وقد كتب عليهم الشقاوة، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام بالنسخ، قالوا للرسول – عليه الصلاة والسلام –: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭ﴾، أي: كذَّاب، وإنما هو – تعالى – يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وقال مجاهد: ﴿بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ﴾، أي: رفعناها، وأثبتنا غيرها[1]، فقال – تعالى – مجيباً لهم: ﴿ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ ﴾، أي: جبريل، ﴿مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾، أي: بالصدق والعدل، ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فيصدقُوا ما أُنْزِلَ أولاً، وثانياً، وتُخْبِتَ[2] له قلوبهم، ﴿وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴾، أي: وجعله هادياً، وبشارة للمسلمين، الذين آمنوا بالله ورسوله.

﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ﴾.

أخبر – تعالى – عن افتراء المشركين وبهتانهم، من أن محمداً إنما يُعلِّمُهُ أحدٌ، مشيرين إلى رجل أعجميٍ، غُلَامٍ لبعض بُطون قريش، يجلس إليه، ويكلمه بَعَضَ الشيء، وذاك كان أعجمِيَّ اللسان، لا يعرف العربية، فقال – تعالى – ردًّا عليهم في افترائهم ذلك: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ﴾، يعني: القرآن، أي: فكيف يتعلَّمُ من جاء بهذا القرآن، في فَصَاحته، وبلاغتِه، ومعانيه التامة الشاملة الكاملة، من رجل أعجميٍ؟! لا يقول هذا من له أدنى مُسْكَةٍ[3] من العقل.

وقوله: ﴿ يُلۡحِدُونَ ﴾، أي: يُمِيلُون، ويشيرون إليه، قال ابن عباس: كان

---

(1) المصدر نفسه (297/7).

(2) الخبتُ: ما اطمأنَّ من الأرض، واتسع، ومنه: أخبت الرجل لله: إذا خشع وتواضع، ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس – للزبيدي (502/4 – 503)، الجذر "خ ب ت".

(3) المُسكَةُ، بالضم: القوة، كالماسِكَةِ، وفيه مُسكَةٌ من خير، أي بَقِيَّةٌ، تاج العروس من جواهر القاموس – للزبيدي (338/27)، الجذر "م س ك".

رسول الله – صلى الله عليه وسلم- يعلم قَيْنًا بمكة، وكان اسمه (بلغام)، وكان أعجمي اللسان، وكان المشركون يرون النبيء – صلى الله عليه وسلم- يدخل عليه، ويخرج من عنده، فقالوا: إنما يعلمه بلغام، فأنزل الله هذه الآية[1]، أي: المذكورة سابقاً.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴾

أخبر- تعالى- أنه لا يهدي من أعرض عن ذكره، وتغافلَ عما أنزله على سوله، ولم يقصد الإيمان به، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته، وما أَرْسَلَ به رسلَه في الدنيا، ولهم عذاب أليم مُوجِعٌ في الآخرة.

ثم أخبر أن رسولَه ليس بمفترٍ، ولا كذَّابٍ؛ لأنه ﴿ إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ﴾ على الله شِرَارُ الخلق، وهم ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ من الكفرة المُلْحِدين، والرسول – عليه الصلاة والسلام- كان أصدق الناس، وأبرَّهم، وأكملَهم علماً، وعملاً، وإيماناً، ويقيناً، معروفاً في قومه بالصدق، بلا شكٍ، بحيث لا يُدْعى بينهم إلا بمحمدٍ الأمين؛ ولهذا لمَّا سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن صفته – عليه الصلاة والسلام- وقال له: أفكنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا، فقال هرقل: فما كان ليدع الكذبَ على الناس، ويذهب، فيكذب على الله! [2].

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾.

أخبر- تعالى- عمَّن كفر به بعد الإيمان والتبصر، وشرح صدره بالكفر، واطمأن به، أنه قد غضب عليه، لعلمهم بالإيمان، ثم عدولهم عنه، وأن لهم عذاباً عظيماً في الآخرة؛ لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدموا [على ما أقدموا][3]

(1) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (299/17).

(2) أخرجها البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم- (7/1).

(3) ساقطة من المؤلف، مثبتة من تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (605/4).

عليه من الرِّدَّة؛ لأجل الدنيا، ولم يهد الله قلوبهم، ولم يثبتهم على الدين، وطبع على قلوبهم، فلا يعْقِلُون بها شيئاً ينفعُهم، وختم على سمعهم وأبصارهم، فلا ينتفعون بها، ولا أغنت عنهم شيئاً، فهم غافلون عما يُرَادُ بهم.

﴿لَا جَرَمَ﴾، أي: لا بد، ولا عجب، أن مَنْ هذه صفتُه، ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، أي: الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

فقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ بالله ورسوله، قال ابن عباس: إن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر(1)، حين عذَّبه المشركون، حتى يَكْفُر بمحمد، فوافقهم على ذلك مُكْرَهاً، وجاء معتذراً إلى النبي – صلى الله عليه وسلم–، فأنزل الله هذه الآية(2)، فقال له: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئناً بالإيمان، قال النبي – صلى الله عليه وسلم–: "إنْ عادوا، فعُدْ"(3)، رواه البيهقي، ولهذا قال الجمهور بجواز ذلك من المُكْرَه، المطمئِنِ قلبُه بالإيمان، وبجواز أن يُتَثَبَّتَ كما كان بلال(4) يأبى عليهم ذلك، ويعذبونه أشد العذاب، ويأمرونه بالشرك، وهو يأبى، ويقول: أحدٌ، أحدٌ، ويقول: والله، لو أعلم كلمة أَغْيَظَ لكم منها، لَقُلْتُهَا(5) – رضي الله عنه–، والأولى والأفضل أن يَثْبُتَ المسلم على دينه، ولو أفضى إلى قتله، وقصة تعذيبِ ملكِ الروم عبدَالله بن حذافة السهمي(6)

---

(1) عمار بن ياسر بن عامر بن مالك بن كنانة بن قيس العنسي، أبو اليقظان، ولد سنة (57 ق هـ)، كان أول السابقين في الإسلام، رفقة أبيه وأمه، حيث عُذِّبُوا في سبيل الله، وكانت أمُّهُ سمية، أول مَن استشهد في سبيل الله، وكان الرسول – صلى الله عليه وسلم– يمر عليهم، فيقول: صبراً آل ياسر، موعدكم الجنة، هاجر المدينة، وشهد بدراً، وأُحُداً والخندق، وبيعة الرضوان مع الرسول – صلى الله عليه وسلم–، وهو أول من بنى مسجداً في الإسلام، وكان الرسول – صلى الله عليه وسلم– يسمِّيه بالطيِّب المُطِيبِ، وقال فيه: اقتدوا بالذين من بعدي: أبي بكر وعمر، واهتدوا بِهَدْيِ عمَّار، وتمسَّكوا بعهد ابن أم عبد، وهو الذي نزل فيه قوله – تعالى–: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾، روى عنه كثير من الصحابة كعلي بن أبي طالب، وابن عباس، وأبي موسى، وجابر، وأبي أمامة، وغيرهم، بشره رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بأن الفئة الباغية تقتله، ومات سنة (37هـ). ينظر: أُسْدُ الغابة في معرفة الصحابة– لابن الأثير (139/4)، والإصابة في تمييز الصحابة – لابن حجر العسقلاني (575/4)، والأعلام – للزركلي (36/5).

(2) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (304/17).

(3) أخرجه أبو بكر أحمد الحسين بن علي البيهقي في كتابه السنن الكبري، مجلس دائرة المعارف النظامية، حيدر أباد – الهند، ط: الأولى، (1344هـ)، (208/8).

(4) بلال بن رباح الحبشي، أبو عبدالله، مولى أبي بكر الصديق– رضي الله عنه– كان مُؤَذِّن رسول الله– صلى الله عليه وسلم–، وخازنه على بيت ماله، وأحد السابقين للإسلام، شهد بدراً، والمشاهد كُلَّها، آخى الرسول – صلى الله عليه وسلم– بينه وبين أبي عبيدة بن الجراح، روى عنه أبوبكر، وعمر، وعلي، وابن مسعود، وغيرهم – رضي الله عنهم أجمعين–، توفي بدمشق سنة (20هـ)، وقيل: سنة (21هـ)، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب– لابن عبدالبر (178/1)، وأُسْدُ الغابة في معرفة الصحابة – لابن الأثير (305/1)، والإصابة في تمييز الصحابة – لابن حجر العسقلاني (326/1).

(5) ينظر: تاريخ مدينة دمشق – لابن عساكر (442/10).

(6) عبدالله بن حذافة بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم القرشي السهمي، أبو حذافة، كان من السابقين إلى الإسلام، وهاجر إلى أرض=

الصحابي – رضي الله عنه – بأنواع العذاب، ثم تخليصه مع جميع أسرى المسلمين مشهورةٌ[1].

وقوله: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرًا﴾، أي: فتح صدره بالكفر، واختاره، وقَبِلَهُ، فعليهم غضب الله، فإنهم مُرْتَدُّون، وفي البخاري: أن عليًّا – رضي الله عنه– حرَّق ناساً ارتدُّوا عن الإسلام، فبلغ ذلك ابن عباس، فقال: لو كنتُ أنا، لم أحرقْهم؛ لنهي رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: "لا تعذِّبوا بعذاب الله"، ولَقَتَلْتُهُمْ[2]؛ لقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: "من بدَّل دينَه، فاقتلوه"، فبلغ ذلك عليًّا فقال: وَيْحَ أُمِّ ابن عباس[3].

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾.

هؤلاء صنف آخرُ، كانوا مستضعفين بمكة، مهانين في قومهم، مفتونين بينهم، فخلصهم الله بالهجرة، فتركوا بلادهم وأهاليهم وأموالهم؛ ابتغاء رضوان الله وغفرانه، واجتمعوا مع المؤمنين، وجاهدوا الكفار، وصبروا، فأخبر – تعالى– أنه ﴿مِنۢ بَعۡدِهَا﴾، أي: من بعد تلك الفعلة، وهي الإجابة إلى الفتنة، ﴿لَغَفُورٞ﴾ لهم، رحيم بهم يومَ معادهم.

﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ﴾، أي: تُخاصِم، وتُحاجُّ لهم عن نفسها بما أسلفت من خير وشرٍّ، لا تتفرغ إلى غيرها، ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ﴾، أي: من خيرٍ وشرٍّ، ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾، أي: لا يُنْقَصُ من ثواب خيرهم، ولا يزاد على عقاب شرهم شيئاً.

= الحبشة الهجرة الثانية، وشهد بدراً، بعثه الرسول – صلى الله عليه وسلم– رسولاً إلى ملك كسرى، يدعوه إلى الإسلام، فمزق الكتاب، فدعا عليه الرسول – صلى الله عليه وسلم–: "اللهم مزق ملكه"، أسَرَتْهُ الروم في خلافة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه–، وأطلقت سراحه وسراح ثمانين من المسلمين، بعد أن قبَّل رَأْسَ مَلِكِهِم، وعندما رجع إلى عمر بن الخطاب – رضي الله عنه– قام إليه، وقبَّل رأسه، وقبَّل بعده المسلمون، توفي بمصر سنة (33هـ)، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب – لابن عبدالبر (888/3)، وأُسْدُ الغابة في معرفة الصحابة – لابن الأثير (213/3)، والأعلام – للزركلي (78/4).

(1) ينظر: تاريخ مدينة دمشق – لابن عساكر (358/27).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الجهاد والسير، باب: لا يعذب بعذاب الله (1098/3) برقم (2854)، وأخرجه أحمد في مسنده (387/3)؛ كلاهما من حديث ابن عباس – رضي الله عنهما– مرفوعاً واللفظ للبخاري.

(3) أخرجه أحمد في مسنده (365/3).

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴾

هذا مثلٌ لأهل مكة فإنها كانت آمنة مطمئنةً، يُتَخَطَّفُ الناس من حولها، ومن دخَلها آمنٌ لا يخاف، ﴿ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا ﴾، أي: هنيئاً سهلاً، ﴿ مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ ﴾، أي: جحدت آلاءَ الله عليها، وأعظَمُ ذلك بِعْثَةُ محمد – صلى الله عليه وسلم–، كما قال: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا ﴾[1]، الآية...، ولهذا بدَّلهم بحاليهم الأوَّلَيْنِ خلافُهُمَا، فقال: ﴿ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ ﴾، أي: ألبسها وأذاقها الجوع، بعد أن كان يُجْبَى إليهم ثمرات كُلِّ شيءٍ، وذلك لما اسْتَعْصَوْا على رسول الله – صلى الله عليه وسلم–، وأَبَوْا إلا خلافه، فدعا عليهم بسبع، كسَبْعِ يوسف، فأصابتهم سنَةٌ أذهبتْ كلَّ شيء، فأكلوا العظام المُحْرَقَةَ، والجِيَفَ، والكلاب الميتة، وغيرها.

وقوله: ﴿ وَٱلۡخَوۡفِ ﴾، وذلك بأنهم خافوا من رسول الله – صلى الله عليه وسلم–، وأصحابه، حين هاجروا إلى المدينة، من سطوة سراياه وجُيُوشه، حتى فتح الله مكة، وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول – عليه الصلاة والسلام–، الذي بعثه الله فيهم منهم، وامتنَّ به عليهم، في قوله: ﴿ لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ ﴾[2]، وغيرها من الآيات البينات...، فانعكس حالهم، فخافوا بعد الأمن، وجاعوا بعد الرغَدِ، وبدَّل الله للمؤمنين به بعد خوفهم أمناً، ورزقهم بعد العَيْلَة[3]، وجعلهم أمراءَ الناس، وسَادَاتِهم وأئِمَّتَهم، وهذا هو المثل المضروب لمكة، قاله ابن عباس وموافقوه[4]. وقيل: المراد: المدينة، قد خَرِبَتْ بسبب قتل عثمان – رضي الله عنه–، والظاهر هو الأول، والله أعلم.

﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ

---

(1) سورة إبراهيم، من الآية (28).

(2) سورة آل عمران، من الآية (164).

(3) العيلة: الاحتياج، ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس – للزبيدي (83/30)، الجذر "ع ي ل".

(4) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (309/17).

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۝ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

أخبر- تعالى- عباده أن يأكلوا الحلال الطيب، ويشكروه على ذلك، فإنه الْمُنعِم، المتفضّل به ابتداءً، وهو الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له.

ثم ذكر ما حرَّمه عليهم مما فيه مضرَّةٌ لهم في دينهم ودنياهم، من الميتة والدم ولحم الخنزير، ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾، أي: ذُبِحَ على غير اسم الله، ومع هذا ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾، أي: احتاج إليه من غير بغيٍ، ولا عدوانٍ، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وسيق الكلام على مثل هذه الآية بما فيه كفاية من إعادته في سورة البقرة.

ثم نهى – تعالى- عن سلوك سبيل المشركين، الذين حلَّلوا أو حرَّموا، بمجرد ما وضعوه، واصطلحوا عليه من الأسماء بآرائهم، من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وغير ذلك، مما ابتدعوه في جاهليتهم، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾، إلى آخره...، ويدخل في هذا كلُّ من ابتدع بدعة، ليس له فيها مُستنَدٌ شرعيٌّ، أو حلَّل شيئاً مما حرَّم الله، أو حرَّم شيئاً مما أباح الله، بمجرد رأيه، وتشهّيه، و"ما" في قوله: ﴿لِمَا﴾ مصدرية، أي: ولا تقولوا الكذب لوصف ألسنتكم.

ثم توعد على ذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي: لَا يَنْجُونَ من عذاب الله، لا في الدنيا، ولا في الآخرة، أمَّا في الدنيا، فمتاع قليل، وأمَّا في الآخرة، فلهم عذاب أليم، كما قال: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾(1).

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

لمَّا ذكر- تعالى- أنه حرَّم علينا ما حرَّم، وأنه رخَّص [فيه](2) عند الضرورة،

---

(1) سورة لقمان، الآية (24).

(2) ساقطة من المؤلف، مثبتة من تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (610/4).

توسعةً لهذه الأمة، ذكر ما كان حرَّم على اليهود في شريعتهم قبل أن يَنْسَخَها، وما كانوا فيه من الآصار والأغلال والحَرَجِ والتضييق، فقال: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾، يعني: في "سورة الأنعام"، في قوله: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾(1)، الآية... ولهذا قال: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ ﴾ أي: فيما ضيقنا [عليهم] (2)، ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾، أي: فاستحقوا ذلك.

ثم أخبر– تعالى–، تكرّماً وامتناناً في حق عصاة المؤمنين: أن من تاب إليه تاب عليه، فقال: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ﴾، قال بعضهم: كل من عصى الله، فهو جاهل(3).

﴿ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ ﴾، أي: أقلعوا عما كانوا فيه من المعاصي، وأقبلوا على فعل الطاعات، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا ﴾، أي: من بعد تلك الفعلة والذلة ﴿ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

مدح – تعالى– خليلَه إبراهيم، إمام الحنفاء – عليه السلام–، وبَرَّأه من المشركين، ومن اليهودية والنصرانية، فقال: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ﴾ أمَّا "الأمة" هاهنا، فهو إمام يُقْتَدَى به، والقانت: هو الخاشع المطيع، والحنيف: المُنْحَرِفُ قصداً من الشرك إلى التوحيد؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾، قال ابن مسعود: الأمَّة: معلِّم الخير، والقانت: (المطيع لله ولرسوله)(4)، ومن هذا يجوز أن يوصف عالمٌ عاملٌ بالأمة القانت، وقال مجاهد: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾، أي: مؤمناً وحده،

---

(1) سورة الأنعام، من الآية (146).

(2) ساقطة من المؤلف، مثبتة من تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (610/4).

(3) ينظر: تفسير السمعاني (208/3).

(4) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (317/17).

والناس كلهم إذ ذاك كفار [1].

وقوله: ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾، أي: قائماً بشكر نعم الله عليه، كما قال: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾[2]، أي: قام بجميع ما أمر الله – تعالى– به.

وقوله: ﴿ٱجْتَبَىٰهُ ﴾، أي: اختاره واصطفاه.

ثم قال: ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ هو عبادة الله وحده، لا شريك له، على شرعٍ مرضِيّ.

وقوله: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾، أي: جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه، في إكمال حياته الطيبة، ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾، وقال مجاهد: ﴿حَسَنَةً ﴾، أي: "لسان صدق"[3].

وقوله: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾، أي: ومن كماله وصحة توحيده، أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل، ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾، وفيه أنه – عليه الصلاة والسلام– كان على شريعته – عليه السلام–، إلا ما نُسِخَ، وما لم ينسخَ، فهو شرع لهَ، كما في الأنعام: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[4] الآية...

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾.

إن الله قد شرع لكل ملَّة يوماً من الأسبوع، يجتمع الناس فيه للعبادة بلا شكٍّ، فشرع لهذه الأمة يوم الجمعة؛ لأنه اليوم الذي أكمل الله فيه الخليقة، واجتمعت فيه، وتمت النعمة على عباده، ويقال: إنه شرع ذلك لبني إسراءيل على لسان موسى، فعدلُوا عنه، فاختاروا السبت؛ لأنه اليوم الذي لم يخلق فيه الرب شيئاً من المخلوقات،

---

(1) ينظر: تفسير – ابن أبي حاتم (2306/7).

(2) سورة النجم، الآية (37).

(3) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (319/17).

(4) سورة الأنعام، من الآية (161).

التي كملت[1] خلقها يوم الجمعة، وألزمهم تعالى به في شريعة التوراة، ووصَّاهم أن يتمسكوا به، وأن يحافظوا عليه، مع أمْرِه إياهم بمتابعة محمد – صلى الله عليه وسلم- إذا بعثه، وأخذَ مواثيقَهم وعهودَهم على ذلك؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ ﴾، قال مجاهد: أي: "اتبعوه وتركوا الجمعة"[2].

ثم إنهم لم يزالوا متمسكين به، حتى بعث الله عيسى بن مريم، فيقال: إنه حوَّلهم إلى يوم الأحد، ويقال: إنه لم يزل على شريعة التوراة، إلا ما نُسِخَ، وإنه لم يزل محافظاً على السبت، حتى رُفع، وأن النصارى بعده في زمان "قسطنطين"، هم الذين تحولوا إلى يوم الأحد، مخالفةً لليهود، وتحوَّلُوا إلى الصلاة شرقاً عن الصخرة، والله أعلم.

وفي الصحيحين: عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله – صلى الله عليه وسلم- يقول: "نحن الآخِرون السابِقون يومَ القيامة، بَيْدَ أنهم أوتوا الكتاب من قَبْلِنَا، وأوتينَا من بعدهم، ثم هذا يَوْمُهُم الله الذي فرض الله عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فِيهِ تبعٌ، اليهود غداً، والنصارى بعد غدٍ"[3]، وفي رواية لمسلمٍ: "وكذلك هم تبعٌ لنا يوم القيامة، نحن الآخِرون من أهل الدنيا والأوَّلُون يوم القيامة، المقْضِيُّ لَهُمْ قَبْلَ الخلائِقِ"[4].

﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾.

أمر- تعالى- رسوله محمدًا – عليه الصلاة والسلام- أن يدعوَ الخلقَ إلى الله ﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ ﴾، وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة، ﴿وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ ﴾، أي: بما فيه من الزواجر، والوقائع بالناس، يُذَكِّرُهُمْ بها، ليحذروا بأس الله، ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾، أي: من احتاج إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن، برفقٍ، ولينٍ،

---

(1) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (612/4): (كمل)، وهو الصحيح.

(2) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (320/17).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الجمعة، باب: فرض الجمعة (299/1)، برقم (836)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الجمعة، باب: هداية هذه الأمة ليوم الجمعة، (7/3)، برقم (2018)؛ كلاهما من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه- مرفوعاً.

(4) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الجمعة، باب: هداية هذه الأمة ليوم الجمعة، (7/3)، برقم (2019)، من حديث رِبْعِيِّ بن حراش، وحُذيفة – رضي الله عنهما- مرفوعاً.

وحسنِ خطابٍ، كما قال: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾[1]، فأمره تعالى بلِينِ الجانب، كما أمر موسى وهارون به، بقوله: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا ﴾[2].

وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾، أي: وقد علمَ الشقيَّ منهم والسعيدَ، وكتبَ ذلك عندَه، وفرغَ منه، فادْعُهم إلى الله.

﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾

أمر – تعالى– بالعدل والاقتصاص والمماثلة في استيفاء الحق، كما قال ابن سيرين[3] وغير واحدٍ في هذه الآية...: (إن أخذ منك رجلٌ شيئاً، فخذْ مثلَه)[4]، واختاره ابن جرير[5]، وقال: نزلت سورة "النحل" كلها بمكة، إلا ثلاث آيات من آخرها، فإنها نزلت بالمدينة بعد أُحُدٍ، حيث قُتِلَ حمزةُ – رضي الله عنه –، ومُثِّل به، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: "لئن ظفرنا عليهم، لَنُمَثِّلَنَّ بثلاثين رجلاً منهم"، فلما سَمِعَ المسلمون ذلك، قالوا: مثلَه، وبالغوا فيه، فأنزل الله: ﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ ﴾، إلى آخر السورة[6]...، وهذا مرسلٌ ضعيفٌ.

وهذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن، فإنها مشتملة على مشروعية العدل، والندب إلى الفضل، كما في قوله: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾، ثم قال: ﴿ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾[7]، وقال: ﴿ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞ ﴾، ثم قال: ﴿ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ

(1) سورة العنكبوت، من الآية (46).

(2) سورة طه، من الآية (44).

(3) محمد بن سيرين البصيري، الأنصاري، أبوبكر، الإمام الرباني، ولد سنة (33هـ) كان أحد علماء التابعين، كما كان ثقة مأموناً عالياً، رفيعاً فقيهاً ورعاً، سمع من أبي هريرة، وعمران بن حصين، وابن عباس، وغيرهم – رضي الله عنهم–، قال مُوَرِّق العجلي: (ما رأيت أحداً أفقه ولا أورع، في فقهه، من ابن سيرين)، توفي بالبصرة سنة (110هـ)، ينظر: الطبقات الكبرى – لابن سعد (193/7)، وتذكرة الحفاظ – للذهبي (62/1)، والأعلام – للزركلي (154/6).

(4) تفسير ابن أبي حاتم (2308/7).

(5) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (325/17).

(6) المصدر نفسه، (323/17).

(7) سورة الشورى، من الآية (40).

﴿كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾[1].

وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ تأكيد للأمر بالصبر، وإخبارٌ بأن ذلك إنما يُنَالُ بمشيئة الله، وإعانته، وحَوْلِه، وقوتِه.

ثم قال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾، أي: على مَنْ خَالفك، فإن الله قدَّر ذلك، ﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ﴾، أي: غمّ، ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾، أي: مما يجتهدون أنفسهم في عداوتك، وإيصال الشر إليك، فإن الله كافيك وناصِرُك، ومُظهرك عليهم.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾، أي: معهم بتأييده، ونصره ومعونته، وهذه مَعِيّةٌ خاصةٌ، كقوله لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[2] وقول النبي – صلى الله عليه وسلم– للصِّدِّيق، وهما في الغار: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[3]، وأمَّا المعيَّة العامة، فبالسمع والبصر والعلم، كقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[4]، وغيرها من الآيات....

ومعنى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾، أي: تركوا المحرَّمات، ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾، أي: فعلوا الطاعات، فهؤلاء يحفظهم الله، ويكلؤهم، وينصرهم ويؤيدهم على أعداء الدين، وسائر المخالفين.

(1) سورة المائدة، من الآية (40).

(2) سورة طه، من الآية (46).

(3) سورة التوبة، من الآية (40).

(4) سورة الحديد، من الآية (4).

تفسير سورة "سبحان" وهي مكية

[تمهيد][1]

[هذه السورة مكية، وسميت بسورة الإسراء؛ نسبة لذكر حادثة الإسراء بالرسول – صلى الله عليه وسلم– فيها، وكانت تسمَّى عند الصحابة سورة بني إسرائيل.

والسوة تتناول محتويات كثيرة نذكرها على النحو الآتي:

- إثبات القرآن أنه من عند الله، وإثبات فضله وفضل مَن أُنزل عليه، وأنه معجِز، والردّ على المشركين في إبطال مطاعِنِهم.
- بيان النِّعَم التي سخرها الله للناس.
- إثبات البعث والجزاء.
- التأكيد على إقامة الصلوات في أوقاتها.
- التحذير من الوقوع في مصائد الشيطان وعداوته لآدم، وذريته، وامتناعه من للسجود.
- الإسراء إلى المسجد الأقصى كان ذكره فيها، تنويهاً له، وتذكيراً بحرمته.
- إظهار فضائل من شريعة الإسلام، وحكمته.
- الحذر من عذاب الآخرة، وعرض ما وقع للأمم السابقة من هلاك واستئصال.
- تهديد المشركين بأن الله سينصر الإسلام على الباطل.
- الإشارة إلى ما لقيه الرسول – صلى الله عليه وسلم– من المشركين، واستعانتهم باليهود][2].

وفي البخاري: قال ابن مسعود في بني إسرائيل والكهف ومريم: (إنهن من العِتاق الأُوَلُ، وهن من تلادي)[3]، أي: من أول ما أُنْزِلَ، والعتيق: القديم، أو من قديم ما تَعَلَّمْتُ من القرآن، وقوله: من تلادي، أي: مِن قديم ما أَخَذْتُ وادّخرتُ من القرآن. وعن عائشة قالت: كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم– يقرأ كل ليلة "بني إسرائيل" و"الزُّمر"[4]، رواه أحمد.

---

(1) إضافة من المحقق.

(2) ينظر: التحرير والتنوير – للطاهر بن عاشور (5/15).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: سورة بني إسرائيل الإسراء، (1741/4)، برقم (4431)، من حديث ابن مسعود – رضي الله عنه– مرفوعاً.

(4) جزء من حديث أخرجه أحمد في مسنده (394/41)، من حديث عائشة – رضي الله عنها– مرفوعاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾.

مجَّد الله نفسه، وعظَّم شأنه؛ لكمال قدرته، فلا إله إلا هو، ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾، يعني: محمداً – صلى الله عليه وسلم–، ﴿لَيْلًا﴾، أي: في جُنْح ليلٍ، ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، وهو مسجد مكة، ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾، وهو بيت المقدس الذي بإيلياء، مَعْدِن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل، ولهذا جُمِعُوا هنالك كُلُّهُمْ، فأمَّهُم في محلتهم ودارهم، فدلَّ على أنه هو إمام الأنبياء وسيد المرسلين، – صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين–.

وقوله: ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾، أي: في الزروع والثمار، ﴿لِنُرِيَهُ﴾، أي: محمداً ﴿مِنْ آيَاتِنَا﴾، أي: العظام، كما قال – تعالى–: ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾[1].

وقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، أي: السميع لأقوال عبادِهِ، مُؤْمِنِهم وكَافِرِهم، مصدِّقهم ومكذِّبهم، البصير بهم، فيعطي كلاً ما يستحقهم في الدنيا والآخرة، وقد وردت في الإسراء أحاديث بطرق وروايات، يكتفى منها بما يفيد المقصود بلا تَكْرَار ولا تطويلٍ، منها في الصحيحين: عن أنس بن مالكٍ عن مالك بن صعصعة حدَّثه أن نبي الله – صلى الله عليه وسلم– حدَّثهم عن ليلة أسري به، قال: "بينما أنا في الحطيم[2]، وربما قال في الحجر مضطجعاً، إذا أتاني آتٍ"، فجعل يقول لصاحبه الأوسط بين الثلاثة، قال: "فأتاني، فقدَّ – وفي رواية "فشقَّ"– ما بين هذه إلى هذه"، يعني: من ثُغْرَةِ نحرِه إلى شِعْرتِه[3]، فاستخرج قلبي"، قال: "فأُتيتُ بِطَسْتٍ من ذهبٍ، مملوءة إيماناً وحكمةً، فغسل قلبي، ثم حُشِيَ، ثم أُعِيدَ، ثم أُتِيتُ بدابة، دون البغْلِ وفوق الحمار، أبيض"، هو البراق يقع خَطْوُهُ عند أقصى طَرْفِهِ، قال: "فحملت عليه، فانطلق بي جبريل – عليه السلام–، حتى أتى إلى السماء الدنيا، فاستفتح، فقيل: من

---

(1) سورة النجم، الآية (18).

(2) الحطِيمُ: الجدار، يعني جدار حِجْرِ الكعبة، أو ما بين الرُّكنِ وزمْزَم، تاج العروس من جواهر القاموس – للزبيدي (304/31)، الجذر "ح ط م".

(3) الشِّعْرَةُ: القطعةُ من الشعر، أي طائفة منه والمقصود شعرُ العانةِ. ينظر: المصدر السابق (184/12)، الجذر "ش ع ر".

هذا؟ قيل: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، أَوَقَدْ أُرْسِلَ إليه؟ قال: نعم، فقيل: مرحباً به، ونِعْمَ المَجِئُ جاء"، قال: "ففُتِحَ، فلما خلصتُ، فإذا فيها آدم، فقال: هذا أبوك آدم، فسلِّم عليه، فسلّمتُ عليه، فردَّ السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح، والنبي الصالح، ثم صَعِد، حتى أتى السماء الثانية، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أوقد أُرْسِلَ إليه؟ قال: نعم، قِيلَ: مرحباً به، ونِعْمَ المَجِئُ جاء"، قال: ففُتِحَ، فلما خَلُصتُ، فإذا يحيى وعيسى، وهما ابنا الخالة، قال: هذا يحيى وعيسى، فسلِّم عليهما، فسلمتُ، فردَّا السلام، ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح، والنبي الصالح.

ثم صَعِدَ حتى أتى السماء الثالثة، فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أَوَ قَدْ أُرْسِلَ إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به، ونعم المجئ جاء"، قال: " فَفُتِحَ لنا، فلمَّا خَلُصْت، إذا يوسف.

قال: هذا يوسف، فَسَلِّمْ عليه، قال: " فسلَّمتُ عليه، فردَّ السلامَ، فقال" مرحباً بالأخ الصالح، والنبي الصالح، ثم صَعِدَ حتى أتى السماء الرابعة، فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أَوَ قَدْ أُرْسِلَ إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به، ونِعْمَ المَجِئُ جاء"، قال: " ففتح، فلما خَلُصْتُ، فإذا إدريس، قال: هذا إدريس، فسلم عليه"، قال: "فسلمتُ عليه، فردَّ السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح، والنبي الصالح".

قال: "ثم صَعِدَ حتى أتى السماء الخامسة، فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أو قد أُرْسِلَ إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به، ونعم المجئُ جاء"، فلما خَلُصْتُ، فإذا هارون، قال: هذا هارون، فسلم عليه، فسلمت عليه، فردَّ السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح، والنبي الصالح".

ثم صَعِدَ بي حتى أتى السماء السادسة، فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أَوَقَدْ أُرْسِلَ إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به، ونعم المَجِئُ جاء، فَفُتِحَ، فلما خَلُصْتُ، فإذا أنا بموسى، قال: هذا موسى، فسلم عليه، فسلمت عليه، فردَّ السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح، والنبي الصالح".

قال: فلما تجاوزت، بكى، قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي؛ لأن غلاماً بُعث بعدي، يدخل الجنة من أمتِّهِ أكثر ممَّا يدخلها من أمتي".

قال: ثم صَعِدَ، حتى أتى السماء السابعةَ، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريلَ، قيل: ومن معك؟ قال: محمدَ، قيل: أوقد أُرْسِلَ إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به، ونعم المجئ جاء"، قال: "ففتح، فلما خَلُصْتُ، فإذا إبراهيم، فقال: هذا إبراهيم، فسلِّم عليه"، قال: فسلَّمتُ عليه، فردَّ السلام، فقال: مرحباً بالابن الصالح، والنبي الصالح.

قال: ثم رُفِعْتُ إلى سدرة المنتهى، فإذا نَبْقُهَا مِثْلُ قِلال هَجَرَ[1]، و"إذا أربعة أنهار: نهران باطنان، ونهران ظاهران، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أمَّا الباطنان، فنهران في الجنة، وأمَّا الظاهران، فالنيل والفرات"

ثم رُفِعَ إلي البيت المعمور، "ثم أُتِيتُ بإناء من خمر، وإناء من لبنٍ، وإناءٍ من عسلٍ"، قال: "فأخذت اللبن، قال: هذه الفطرة، أنت عليها وأمتك"

قال: "ثم فُرِضت عليَّ الصلاة خمسين صلاة كل يومٍ"، قال: "فنزلت، حتى أتيت موسى، فقال: ما فرض ربك على أمتك؟" قال: "فقلت: خمسين صلاةً كُلَّ يومٍ، قال: إن أمتك لا تستطيع لخمسين صلاةٍ، وإنّي قد جَرَّبْتُ الناس قبلك، وعالجتُ بني إسرائيل أشدَّ المعالجة، فارجع إلى ربك، فَسَلْهُ التخفيف لأمتك"، قال: "فرجعت، فوضع عني عشراً، قال: فرجعت إلى موسى، فقال: بِمَ أُمِرْتُ؟ قلت: بأربعين صلاةً كل يومٍ، قال: إن أمتك لا تستطيع أربعين صلاةً كُلَّ يوم، وإني قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أَشَدَّ المعالجة، فارجع إلى ربك، فَسَلْهُ التخفيف لأمتك"، قال: فرجعت، فوضع عني عَشْراً أُخَرَ، فرجعت إلى موسى، فقال: بِمَ أُمِرْتَ؟ فقال: أُمِرْتُ بثلاثين صلاةً كُلَّ يومٍ، قال: إن أمتك لا تستطيع ثلاثين صلاةً كل يومٍ، وإني قد جربت الناس، وعالجت بني إسرائيل أَشَدَّ المعالجة، فارجع إلى ربك، فَسَلْهُ التخفيف لأمتك"، قال: فرجعت، فوضع عني عشراً أُخَر، فرجعت إلى موسى، فقال: بم أُمِرْتَ؟ قلت: بعشرين صلاة كل يوم، فقال: إن أمتك لا تستطيع لعشرين صلاة كل يومٍ، وإني قد جربتُ الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أَشَدَّ المعالجة، فارجع إلى ربك، فَسَلْهُ التخفيف، قال: فرجعت، فوضع عني عشراً أُخَر، فرجعت إلى موسى، فقال: بِمَ أُمِرْتَ؟ فقلتُ: أُمِرْتُ بعشر صلوات كُلَّ يومٍ، فقال: إن أمتك لا تستطيع لعشر صلوات

(1) قلال هَجَر: قرية قرب المدينة. معجم البلدان – لياقوت الحموي (393/5).

كُلَّ يومٍ، وإني قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك، فسلْهُ التخفيف لأمتك" قال: فرجعت، فأُمِرْتُ بخمس صلوات كُلَّ يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع بخمس صلوات كُلَّ يوم، وإني قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك، فسلْه التخفيف لأمتك"، قال: قلت: سألتُ ربي، حتى استحييتُ، ولكني أرضى وأُسَلِّمُ، فنفذت، فناداني منادٍ: قد أَمْضَيْتُ فريضتي، وخففت عن عبادي"[1]، رواه أحمد بهذا السياق، وفي رواية أخرى، منها عن شَرِيكِ بن عبدالله[2]، عن أنس بن مالكٍ: "حتى جاء سدرة المنتهى، ودنا الجبار ربّ العزة، فتدلى، حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى الله إليه فيما يوحي خمسين صلاةً على أمتك كل يوم وليلةٍ"[3]، فذهب جماعة من الصحابة والتابعين بهذا أنه – عليه الصلاة والسلام- رأى ربه، قال البيهقي: وقول من حمل هذا على رؤيته جبريل أصح، فإن أبا ذرٍ، قال: يا رسول الله، [هل][4] رأيتَ ربّك؟ قال: "نورٌ أنَّى أراهُ"[5]، وفي رواية: "رأيت نوراً"[6]، رواه مسلم، والله أعلم، وفي رواية أخرى عن أنسٍ: "حتى بلغ بيت المقدس، قال – عليه الصلاة والسلام-: فلم ألبث إلا يسيراً، حتى اجتمع ناس كُثُرٌ، ثم أَذَّنَ مؤذن وأقيمت الصلاة، قال: "فقمنا صفوفنا، ننتظر من يؤمُّنا، فأخذ بيدي جبريل، فقدَّمَني، فصليتُ بهم، فلما انْصَرَفْتُ، قال يا جبريل: يا محمد، أتدري من صلَّى خلفك؟" قال: قلت: لا، قال: صلَّى خلفَكَ كلُّ نبيٍّ بعثَه الله – تعالى-".

قال: ثم "أخذ بيدي جبريل، فَصَعِدَ بي إلى السماء"[7]، رواه ابن أبي حاتم، وفي رواية عن بريدة، قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم-: لمَّا كان لَيْلَةَ أُسْرِيَ به[8]،

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده (370/29)، من حديث مالك بن صعصعة مرفوعاً بألفاظ متقاربة.

(2) شَرِيكِ بْنِ عبدالله بن أبي نمر القرشي المدني، أبو عبدالله، قال أنس بن مالك، تابعي صدوق، وقال ابن معين: لا بأس به، وقال أبو داود: ثقة. ينظر: ميزان الإعتدال في نقد الرجال – للذهبي (262/2)، ولسان الميزان – لابن حجر العسقلاني (242/7).

(3) جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التوحيد، باب: قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾، (2730/6) برقم: (7079)؛ من حديث أنس بن مالك – رضي الله عنه- مرفوعاً.

(4) ساقطة من المؤلف، مثبتة من صحيح مسلم (111/1).

(5) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: في قوله – عليه السلام- نور أنَّى أراهُ، (111/1) برقم (461)؛ من حديث أبي ذرٍ – رضي الله عنه- مرفوعاً.

(6) نفس التخريج السابق.

(7) لم أقف عليه في تفسير – ابن أبي حاتم، وأورده العسقلاني في كتابه فتح الباري شرح صحيح البخاري (208/7).

(8) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (20/5): (بي)، وهو الصحيح.

قال: " فأتى جبريل الصخرة التي ببيت المقدس، فوضع إصبعه فيها، فخرقها، فَشَدَّ بها البُرَاقَ"[1] رواه الترمذي، وفي الصحيحين: عن جابر سمع رسول الله – صلى الله عليه وسلم– قال: " لمَّا كَذَّبَتْنِي قريش، حين أسرِيَ بي إلى بيت المقدس، فقمت في الحجر، فَجَلَّى الله لي بيت المقدس، فطَفِقْتُ أخبرهم عن آياته، وأنا أنظر إليه"[2]، وفيهما أيضاً: عن ابن عباس عن النبي – صلى الله عليه وسلم– قال: رأيت ليلة أُسْرِيَ بي رجلاً آدمَ، طُوالاً جعداً، كأنه من رجال شنوءة[3]، ورأيت عيسى رجُلاً، مربوع الخَلْق، إلى الحمرة والبياض، سَبِطَ[4] الرأس"، وأريت مالكاً خازن النار، والدجَّال، في آيات أراهُنَّ الله إياهُ، ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾[5].

وفي مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: " لقد رأيتني في الحجر، وقريش تسألني عن أشياء من بيت المقدس، لم أثبتها، فكربْتُ كرباً ما كَرَبْتُ مِثْلَهُ قطّ، فرفعه الله لي، أَنْظُرْ إليه، ما سألوني عن شيءٍ، إلا أنبأتهم به، وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء، وإذا موسى قائم يصلي، وإذا رجل ضربٌ جَعْدٌ، كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسى بن مريم قائم يصلي، أقربُ الناس به شبهاً عروة بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم قائم يصلي، أشبه الناس به صاحبكم، يعني: نفسه، فحانت الصلاة، فأَمَمْتُهم، فلما فرغت، قال قائل: يا محمد، هذا مالك صاحب النار، فالتفتُّ إليه، فبدأني بالسلام"[6]، قال البيهقي عن عائشة – رضي الله عنها– قالت: لما أُسْرِيَ بالنبي – صلى الله عليه وسلم– إلى المسجد الأقصى، أصبح يُحَدِّثُ الناس

---

(1) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: تفسير القرآن، باب: سورة بني إسرائيل (301/5)، برقم (3132)، من حديث بريدة – رضي الله عنه– مرفوعاً، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: سورة بني إسرائيل الإسراء (1743/4)، برقم (4433)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: في ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجّال، (108/1) برقم (446)؛ كلاهما من حديث جابر – رضي الله عنه– نحوه.

(3) الشَّنُوءة: التَّقَزُّزُ من الشيء وهو التناطس والتباعد عن الأدناس. تاج العروس من جواهر القاموس – للزبيدي (288/1)، الجذر "ش ن أ".

(4) سَبِطَ: مُسْتَرْسِلٌ غَيْرُ جَعْدٍ، لسان العرب – لابن منظور (308/7)، الجذر: (س ب ط).

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: بدء الخلق، باب: إذا قال أحدكم: آمين، والملائكة في السماء، فوافقت إحداهما الأخرى، غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه، (1182/3)، برقم (3067)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: الإسراء برسول الله – صلى الله عليه وسلم– إلى السمٰوٰت وفرض الصلوات، (105/1)، برقم (437)، كلاهما من حديث ابن عباس – رضي الله عنهما– مرفوعاً بنحوه.

(6) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: في ذكر المسيح بن مريم، والمسيح الدجَّال (108/1)، برقم (448)، من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه– مرفوعاً.

بذلك، فارتدَّ ناسٌ ممن كانوا آمنوا به وصدَّقوه، وسعوا بذلك إلى أبي بكر، فقالوا: هل لك في صاحبك؟ يزعُمُ أنه أُسْرِيَ به اللَّيْلَةَ إلى بيت المقدس! فقال: أوقال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن قال ذلك، لقد صدق، قالوا: أفتصدِّقُه، أنه ذهب اللَّيْلَةَ إلى بيت المقدس، وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم، إني لأصدقُه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقُه بخبر السماء في غَدْوةٍ أو رَوْحة، فلذلك سُمّي أبوبكر: الصِّدِّيقَ[1].

ثم اعلم أن الإسراء كان مرة واحدةً، أُسْرِيَ به يقظةً لا مناماً، راكباً البُرَاقَ من مكة إلى بيت المقدس، فلما انتهى إلى باب المسجد، ربط الدابة عند الباب، ودخله، فصلَّى في قبلته تحِيَّةَ المسجد، ركعتين، ثم أُتِيَ بالمعراج، وهو السُّلم ذو درجٍ، يرقى فيها، فَصَعِدَ فيه إلى السماء الدنيا، على ما سبق في الحديث الصحيح، وكان الإسراء قبل الهجرة بسنةٍ، قاله الزهري[2] وعرْوة، وقيل: بستة عشرة شهراً[3]، والأكثرون على أنه عليه – الصلاة والسلام– أُسْرِيَ ببدنه وروحِهِ يقظةً لا مناماً، ولا يُنْكَرُ أن يكون رسول الله – صلى الله عليه وسلم– رأى قبل ذلك مناماً، وأراهُ بعده يقظةً؛ لأنه – عليه الصلاة والسلام– كان لا يرى رؤيا، إلا جاءت مثل فلق الصبح، والدليل على هذا قوله – تعالى–: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، ولو كان مناماً، لم يكن فيه كبير شيء، ولم يكن مُسْتَعْظَماً، ولمَا بَادرتْ كفار قريش إلى تكذيبه، ولما ارتدَّ جماعة ممن كان قد أسلم. وأيضاً فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد، وقد قال: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾. وقد قال – تعالى–: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾، قال ابن عباس: "هي رؤيا عينٍ أُرِيَهَا رسول الله – صلى الله عليه وسلم–"[4]، رواه البخاري، وقال: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾[5]، والبصر من آلات الذاتِ لا الرُّوحِ.

---

(1) دلائل النبوة – للبيهقي (361/2).

(2) محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، أبو بكر ، من التابعين، وأحد أكابر الحفاظ والفقهاء، سَمِعَ من ابن الزبير، والحسن والحسين – رضي الله عنهم– أجمعين، قال فيه الليث: (ما رأيت عالماً قط أجمع من ابن شهاب، ولا أكثر علما منه...)، وقال سفيان: (مات الزهري يوم مات، وليس أحدٌ أعلم بالسنة منه)، توفي سنة (124هـ)، ينظر: صفة الصفوة – لابن الجوزي (136/2، وتذكر الحفاظ – للذهبي (83/1)، والأعلام – للزركلي (97/7).

(3) ينظر: المصدر نفسه (354/2 – 355).

(4) جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: سورة بني إسرائيل (الإسراء)، (1748/4)، برقم (4439)، من حديث ابن عباس – رضي الله عنه– مرفوعاً.

(5) سورة النجم، الآية (17).

وقيل: بل أُسْرِيَ بروح رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لا بجسده، كما قالت عائشة: (ما فُقِد جسد رسول الله – صلى الله عليه وسلم–، ولكن أسري بروحه)[1]، وهذا على تقدير الصحة، فأُوِّل بما سبق آنفاً، من أنه لا يُنكَرُ أن يكون – عليه الصلاة والسلام– رأى قبل ذلك مناماً وراهُ بعدهُ يقظةً.

وقد تَوَاتَرَتِ الروايات في حديث الإسراء، عن أكابر الصحابة والتابعين، على أكثر من ثلاثين نوعاً، وطريقاً، من مختصر ومبسوطٍ، على ما في الصحاح والسنن والمسانيد والأخبار، فهو مُجْمَعٌ على صحة وقوعه، وأعرض عنه الزنادقة والملحدون، ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[2].

وقوله – تعالى–: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِى وَكِيلًا ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾

لمَّا ذكر – تعالى– بأنه أَسْرَى بعبده محمد – صلى الله عليه وسلم–، عطف بذكر موسى عبده، وكلمته[3]، أيضاً، فإنه – تعالى– كثيراً ما يَقْرِنُ بين محمد وموسى –عليهما الصلاة والسلام– وبين التوراة والقرآن، ولهذا قال بعد ذكر الإسراء: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾، يعني: التوراه، ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾، أي: الكتاب، ﴿هُدًى﴾، أي: هادياً ﴿لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ ﴾، أي: لئلا تتخذوا ﴿مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾، أي: وكيلا، ولا نصيراً، ولا معبوداً دوني؛ لأن الله – تعالى– أنزل على كل نبي أرسله أن يعبده وحده لا شريك له.

ثم قال: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾، تقديره: يا ذرية من حملنا مع نوح، فيه تهييج وتنبيه على المنَّة، أي: يا سلالة من نجَّينا، فجعلنا مع نوحٍ في السفينة، تشبَّهوا بأبيكم، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾، فاذكروا أنتم نعمتي عليكم، بإرسالي إليكم محمداً، وإنما سُمِّي عبداً شكوراً؛ لأنه كان – عليه السلام– يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسِهِ، وشأنه كُله، وعن أنسٍ قال: قال رسول الله: "– صلى الله عليه وسلم–: إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة، أو يشرب الشربة، فيَحْمَدَ الله عليها"[4]، رواه مسلم.

---

(1) السيرة النبوية – لابن إسحاق (104)، وجامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (350/17).

(2) سورة الصف الآية (8).

(3) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (46/5): (وكليمه)، وهو الصحيح.

(4) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، (87/8)، برقم (7108)، من حديث أنس بن مالك – رضي الله عنه– مرفوعاً.

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدٗا مَّفْعُولٗا ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَاۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾

أي: وَتَقَدَّم إليهم، وأَخْبِرْهم في الكتاب الذي أَنْزَلَهُ عليهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين، ويعلون علوًّا كبيراً، أي: يتجبَّرُوا ويطغوا ويفجروا[1] على الناس، كما قال –تعالى-: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾[2]، الآية ...

وقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾، أي: أولى الإفسادين، ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٖ شَدِيدٖ﴾، أي: سلَّطنا عليكم جنداً من خلقنا أولي بأس شديد، أي: قوة وعُدَّة وسلطنة[3] شديدة، ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾، أي: تَمَلَّكُوا دياركم، وسَلَكُوا خلال بيوتكم، أي: بينها ووسطها، وتصرفوا[4] ذاهبين وجائين، لا يخافون أحداً، ﴿وَكَانَ وَعْدٗا مَّفْعُولٗا﴾.

واختلفوا في هذا[5] المسلطين، قال ابن عباسٍ، وغيره: أنه (جالوت الجَزَرِيّ) وجنوده، سُلِّطَ عليهم أولاً، ثم أُدِيلُوا عليه بعد ذلك، وقتلَ داودُ جالوتَ[6]، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾.

وقال سعيد بن جبير: إنه ملك موصل[7] (سنجاريب) وجنودهُ، وعنه أيضاً وغيره: إنه (بختنصر)، ملك بابل[8][9].

---

(1) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (47/5): (يتجبَّرون، ويطغُونَ، ويفجُرُون)، وهو الصحيح.

(2) سورة الحجر، من الآية (66).

(3) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم– لابن كثير (47/5): (وسُلْطَة)، وهو الصحيح.

(4) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (47/5): (وانصرفوا)، وهو الصحيح.

(5) المصدر السابق، بنفس الصفحة: (هؤلاء)، وهو الصحيح.

(6) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطّبري (366/17).

(7) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (47/5): (الموصل)، وهو الصحيح.

(8) بابل: اسم ناحية، منها الكوفة، معجم البلدان – لياقوت الحموي (309/1).

(9) جامع البيان في تأويل القرآن– للطبري (367/17).

وقد ذكر ابن أبي حاتم له قصةً عجيبةً، في كيفية ترقِّيهِ من حالٍ إلى حالٍ، إلى أن ملك البلادَ، وأنه كان فقيراً مُقْعَدًا، يستعطي النار [1] ويستطعم، ثم آل به الحال إلى ما آل، وأنه سائر إلى بيت المقدس، فقَتَل بها خلقاً كثيراً، من بني إسرائيل[2].

وقد روى ابن جرير في هذا المكان حديثاً مطوَّلاً مرفوعاً[3]، وهو موضوع لا محالة، والعجب منه كيف راج عليه، مع إمامته، وجلالة قدره!

وقد ورد في هذا آثار كثيرة إسرائيلية، لا نطوِّل الكتاب بها؛ فإن منها موضوعات، ومنها ما يحتمل الصدق، ونحن في غُنْيَةٍ عنها، ولله الحمد، وفيما قصَّ الله علينا في القرآن غُنْيَةٌ عما سواهُ، وقد أخبر- تعالى- أنهم لمَّا بغوا وطغوا، سلط عليهم عدوهم، فاستباح بَيْضتَهُمْ، وسلك خلال بيوتهم، وأذلَّهم، وقهَرهُم؛ جزاء وفاقاً.

وعن ابن المسيب قال: ظهر (بختنصر) على الشام، فخربَّ بيت المقدس، وقتلهم، ثم أتى دمشق، فوجد بها دماً، يغلي على كِباً[4]، فسألهم: ما هذا الدم؟ قالوا: أدركنا آباءنا على هذا، وكلما ظهر عليه الكِبَا، ظهر، قال: فَقَتَل على ذلك الدم سبعين ألفاً من المسلمين، وغيرهم[5]، وجرت أمور، وكوائنُ، يطول ذكرها.

ثم قال – تعالى–: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَا﴾، أي: فَعَلَيْها، كما قال – تعالى–: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَا﴾[6].

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، أي: الكرَّة الآخرة، يعني: إذا أفسدتم الكرة الثانية، وجاء أعداؤكم، ﴿لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ﴾، أي: يهينوكم ويَقْهَرُوكُم، ﴿وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ﴾، أي: بيت المقدس، ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾، أي: في التي جاسُوا وداروا فيها

(1) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (47/5): (الناس ويستطعمهم)، وهو الصحيح.

(2) ينظر: تفسير ابن أبي حاتم (2315/7).

(3) أخرجه الطبري في تفسيره (357/17)، وأخرجه محمد بن محمد أبو شهبة في كتابه: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، مكتبة السنة ط: الرابعة (305)، من حديث حذيفة مرفوعاً، وقال: عفا الله عن ابن جرير، كيف استجاز أن يذكر هذا الهراء، وهذه التخريفات عن المعصوم – صلى الله عليه وسلم– وكان عليه أني صون كتابه عن أن يسوده بأمثال هذه المرويات الباطلة.

(4) الكِبَا: (الجَمْرُ)، تاج العروس من جواهر القاموس – للزبيدي (372/39)، الجذر: "ك ب و".

(5) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (368/17).

(6) سورة فصلت، من الآية (46).

خلال الديار، ﴿وَلِيُتَبِّرُواْ﴾، أي: يدمروا ويخربوا، ﴿مَا عَلَوْاْ﴾ أي: ما ظهروا عليه، ﴿تَتْبِيرًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾، أي: فيصرفهم عنكم، ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾، أي: متى عدتم إلى الإفساد، ﴿عُدْنَا﴾ إلى الإدالة[1] عليكم في الدنيا، مع ما يُدَّخَر لكُمْ في الآخرة من العذاب والنكال؛ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾، أي: مستقراً ومَحْصَرًا وسِجْنًا أبداً. قال ابن عباس: ﴿حَصِيرًا﴾: "سِجْنًا يُحْصَرُونَ فيها"[2]، وقال قتادة: قد عَادَ بنو إسرائيل، فسلط الله عليهم هذا النبي محمداً – صلى الله عليه وسلم- وأصحابه، يأخذون منهم الجزية، عن يد، وهم صاغرون.

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

مدح الله كتابه العزيز، الذي أنزله على رسوله محمد – صلى الله عليه وسلم-، بأنه يهدي لأقومِ الطريقِ[3]، وأوضح السُّبَلِ، ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ به، ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾، على مقتضاهُ، ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾، أي: يوم القيامة.

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾، أي: ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة بأنا ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يوم القيامة، كما قال: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[4].

﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾

أخبر- تعالى- عن عجلة الإنسان، ودعائه في بعض الأحيان على نفسه ﴿بِالشَّرِّ﴾، أي: بالموت أو الهلاك أو اللعنة، مِثْلَ دعائه بالخير ونحوه...، فلو استجاب له ربُّه، لهلك بدعائه، وقد سبق في الحديث: "ولا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعَةً يُسْأَلُ فيها عطاءً، فيستجيب لكم"[5]، رواه مسلم، وإنما يَحْمِلُ ابنَ آدم على ذلك عجلتُه وقلقُه؛ ولهذا قال:

---

(1) الإدالة: الغلبة، ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس – للزبيدي (511/28)، الجذر : "د و ل"،

(2) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (390/17).

(3) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم- لابن كثير (48/5): (الطرق)، وهو الصحيح.

(4) سورة آل عمران، من الآية (21).

(5) سبق تخريجه.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾، أي: ضَجِراً، لا صبرَ له في السَّرَّاء والضَّرَّاء.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾

لقد منَّ الله على خلقه بآياته العظام، فمنها مخالفته بين الليل والنهار؛ لتسكنوا في الليل، وتنتشروا في النهار، للمعاش والصنائع والأعمال والأسفار، ولتعلموا عدد الأيَّام، والجُمَعَ، والشهور، والأعوام، وتعرفوا مُضِيَّ الآجال المضروبة، للديون، والعبادات، والمعاملات، والإجارات، وغير ذلك...، ولهذا قال: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾، أي: في معاشكم وأسفاركم، ونحو ذلك...، ﴿وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾، فإنه لو كان الزمان كله نسقاً واحداً، وأسلوباً متساوياً، لما عُرفَ شيءٌ من ذلك، كما قال – تعالى-: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، إلى قوله: ﴿تَشْكُرُونَ﴾(1)، وغيرها من الآيات...

ثم إنه – تعالى- جعل لليل آية، أي: علامةً يُعرف بها، وهي الظلام، وظهور القمر فيه، وللنهار علامة، وهي النور، وطلوع الشمس النيّرة فيه، وفاوت بين ضياء القمر وبرهان الشمس؛ ليُعْرَفَ هذا من هذا، كما قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾(2)، الآية...، وقوله: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ أي: ظلمتَهُ، وسوادَهُ الذي في القمر، وقال قتادة: كنا نتحدث أن محوَ آية الليل سوادُ القمر الذي فيه(3)، وجعلنا آية النهار مُبْصِرَةً، أي: مُنِيرَة، وخلق الشمس أَنورَ من القمر وأَعْظَمَ.

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾.

طائره: هو ما طار من عمله من خير أو شرٍّ، يُلْزَم به ويُجَازَى عليه، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾(4)، وقال: ﴿وَإِنَّ

---

(1) سورة القصص، من الآيات (71 – 72 – 73).

(2) سورة يونس، من الآية (5).

(3) ينظر: تفسير – السمعاني (224/3).

(4) سورة الزلزلة، الآيات (7 – 8).

عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾[1]، الآية...، يعني: أن عملَ بني آدم محفوظٌ عليه، قليله وكثيره، ويكتب عليه ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً.

وقوله: ﴿أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾، أي: عمله لا يفارقه، حتى يُحَاسَبَ، وإنما ذكر العنق؛ لأنه لا نظير له في الجسد، ومَنْ أُلْزِمَ بشيء فيه، فهو مُلازمه أين ما كان.

وقوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، أي: يُجْمَعُ له عمله كله في كتابٍ، يُعْطَاه يوم القيامة، إما بيمينه، إن كان سعيداً، أو بشماله، إن كان شقيًّا، ﴿مَنْشُورًا﴾، أي: مفتوحاً، يقرؤه هو وغيره، فيه جميع عمله، من أوَّل عمره إلى آخره، ﴿يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾[2]، الآية...، وقوله: ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾، أي: أنت تعلم أنك لم تُظْلَمُ، ولم يُكْتَبْ عليْك إلا ما عملت؛ لأنك ذكرت جميع ما كان منك، ولا يُنَبَّؤُ أحدٌ شيئاً مما كان منه، وكل أحدٍ يقرأ كتابه، من كاتب وأمّيّ.

وقوله: ﴿حَسِيبًا﴾، أي: حاسباً، قال الحسن: لقد عدل عليك من جعلك حسيب نفسك[3].

﴿ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾

أخبر – تعالى– أن من اهتدى واتبع الحق واقتفى آثار النبوة، فإن عاقبته تكون حميدة لنفسه، ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾، أي: عن الحق، وزاغ عن سبيل الرشاد، فإنما يجني على نفسه، ويعودُ وَبَالُ ذلك عليه.

ثم قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، أي: لا يُحْمَلُ ذَنْبُ أحدٍ على أحدٍ، ولا يَجنِي جانٍ إلا على نفسه، كما قال: ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾[4]، ولا منافاة بين هذا وبين قوله: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾[5]، ونحوه...، فإن الدعاة عليهم إثم ضلالهم في أنفسهم، وإثمُ مَن أضلّوا، من غير أن ينقص من أوزارهم

(1) سورة الانفطار، الآية (10).

(2) سورة القيامة، الآية (13).

(3) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (400/17).

(4) سورة فاطر، من الآية (18).

(5) سورة العنكبوت، من الآية (13).

أولائك، ولا يَحْمِلُوا عنهم شيئاً، وهذا من عدلِهِ ورحمتِهِ بعبادِهِ، وكذا قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، إخباراً عن عدله، وأنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه، بإرسال الرسل إليه، كما قال – تعالى-: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾[1]، الآية، وغيرها من الآيات البينات الدالة على أنه – تعالى- لا يُدْخِل أحداً النارَ، إلا بعد إرسال الرسول إليه، وقد اختلفوا في مسألة الوِلْدَانِ: الذين ماتوا وهم صغار، وآباؤهم كفار، ماذا حكمهم؟ وكذا المجنون والأصمُّ والشيخ الخرِف، ومن مات في الفترة، ولم تبلغه دعوة؟ وقد وردت في شأنهم أحاديث، نذكر بعضها، ثم نبين حكم مسألتهم، في مسند أحمد عن أبي هريرة: أن نبي الله – صلى الله عليه وسلم- قال: "أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصمّ، لا يسمعُ شيئاً، ورجل أحمقُ، ورجلٌ هَرِمٌ، ورجُلٌ مات في الفترة، أمَّا الأصمُّ، فيقول: ربّ، قد جاء الإسلام، وما أَسْمَعُ شيئاً، وأمَّا الأحمقُ، فيقول: رَبِّ قد جاء الإسلام، والصبيانُ يحذِفونِي بِالبَعْرِ، وأمَّا الهَرِمُ فيقول: ربّ، لقد جاء الإسلام، وما أعقل شيئاً، وأمَّا الذي مات في الفترة، فيقول: ربِّ، ما أتانِي لك رسول، فيأخذ مواثيقهم، ليُطِعنّه فيرسلُ إليهم أن ادخُلُوا النار، فوالذي نفس محمدٍ بيدِهِ، لو دخلُوها، لكانت عليهِمْ بَرْداً وسَلَاماً"[2]، وفي رواية: "فمن دخلها، كانت عليه بَرْداً وسلاماً، ومن لم يَدْخُلْها، يُسحَبُ عليها"[3]، ثم قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[4]، وعن يَزِيدَ بْنِ أبان[5]، وقد سئل عن أطفال المشركين، قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم-: "لم يكن لهم سيئات، فيعذبوا بها، فيكونوا من أهل النار، ولم يكن لهم حسنات فيُجَازُوا بها، فيكونوا من مُلُوكِ أهل الجنة، هم خدم أهل الجنة"[6]، رواه أبو داود الطيالسي[7]، وعن عائشة قالت: قلتُ يا

---

(1) سورة الملك، من الآية (8).

(2) أخرجه أحمد في مسنده (228/26)، من حديث الأَسْود بن سَرِيع – رضي الله عنه- مرفوعاً.

(3) أخرجه أحمد في مسنده (230/26)، من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه- مرفوعاً.

(4) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (403/17).

(5) يزيد بن أبان الرقاشي البصري، أبو عمرو، الزاهد العابد، قال فيه ابن معين: هو خير من أبان بن أبي عياش، وقال النسائي وغيره، متروك، وقال ابن عدي: أرجو أنه لا بأس به. ينظر: ميزان الاعتدال في نقد الرجال – للذهبي (418/4)، ولسان الميزان – لابن حجر العسقلاني (439/7).

(6) أخرجه سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي في مسنده، تح: الدكتور محمد بن عبدالمحسن التركي، هجر للطباعة والنشر، ط: 1، (1419هـ- 1999)، (580/3).

(7) سليمان بن داود بن الجارود الطياليس، أبو داود، الحافظ الكبير ولد سنة (133هـ)، من كبار حفاظ الحديث، سمع ابن عون وأيمن =

رسول الله، ذُرَارِيُّ المؤمنين؟ قال: [هم][1] مِنْ آبائهم"؟ فقلتُ: يا رسول الله، بلا عَمَلٍ؟ قال: "الله أعلم بما كانوا عاملين"، قُلتُ: فذَرارِيُّ المشركين؟ قال: "من آبائِهِمْ"، قلت: بلا عملٍ؟ قال: "الله أعلم بما كانوا عاملين"[2]، رواه أبو داود السجتاني، وفي الصحيحين: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم-: "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصِّرانه، أو يمجِّسانِهِ، كما تنتج البهيمة بهيمةً جمعاء، هل تُحِسُّون فيها من جذعاء"[3]، ثم يقول أبو هريرة: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[4]، الآية...، وفي مسلم: أنه – عليه الصلاة والسلام- قال: "قال الله: إني خلقت عبادي حنفاء"، وفي غيره: "مسلمين"[5]، وفي مسند أحمد: أن النبي – صلى الله عليه وسلم- قال: "النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والمولود والوئيد"[6]، وفي الصحيحين: عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله – صلى الله عليه وسلم- عن ذَرَارِيّ المشركين، قال: "الله أعلم بما كانوا عاملين"[7]، فمِن العلماء من ذهب إلى التوقف فيهم؛ لهذين الحديثين، ومنهم مَن جزمَ لهم بالجنة، لِمَا في البخاري من حديث سَمُرَةَ بن جندب[8]: أنه – عليه الصلاة والسلام- قال: في جملة ذلك المنام، حتى مرَّ على ذلك الشيخ تحت الشجرة، وحوله وِلْدَانٌ، فقال جبريل: هذا إبراهيم – عليه السلام-، وهؤلاء أولاد

= بن نابل، وهشام بن أبي عبدالله الدستوائي، وغيرهم، قال فيه وكيع: (ما بقي أحد أحفظ لحديث طويل من أبي داود)، وقال ابن المديني: (ما رأيت أحفظ منه)، وقال عمر بن شبة: (كتبوا عن أبي داود من حفظه أربعين ألف حديث)، توفي بالبصرة سنة (204هـ). ينظر: الطبقات الكبرى – لابن سعد (298/7)، وتذكرة الحفاظ – للذهبي (257/1)، والأعلام – للزركلي (125/3).

(1) ساقطة من المؤلف، مثبتة من سنن أبي داود (365/4).

(2) أخرجه أبو داود في سننه: باب: في ذراري المشركين، 365/4) برقم (4714)، حديث عائشة – رضي الله عنهما- مرفوعاً.

(3) سبق تخريجه.

(4) سورة الروم، من الآية (30).

(5) جزء من حديث طويل، أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يُعرف بها في الدنيا أهلُ الجنةِ وأهلُ النارِ، (158/8)، برقم (7386)، من حديث عياض بن حمارٍ المُجَاشِعِيّ – رضي الله عنه- مرفوعاً.

(6) أخرجه أحمد في مسنده (190/34)؛ من حديث حَسْناء ابنة معاويةَ الصُّرَيْمِية، عن عَمِّهَا مرفوعاً.

(7) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الجنائز، باب: ما قيل في أولاد المشركين، (465/1)، برقم (1318)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: القَدَر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة، وحُكم موتِ أطفالِ الكفار وأطفالِ المسلمين، (54/8)، برقم (6933)، كلاهما من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه- مرفوعاً.

(8) سَمُرَةَ بن جندب بن هلال بن جريج بن مرة بن حزن، أبو سليمان، وقيل: أبو عبدالرحمن، وقيل: أبو سعيد، وقيل: أبو عبدالله، صحابي سكن البصرة، واستخلفه زياد عليها ستةَ أشهر، كان شديداً على الخوارج، وإذا أُتِيَ بواحد منهم إليه، قتله، وكان ابن سيرين والحسن وفضلاء أهل البصرة، يثنون عليه، قال فيه ابن سيرين: (كان سَمُرَةُ عَظِيمَ الأمانة، صدوق الحديث، يحب الإسلام وأهله)، روى عنه من الصحابة عمران بن حصين، وروى عنه كبار التابعين بالبصرة، توفي بالبصرة سنة (58 هـ)، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب – لابن عبدالبر (653/2)، وأُسْدُ الغابة في معرفة الصحابة – لابن الأثير (527/2)، والإصابة في تمييز الصحابة – لابن حجر العسقلاني (178/3).

المسلمين، وأولاد المشركين، قالوا: يارسول الله، وأولاد المشركين؟ قال: "نعم، وأولاد المشركين"[1]، ولحديث " كل مولود يولد على الفطرة"، الذي مرَّ آنفاً.

ومنهم من جزم بالنار؛ لحديث عائشة الذي سبق.

ومنهم من ذهب إلى أنهم يُمتحنون يوم القيامة في العَرَصَات، فمن أطاع، دخل الجنة وانكشف علم الله فيه[2]، بسابق السعادة، ومن عصى، دخل النار داخراً، وانكشف علم الله فيه بتقدم الشقاوة، وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها، وهو الذي حكاه أبوالحسن الأشعري[3] عن أهل السنة والجماعة، ونصره البيهقي في " كتاب الاعتقاد"[4]، وكذلك غيره من محققي الحفاظ والنقاد.

ثم اختلفوا [في] [5] وِلْدَان المشركين على أقوالٍ أحدها:

أنهم في الجنة، مستقلين فيها، أو خدماً لأهل الجنة، وهو الصحيح الراجح، واحتجوا بما سبق من الحديث.

والقول الثاني: أنهم مع آبائهم في النار، مستدلاً بحديث عائشة كما تقدم، ولِمَا في سنن أبي داود: "الوائدةُ والموؤد في النار"[6]، رواه ابن مسعود مرفوعاً.

والقول الثالث: التوقف فيهم، واعتمدوا على قوله – عليه الصلاة والسلام– في حديث أبي هريرة: " الله أعلم بما كانوا عاملين"، وقد سبق أيضاً، ومنهم مَنْ جعلَهم من أهل الأعراف، ومآلهم إلى الجنة، كما سبق في سورة الأعراف.

وهذا الخلاف مخصوص بأطفال المشركين، وأمَّا وِلْدَانُ المؤمنين، فلا خلاف

---

(1) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التعبير، باب: تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح (2583/6) برقم (6640)؛ من حديث سمرة بن جندب – رضي الله عنه– نحوه.

(2) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (57/5): (فيهم)، وهو الصحيح.

(3) علي بن إسماعيل بن أبي بشر بن سالم بن إسماعيل بن أبي موسى الأشعري، أبو الحسن، المتكلم البصري، مؤسس مذهب الأشاعرة، ولد سنة (260هـ)، كان معتزلياً، ثم تاب بعد ذلك، وصمَّم على إظهار فضائح المعتزلة، ومعايبهم، وكان الأشعري صاحب دعابة ومزاح كثير، من مؤلفاته: (مقالات الإسلاميين)، و (اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع)، و(تبين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام الأشعري)، توفي ببغداد سنة (324)، ينظر: وفيات الأعيان – لابن خلكان (284/3)، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب– لابن العماد العكري (300/2)، والأعلام – للزركلي (263/4).

(4) ينظر: الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث – للبيهقي، تح: أحمد عصام الكاتب، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط: 1، (1401هـ)، (168).

(5) زيادة من المحقق يقتضيها السياق.

(6) أخرجه أبوداود في سننه، كتاب: السنة، باب: في ذراري المشركين (366/4)، برقم (4719)، من حديث عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه– مرفوعاً.

لأحدٍ أنهم من أهل الجنة، وإن كان الكلُّ تحت مشيئة الله – تعالى-.

وأمَّا الحديث الصحيح الذي روته عائشة قالت: دُعِيَ رسول الله – صلى الله عليه وسلم- إلى جنازة صبيٍّ من الأنصار، فقلتُ: يا رسول الله، طُوبَى له، عُصْفورٌ من عصافير الجنَّة، لم يَعْمَلْ سوءً[1]، ولم يُدركْهُ، فقال: " أو غير ذلك يا عائشة؟ إن الله خلق الجنة، وخلق لها أهلاً، وهُم في أصلاب آبائهم، وخلق النار، وخلق لها أهلاً، وهم في أصلاب آبائهم"[2]، فهو معارض بحديث: " كل مولود يولد على الفطرة"، الذي رواه أبو هريرة، وقد تأخر إسْلَامُه وروايته، والعمل بالمتأخر، ولعله – عليه الصلاة والسلام- نَهَاهَا عن الجزم بما قالت؛ لأنه لا يعلم الغيب إلا هو، وقد تورَّع جماعة من العلماء عن مثل هذا، كما قال ابن عباس مرفوعاً: لا يزال أمرُ هذه الأمة مُواتياً، أو مقارباً، ما لم يتكلموا في الوِلْدَان والقَدَر "[3]، رواه ابن حِبَّان في صحيحه.

﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾

اختلفوا في قراءة قوله: ﴿ أَمَرۡنَا ﴾، فالمشهور: التخفيف[4]، قيل: معناه: أمرنا مترفيها، أي: متنعميها، ﴿فَفَسَقُواْ فِيهَا ﴾، أمراً قدرياً، كقوله – تعالى-: ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا ﴾[5]، الآية...، فإن الله لا يأمر بالفحشاء، يعني: سخَّرهم إلى فعل الفواحش، فاستحقوا العقوبة، قاله ابن عباس وغيره[6]، قال ابن جرير: ويحتمل أن يكون معناه: جعلناهم أُمَرَاءَ، فحينئذ يكون مُشَدَّداً، أي: سلَّطنا شرارها، فَعَصَوْا فيها، فإذا فعلوا ذلك، أهلكهم بالعذاب[7]، وهو قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَا ﴾[8]، وقال ابن عباس: ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا ﴾، أي: (أكثرنا عددهم)[9]، كما في مسند أحمد:

---

(1) كذا في المخطوط، وفي السنن الكبري للنسائي (633/1): (سوءا).

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: القدر، باب: معنى كل مولود يوجد على الفطرة، وحكم موت أطفال الكفار، وأطفال المسلمين، (54/8)، برقم (6939)، وأخرجه النسائي في سننه، كتاب الجنائز وتَمَنِّي الموت، باب: الصلاة على الصبيان (633/1)، برقم (2074)، كلاهما من حديث عائشة – رضي الله عنها- مرفوعاً.

(3) أخرجه محمد بن حبان بن أحمد، أبو حاتم التميمي البستي، في كتابه: صحيح ابن حبان، بترتيب ابن بلبان، تح: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة (بيروت)، ط: 2، (1414هـ- 1993م)، (118/15).

(4) ينظر: المبسوط في القراءات العشر – للنيسابوري (268)، والنشر في القراءات العشر – لابن الجزري (306/2).

(5) سورة يونس، من الآية (24).

(6) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (404/17).

(7) المصدر نفسه (406/17).

(8) سورة الأنعام، من الآية (123).

(9) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (404/17).

أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– قال: "خير مال امرءٍ له مُهْرَةٌ مأمورة، أو سِكَّةٌ مأبورة"(1)، قال أبو عبيد(2): المأمورة: كثيرة النسل، والسِّكَّةُ: الطريقة المصطفَة من النخيل، والمأبورة: من التأبير، وقال بعضهم: إنما جاء هذا مناسباً لقوله: " مأزورات غير مأجُورات"(3).

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾

أنذر– تعالى– كفار قريش في تكذيبهم رسوله محمداً – صلى الله عليه وسلم–، بأنه قد أهلك أمما من المكذبين للرسل من بعد نوحٍ، ودلَّ هذا على أن القرون التي كانت بين آدم ونوح على الإسلام، كما قاله ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشر(4) قرون، كلهم على الإسلام، ومعناه: أنكم أيها المكذبون، لستم أكرم على الله منهم، وقد كَذَّبْتُم أشرف الرسل، وأكرم الخلائق، فعقوبتكم أولى وأحرى.

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾، أي: هو عالم بجميع أعمالهم، خَيْرِها وشَرِّها، لا يخفى عليه منها خافية.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾.

أخبر– تعالى– أنه ما كُلُّ من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل، بل إنما يحصلُ لمن أراد الله ما يشاء، وهذه مقيدة لإطلاق ما سواها من الآيات، فإنه قال: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ ﴾، أي: في الدار الآخرة، ﴿يَصْلَىٰهَا ﴾، أي: يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه، ﴿مَذْمُومًا ﴾، أي: في حال كونه مذموماً على سوء تصرفه وصنعته(5)، إذ اختار الفاني على الباقي، ﴿مَّدْحُورًا ﴾: مطروداً من رحمة

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده (173/25)، من حديث سويد بن هُبَيْرَةَ – رضي الله عنه– مرفوعاً نحوه.

(2) القاسم بن سلام الهروي الأزدي، أبو عبيد، ولد سنة (157هـ)، كان مُؤَدِّباً صاحبَ نحو وعربية، وطلب للحديث والفقه، قال أبو بكر بن الأنباري: كان أبو عبيد يقسم الليل أثلاثاً، فيصلي ثلثه، وينام ثلثه، ويضع الكتب ثلثه، من مؤلفاته: (الغريب المُصَنَّف)، و(الأمثال)، و (الأموال)، توفي بمكة سنة (224هـ)، ينظر: الطبقات الكبرى– لابن سعد (355/7)، وصفة الصفوة – لابن الجوزي (130/4)، والأعلام – للزركلي (176/5).

(3) أخرجه جمال الدين عبدالله بن يوسف بن محمد الزيلعي في كتابه: تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري، تح: عبدالله بن عبدالرحمن السعد، دار ابن خزيمة، الرياض ط: الأولى (1414هـ)، (262/2).

(4) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (62/5): (عشرة)، وهو الصحيح.

(5) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (63/5): (وصنيعه)، وهو الصحيح.

الله مُبْعَدًا، حقيراً ذليلاً، عن عائشة قالت: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: "الدنيا دارُ مَن لا دار لُه، ومالُ مَن لا مالَ لهُ، ولها يَجْمَعُ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ"[1]، رواه أحمد.

وقوله: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ ﴾، أي: الدار الآخرة، وما فيها من النعم والسرور، ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾، أي: طلب ذلك من طريقه، وهو متابعة الرسول، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾، أي: قلب مصدق، موقن بالثواب والجزاء، ﴿فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ أي: مقبولاً.

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾

أي: كل واحد من الفريقين، الذين أرادوا الدنيا، والذين أرادوا الآخرة، نمدهم فيما هم فيه، ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ﴾، أي: هو المتصرف الحاكم، الذي لا يجورُ، فيعطي كلًّا ما يستحقه من الشقاوة والسعادة، ولا رادَّ لحكمه، ولا مانع لما أعطى، ولا مغيّر لما أراد، ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾، أي: ممنوعاً، أي: لا يمنعه الله، ولا يرُده رادٌ، وقال عطاء: أي: "منقوصاً"، وقيل: "ممنوعاً"[2].

ثم قال: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾، أي: في الدنيا، فمنهم الغني، والفقير، وبين ذلك، والحسن، والقبيح، وبين ذلك، ومن يموت صغيراً، ومن يبقى شيخاً كبيراً، وبين ذلك، ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ ﴾، أي: وَلَتَفَاوُتُهم في الآخرة أكبر من الدنيا، فإن منهم من يكون في الدركات في جهنم، وسلاسلها وأغلالها، ومنهم من يكون في الدرجات العُلى، والنعيم المقيم، ثم إن أهل الدركات متفاوتون فيما هم فيه، كما أن أهل الدرجات متفاوتون، فإن الجنة مائة درجةٍ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، وفي الصحيحين: "إن أهل الدرجات العُلى ليرون أهل عليين، كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء"[3]، ولهذا قال: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾.

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده (480/40)، من حديث عائشة – رضي الله عنها– مرفوعاً.

(2) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (411/17).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، (1188/3)، برقم (3083)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: التوبة، باب: ترائي أهل الجنة أهل الغُرَفِ، كما يُرى الكوكب في السماءِ، (145/8)، برقم (7322)، من حديث أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه– مرفوعاً، ونصُّهُ: "إن أَهْلَ الجنَّةِ يتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ من فوقِهِم كما تتراءَوْنَ الكوكب الدُّريَّ الغابرَ من الأُفُقِ من المشرِقِ أو المغْرِبِ؛ لتفاضُلِ بينهم"، قال: يا رسول الله، تلك منازلُ الأنبياءِ لا يبلُغُهَا غيرُهُمْ، قال: "بلى، والذي نفسي بيدِهِ، رجال آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين".

﴿ لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ﴾

يعني: أيها المكلَّف من الأمة لا تجعلْ في عبادتِك ربِّك، له شريكاً، ﴿ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا ﴾، أي: على إشراكك به، ﴿ مَّخۡذُولٗا ﴾؛ لأن الرب – تعالى– لا ينصرك، بل يكِلُكَ إلى الذي عبدْتَ معه، وهو لا يملك لك ضرًّا ولا نفعاً؛ لأن مالك الضرِّ والنفع هو الله وحده، وعن ابن مسعودٍ قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: " من أصابتْهُ فاقةٌ، فأنزلها بالناس، لَمْ تُسَدَّ فاقتُهُ، ومَن أنزلَها بالله، أوشك الله بالغنى، إما أجل [عاجل][1]، أو غنى عاجل"[2]، رواه أحمد وأبوداود والترمذي.

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴾

أمر– تعالى– عباده أن يعبدوه وحدَه، والقضاء هنا بمعنى: الأمر، وقال مجاهد: أي: (وصَّى)[3]، كما في قراءة أُبيّ بن كعب وابن مسعود[4]، ولهذا قرن بعبادته برَّ الوالدين، فقال: ﴿ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا ﴾، كما قال في آية أخرى: ﴿ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[5].

وقوله: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ ﴾، أي: لا تُسْمِعْهُمَا قولاً سيئاً، حتى ولا التأفيف، الذي هو أدنى مراتب القول السيِّء، ﴿ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا ﴾، أي: ولا يصدرُ منك إليهما فعلٌ قبيح، كما قال عطاء: أي: "ولا تَنْفُضْ يدك على والديك"[6].

ثم أمره بالقول الحسن والفعل الحسن، فقال: ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ﴾، أي: هنيئاً طيباً حسناً، بتأدب، وتوقيرٍ، وتعظيمٍ.

﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ ﴾، أي: تواضعْ لهما بفعلِك، ﴿ وَقُل رَّبِّ

(1) ساقطة من المؤلف، مثبتة من مسند أحمد بن حنبل (415/6).

(2) أخرجه أحمد في مسنده (415/6)، وأبو داود في سننه، كتاب: الزكاة، باب: في الاستعفاف (45/2)، برقم (1647)، والترمذي في سننه، كتاب: الزهد، باب: الهم في الدنيا وحبها، (563/4)، برقم (2326)، كلهم من حديث ابن مسعود – رضي الله عنه– مرفوعاً، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(3) ينظر: جامع البيان في تفسير القرآن – للطبري (414/17).

(4) نقلها الطبري في تفسيره (413/17).

(5) سورة لقمان، من الآية (14).

(6) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (417/17).

﴿ ٱرۡحَمۡهُمَا ﴾، أي: في كِبَرِهما، وعند وفاتهما، ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾، قال ابن عباس[1]: ثم أنزل الله: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ ﴾[2]، وقد جاء في بِرِّ الوالدين أحاديث كثيرة، منها عن أنسٍ وأبي هريرة: أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– لمَّا صَعِدَ المنبر، قال: " آمين، آمين، آمين"، فقالوا: يارسول الله على ما أمنت؟ فقال: " أتاني جبريل، فقال: يا محمد، رَغِم أنفُ امرئ، ذُكرتَ عندَه، فلمْ يُصلِّ عليكَ، قل: آمين، فقلت: آمين، ثم قال: رَغِم أنْفُ رجلٍ دخلَ عليه شهرُ رمضان ثم خرج ولم يغفر له، قل آمين، فقلت: آمين. ثم قال: رَغِم أنفُ امرئ أدركَ أبويه أو أحدَهما، فلم يُدخِلاه الجنةَ، قل: آمين، فقلت: آمين"[3].

وعن مالك القُشَيْري[4] قال: سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم– يقول: "مَنْ أدركَ والدَيْهِ أو أحدَهُمَا، ثم لمْ يُغْفرْ لَه، فأبعدَهُ [الله][5]، ومن ضمَّ يتيماً، من أبوين مسلمين إلى طعامِهِ وشرابه، حتى يُغْنِيَهُ الله، وجبتْ له الجنة"[6]، رواه أحمد، وعن أبي أُسيد[7] قال: بينما [أنا][8] جالس عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم–، إذ جاءه رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله، هل بقي عليَّ من بِرّ أبويَّ شيءٌ بعد موتهما أَبِرُّهما به؟ قال: "نعم، خصال أربع: الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذُ

---

(1) المصدر السابق (421/17).

(2) سورة التوبة، من الآية (113).

(3) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، كتاب: الأذكار، باب: من ذُكِرَ عنده النبي – صلى الله عليه وسلم–، فلم يصل عليه، (225) برقم (646)، وأخرجه أبو يعلى في مسنده (328/10)، كلاهما من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه– مرفوعاً.

(4) مالك بن عمرو القُشَيري، وقيل: الكلابي، وقيل: العقيلي، وقيل: الأنصارِي، يعدُّ في أهل البصرة، انفرد بحديث واحدٍ عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم–، وهو: "من ضم يتيماً، بين مسلمين، إلى طعامه وشرابه، حتى يستغني عنه، وجبت له الجنة ألبتة..."، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب– لابن عبدالبر (1355/3)، وأُسْدُ الغابة في معرفة الصحابة – لابن الأثير (39/5)، والإصابة في تمييز الصحابة – لابن حجر العسقلاني (738/5).

(5) ساقطة من المؤلف، مثبتة من مسند أحمد بن حنبل (375/31).

(6) جزء من حديث أخرجه أحمد في مسنده (375/31)، من حديث مالك القشيري – رضي الله عنه – مرفوعاً.

(7) مالك بن ربيعة بن البدن بن عامر بن عوف الأنصاري الساعدي ، أبو أُسَيْد، شهد بدراً وأحداً، والمشاهد كلها، مع الرسول – صلى الله عليه وسلم–، روى عنه من الصحابة أنس وسهل بن سعد، ومن التابعين عباس بن سهل، وعبدالملك بن سعيد، وغيرهم، – رضي الله عنهم أجمعين–، قال فيه الرسول – صلى الله عليه وسلم–: (خير دُورِ الأنصار بنو النجار، ثم بنو عبدالأشهل، ثم بنو الحارث بن الخزرج، ثم بنو ساعدة، وفي كل دُورِ الأنصار خير)، توفي سنة (60هـ)، وقيل: سنة (65هـ)، وقيل سنة (30هـ)، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب– لابن عبدالبر (1598/4)، وأُسْدُ الغابة في معرفة الصحابة – لابن الأثير (24/5)، والإصابة في تمييز الصحابة – لابن حجر العسقلاني (723/5).

(8) ساقطة من المؤلف، مُثْبَتَة من مسند – أحمد بن حنبل (457/25).

عهدهِمَا، وإكرام صديقهما، وصلة الرَّحِمِ التي لا رحم [لك][1] إلا من قِبَلِهِمَا، فهو الذي بقي عليك من برِّهِما بعد موتهما"[2]، رواه أبوداود وابن ماجه.

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾.

قال ابن جبير: هو الرجل يكون منه البادرة –، أي: من التقصير والعقوق– إلى أبويه، وإنه لا يريد بذلك إلا الخير، وفي نفسه وقلبه أنه لا يؤخذ به[3]، ﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾، أي: المطيعين أهل الصلاة المحسنين، وقيل: أي المصلين سُبْحَةَ الضحى، وقيل: هو الذي يصيب الذنب، ثم يتوب، وقيل: هو الذي يذكر ذنوبه، فَيَسْتَغْفِرُ اللهَ منها[4]، وقال عبيد بن عمير: كنا نَعُدُّ الأوَّاب الحفيظ أن يقول: (اللهم، اغفر لي ما أصبت في مجلسي هذا"[5]، وقال ابن جرير: الأولى أن يقال: هو التائب من الذنب، الراجع عن المعصية إلى الطاعة، مما يكره الله إلى ما يُحِبُّه ويرضاهُ)[6].

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾

لمَّا ذكر– تعالى– بر الوالدين، عطف بذكر الإحسان إلى القرابة، وصلة الأرحام، كما جاء في الحديث: "من أحبَّ أن يُبْسَط في رزقه، ويُنْسَأَ له في أَجَلِهِ، فَلْيَصِلْ رحمهُ"[7]، وسبق البحث عن المساكين، وأبناء السبيل في سورة براءة، بما يغني عن إعادته.

ثم قال منفِّراً عن التبذير والسرف: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾، أي: أشباههم وأتباعهم في ذلك، قال قتادة: "التبذير: النفقة في معصية الله، وفي الفساد،

---

(1) ساقطة من المؤلف، مُثْبَتَة من مسند أحمد بن حنبل (457/25).

(2) أخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب: الأدب، باب: الأدب، (632/4)، برقم (3664)، وأخرجه أبوداود في سننه، كتاب: الأدب، باب: في بر الوالدين، (500/4)، برقم (5144)؛ من حديث أبي أُسَيْدٍ الساعدي – رضي الله عنه – مرفوعاً.

(3) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (422/17).

(4) ينظر: المصدر السابق (423/17).

(5) المصدر السابق (425/17).

(6) ينظر: المصدر السابق (425/17).

(7) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأدب، باب: من بُسِطَ له في الرزق بصلة الرحم (2232/5)، برقم (5640)، من حديث أنس بن مالك – رضي الله عنه– مرفوعاً بألفاظٍ متقاربة.

وفي غير الحق"[1]، عن أنسٍ قال: [أتى][2] رجل من بني تميم إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم–، فقال: يا رسول الله، إني ذو مال كثير، وذو أهلٍ وولدٍ وحاضرةٍ، فأخبرني كيف أنفق، وكيف أصنع؟ فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: "تُخْرِجُ الزكاةَ من مالك، فإنها طُهْرةٌ تطهّرُكَ، وتَصِلُ أقرباءكَ، وتعرف حقَّ السائلِ والجارِ والمسكينِ"، فقال: يا رسول الله، أَقْلِلْ لي؟ قال: فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل، ولا تبذر تبذيراً، فقال: حسبي الله، يا رسول الله، إذا أَدَيْتُ الزكاةَ إلى رسولكَ، فقد بَرِئْتُ منها إلى اللهِ ورسوله؟ فقال: نعم، إذا أَدَّيْتَها إلى رسُولي، فقد بَرِئْتَ منْهَا، ولك أجْرُها، وإثْمُهَا على مَنْ بدَّلَهَا"[3]، وقوله: ﴿إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾، أي: في التبذير، والسفه وترك الطاعة، وارتكاب المعصية، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾، أي: جَحُوداً، فينبغي أن لا يُطَاعَ؛ لأنه أنكر نعمة الله عليه، ولم يَعْمَلْ بطاعتِهِ.

وقوله: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾، أي: وإذا سألك أقاربُك، ومَنْ أمرناك بإعطائهم، وليس عندك شيء، وأعرضْتَ عنهم، ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾، أي: عِدْهُم وعداً بسهولةٍ، ولينٍ، إذا جاء رزق الله، فسنَصِلُكُم، إن شاء الله هكذا فسَّروه بالوعد.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾

هذا أمرٌ بالاقتصاد في العيش، وذمِّ البخل، ونهيٌ عن السرف، أي: لا تكن بخيلاً مَنُوعاً، لا تُعطِي أحداً شيئاً، ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا﴾، أي: لا تُسرِف في الإنفاق، فتُعطي غير طاقتك، وتُخرج أكثر من دَخْلك، فَتَقْعُدَ ملوماً محسوراً، في هذا لفٌّ ونشرٌ[4]، أي: فتقعد إن بَخِلتَ مَلُوماً، يلومك الناس، ويذمونك، ويستغنون عنك، كما قال زهير بن أبي سلمى**[البحر الطويل]:**

---

(1) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (429/17).

(2) ساقطة من المؤلف، مثبتة من مسند أحمد بن حنبل (386/19).

(3) أخرجه أحمد في مسنده (386/19)، من حديث أنس بن مالك – رضي الله عنه– مرفوعاً.

(4) اللف والنشر هو: أن تلف شيئين، ثم تأتي بتفسيرهما جملةً؛ ثقةً بأن السامع يردُّ إلى كلٍّ واحد منهما ما له، كقوله تعالى:﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ ، التعريفات – لعلي بن محمد بن علي الجرجاني، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: الأولى، (1405هـ)، ص (247).

ومــن كـــان ذا مـــالٍ ويبخـــل بمالِـــهِ ** علـــى قومـــه يُســـتَغْنَ عنـــه ويَنْـــدَمِ[1]

ومتى بسطت يدك فوق طاقتك، قعدت بلا شيءٍ تُنْفِقُه، فتكون كالحسير، وهو: الدابة التي قد عَجَزَتْ عن السير، فوقفت عَجْزاً وضَعْفاً فإنها تسمَّى الحسير، وهو مأخوذ من الكلال، هكذا فسَّرها ابن عباس وأتباعه[2]، وقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول: "مَثَلُ البخيل والمنفق، كمثل رَجُلَيْنِ، عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَديدٍ، من ثُدِيِّهِمَا إلى تَرَاقِيهِمَا، فأمَّا المُنْفِقُ، فلا يُنْفِقُ إلَّا سَبَغَتْ أَو وَفَرتْ عَلَى جلدِهِ، حتى تُخْفِيَ بنانَهُ، وتَعْفُوَ أَثَرَهُ، وأمَّا البَخِيلُ، فَلَا يريدُ أَنْ ينفِقَ شَيْئاً، إلا لَزِقَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ بمكانها، فهو يُوَسِّعُهَا، ولا تَتَّسِعُ"[3]، وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: "ما عَالَ مَنِ اقتصد"[4]، رواه أحمد.

وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ إخبار بأنه – تعالى– هو الرزاق، القابض الباسط، المتصرف في خلقه بما يشاء، ويغفر لمن يشاء؛ لما لَهُ في ذلك من الحكمة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرًا ﴾، أي: لمن يستحق الفقر، ومن يستحق الغنى، كما جاء في الحديث " إن من عبادي، لَمَنْ لا يُصلِحه إلَّا الفقر، ولو أغنيتُهُ، لأفسدتُ عليه دينَهُ"[5]، وقد يكون الغنى في حق بعض الناسِ استدراجاً، والفَقْرُ عقوبةً، ونعوذُ بالله من ذلك.

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾

هذه الآية دالَّة على أن الله – تعالى– أرحم بعباده، من الوالد بولده؛ لأنه ينهى عن قتل الأولاد، كما أوصى بالأولاد في الميراث، وقد كان أهل الجاهلية لا يُورِثُونَ

---

(1) البيت من معلقة زهير بن أبي سلمى (6)، وفيها:
(ومن يك ذا فَضْلٍ فيَبْخَلْ بفضله ** على قومه يُستَغْنَ عنْهُ وَيُذْمَمِ).

(2) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (434/17).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الزكاة، باب: مَثَلُ المتصدق والبخيل، (523/2)، برقم (1375)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الزكاة، باب: مَثَلُ المنفق والبخيل، (88/3) برقم (2406)، من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه– مرفوعاً، واللفظ للبخاري.

(4) أخرجه أحمد في مسنده (302/7)، من حديث ابن مسعود – رضي الله عنه – مرفوعاً، وقال الهيثمي، في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: (443/10)، رواه أحمد والطبراني في الكبير، والأوسط، وفي أسانيدهم إبراهيم بن مسلم الهجري، وهو ضعيف.

(5) أخرجه: أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني في كتابه حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: الرابعة (1405هـ)، (319/8)، من حديث أنس بن مالك – رضي الله عنه– مرفوعاً بألفاظٍ متقاربة.

البنات، بل كان أحدهم رُبما قتل ابنته؛ لئلا يكْثُر عَيْلَتَهُ، فنهى الله عن ذلك، فقال: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾، أي: خوف أن تفتقروا في ثاني الحال؛ ولهذا قدَّم الاهتِمام برزقهم، فقال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾، وفي سورة الأنعام: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾[1].

وقوله: ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾، أي: ذنباً عظيماً، وقرأ بعضهم: ﴿خَطَـًٔا ﴾[2]، بالفتح، وهو بمعناه، وفي الصحيحين: عن ابن مسعود قال: قلتُ: يا رسول الله، أيُّ الذنب أَعْظَمُ؟ قال: "أن تجعل لله ندًّا وهو خَلَقَكَ"، قلتُ: ثُمَّ أيُّ؟ قال: "أن تقتل ولدك؛ خشيةَ أن يُطْعَمَ معك"، قلت: ثم أيُّ؟ قال: "أن تزانِيَ حليلةَ جارك"[3].

﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾، قال – تعالى– ناهياً عباده عن الزنا، وعن مقاربته، وعن مخالطة أسبابه ودواعيه، ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ﴾ أي: ذنباً عظيماً ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ أي: وبئس طريقاً، ومسلكاً، وعن الهيثم الطائي[4]، عن النبي – صلى الله عليه وسلم– قال: "ما مِن ذنبٍ بعدَ الشرك أعظم عند الله من نُطفة، وضعَها رجُلٌ في رَحِمٍ لا يحلُّ لهُ"[5]، رواه ابن أبي الدنيا.

﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾

هذا نهيٌ عن قتل النفس بغير حقٍّ شرعي، كما ثبت في الصحيحين: أن رسول

---

(1) سورة الأنعام، من الآية (151).

(2) قرأ ابن عامر وأبو جعفر ﴿خَطَـًٔا﴾ بفتح الخاء والطاء، من غير مد، ينظر: السبعة في القراءات – لابن مجاهد البغدادي (379)، والمبسوط في القراءات العشر – للنيسابوري (268).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: سورة الفرقان (1784/4)، برقم (4483)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها، (63/1) برقم (267)، كلاهما من حديث عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه– مرفوعاً، واللفظ للبخاري.

(4) الهيثم بن مالك الطائي، أبو محمد الشامي الأعمى، روى عن النعمان بن بشير، وعبدالرحمن بن عائذ، وروى عنه: صفوان بن عمرو، وحُرَيْزُ بن عثمان، ويزيد بن أيهم، وغيرهم، – رضي الله عنهم أجمعين–، ينظر: التاريخ الكبير – لمحمد بن إسماعيل بن إبراهيم، أبوعبدالله البخاري الجعفي، تح: السيد هاشم الندوي، دار الفكر، (214/8)، وتاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام – لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تح: عمر عبدالسلام تدمري، الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ط: الأولى، (1407 هـ – 1987م)، (271/7)، وتهذيب التهذيب – لابن حجر العسقلاني (87/11).

(5) أخرجه عبدالله بن محمد، أبوبكر القرشي البغدادي، المعروف بـ ابن أبي الدنيا، في كتابه "الورع"، تح: أبي عبدالله محمد بن حمد الحمود، الدار السلفية – الكويت، ط: الأولى (1408هـ – 1988م)، (94)، من حديث الهيثم الطائي مُرْسَلاً.

الله – صلى الله عليه وسلم– قال: "لا يَحِلّ دم امرئ مسلم، يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والزاني المُحْصَن، والتارك لدينِهِ، المُفارقُ للجماعة"(1)، وقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: "لو أن أهل السماء والأرض اشتركوا في دَمِ مؤمنٍ، لأكبَّهُم الله في النار"(2)، رواه الترمذي، وفي الحديث: "لَزَوَالُ الدنيا أهونُ على الله مِنْ قَتْلِ رجلٍ مسلمٍ"(3)، رواه الترمذي، والنسائي، ووقفه بعضهم.

وقوله: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾، أي: (سَلْطَنَةً)، وَقُوَّةً على القاتل، فإنه بالخيار فيه، إن شاء، قَتَلَهُ، وإن شاءَ، عفى عنه مجاناً.

وقوله: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾، قالوا: معناه: فلا يسرف الوليُّ في قتل القاتل، بأن يُمثِّل به، أو يقتصَّ من غير القاتل، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾، أي: أن الوليَّ منصورٌ على القاتل شرعاً، وغلبةً وقدراً.

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ۝ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾.

أي: لا تتصرفوا في مال اليتيم إلا بالغِبْطة، ولا تأكلوا أموالهم إسرافاً، وبداراً، أن يكبروا، وفي مسلمٍ: أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– قال لأبي ذرٍ: "لا تُولِيَنَّ مال اليتيم"(4).

﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾، أي: الذي تعاهدون عليه الناس، والعقود التي تعاملونهم بها، فإن العهد والعقد كل منهما يُسأل صاحبه عنه، ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾، أي: عنه.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الدِّيَات، باب: قول الله – تعالى– (2521/6)، برقم (6484)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: القسامة، باب: ما يباح به دم المسلم، (106/5)، برقم (4468)، كلاهما من حديث عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه– مرفوعاً.

(2) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الديّات، باب: الحكم في الدماء، (17/4)، برقم: (1398)، من حديث أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة – رضي الله عنهما–، مرفوعاً، وقال الترمذي: هذا حديث غريب، وأبو الحكم البجلي، هو عبدالرحمن بن أبي نعم الكوفي.

(3) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدّيَات، باب: تشديد قتل المؤمن، (16/4)، برقم (1395)، وأخرجه النسائي في سننه، كتاب: تحريم الدم، باب: تعظيم الدم (284/2)، برقم (3449)، كلاهما من حديث عبدالله بن عمرو – رضي الله عنهما– مرفوعاً، وقال الترمذي: حديث عبدالله بن عمرو، وهكذا رواه ابن أبي عدي عن شعبة عن يعلى بن عطاء عن أبيه عن عبدالله بن عمرو عن النبي – صلى الله عليه وسلم–، ورَوَى محمد بن جعفر وغير واحدٍ عن شعبة عن يعلى بن عطاء، فلم يرفعه، وهكذا روى سفيان الثوري عن يعلى بن عطاء موقوفاً، وهذا أصح من الحديث المرفوع.

(4) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإمارة، باب: كراهة الإمارة بغير ضرورة، (7/6)، برقم (4824)، من حديث أبي ذرٍ – رضي الله عنه– مرفوعاً.

وقوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾، أي: من غير تَطْفِيفٍ، ولا تبْخَسُوا الناس أشياءهم، ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ﴾، قُرِئَ بِضَمِّ القافِ وكسرِها[1]، كالقِرطاس، وهو الميزان، وقال مجاهد: (هو العدل بالرُّوميَّة[2])،﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾: هو الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف، ولا اضطراب.

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾، أي: لكم في معاشكم، ومعادكم، ولهذا قال: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾، أي: مآلاً، ومنقلباً في آخرتكم، وقال قتادة: "أي: خَيْرٌ ثواباً، وأحسن عاقبةً"[3]، وكان ابن عباس يقول: "يا معشر الموالي، إنكم وُلِّيتُمْ أمرين، بهما هلك الناس قبلكم: هذا المكيال، وهذا الميزان"[4].

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

قال ابن عباس: "أي: لا تَرْمِ أحداً بما ليس لك به علم"[5]، وفيه النهي عن القول بلا عِلم، بالظن، الذي هو التوهُّم والخيال، وفي الحديث: "إياكُمْ والظَّنَّ؛ فإن الظَّنَّ أكذبُ الحديثِ"[6]، وفي البخاري مرفوعاً: "إن من أفرى الفِرى أن يُرِي الرجُل عينيهِ ما لم تَرَيَا"[7].

وقوله: ﴿كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ﴾، أي: هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد، ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾، أي: سَيُسْأَلُ العَبْدُ عنها يوم القيامة، وتُسْأَلُ عنه، وعمَّا عَمِلَ فيها، ويصح استعمال (أولائك) مكان (تلك) كما قال الشاعر: **[البحر: الكامل]**

ذمَّ المنـــازِلَ بعَـــدَ منزلـــة اللِّـــوَي ** والعـــيشَ بَعـــدَ أُولائـــكَ الأيـــام[8]

﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ

---

(1) قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم، وخلف: ﴿بِالْقِسْطَاسِ﴾ بكسر القاف، حيث كان، وقرأ الباقون: ﴿بِالْقُسْطَاسِ﴾ بضم القاف، ينظر: المبسوط في القراءات العشر – للنيسابوري (269)، وحجة القراءات – لابن زرعة (402).

(2) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (445/17).

(3) ينظر: المصدر نفسه (446/7).

(4) المصدر السابق.

(5) المصدر السابق، (447/17).

(6) جزءٌ من حديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأدب، باب: ما يُنْهَى عن التحاسد والتدابر، (2253/5)، برقم (5717)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: البر والصلة والأدب، باب: تحريم الظن والتجسُّسِ والتنافُسِ والتنَاجُشِ ونحوِهَا، (10/8) برقم (6701)، كلاهما من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه– مرفوعاً.

(7) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التعبير، باب: من كَذَب في حلمه، (2582/6)، برقم (6636)، من حديث ابن عمر – رضي الله عنهما– مرفوعاً بنحوه.

(8) هذا البيت ذكره أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي في كتابه: العقد الفريد، دار إحياء التراث العربي، (1420هـ – 1999م)، بيروت – لبنان، (329/1)، ومنسوباً لجرير بن عطية الخطفي (ت 110هـ)، بلفظ: (الأقوام)، بدل: (الأيام).

عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا﴾

أي: ولا تمش في الأرض متجبراً، متبختراً، متمايلاً، مَشْيَ الجبَّارين، ﴿إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ﴾، أي: لن تقطع الأرض بمشيك[1]، قاله ابن جرير مستشهداً بقول رُؤْبة[2]**[البحر: الرجز]**: (وقَاتِمِ الأعماقِ خاوِي المُخْتَرَقْ)[3].

وقوله: ﴿وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا﴾، أي: بتمايُلِكَ وفخركَ وإعجابكَ بنفسِكَ، بل قد يُجَازَى فاعلُ ذلك بنقيض قصْدِه، كما ثبت في الصحيح: " بينما رجل يمشي فيمن كان قبلَكم، وعليه بُرْدان يتبختر فيهما، إذ خسف به الأرض، فهو يَتَجَلْجَلُ فيها إلى يوم القيامة"[4]، وفي الحديث: "مَنْ تواضعَ لله، رفعَه الله، فهو في نفسه حقير، وعند الناس كبير، ومَن استكبر، فهو في نفسه كبير، وعند الناس صغير، حتى لهو أبغضُ من الكَلْب أو الخنزير"[5].

وقوله: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا﴾، مَنْ قرأ ﴿سَيِّئَةً﴾[6]، بالنصب والتنوين، أي: فاحشة، فمعناه عنده: كل هذا الذي نُهِينَا عنه، مِن قوله: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ﴾، إلى هُنَا، مؤاخذٌ عليها، ﴿مَكۡرُوهٗا﴾: عند الله لا يُحِبّهُ ولا يرضَاهُ.

ومن قرأ ﴿سَيِّئُهُۥ﴾، بالإضافة، فمعناه عنده: كلُّ هذا الذي ذكرناه من قوله:

---

(1) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (449/17).

(2) رؤبة بن عبدالله العجاج بن رؤبة التميمي السعدي، أبو الجحاف، كان يحتجُّ بشعره، ويُأْخُذُ عنه أعيان أهل اللغة ويقولون بإمامته فيها، قال فيه أبو حاتم الرازي: (كان أحفظ الناس في زمانه)، وقال ابن وهب: (ما رأيت أحفظ منه، ولم يكن له نظير في الحفظ)، توفي سنة (145هـ)، ولمَّا مات، قال الخليل: (دفنا الشعر واللغة والفصاحة)، ينظر: وفيات الأعيان – لابن خلكان (303/2)، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب– لابن العماد العكري، (217/1)، والأعلام – للزركلي (34/3).

(3) صدر بيت من مطلع قصيدة لرؤبة بن العجاج، وعجزه: (مُشتَبِهِ الأعلامِ لَمَّاعِ الخَفَقْ)، وهو مشتمل على ديوان رؤبة بن العجاج، وعلى أبيات بن الورد البروسيّ، دار ابن قتيبة – الكويت (104).

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: اللباس، باب: من جرَّ ثوبه من الخيلاء، (2182/5)، برقم (5452)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: اللباس والزينة، باب: تحريم التبختُرِ في المشي مع إعجابه بثيابِهِ، (148/6)، برقم (5588)، ولفظ البخاري: "بينما رجلٌ يَمْشِي في حُلَّةٍ، تعجِبُهُ نَفْسُهُ، مُرَجِّلٌ جُمَّتَهُ، إذ خَسَفَ اللهُ به فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ إلى يَومِ القيامَةِ"، كلاهما من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه– مرفوعاً.

(5) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، كتاب حسن الخلق، باب: فصل في التواضع، وترك الزهو، والصَّلَف، والخُيَلَاء، والفخر، والمدح، (455/10)، برقم (7790)، من حديث عمر بن الخطاب – رضي الله عنه– مرفوعاً بنحوه.

(6) قرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمر ويعقبو: ﴿سَيِّئَةً﴾، بالنصب والتنوين، وقرأ الباقون: ﴿سَيِّئُهُۥ﴾، بضم الهاء والهمزة، ينظر: حجة القراءات – لأبي زرعة (403)، والمبسوط في القراءات العشر – للنيسابوري (269).

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾، إلى هنا، فَسَيِّئُهُ، أي: قبيحه مكروهاً عند الله، هكذا وجَّهَهُ ابن جرير [1].

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾.

أي: هذا الذي أمرناك به من الأخلاق الحميدة، ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة، مما أوحينا إليك يا محمد؛ لِتَأْمُرَ به الناس.

﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾، أي: تلومك نفسك، ويلومك الله والخلق، ﴿مَّدْحُورًا﴾، أي: مَطْرُوداً، والخطاب للأمة بواسطة الرسول – عليه الصلاة والسلام–، فإنه كان معصوماً من ذلك.

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾.

قال تعالى منكراً على المشركين الزاعمين أن الملائكة بَنَاتُ الله: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾، أي: خصَّصَكم بالذكور، ﴿وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ﴾، أي: واختار لنفسه –على زعمكم– البنات؟ ثم شدَّد عليهم الإنكارَ، فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾، أي: في زعمِكم أن لله وَلَداً، ثم جعْلِكم ولدَه الإناثَ، التي تأنفون أن تكن[2] لكم، وربَّما قتلتموهن بالوأد، فتلك إذاً قسمةٌ ضِيزَي.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾.

أي: ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثلٍ، وصرفنا فيه من الوعيد؛ لعلهم يذكرون ما فيه من الحجج والبينات والمواعظ، فَيَنْزَجِرُون عما هُمْ فيه، من الشرك والظلم والإفك، ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾، أي: الظالمين منهم، ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾، أي: عن الحق، وبُعداً منه.

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾

أي: قل يا محمد، لهؤلاء المشركين الزاعمين أن لله شريكاً من خلقه، العابدين معهُ

---

(1) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (451/17).

(2) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (77/5): (يكن)، وهو الصحيح.

غيرَهُ؛ ليقربَهم إليه زلفى: لو كان الأمر، كما تقولون، لكان أولائك المعبودُون أيضاً يعبدونَهُ، ويتقربون إليه، ويبتغون إليه الوسيلة والقُرْبَة، فاعبُدُوه أنتم وحدهُ، كما يعبده مَن تدعونه من دونِهِ، ولا حاجة لكم إلى معبودٍ، يكون واسطةً بينكم وبينَهُ، فإنه لا يحبُّ ذلك، ولا يرضاه، بل يكرههُ، ويأباهُ، وقد نهى عن ذلك على ألسنة جميع رسلِهِ وأنبيائه.

ثم نزه نفسه الكريمة، فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾، أي: أُقَدِّسُهُ تقديساً، ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾، أي: هؤلاء المشركون المعتدون، الظالمون في زعمهم، أن معه آلهة أخرى، ﴿عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾، أي: تَعَالِياً كبيراً.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾

أي: تقدِّسُهُ السمٰوٰت والأرض، ومَن فيهِنَّ من المخلوقات، وتنزِّهُه، وتعظِّمُهُ عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالواحدانية في ربوبيتِه، وآلهيَّتِهِ **[البحر: المتقارب]** :

ففـــي كـــل شـــيء لـــه آيـــةٌ ** تـــدل علـــى أنـــه واحـــد[1]

وعن عبدالرحمن بن قُرْط[2]: أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– ليلةَ أُسري به إلى المسجد الأقصى فلمَّا رجع، كان بين المقام وزمزم، جبريل عن يمينِهِ، وميكائيل عن يسارِهِ، فطارا به حتى بلغ السمٰوٰت السبْعَ، فلمَّا رجع، قال: سمعت تسبيحاً في السمٰوٰت العُلى، مع تسبيح كثير، سبَّحت السمٰوٰت العُلى، [من][3] ذي المهابة، مُشْفِقَاتٍ لِذِى العُلوِّ، بما علا سبحان العليّ الأعلى، سبحانه وتعالى[4]، رواه الطبراني.

وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾، أي: وما من شيءٍ من المخلوقات، إلا

(1) البيت لأبي العتاهية (ت: 210هـ)، ديوان (أبو العتاهية)، دار بيروت للطباعة والنشر، (1406هـ – 1986م)، (122).

(2) عبدالرحمن بن قُرْط الثُّمالي، صحابي، كان من أهل الصفة، سكن الشام، وعُدَّ من أهل فلسطين، رَوَى عنه مسكينُ بن مَيْمُون، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب– لابن عبدالبر (851/2)، وأُسْدُ الغابة في معرفة الصحابة – لابن الأثير (505/3)، والإصابة في تمييز الصحابة – لابن حجر العسقلاني (354/4).

(3) ساقطة من المؤلف، مثبتة من المعجم الأوسط – للطبراني (11/4).

(4) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (11/4)، من حديث عبدالرحمن بن قرط – رضي الله عنه– مرفوعاً، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (249/1)، وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه مسكين بن ميمون، ذكر له الذهبي هذا الحديث، وقال: إنه مُنْكَرٌ.

يسبح بحمد الله، ﴿ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾، أيها الناس؛ لأنها بخلاف لغتكم، وهذا عامٌّ في الحيوان والنبات والجماد، وهذا أَشْهَرُ القولين، كما ثبت في البخاري عن ابن مسعودٍ أنه قال: كنا نسمع تسبيحَ الطعام، وهو يُؤْكَلُ[1].

وفي حديث أبي ذرٍّ أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– أخذ في يده حَصَيَاتٍ، فسُمِع لهن تسبيحٌ، كحنين النحل[2]، وفي الحديث: أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– مرَّ على قومٍ، وهم وقوفٌ على دوابَّ، ورواحِلَ، فقال لهم: "اركبوها سالمةً، ودعُوها سالمةً، ولا تتَّخِذُوهَا كراسي لأحادِيثِكم في الطُّرُقِ، والأسواقِ، فرُبَّ مَركُوبةٍ خير من رَاكِبهَا، وأكثرُ ذِكْراً لله منه"[3]، رواه أحمد.

قال عكرمة: الإسطوانة[4] تُسَبِح، والشجرة تُسَبّح[5]، وقال غيره: إن صرير الباب تسبيحه[6]، وقال إبراهيم[7]: الطعام يُسَبّح[8]، كما نطقت به آية السجدة في الحج، وقال قتادة: (كل شيءٍ فيه الروح يسبح من شجرة ونحوها)[9].

وقال بعضهم: يُسَبّحُ هذا الخِوَانُ، وهو: المائدة من الخشب، وكأَنَّ الحسن ذهب إلى أنه لمَّا كان حيًّا فيه خضرةٌ، كان يُسبّحُ، فلمَّا قُطع، وصارت خشبةً يابسةً، انقطع تسبيحُه، وقد استأنس لهذا الحديث ابن عباس أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– مرَّ بقبرين، فقال: "إنهما لَيُعذَّبان، وما يعذّبان في كبير، فأمَّا أحدهما، فكان لا يستبرئ من البول، وأمَّا الآخر، فكان يمشي بالنميمة"، ثم أخذ جريدةً رَطْبةً، فشقَّها نصفين، ثمَّ غرز في كل قبر واحدةً، ثم قال: "لعله يخفّفُ عذابَهما[10]، ما لم

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، (1312/3)، برقم (3386)، من حديث ابن مسعود – رضي الله عنه– مرفوعاً.

(2) أخرجه البزار في مسنده (431/9)، وكذلك (434/9)، بإسنادين عن أبي ذر – رضي الله عنه–، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (527/8)، وقال: رواه البزار بإسنادين، ورجال أحدهما ثقات، وفي بعضهم ضعف.

(3) أخرجه أحمد في مسنده (392/24)، من حديث سهل بن معاذ عن أبيه – رضي الله عنهما– مرفوعاً.

(4) الأُسْطُوانَةُ: السَّارِيَةُ. تاج العروس من جواهر القاموس – للزبيدي (186/35)، الجذ "س ص ن".

(5) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (455/17).

(6) ينظر: الدر المنثور – للسيوطي (291/5).

(7) إبراهيم بن أدهم بن منصور، العجلي التميمي البلخي، أبو إسحاق، كان زاهداً متصوفاً، رحل إلى بغداد، وجال في العراق والشام والحجاز، روى عن يحيى بن سعيد الأنصاري، وسعيد بن المرزبان، وجماعة، قال فيه النسائي: (ثقة مأمون، أحد الزهاد)، توفي سنة (161هـ)، ينظر: تهذيب التهذيب – لابن حجر العسقلاني (88/1)، والأعلام – للزركلي (31/1).

(8) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (456/17).

(9) المصدر نفسه (456/17).

(10) كذا في المخطوط، وفي الصحيحين: "عنهما".

يَيْبَسَا"[1]، هكذا في الصحيحين، وإنما قال: "ما لم ييبسا"؛ لأنهما يُسَبِّحَان، ما دام فيهما خُضرة، فإذا يبسا، انقطع تسبِيحُهُما.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾، أي: أنه لا يعاجل مَن عصاه بالعقوبة، بل يؤجله ويُنْظِرُهُ، فإن استمر على كفرِهِ وعنادِهِ، أَخذهُ أخذ عزيز مقتدرٍ، ومن أقلع عما هو فِيهِ من كفرٍ أو عصيانٍ، ورجع إلى الله، وتاب إليه، تاب عليه.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾

أي: وإذا قرأت القرآن على هؤلاء المشركين، جعلنا بينك وبينهم حجاباً.

قال قتادة وغيره: هؤلاء الأكِنَّةُ على قلوبهم، كما قال – تعالى-: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾[2]، الآية ...، أي: مانعاً حائلاً أن يصل إليهم ممَّا تقول شيء.

﴿مَّسْتُورًا﴾، بمعنى: ساتر، كميمون، ومشؤوم، بمعنى: يامن وشائم؛ لأنه من يمنهم وشأَمَهم.

وقيل: مستوراً عن الأبصار، فلا تراه، وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى.

عن "أسماء بنت الصديق": لمَّا نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾، جاءت امرأة أبي لهبٍ، ومعها حجرٌ، والنبي – صلى الله عليه وسلم- جالس مع أبي بكر، فلم ترهُ، فقالت لأبي بكرٍ: أين صاحبك؟ لقد بلغني أنه هجاني، فقال: والله، ما ينطق عن الهوى، ولا ينطق بالشعر، ولا يقوله، فرجعتْ، وهي تقول: قد علمت قريش أني بنت سيِّدِها[3].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾: جمع "كِنان"، الذي يُغْشي القلب، ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾، أي: لئلا يفقهوا القرآن، ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، وهو الثِّقْلُ الذي يمنعهم من سماع القرآن، سماعاً ينفعهم، ويهتدون به.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الوضوء، باب: ما جاء في غسل البول، (88/1)، برقم (215)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب: الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، (166/1)، برقم (703)، كلاهما من حديث ابن عباس – رضي الله عنهما- مرفوعاً بنحوه.

(2) سورة فصلت، من الآية (5).

(3) ينظر: مسند – أبي يعلى (53/1).

وقوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾، أي: إذا وحَّدتَ الله في تلاوتك، وقلتَ: "لا إله إلا الله"، ﴿وَلَّوْا﴾، أي: أدبروا راجعين، ﴿عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾، جمع نافرٍ، ويجوز أن يكون مصدراً من معنى الفعل، وقال قتادة: "إن المسلمين إذا قالوا: لا إله إلا الله، أنكر ذلك المشركون، وكَبَرتْ عليهم، وضاقها إبليس وجنوده، فأبى الله إلا أن يمضيها، وينصرها، ويُفْلِجها ويطهرها على من نَاوَأَهَا، إنها كلمةٌ مَن خاصَمَ بها، أفلحَ، ومَن قاتلَ بها، نُصر"[1]، وقال ابن عباس: "هم الشياطين"[2]، ولعله أراد به شياطين الإنس، أي: شرارَ المشركين.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾.

أخبر– تعالى– نبيَّه – عليه الصلاة والسلام– بما يناجي به رؤساء كفار قريش، حين جاؤوا يستمعون قراءة رسول الله – صلى الله عليه وسلم– سرًّا من قومهم، بما قالوا: مِن أنه رجل مسحور، من السّحر، على المشهور، أو "من السَّحْر"، وهو الرِئَة، أي: إن تتبعون، إذا تبعتم محمداً، إلا رجلاً بشراً، يأكل ويشرب، كما قال الراجز **[البحر: الوافر]** :

تَسَحَّرْ [3] بالطعام وبالشراب[4]

أي: تَغَذَّى، ومنهم من قال: "كاهن"، "مجنون"، "ساحِر"؛ ولهذا قال: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾، أي: فلا يهتدون إلى الحق، ولا يجدون إليه مخلصاً.

﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۞ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾

---

(1) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (458/17).

(2) تفسير – ابن أبي حاتم (2333/7).

(3) كذا في المخطوط، وفي ديوان امرؤ القيس (40): (وَنُسْحَرُ).

(4) عجز بيتٍ لامرئ القيس (ت 80 ق. هـ)، وصدره: (أرانا موضعين لأمر غيب)، ديوان امرئ القيس (34).

أخبر – تعالى – من[1] الكفار المنكرين للمحشر، القائلين –استفهامَ إنكارٍ–: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾، أي: تراباً وغباراً، ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، أي: يَوْمَ القيامة، ﴿خَلْقًا جَدِيدًا﴾؟ أي: بعدما بَلِينا وصِرْنَا عدماً لا يذكر، كما قال – تعالى–: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾[2]، الآية...، وقال: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾[3]، فقال: ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾، وهما أشد امتناعاً من العظام والرفات، ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾، يعني: موتاً، فإنه ليس في نفس ابن آدم أكبر من الموت، أي: إنكم إذا فرضتم أنكم صرتم موتاً، – الذي هو ضد الحياة–، لأحياكم الله إذا شاء، فإنه لا يمتنع عليه شيء، إذا أراده.

وفي الصحيحين: أن ابن عمر قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: "إذا صارَ أهلُ الجنةِ إلى الجنةِ، وأهلُ النارِ إلى النارِ، جِيءَ بالموتِ، حتى يُجْعَلَ بين الجنَّةِ والنَّارِ، ثم يُذبَحُ، ثم يُنَادِي منادٍ: يَا أهل الجنة، لا مَوْتَ، يا أهل النارِ، لا مَوْتَ، فيزدَادُ أهل الجنةِ فَرَحاً إلى فَرَحِهِم، ويزدَادُ أهل النَّارِ حُزْناً إلى حُزْنِهِمْ"[4]، وقيل: يعني السماء والأرض والجبال.

وقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، أي: مَن يعيدنا إذا كنا حجارة أو حديداً أو خلقاً آخر شديداً؟ ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، أي: الذي خلقكم، ولم تكونوا شيئاً مذكوراً، ثم صرتم بشراً تنتشرون، فإنه قادر على إعادتكم، ولو صرتم إلى أي حالٍ، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[5].

وقوله: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾، أي: (يُحَرِّكُونَهَا؛ استهزاءً) [6] قاله ابن

---

(1) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (84/5): (عن)، وهو الصحيح.
(2) سورة النازعات، الآية (10).
(3) سورة يس، من الآية (78).
(4) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار، (2397/5)، برقم (6182)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، (153/8)، برقم (7363)، كلاهما من حديث ابن عمر – رضي الله عنهما – مرفوعاً، واللفظ للبخاري.
(5) سورة الروم، من الآية (27).
(6) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (467/17).

عباس، وهو الذي تفهمه العرب من لغاتها، فإن الإنغاض هو: التحرك من أسفل إلى أعلى، ومن أعلى إلى أسفل.

وقوله: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ﴾، إخبار عنهم بالاستبعاد منهم لوقوع ذلك، كما قال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[1].

وقوله: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ ﴾-، أي: الرب – تعالى-، ﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾[2]، أي: إذا أمركم بالخروج منها، فإنه لا يُخالَف ولا يُمَانع، بل كما قال: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾[3]، ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ ﴾، أي: يقولون كلهم[4]، إجابة لأمره، وطاعة لإرادته، وله الحمد على كل حالٍ.

وقد جاء في الحديث: " ليس على أهل لا إله إلا الله وحشةٌ في قبورهم، وكأني بأهل لا إله إلا الله يقومون من قبورهم، يَنْفُضونَ التراب عن رءوسهم، يقولون: لا إله إلا الله"، وفي رواية: "يقولون: الحمد لله، الذي أذهب عنا الحزن"[5]، كما يجيء في سورة فاطر، إن شاء الله.

وقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ ﴾، أي: يوم تقومون من قبوركم، تقولون بَعْضكُم لبعضٍ: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ ﴾، أي: في الدنيا، ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴾، كما قال: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾[6].

﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾.

أمر– تعالى– رسولَه أن يأمرَ عبادَه المؤمنين أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلامَ الحسنَ؛ فإنه إذا لم يفعلوا ذلك، نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشر والمخاصمة، فإن الشيطان عدوٌّ لآدمَ وذريَّتِهِ؛ ولهذا نُهِيَ أن يشير الرجل إلى أخيه

---

(1) سورة الملك، الآية (25).

(2) سورة الروم، من الآية (2).

(3) سورة القمر، الآية (50).

(4) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (86/5): (تقومون كلكم)، وهو الصحيح.

(5) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (181/9)، من حديث ابن عمر – رضي الله عنهما–.

(6) سورة النازعات، الآية (46).

المسلم بحديدةٍ، فإن الشيطان يَنْزِغ في يدِهِ، أي: فربما أصابه بها، كما في الصحيحين: أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– قال: "لا يُشِيرَنَّ أحدُكُمْ إلى أخَيهِ بِالسِّلَاحِ؛ فإنهُ لا يَدْرِي أحَدُكُمْ لعلَّ الشيطانَ يَنْزِعُ في يَدِهِ، فيقَعُ في حُفْرةٍ مِن نارٍ"[1].

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾.

أي: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ أيها الناس، مَن يستحق منكم الهداية، ومَن لا يستحق، ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾، بأن يوفِّقكُم لطاعته، والإنابة إليه، ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ ﴾ يا محمد، ﴿عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾، أي: حفيظاً كفيلاً، بل أرسلناك نذيراً، فمن أطاعك، دخل الجنة، ومن عصاك، دخل النار.

وقوله: ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، أي: بمراتبهم في الطاعة والمعصية، ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾، الآية...، وهذا لا ينافي ما ثبت في الصحيحين: عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– أنه قال: "لا تُفَضِّلوا بين الأنبياء"[2]، فإن المراد من ذلك: هو التفضيل بمجرد التشهي والعصبية، لا بمقتضى الدليل، فإنه إذا دلَّ الدليل على شيءٍ، وجبَ اتِّبَاعُه، ولا خلافَ أن الرسلَ أفضلُ مِن بقية الأنبياء، وأن أولي العزم منهم أفضلُهم، وهم الخمسة المذكورون في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ ﴾[3]، الآية...، وفي الشورى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ ﴾[4]، الآية...، ولا خلافَ أن محمداً – عليه الصلاة والسلام– أفضلُهم، ثم إبراهيم، ثم موسى، على المشهور.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الفتن، باب قول النبي – صلى الله عليه وسلم –: (من حمل علينا السلاح، فليس مِنَّا)، (2592/6)، برقم (6661)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: البر والصلة والأدب، باب: النهي عن الإشارة بالسلاح إلى مسلم، (34/8)، برقم (6834)، كلاهما من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه– مرفوعاً.

(2) جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾، (1254/3)، برقم (3233)، أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الفضائل، باب: من فضائل موسى – صلى الله عليه وسلم– (100/7)، برقم (6300)، كلاهما من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه– مرفوعاً.

(3) سورة الأحزاب، من الآية (7).

(4) سورة الشورى، من الآية (13).

وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾، تنبيه على فضله وشرفِهِ، عن أبي هريرة عن النبي – صلى الله عليه وسلم– قال: "خُفِّفَ على داود القرآنُ، وكان يأمر بدوابِّهِ، لتُسْرَج، فيقرأ القرآنَ قبل أن تُسرَج دوابُّه، ولا يأكل إلا من عمل يديه"(1)، رواه البخاري.

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾

أي: قل يا محمد، لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غيرَ الله: ﴿ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾، من الأصنام والأنداد، فارغبوا إليهم، فإنهم لا يملكون كشف الضر عنكم، أي: بالكلية، ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾، أي: يُحَوّلوهُ إلى غيركم.

والمعنى: إن الذي يَقْدِرُ على ذلك هو الله، لا سِوَاهُ، قال ابن عباس: كان أهل الشرك يقولون: نعبد الملائكة، والمسيح، وعُزَيْراً(2)، وهم ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾، وقال ابن مسعودٍ: كان ناس من الإنس، يعبدون ناساً من الجن، فأسلم الجن، وتمسَّك هؤلاء بدينهم(3)، وفي رواية: كانوا يعبدون صنفاً من الملائكة، يقال لهم: الجن(4)، فذكر نحوهُ...، واختار ابن جرير قول ابن مسعودٍ(5)؛ لقوله: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾، والوسيلة هي: القُرْبة؛ ولهذا قال: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾.

وقوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾؛ لأن العبادة لا تتم إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف ينكفُّ عن المناهي، وبالرجاء ينبعث على الطاعات.

وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾، أي: ينبغي أن يُحْذَر منه، ويُخَافَ من وقوعه وحصوله، عياذاً بالله منه.

---

(1) سبق تخريجه.

(2) تفسير – ابن أبي حاتم (2335/7).

(3) ينظر: نفس المصدر والصفحة.

(4) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (473/17).

(5) المصدر نفسه (474/17).

﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾

أخبر – تعالى – بأنه قد حُتِمَ وقُضِي بما كتبَهُ عنده في اللوح المحفوظ: أنه ما من قريةٍ، إلا سيُهْلِكُهَا، بأن يُبِيدَ أهلَها جميعَهم، أو يعذِّبَهم، ﴿عَذَابٗا شَدِيدٗا﴾، إما بقتلٍ، أو ابتلاء بما يشاء، وذلك بسبب ذنوبهم، كما قال عن الأمم السالفة: ﴿ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾[1]، ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾، أي: اللوح المحفوظ، ﴿مَسۡطُورٗا﴾، أي: مكتوباً مثبتاً.

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾

قال ابن عباس: قال المشركون: يا محمد، إنك تزعم أنه كان قبلك أنبياء، فمنهم مَن سُخِّرت له الريحُ، ومنهم مَن كان يُحْيِي الموتى، فإن سَرَّك أن نؤمن بك ونُصدقك، فادعُ ربَّك أن يكون لنا الصفا ذهباً؛ فأوحى الله إليه أن قد سمعتُ الذي قالوا، فإن شئت أن نفعل الذي قالوا، فإن لم يؤمنوا، نزل العذاب، فإنه ليس بعد نزول الآية مُنَاظَرَةٌ، وإن شئت أن تستأني بقومك استأنيتُ؟ قال: يارب، أستأني بهم"، وكذا قاله قتادة وابن جريج[2]، يعني: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ﴾ أن نبعث الآياتِ، ونأتي بها على ما سأل قومُك منك، فإنه سهل علينا، إلا أنه قد كذَّبَ بها الأولون، بعدما سألوها، وجرتْ سنتُنا فيهم، وفي أمثالهم، أنهم لا يُؤَخَّرون، إذا كَذَّبُوا بها بعد نزولها، كما قال – تعالى– في المائدة: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡ﴾[3]، الآية...، وقال – تعالى– عن ثمود، حين سألوا آيَةً، ناقةً تخرج من صخرة، عيَّنُوها، فدعا صالح ربَّه، فخرج له منها ناقةٌ، على ما سألوا، ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾، أي: كفروا بمَن خَلَقها، وكذبوا رسُولَه، وعقروا الناقةَ، أنزل الله عليهم العذاب، ولهذا قال: ﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ﴾، أي: دَالَّةً على وحدانية مَن

(1) سورة هود، من الآية (101).

(2) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (477/17).

(3) سورة المائدة، من الآية (115).

خلقها، وصِدق الرسول الذي أُجِيبَ دعاؤه فيها، ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾، أي: منعوها شِرْبها، وعقروها، فأبادَهم عن آخرهم.

وقوله: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾، قال قتادة: (إن الله يخوّف الناسَ بما يشاء من آياته؛ لعلهم يعتبرون ويرجعون)[1]، كما في الصحيح: أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم–، قال: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، وإنهما لا ينكسفان لموت أحدٍ، ولا لحياته، ولكن الله –عز وجل– يرسلهما يخوّف بهما عبادَهُ، فإذا رأيتم، فافزعوا إلى ذكره، ودعائه، واستغفاره[2].

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا﴾.

ذكر – تعالى– عدواة إبليس – لعنه الله–، لآدم – عليه السلام–، وذريّتِهِ، وأنها عداوةٌ قديمةٌ منذ خَلْقِ آدمَ، فإنه – تعالى– أمرَ الملائكةَ بالسجودِ، فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر، وأبى أن يسجد له؛ افتخاراً عليه، واحتقاراً له، ﴿قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا﴾، كما قال في آية أخرى: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾[3]، وقال أيضاً: ﴿أَرَءَيۡتَكَ﴾ قائلاً للربّ جُرْأَةً، والربُّ – تعالى– يَحْلِمُ، ويُنْظِرُ، ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾، أي: لأَسْتَوْلِيَنَّ، وأحتوينَّ على ذريتِهِ، ولَأُضِلَّنَّهُم، إلا قليلاً، يعني: يقول إبليس: أرأيتك يا رب، هذا الذي شرَّفْتَهُ، وعظَّمْتَهُ عليَّ، لئن أنظرتَنِي، لَأُضِلَّنَّ ذريَّتَهُ، إلا قليلاً منهم.

---

(1) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (478/7).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الكسوف، باب: الذكر في الكسوف، (360/1)، برقم (1010)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الكسوف، باب: ذكر النداء بصلاة الكسوف: "الصلاة جامعة" (35/3)، برقم (2156)، كلاهما من حديث أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه– مرفوعاً بألفاظ متقاربة.

(3) سورة الأعراف، من الآية (12).

﴿ قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا ﴾

لما سأل إبليسُ النَّظِرَةَ، قال الله له: ﴿ٱذۡهَبۡ﴾، أي: فقد أنظرتُك، وأملهَلْتُكَ، كما قال في آية أخرى: ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾[1]، ثم أوعدَهُ ومَن تبعَه مِن ذرية آدم بجهنم، فقال: ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا﴾، أي: وافراً مُوَفراً عليكم، لا يُنْقَصُ لكم منه.

وقوله: ﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ ﴾، قيل: هو الغناء واللهو، أي: اسْتَخِفَّهُمْ بذلك، وقيل: كل داعٍ دعا إلى معصية الله، وهو المختار.

وقوله: ﴿وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ يقول: واحمل عليهم بجنودك، ركباناً ومشاةً، فإن الرَّجْلَ جمعُ راجلٍ، كما أن الرَّكْبَ جمعُ راكبٍ، أي: فسلِّط عليهم بكل ما تَقْدِرُ عليه، قال ابن عباس: أي: "كل راكبٍ وماش في معصية الله"[2]، قال قتادة: "إن له خيلاً ورجالاً من الجن والإنس، وهو الذي[3] يطيعونه"[4]، وتقول العرب: "أَجْلَبَ فلانٌ على فلانٍ": إذا صاح عليه.

وقوله: ﴿وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾، قال ابن عباس وغير واحد: "هو ما أمرهم به، من إنفاق الأموال في معاصي الله"[5]، وقال الحسن: "هو: جَمْعُهَا من خبيث، وإنفاقها في حرام"[6]، وعن ابن عباس أيضاً: "أما مشاركته إيَّاهم في أموالهم، هو ما حرَّمُوهُ مِن أنعامهم"[7]، يعني: من البحائر ونحوها...، قال ابن جرير: والآية تعمُّ ذلك كُلَّه[8]، والمراد بالأولاد: أولادُ الزنا، وقيل: ما كانوا يقتلونه مِن أولادهم، سَفَهاً،

---

(1) سورة الأعراف الآية (15).

(2) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (491/17).

(3) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (94/5): (وهم الذين)، وهو الصحيح.

(4) تفسير الصنعاني (381/1).

(5) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (493/17).

(6) ينظر: تفسير الصنعاني (381/1).

(7) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (492/17).

(8) المصدر نفسه (494/17).

بغير علمٍ، وقيل: يعني: مَجَّسُوا، وهوَّدوا، ونصّروا أولادَهم، وصبغوا غير صبغة الإسلام، وكل ما عُصِي الله فيه، أو بِهِ، ويطيعُ فيه الشيطان، أو فئته، فهو مشاركة، وقد ثبت في الصحيح: أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– قال: "يقول الله: إني خلقتُ عبادي حُنفاءَ، فجاءتهم الشياطين، فاجتالتهُم عن دينهم، وحرَّمتْ عليهم ما أَحْلَلْتُ لهم"(1).

وقوله: ﴿وَعِدْهُمْۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾، كما قال: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾(2)، الغرور: تزيين الباطل بما يُظَنُّ أنه حقٌّ.

وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾: إخبار بتأييده تعالى عبادَه المؤمنين، وحِفْظِه، وحراسته لهم من الشيطان الرجيم؛ ولهذا قال: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾، أي: حافظاً، وناصراً، ومؤيِّداً، وقال: رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: "إن المؤمن ليُنْضِي شياطينَهُ، كما يُنْضِي أَحَدُكُمْ بَعِيرَهُ في السَّفَرِ"(3)، ومعنى ينضي: يأخذ بناصيته، وقهره(4).

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾

أخبر– تعالى– عن لطفه بخلقه؛ لتسخيره لعباده الفُلْكَ في البحر، وتسهيلها لمصالح عباده؛ لابتغائهم من فضله في التجارة، من إقليم إلى إقليم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾، أي: إنما يفعل هذا بكم، من فضله بكم، ورحمته بكم.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾.

أخبر– تعالى– أنه إذا مسَّ الناس ضرٌّ، دعوه منيبين إليه، مخلصين له الدين؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، أي: ذهب عن قلوبكم كلُّ ما

---

(1) سبق تخريجه.

(2) سورة النساء الآية (120).

(3) أخرجه أحمد في مسنده (504/14)، من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه– مرفوعاً، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (312/1)، وقال: رواه أحمد وفيه ابن لهيعة.

(4) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (95/5): (ويقهره)، وهو الصحيح.

تعبدون غير الله، كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل[1]، لمَّا هرب من الفتح، ورَكِبَ البحر؛ ليدخل الحبشة، فجاءتهم ريح عاصفٌ، فقال القوم: إنه لا يغني عنكم، إلا أن ندعو الله وحده، فقال عكرمة في نفسه: والله، لئن كان لا ينفع في البحر غيره، فإنه لا ينفع في البر غيرهُ، اللهم، لك عليَّ عهدٌ، لئن أخرجتني منه، لأذهبَنَّ، ولأضعَنَّ يدي في يد محمدٍ، فلأجِدَنَّه رؤوفاً رحيماً، فخرجوا من البحر، فرجع إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم– فأسلم، وحَسُنَ إسلامُهُ[2] – رضي الله عنه–.

وقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾، أي: نَسِيتُم ما عرفتم من توحيده في البحر، وأعرضتم عن دعائه وحدَه، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾، أي: سجِيَّتُهُ هكذا، ينسى النِّعَمَ، ويَجْحَدُها، إلا من عصم الله.

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾، أي: أفحسبتم أن يخرجوكم[3] إلى البر، أمنتم من انتقامِهِ وعذابه! ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾، وهو: المطر الذي فيه حجارة[4]. قاله مجاهد وغير واحدٍ كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾[5]، الآية...، وقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾[6].

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ أي: ناصراً يردُّ ذلك عنكم، ويُنْقِذُكم منه.

---

(1) عكرمة بن أبي جهل بن هشام بن المغيرة القرشي المخزومي، كان عكرمة شديد العداوة للرسول – صلى الله عليه وسلم– في الجاهلية، وكان فارساً مشهوراً، ولما فُتحت مكة، هرب منها ولحق باليمن، ولمَّا أسلم سنة ثمان بعد الهجرة، ورآهُ الرسول – صلى الله عليه وسلم–، قال: (مرحباً بالراكب المهاجر)، واستعمله الرسول – صلى الله عليه وسلم– على صدقات هوازن، عام وفاته، كذلك استعمله أبو بكر الصديق – رضي الله عنه– في قتال أهل الرِّدَّة، حيث سيَّرهُ إلى أهل عُمان، ثم إلى اليمن، اخْتُلِفَ في وفاته؛ فقيل: قُتل يَوْمَ اليرموك، وقيل يَوْمَ أجنادين، وقيل: مرج الصفر، وذلك سنة ثلاث عشرة للهجرة، في خلافة أبي بكر الصديق – رضي الله عنه–، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب– لابن عبدالبر (1082/3)، وأُسْدُ الغابة في معرفة الصحابة – لابن الأثير (77/4)، والإصابة في تمييز الصحابة – لابن حجر العسقلاني (538/4).

(2) ينظر: دلائل النبوة – للبيهقي (59/5).

(3) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (96/5): (نخرجكم).

(4) ينظر جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (498/17).

(5) سورة القمر، من الآية (34).

(6) سورة الملك، من الآية (16).

﴿ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا ﴾.

قال – تعالى-: ﴿ أَمۡ أَمِنتُمۡ ﴾، أم أمنتم أيها المعرضون عنا، بعد ما اعترفوا بتوحيدنا في البحر، وخرجُوا إلى البر؟ ﴿ أَمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ ﴾، أن يعيدكم في البحر مرةً [ثانية][1]، ﴿ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ ﴾، أي: يقصف الصواري، ويغرق المراكب، قال ابن عباسٍ: "القاصف: ريح البحار، التي تكسر المراكب، وتغرقها"[2].

وقوله: ﴿ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ﴾، أي: بسبب كفركم، وإعراضكم عن دين الله.

وقوله: ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا ﴾، قال ابن عباس: "أي: نصيراً ثائراً يأخذ بثأركم بعدكم"[3].

﴿ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴾.

أخبر – تعالى– عن تشريفه بني آدم، وتكريمه إيَّاهم في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها، كما قال – تعالى-: ﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴾[4]، أي: يمشي قائماً، منتصباً على رجليه، ويأكل بيديه، بخلاف غيره من الحيوانات، وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً، يفقه بذلك كلِّه، وينتفع به، ويفرِّقُ بين الأشياء، ويعرف منافعَها، ومضارَّها، وخواصَّها في الأمور الدنيوية والدينية.

﴿ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ ﴾، أي: على الدَّوابِّ، وفي ﴿ ٱلۡبَحۡرِ ﴾ على السُّفُن، ﴿ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾، أي: من زروع وثمارٍ ولحوم وألبانٍ، من سائر أنواع الطعوم، وألوان[5] المشتهاة اللذيذة، والمناظر الحسنة، والملابس المرتفعة[6] من سائر الأنواع.

---

(1) ساقطة من المؤلف، مثبتة من تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (96/5).

(2) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (500/17).

(3) ينظر: بنفس المصدر والصفحة.

(4) سورة التين، الآية (4).

(5) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (97/5): (والألوان)، وهو الصحيح.

(6) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم– لابن كثير (97/5): (الرفيعة)، وهو الصحيح.

﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾، أي: من سائر الحيوانات، وأصناف المخلوقات.

وقد اسْتُدِلَّ بهذه الآية على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة، عن عبدالله بن عمرو عن النبي – صلى الله عليه وسلم– قال: "إن الملائكة قالت: يا ربنا، أعطيت بني آدم الدنيا، يأكلون فيها، ويشربون، ويلبسون، ونحن نسبح بحمدك، ونقدس لك، ولا نأكل، ولا نشرب، ولا نلهو، فكما جعلت لهم الدنيا، فاجعل لنا الآخرة، قال: لا، أجعل صالحَ ذريةِ مَنْ خلقتُ بيديَّ، كَمَنْ قلتُ له: كن، فكان"[1]، رواه الطبراني.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾

أخبر– تعالى– عن يوم القيامة: أنه يُحَاسِب كل أمة بإمامهم.

واختلفوا في ذلك، فقال مجاهد وقتادة: "أي: بنبيهم"[2]، وهذا كقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[3]، وهذا أكبر شرفٍ لأصحاب الحديث؛ لأن إمامَهُم النبيُّ – صلى الله عليه وسلم–، وقال: ابن زيدٍ "أي: بكتابهم الذي أُنزل على نبيِّهم، من التشريع"[4]، واختاره ابن جرير[5]، وعن ابن عباسٍ: "بكتاب أعمالهم"[6]، وقال الحسن وغير واحد: وهذا هو الأرجح؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[7]، وقال: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾[8]، الآية ...، وهذا لا ينفي أن يُجاءَ بالنبيِّ، إذا حكمَ اللهُ بينَ أُمَّتِهِ، فإنه لا بد أن يكون شاهداً عليها بأعمالها، كما قال: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ﴾[9]، ولكن المراد هاهنا: كتاب

---

(1) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (196/6)، من حديث عبدالله بن عمرو – رضي الله عنهما– مرفوعاً.

(2) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (502/17).

(3) سورة يونس، الآية (47).

(4) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (503/17).

(5) ينظر: المصدر نفسه (503/17).

(6) ينظر: المصدر نفسه (502/17).

(7) سورة يس، الآية (12).

(8) سورة الكهف، من الآية (49).

(9) سورة الزمر، من الآية (69).

الأعمال؛ ولهذا قال: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾.

وقوله: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ ﴾، أي: من فرحتِهِ، وسُروره بما هم فيه من العمل الصالح، يقرؤه ويحب قراءته.

وقوله: ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾، وقد سبق أن "الفتيل" هو الخط المُسْتَطيل في شق النواة.

وقوله: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ ﴾، قال ابن عباس وأتباعه: "﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ ﴾، أي: الحياة الدنيا، ﴿أَعْمَىٰ ﴾ عن حجج الله وآياته وبيناته، ﴿فَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ ﴾، أي: كذلك يكون، ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾، أي: وأضلُّ مما كان في الدنيا"(1).

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾

أخبر - تعالى- عن تأييده رسولَه - عليه الصلاة والسلام-، وتثبيتِه وعصمتِه وسلامتِه من شر الأشرار، وكيد الفجار، وأنه - تعالى- هو المتولِّي أمْرَهُ، ونصرَهُ، وأنه لا يَكِلُه إلى أحدٍ مِن خلْقه، بل هو وليُّهُ، وحافظُهُ، وناصرُهُ، ومُظْهرُ دينِه على مَن عاداه، وناوأه في مشارق الأرض، ومغاربها، أي: وإن كادوا ليعرّضُوكَ للفتن، مما كانوا يتوقعون منك، عما أمرناك بالوحي، ﴿لِتَفْتَرِيَ ﴾، أي: لِتَخْتَلِقَ علينا غير ما أوحينا إليك، ولو أنت فعلت ما دعوك إليه، ﴿لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾، أي: لَوَادُّوكَ وصَافَوْكَ، ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ ﴾ على الحق بعصمتنا إيَّاك، ﴿لَقَدْ كِدتَّ ﴾، أي: قَرُبْت إلى ما يرضيهم شيئاً قليلاً، وهو خاطر القلب من غير عزمٍ، وهو حديثُ النفس، المعفوُّ عنه، ولَكِنْ ثبَّتَهُ الله، ولم يكن، ﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ﴾، أي: لو فعلت ذلك، لَأذقناك ضعفَ عذاب الحياة، وضعفَ عذاب الممات، يعني: أضعفنا لك العذاب في الدارين، ﴿ثُمَّ لَا

(1) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (504/17).

﴿ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾، أي: ناصراً يمنعك من عذابنا.

﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾

قيل: نزلت في كفار قريش، حين همُّوا بإخراج الرسول من بين أَظْهُرِهِم، فتوعَّدَهم بهذه الآية، وأنهم لو أخرجوه، لَمَا لبثُوا بعدَهُ بمكة إلا يسيراً، وكذلك وقع؛ فإنه لم يكن بين هجرته من بين أَظْهُرِهِم بعدما اشتدَّ أذاهم له إلا سنة ونصف، حتى جمعهم الله وإيَّاه ببدْرٍ على غير ميعادٍ، فأمكنه منهم، وسلَّطَهُ عليهم، وأضفره بهم، فقتل أشرافهم، وسبى سراتَهُمْ؛ ولهذا قال: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾، أي: هكذا عادتُنَا في الذين كفروا برسلنا وآذَوْهُم، يُخْرَجُ الرسُول من بين أَظْهُرِهِم، ويأتيهم العذاب، ولولا أنه – عليه الصلاة والسلام– رسول الرحمة، لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قِبلَ لأحدٍ بِهِ؛ ولهذا قال – تعالى–: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[1]، وهذا أصح ما قيل في سبب نزولها، والاستفزاز هو: الإزعاج بسرعة، والتحويل: التبديل.

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾.

أمر – تعالى– رسولَه – عليه الصلاة والسلام– بإقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها، بقوله: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ ﴾، قال ابن عباسٍ وغير واحدٍ: (دلوكها: زوالها)[2]، كما قال جابر: دعوتُ رسولَ الله – صلى الله عليه وسلم– ومَن شاءَ مِن أصحابه، فَطَعِمُوا عندي، ثم خرجوا حين زالت الشمس، فخرج النبي – صلى الله عليه وسلم– فقال: "اخْرُجْ يا أبا بكر، فهذا حين دَلَكَتِ الشمسُ"[3]، فعلى هذا تكون هذه الآية شاملةً لأوقات الصلوات الخمس، من قوله: ﴿ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾، وهو: ظلامُه، وقيل: غروب الشمس.

---

(1) سورة الأنفال، الآية (33).

(2) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (518/17).

(3) أخرجه الطبري في تفسيره (518/17)، من حديث جابر – رضي الله عنه– مرفوعاً.

وقوله: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ﴾، يعني: صلاة الصبح.

وقد ثبتت السنة عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– تواتراً في أفعاله وأقواله بتفاصيل هذه الأوقاتِ، على ما عليه عمل أهل الإسلام اليومَ، مما تلقَّوْهُ خلفاً عن سلفٍ، وقرناً بعد قرنٍ، كما هو مقرر في الصحاح والسُّنَنِ، وعن أبي هريرة عن النبي – صلى الله عليه وسلم–: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾، قال: "يشهده ملائكة الليل، وملائكة النهار"[1]، رواه الترمذي والنسائي، وفي الصحيحين: أن النبي – صلى الله عليه وسلم– قال: "يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح، وصلاة العصر، فيعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربهم – وهو أعلم بهم– كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم، وهم يصلُّون، وتركناهم، وهم يصلُّون"[2].

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ أمرٌ لهُ بقيام الليل بعد المكتوبة، كما سُئِل رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم–، وقيل: أيُّ الصلاةِ أفضلُ بعد المكتوبة؟ قال: "صلاة الليل"[3]، رواه مسلم.

ولهذا أمر– تعالى– رسوله بعد المكتوبات بقيامِ الليل، فإن التهجد: ما كان بعد نومٍ. قاله كثير من التابعين، وهو المعروف في لغة العرب، وكذلك ثبتت الأحاديث عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– أنه كان يتهجد بعد نومه، عن كثير من الصحابة. واختلفوا في معنى قوله: ﴿نَافِلَةٗ لَّكَ﴾، فقيل: معناه: أنك مخصوص بوجوب ذلك وحدَك، فهو واجب في حقه دون الأمَّةِ، وهو أحد قولي الشافعي، وهو اختيار ابن جرير[4].

وقيل: إنما جعل قيامها في حقه نافلة على الخصوص؛ لأنه قد غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وغيرُه من أُمَّتِهِ إنما يكفِّر عنه صَلَوَاتُه النوافلُ الذنوبَ التي عليه.

---

(1) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: تفسير القرآن، باب: سورة بني إسرائيل (302/5)، برقم (3135)، وأخرجه النسائي في سننه، كتاب: التفسير، باب: سورة الإسراء (381/6)، برقم (11293)، كلاهما من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه– مرفوعاً، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(2) سبق تخرجه.

(3) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الصيام، باب: فضل صوم المحرم (169/3)، برقم (2813)، من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه– مرفوعاً.

(4) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (525/17).

وقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ أي: افعل هذا الذي أمرتك به؛ ليقيمك يوم القيامة مقاماً، يحمدك فيه الخلائق كلُّهم، وخالقهم - تبارك وتعالى-، وذلك هو المقام الذي يقومه - صلى الله عليه وسلم- يوم القيامة للشفاعة في شأن الناس؛ ليريحَهم ربُّهم من شدة ذلك اليوم، كما قال ابن عباس وغير واحدٍ: هو مقام الشفاعة[1]، وقال قتادة: هو أول من تنشق عنه الأرض، وأول شافعٍ، وأول مُشَفَّعٍ[2]، كما رواه مُسْلِمُ مرفوعاً، وكان أهل العلم يرون أنه المقام المحمود[3].

ثم اعلم أنَّ لرسول الله - صلى الله عليه وسلم- تشريفاتٍ يوم القيامة، لا يَشْرِكُه فيها أحدٌ، وتَشْرِيفَاتٍ لا يساويه فيها أحدٌ؛ فهو أوَّلُ من ينشقُ عنه القبر، ويُبْعَثُ راكباً إلى المحشر، وله اللواء الذي آدم، فمن دُونَه تحتَه، وله الحوض، الذي ليس في الموقف أكثر وارداً منه، وله الشفاعة العظمى عند الله؛ ليأتِيَ لفصل القضاء بين الخلائق، وذلك بعدما يسأل الناسُ آدمَ، ثم نوحاً، ثم إبراهيمَ، ثم موسى، ثم عيسى، فكلٌّ يقول: "لست لها"، حتى يأتوا إلى محمد - صلى الله عليه وسلم-، فيقول: "أنا لها"، كما سيجيء مفصلاً في هذا الموضع، إن شاء الله، ومن ذلك أنه يشفع في أقوام أُمِرَ بهم إلى النار، فيرَدُّون عنها، وهو أول الأنبياء، يقضى بين أمتِهِ، وأولهم إجازةً على الصراط بأمتِهِ، وهو أول شفيع في الجنة[4]، كما ثبت في صحيح مسلم، وفي حديث الصُّورِ: أَنَّ المؤمنين كُلَّهُم لا يدخلون الجنة، إلا بشفاعته، وهو أول داخلٍ عليها وأمته قبل الأمم كلهم، ويُشَفَّعُ في رفع درجات أقوام لا تبلغها أعمالهم، وهو صاحب الوسيلة التي هي أعلى منزلة في الجنة، لا تليق إلا لهُ، وإذا أذن له - تعالى- في الشفاعة في العصاة، يشفع[5] الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيشفع هو في خلائق لا يعلم عدتهم إلا الله، ولا يشفع أحد مثله، ولا يساويه في ذلك، ولْنَذْكُرْ هاهنا بعض ما ورد في المقام المحمود:

---

(1) المصدر نفسه (527/17).

(2) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الفضائل، باب: تفضيل نبينا على جميع الخلائق، (59/7)، برقم (6079)، من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه- مرفوعاً.

(3) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن - للطبري (528/17).

(4) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: في قول النبي: أنا أولُ الناس، يَشْفَعُ في الجنة، وأنا أكثر الأنبياء تبعاً: (130/1)، برقم (506)، من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه- مرفوعاً، ونصُّه: "أنا أول شفيعٍ في الجنة، لَمْ يُصدَّق نبيٌّ من الأنبياء ما صُدِّقْتُ، وإنَّ من الأنبياءِ نبيًّا، ما يُصَدِّقُهُ مِنْ أُمَّتِهِ إلا رَجُلٌ واحدٌ".

(5) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم - لابن كثير (104/5): (شفع)، وهو الصحيح.

قال ابن عمر: "إنَّ الناسَ يصيرون يوم القيامة جُثَاءً، كلُّ أمة تتبع نبيَّها، يقولون: يا فلان، اشفع، يا فلان، اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي – صلى الله عليه وسلم–، فذلك يوم يبعثه الله مقاماً محموداً"[1]، رواه البخاري، ورواه حمزة بن عبدالله بن عمر[2]، عن أبيه، عن النبي – صلى الله عليه وسلم–.

وعن جابر بن عبدالله: أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– قال: من قال حين يسمع النداءَ: اللهم، رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلَّتْ له شفاعتي يوم القيامة"[3]، رواه البخاري.

وعن أبيّ بن كعب قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: "إذا كان يوم القيامة، كنتُ إمامَ الأنبياء وخطيبَهم، وصاحبَ شفاعتِهم، ولا فَخْرَ"[4]، رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح.

وفي الصحيحين: عن أنسٍ بْنِ مالك عن النبي – صلى الله عليه وسلم– قال: "يجتمع المؤمنون يوم القيامة، فيُلْهَمُونَ، فيقولون: لو استشفعنا على ربنا، فأراحنا من مكانِنَا هذا، فيأتون آدم، فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر، خلقَكَ الله بيده، وأَسجدَ لك ملائكتَه، وعلَّمَك أسماءَ كلِّ شيءٍ، فاشفع لنا إلى ربنا، حتى يُريحَنَا من مكاننا هذا، فيقول لهم آدم: لستُ هُناكم، ويذكر ذنبَه الذي أصاب، ويستحيي ربَّه من ذلك، ولكن ائتوا نوحاً، فإنه أول رسولٍ، اللهُ بعثهُ إلى أهل الأرض، فيأتون نوحاً، فيقول: لستُ هُنَاكم، ويذكر لهم خطيئتَهُ، سؤاله ربَّهُ – تعالى– ما ليس له به علم، فيستحيي ربَّه من ذلك، ولكن ائتوا إبراهيم، خليل الرحمن، فيأتونه، فيقول: لست هناكم، ولكن ائتوا موسى، عبداً كلَّمَهُ الله، وأعطاه التوراة، فيأتون موسى، فيقول: لست هُناكم، ويذكر لهم

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: سورة بني إسرائيل الإسراء، (1748/4)، برقم (441)، من حديث ابن عمر – رضي الله عنهما – مرفوعاً.

(2) حمزة بن عبدالله بن عمر بن الخطاب، أبو عمارة، ثقةً، قليل الحديث، روى عن أبيه، وعمته حفصة، وعائشة – رضي الله عنهم أجمعين–، وروى عنه الزهري، قال فيه العجلي: مدني تابعي ثقة، وعدَّهُ المديني في فقهاء المدينة. ينظر: الطبقات الكبرى – لابن سعد (203/5)، وتهذيب التهذيب – لابن حجر العسقلاني (27/3).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الآذان، باب: الدعاء عند النداء (222/1)، برقم (589)، من حديث جابر بن عبدالله – رضي الله عنه–.

(4) أخرجه الترمذي في سننه، من حديث جابر بن عبدالله – رضي الله عنه– (586/5)، برقم (3613)، من حديث أُبيّ بن كعب – رضي الله عنه – مرفوعاً.

النفسَ التي قتل بغير نفسٍ، فيستحْيِي ربَّهُ من ذلك، ولكن ائتوا عيسى، عبد الله ورسوله، وكلمته وروحه، فيأتون عيسى، فيقول: لست هُناكم، ولكن ائتوا محمداً، عبداً غَفَر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيأتوني"، قال الحسن: هذا الحرف: "فأقوم، فأمشي بين سِمَاطَيْنِ[1] من المؤمنين"، قال أنس: "حتى أستأذن على ربي، فإذا رأيت ربي، وقعت له، أو: خررت ساجداً لربي، فيدَعُنِي ما شاء الله أن يَدَعَني"، قال: "ثم يقال: له ارفع، محمد، قل تسمع، واشفع، تُشَفَّعْ، وسَلْ، تُعْطَه، فأرفعُ رأسي، فأحمدُه بتحميدٍ يُعَلِّمُنيه، ثم أشفع فَيَحُدُّ لي حدًّا، فأُدْخِلُهُمُ الجنة، ثم أعود إليه الثانية، فإذا رأيت ربي، وقعت، أو: خررت ساجداً لربي، فيدَعُنِي ما شاء الله أن يدَعَنِي، ثم يقول: ارفع، محمد، قل، تُسمعْ، وَسَلْ، تُعْطَهْ، واشفع، تُشَفَّع، فأرفعُ رأسي، وأحمده بتحميدٍ يُعَلِّمُنِيه، ثم أشفع، فَيَحُدُّ لي حدًّا، فأدخلهم الجنة، قال ثم أعود الثالثة، وإذا رأيت ربي، وقعت، أو: خرَرْت ساجداً لربي، فيَدَعُني ما شاء الله أن يَدَعَنِي، ثم: يقال: ارفع، محمد، قل تُسْمَع، وسل، تُعْطَهْ، واشفعْ، تُشَفَّع، فأرفع رأسي، فأحمده بتحميده الذي يُعَلِّمُنِيه، ثم أشفع، فيَحُدُّ لي حدًّا، فأُدْخِلُهُمْ الجنة، ثم أعودُ الرابعة، فأقول: يا رب، ما بقي إلا مَنْ حَبَسَه القرآنُ، ووجب عليه الخلود"[2]، قال أنس: إن النبي – صلى الله عليه وسلم– قال: " يُخْرَجُ من النار من قال: "لا إله إلا الله"، وكان في قلبه من الخير ما يزنُ شعيرة، ثم يُخْرَجُ من النار من قال: "لا إله إلا الله"، وكان في قلبه من الخير ما يزنُ بُرَّةً، ثم يُخْرجُ مَن النار من قال: "لا إله إلا الله"، وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرةً"[3]، رواه أحمد بطُوله.

وعن كعب بن مالك: أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– قال: "يُبْعَثُ الناسُ يومَ القيامة، فأكون أنا وأمتي على تلٍّ، ويكْسُوني ربّي حُلَّةً خَضْرَاءَ، ثم يُؤْذَنُ لي، فأقول ما شاء الله [أن][4] أقول، فذلك المقامُ المحمودُ"[5]، رواه أحمد.

وعن أبي الدرداء قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: "أنا أولُ مَن

---

(1) سِمَاطَيْنِ: صَفَّيْنِ، لسان العرب – لابن منظور (322/7)، الجذر "س م ط".

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: سورة البقرة (1624/4)، برقم (4206)، من حديث أنس مالك – رضي الله عنه– مرفوعاً.

(3) أخرجه أحمد في مسنده (171/20)، من حديث أنس بن مالك – رضي الله عنه– مرفوعاً.

(4) ساقطة من المؤلف، مثبتة من مسند أحمد بن حنبل (60/25).

(5) أخرجه أحمد في مسنده (60/25)، من حديث كعب بن مالك – رضي الله عنه– مرفوعاً.

يُؤذن له بالسُّجودِ يوم القيامة، وأنا أوَّل مَنْ يُؤذن لهُ أن يَرْفَعَ رَأْسَهُ، فأنظُرَ إِلَى بَيْنِ يَدَيَّ، وأعرف أُمَّتِي من بين الأمَم، ومِنْ خَلْفِي مِثْلُ ذَلِكَ، وعن يَمِيني مِثْلُ ذَلِكَ فقال رجل: يا رسول اللهِ، كيفَ تعرِفُ أُمَّتَكَ من بَيْنِ الْأُمَمِ فِيمَا بين نُوحٍ إلى أُمَّتِكَ؟ قال: هُمْ غُرٌّ مُحَجَّلُونَ من أَثَرِ الوُضُوءِ، لَيْسَ أحد كَذَلِكَ غيْرُهُمْ، وَأَعْرِفُهُمْ أنهم يُؤْتَوْن كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم يَسْعَى بين أيدِيهِمْ ذُرِّيَتُهُمْ"(1).

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾

قال ابن عباس: كان النبي – صلى الله عليه وسلم– بمكة، ثم أُمِرَ بالهجرة، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾(2)، الآية...، رواه أحمد والترمذي، وقال قتادة: ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾، يعني: المدينة(3)، ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾، يعني: مكة، وهذا هو أشهر الأقوال، وقيل: ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ يعني: الحياة بعد الموت، وقيل غير ذلك، والأول أصح.

وقوله: ﴿ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴾ قال الحسن البصري: "وعدَه ربُّهُ لينزعنَّ ملكَ فارس وعِزَّهم، وليجعلنَّهُ لَهُ، وعِزَّ الروم ومُلكهم، ولَيَجْعَلَنَّهُ له"(4).

وقال قتادة: " إن نبي الله – صلى الله عليه وسلم– عَلِمَ أن لا طاقة له بهذا الأمر، إلا بسلطان، فسأل سلطانا نصيراً لكتاب الله، ولحدود الله، ولفرائض الله، ولإقامة دين الله؛ فإن السلطان رحمة من الله، جعلَه بين أَظْهُر عبادِه، لولا ذلك، لأغارَ بعضُهم على بعضٍ، فأكل شديدُهم ضَعِيفَهم"(5).

وقال مجاهد: ﴿سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا﴾، أي: (حُجَّةً بَيِّنَةً)(6).

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده (64/36)، من حديث أبي الدرداء – رضي الله عنه مرفوعاً.

(2) أخرجه أحمد في مسنده (417/3)، وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب: سورة بني إسرائيل (304/5)، برقم (3139)، كلاهما من حديث ابن عباس – رضي الله عنه– مرفوعاً، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(3) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (534/17).

(4) ينظر: المصدر نفسه (536/17).

(5) نفس المصدر والصفحة.

(6) نفس المصدر والصفحة.

واختار ابنُ جرير قولَ الحسن وقتادة، وهو الأرجح[1]؛ لأنه لا بدَّ مع الحق من قهرٍ لمن عاداه وناوأَهُ، وفي الحديث: "إن الله لَيَزَعُ بالسلطان، ما لا يزع بالقرآن"[2]، أي: ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام، ما لا يمتنع كثير من الناس بالقرآن، مع ما فيه من الوعيد والتهديد.

وقوله: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ وعيد لكفار قريش، وتهديد، بأنه قد جاءهم من الله الحقُّ، الذي لا مِرْيَةَ فيه، ولا قِبَلَ لهم بِهِ، وهو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان والعلم النافع، وزهق باطلهم، أي: اضمحلَّ وهلك، فإن الباطل لاثَبَاتَ له مع الحق، ولا بقاء، ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾[3]، وفي الصحيح عن ابن مسعود قال: دخل النبي – صلى الله عليه وسلم– [مكة][4]، وحوْلَ البيت ستون وثلاثمائة نُصُبٍ، فجعَل يَطْعنُهَا بعُودٍ في يدِهِ، ويقول: "﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾، ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾"[5].

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾.

أخبر– تعالى– عن كتابه، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفِهِ، أنه ﴿شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: يُذْهِبُ ما في القلوب من الأمراض، مِن شكٍّ ونفاقٍ وشرك وزيغٍ وميلٍ، فإن القرآن يشفي من ذلك كلّه، وهو أيضاً رحمةٌ يحصل فيها الإيمان والحكمة، وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لِمَن آمنَ به، وصدَّقَه، واتبعَه، فإنه يكون شفاءً في حقه ورحمةً، وأما الكافرُ الظالمُ نفسَه بذلك، فلا يزيده سماعُه القرآنَ إلا بُعْداً وتكذيباً وكفراً، والآفة مِن الكافر، لا مِن القرآن، كما قال – تعالى–: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ إلى قوله: ﴿ بَعِيدٍ ﴾[6]، وقال

(1) ينظر المصدر نفسه، (536/17).

(2) أخرجه أحمد بن علي، أبوبكر الخطيب البغدادي، في كتابه: تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، (بيروت)، (107/4)، وأخرجه السيوطي في كتابه: الدر المنثور (329/5)، من حديث عمر بن الخطاب – رضي الله عنه–.

(3) سورة الأنبياء، من الآية (18).

(4) ساقطة من المؤلف، مثبتة من صحيح مسلم (173/5).

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المغازي، باب: أين ركز النبي – صلى الله عليه وسلم– الراية يوم الفتح، (1561/4)، برقم (4036)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الجهاد والسِّيَر، باب: إزالة الأصنام من حول الكعبة (173/5) برقم (4725)، كلاهما من حديث ابن مسعود – رضي الله عنه– مرفوعاً.

(6) سورة فصلت، من الآية (44).

قتادة: في قوله: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ ﴾ ، "إذا سمعه المؤمن، انتفع به، وحَفظه، ووعَاهُ"[1]، ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ فإنه لا ينتفع به، ولا يحفظه، ولا يَعِيهِ، فإن الله جعلَ هذا القرآن رحمةً للمؤمنين.

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾

أخبر تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو، إلا من عَصَمَ اللهُ، في حالتي سراء وضراء، فإنه إذا أنعم عليه بمالٍ، أو عافيةٍ، وفتحٍ ورزقٍ، ونصرةٍ، ونال ما يريد، أعرضَ عن طاعة الله وعبادته، ونأى بجانبه، أي: بَعُدَ عنَّا، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ ﴾ وهو المصائب والحوادث والنوائب، ﴿كَانَ يَـُٔوسًا﴾، أي: قَنَطَ أن يعُودَ، ويحصُل له بعد ذلك خيرٌ.

وقوله: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾، قال ابن عباس: "ناحيتِهِ"[2]، وقال مجاهد: "حِدَتُهُ وطبيعتُهُ"[3]، وقال قتادة: "نِيّتُهُ"[4]، وقال ابن زيد: "دينه"[5]، وكل ذلك متقاربة في المعنى.

وهذه الآية تهديد للمشركين، ووعيدٌ لهم، كقوله – تعالى-: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾[6]، الآية...

وقوله: ﴿ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾ أي: منَّا ومنكم، وسيجزي كلَّ عاملٍ بعمَله، فإنه لا تخفى عليه خافية.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

في الصحيحين: عن ابن مسعود قال: " كنت أمشي مع النبي – صلى الله عليه وسلم- في حرث المدينة، وهو مُتَوَكِّئٌ على عسيبٍ[7]، فمرَّ بقوم من اليهود،

---

(1) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (539/17).
(2) المصدر نفسه (541/17).
(3) المصدر نفسه (541/17).
(4) ينظر: المصدر نفسه (541/17).
(5) ينظر: المصدر نفسه (541/17).
(6) سورة هود، من الآية (121).
(7) العَسِيبُ: جريدة من النَّخْل مُستقيمةٌ دقيقةٌ، يُكْشَطُ خُوصُها. تاج العروس من جواهر القاموس – للزبيدي (368/3)، الجذر "ع س ب".

فقال بعضهم لبعض: سلُوه عن الروح؟ فقال بعضهم: لا تسألوه قال: (فسألوه) عن الروح، فقالوا: يا محمد، ما الروح؟ فما زال متكئاً على العسيب، قال: فظننت أنه يوحى إليه، فقال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيـلًا ﴾، قال: فقال بعضهم لبعض: قلنا لكم: لا تسألوه"[1].

وهذا السياق يقتضي ظاهراً أن هذه الآية مدنية، وأنها نزلت حين سأله اليهود بالمدينة، مع أن السورة كُلُّها مكية! وقد يجاب بأنه قد نزلت عليه بمكة أولاً، ثم نزلت بالمدينة آخرًا، وأنه نزل الوَحْيُ حينئذٍ بأن يجيبَهم – عمَّا سألوا – بهذه الآية.

وممَّا يدلُّ على أنها نزلت بمكة، ما قال ابن عباس: قالت قريش ليهود: أعطونا شيئاً، نَسْأَل عنه هذا الرجل، فقالوا: سَلُوه عن الروح، فسألوه، فنزلت: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾[2] الآية...، رواه أحمد.

قال ابن إسحاق عن عطاء بن يسار قال: نزلت بمكة: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيـلًا ﴾، فلمَّا هاجر رسول الله – صلى الله عليه وسلم– إلى المدينة، أتاهُ أحبَارُ يهود، فقالوا: يا محمد، لَمْ[3] يَبْلُغْنَا أنك تقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيـلًا ﴾ أفعنَيْتَنا أم قومك؟ قال: "كُلًّا قد عنيتُ"، قالوا: إنك تتلو أنا قد أُوتينا التوراةَ، فيها تبيانُ كلِّ شيءٍ؟ فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: "هي في عِلْم الله قليلٌ، وقد آتاكم الله ما إن عملتم به، انتفعتُمْ، وأنزل الله: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[4].

واختَلَف المفسرون في المراد بالرُّوح هنا على أقوال:

أحدها أن المراد: أرواح بني آدم، وقيل المراد بالروح: هنا جبريل.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التوحيد، باب: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾، (2713/6)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: سؤال اليهود النبي عن الروح، (128/8)، برقم (7237)، كلاهما من حديث ابن مسعود – رضي الله عنه– مرفوعاً بألفاظٍ متقاربة.

(2) أخرجه أحمد في مسنده (154/4)، من حديث ابن عباس – رضي الله عنه– مرفوعاً.

(3) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (114/5): (ألم)، وهو الصحيح.

(4) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (544/17).

وقيل: مَلَكٌ عظيم، بقدر المخلوقات كلّها، كما نُقِلَ عن ابن عباسٍ أنه قال: "إن لله مَلِكاً، لو قيل له: التقمْ السمٰوٰت السبع، والأرضين السبع، بلقمةٍ واحدةٍ، لفعل، تسبيحه: سبحانك حيث كُنْتَ"[1]، وهذا غريب، بل مُنْكَرٌ، رواه الطبراني.

وعن عليّ – رضي الله عنه– أنه قال: هو مَلَكٌ، له مائة ألف رأسٍ، لكل رأسٍ مائة ألف وَجْهٍ، وفي كُلِّ وَجْهٍ مائة ألف لسان، يُسَبّحُ الله بلغات مختلفةٍ[2].

قال السهيلي[3]: قيل المراد بذلك: طائفة من الملائكة على صورة بني آدم، وقيل: طائفةٌ يَرَون الملائكةَ، ولا تراهم الملائكة، فهم للملائكة، كالملائكة لبني آدم[4].

وقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡـرِ رَبِّي﴾، أي: مَنْ شأنه، وممَّا استأثر الله بعلمه دونَكم؛ ولهذا قال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾، أي: وما أطْلَعَكُم مِن علْمِه إلا على القليل، بشيءٍ من علمه، إلا بما شاء الله – تعالى–.

والمعنى: أنَّ عِلْمَكم في علم الله قليل، وهذا الذي تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر الله به – تعالى–، ولم يُطلعكم عليه، كما أنه لم يطلعْكم إلا القليل من علمه – تعالى–، وهذا كما قال الْخَضِرُ لموسى – عليهما السلام– في قصتهما: يا موسى، مَا علمِي، وعلمُك، وعلمُ الخلائق، في علم الله، إلا كما أَخَذَ هذا العصفورُ من هذا البحر.

وقيل: المراد ﴿مِنۡ أَمۡـرِ رَبِّي﴾ أي من شَرْعِهِ، أي: فادخلوا فيه، وقد [علمتم ذلك][5]؛ لأنه لا سبيل إلى معرفة هذا من طبعٍ ولا فلسفةٍ، وإنما يُنال من جهة الشرع، وهذا ضعيف.

ثم ذكر السهيلي أنهم اختلفوا في أن الروح هي النفس، أو غيرها، وقرر أنها ذات لطيفةٌ كالهواء، سارية في الجسد، كسريان الماء في عروق الشجر، وقرّر أن

---

(1) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (290/6)، من حديث ابن عباس – رضي الله عنهما– مرفوعاً، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (252/1)، وقال: تفرد به وهب بن رزق.

(2) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (544/17).

(3) عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد بن أصبع السهيلي، أبو القاسم، ويكنى أيضاً أبا الحسن، الحافظ العلامة، كان السهيلي واسع المعرفة، غزير العلم، عالماً بالتفسير والحديث وأصول الفقه وعلم الكلام، روى عنه أبو الحجاج، ابن الشيخ، والحافظ أبو محمد القرطبي، وغيرهم، من مؤلفاته: (الروض الأُنُفُ)، و(التعريف والإعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء الأعلام)، و(نتائج الفكر)، توفي سنة (581هـ). ينظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان – لابن خلكان (143/3)، وتذكرة الحفاظ – للذهبي (96/4).

(4) ينظر: الروض الأُنُفُ – لعبد الرحمن بن عبدالله بن أحمد السهيلي، (70/2).

(5) ساقطة من المؤلف، مثبتة من تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (116/5).

الروح التي يَنْفُخُها المَلَكُ في الجنين، هي النفس، بشرط اتصالها بالبدن، واكتسابها بسببه صفات مدح أو ذمّ، فهي إما نفس مطمئنة، أو أمّارة بالسوء، وقال: كما أن الماء هو سبب حياة الشجرة، ثم تكتسب بسبب اختلاطه معها اسماً خاصًّا، فإذا اتصل بالعِنَبَة، وعُصِرَ منها، صار إمَّا مُعْتَصَرًا أو خمرًا، ولا يقال له: "ماء"، حينئذٍ، إلا على سبيل المجاز، وهكذا لا يقال للنفس: "روح"، إلا على هذا النحو، وكذلك لا يقال للروح: نفساً، باعتبار ما يؤول إليه، فحاصل ما يقول: إن الروح هي أصل النفس، ومادّتُهَا، والنفس مركبة منها، ومن اتصالها بالبدن، وهي من وجهٍ، لا من كل وجهٍ، وهذا معنى حسن، و الله أعلم.

وقد تكلموا في ماهية الروح، وأحكامها، وصنفوا فيها كتباً، وأحسنها: كتاب ابن مندةَ[1]، في الروح.

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾

ذكر الله – تعالى– نعمته وفضله العظيم على رسوله محمد – صلى الله عليه وسلم–، فيما أوحاه إليه من القرآن المجيد، قال ابن مسعود: (تَطْرُقُ الناسَ ريحٌ حمراءُ من قِبَلِ الشَّام، فلا يبقي في مصحفِ رجلٍ ولا قلبِه آيةٌ، ثم قرأ ابن مسعود: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾)[2]، يعني: القرآن، ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾، أي: مَن يَتَوَكَّلُ بردِّ القرآن إليك، ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، هذا استثناء منقطع، أي: لَكِنَّ رحمته تعينك، وتحوطُه بك.

(1) محمد بن يحيى بن منده العبدي، أبو عبدالله، مؤرخ، كان أحد الحفاظ الثقات، سمع إسماعيل بن موسى الفزاري السدي، وعبدالله بن معاوية، ومحمد بن سليمان لوين، وحدَّث عنه: أبو أحمد العسال، وأبو القاسم الطبراني، وأبو إسحاق بن حمزة، قال أبو الشيخ: هو أستاذ شيوخنا، وإمامهم، توفي سنة (301 هـ)، ينظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان – لابن خكان (289/4)، وتذكرة الحفاظ – للذهبي (219/2)، والأعلام – للزركلي (135/7).

(2) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (546/17).

ثم نبّه الله – تعالى– عن شرف هذا القرآن العظيم، وأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم، واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله، لَمَا أطاقوا ذلك، ولا استطاعُوهُ، ولو تعاونوا وتساعَدُوا وتظافروا، فإن هذا أمر لا يستطاع، قال ابن عباس: إن هذه الآية نزلت في نَفَرٍ من الكفار، جاؤوا رسولَ الله – صلى الله عليه وسلم– فقالوا له: إنا نأتيك بمثل ما جئتنا به، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾، أي: بيَّنا لهم الحججَ والبراهين القاطعة، وأوضحنا لهم الحقَّ، ومع هذا ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾، أي: جحودًا، ورَدًّا للصواب.

﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾.

قال ابن عباس: إن عتبة وشيبة ابني ربيعة، وسائر أشراف قريش، وأكابرهم، اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثُوا إلى محمدٍ، فكلِّموهُ، وخاصِموهُ، حتى تعذِرُوهُ، فبعثوا إليه، فجاءهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم– سريعاً، وهو يَظُنُّ أنه قد بدا لهم في أمره بَدَاءٌ، وكان حريصاً على رشدهم، حتى جلس إليهم، فقالوا: يا محمد، إنا بعثنا إليك، لنُعْذَرَ فيك، وإنا والله، لا نعلم رجلاً من العرب أَدخلَ على قومِهِ ما أدخلتَ على قومك، لقد شتمت الآباء، وعِبْتَ الدِّين، وسفَّهْتَ الأحلام، وشتمتَ الآلهةَ، وفرَّقتَ الجماعةَ، فما بقي من قبحٍ إلا وقد جئتَهُ فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلُبُ مالاً، جمعنا لك من أموالنا، حتى تكون أكثر مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا، سوَّدناك علينا، وإن كنت تريد مُلْكاً، ملَّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً، تراه، وقد غلبَ عليك، بذَلْنا أموالَنا في طلب الطب، حتى نُبرئك منه، أو نُعْذرَ فيك، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: " ما بي ما تقولون! ما جئتكم بما جئتكم به أطلبُ أموالَكم، ولا الشرفَ فيكم، ولا المُلك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليَّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم

بشيراً ونذيراً، فبلغتُكُمْ رسالةَ ربي، ونصحتُ لكم، فإن تقبلوا مني ما جئت به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليَّ، أصبرْ لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم"، أو كما قال رسول الله.

فقالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابلٍ منا ما عَرَضْنا عليك، فقد علمتَ أنه ليس أحدٌ من الناس أضيقُ بلاداً، ولا أقلُّ مالاً، ولا أشدَّ عَيْشاً منا، فسلْ ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليُسَيِّر عنا هذه الجبال التي ضيَّقت علينا، ولْيَبْسُط لنا بلادنا، ولْيُجْرِ[1] فيها أنهاراً، كأنهار الشام والعراق، ولْيَبْعَثْ لنا ما مضى من آبائنا، ولْيكن فيمن تبعث لنا منهم قصيَّ بْنَ كلاب، فإنه كان شيخاً صَدُوقاً، لنسألهم[2] عما تقول حقٌّ هو أم باطل؟ فإن صنعت ما سألناك وصدقوك، صدقناك، وعرفنا به منزلتك عند الله، وأنه بعثك رسولاً كما تقول.

فقال لهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: "ما بهذا بُعثتُ، إنما جئتكم من عند الله بما بعثني به، فقد بلغتُكم ما أُرْسِلْتُ به إليكم؛ فإن تقبلوه، فهو حظُّكم في الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليَّ، أَصْبِرْ لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم".

قالوا: فإن لم تفعل لنا هذا، فخُذ لنفسك، فسلْ ربك أن يبعث مَلَكاً، يُصَدِّقُك بما تقول ويُراجِعُنَا عنك، وتسأله، فيجعل لك جِنَاناً، وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضةٍ، ويغنيك بها عمَّا نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق، تلتمس المعاش، كما نلتمسه، حتى نعرف فضلَ منزلك مِن ربك، إن كنت رسولاً كما تزعم.

فقال لهم: رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: "ما أنا بفاعلٍ، ما أنا بالذي يسأل ربَّه هذا، وما بُعِثْتُ إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً، فإن تقبلوا ما جئتكم به، فهو حظُّكم في الدنيا والآخرة، وإن تردُّوهُ عليَّ، أَصْبِرْ لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم".

قالوا: فَأَسْقِطِ السماء كما زعمت أنَّ ربك إن شاء فعل، فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل.

فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: " ذلك إلى الله، إن شاء، فعل بكم ذلك".

---

(1) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (118/5): (ليفجر)، وهو الصحيح.

(2) المصدر السابق (فنسألهم)، وهو الصحيح.

فقالوا: يا محمد، فما عَلِمَ ربك أنا سنجلس معك، ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك، فيتقدم إليك، ويعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا، إذا لم نقبل منك ما جئتنا بِهِ، فقد بلغنَا أنه إنما يُعَلِّمُك رجل باليمامة، يقال له: الرحمن، وإنا والله، لا نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعذرنا إليك يا محمد، أما والله، لا نتركك، وما فعلتَ بنا، حتى نُهْلِكَك أو تُهْلِكَنَا، وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة، وهي بنات الله، ولن نؤمن لك، حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلاً، فلمَّا قالوا ذلك، قام رسول الله – صلى الله عليه وسلم–، وقام معه عبد الله بن أبي أميَّة المخزومي، وهو ابن عَمّتِهِ، عاتكة بنت عبدالمطلب، فقال: يا محمد، عرض عليك قومُك ما عرضوا، فلم تقبلْه، ثم سألوك لأنفسهم أموراً؛ ليعرفوا بها منزلتك من الله، فلم تفعل ذلك، ثم سألوك أن تعجل ما تُخَوِّفُهُمْ به من العذاب، فوالله، لا أؤمن لك أبداً، حتى تتَّخذ إلى السماء سُلَّماً، ثم ترقى فيه، وأنا أنظر، حتى تأتيها، وتأتي معك بنسخةٍ منشورةٍ، معك أربعة من الملائكة، يشهدون لك أنك كما تقول، وأيمُ الله، لو فعلت ذلك، لظننتُ أني لا أصدقك، ثم انصرف رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم– إلى أهله حزيناً، أسفاً، لما فاته، مما كان طَمِعَ فيه من قومه، حين دعَوهُ، ولِمَا رأى مِن مباعدتهم إيَّاه[1]، رواه ابن جرير وابن إسحاق.

وهذا المجلس الذي اجتمع فيه هؤلاء له لو عَلِمَ الله منهم أنهم سألوا ذلك استرشاداً، لأُجيبوا، ولكن علم أنهم إنما طلبوا ذلك كفراً وعناداً، فقيل للرسول: إن شئت، أعطيناهم ما سألوا، فإن كفروا، عذبتُهم عذاباً لا أُعَذِّبُ به أحداً من العالمين، وإن شئت، فتحتُ عليهم بابَ التوبة والرحمة، فقال: بل تَفْتَحُ عليهم باب التوبة والرحمة، كما سبق قريباً، عند قوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا﴾، هو العين الجارية، سألوه أن يُجْرِيَ لهم عُيوناً[2]، معيناً في أرض الحجاز، وهذا سهل يسير على الله، لو شاء، لفعله، ولأجابهم إلى جميع ما سألوا، وطلبوا، ولكن عَلِم أنهم كانوا لا يهتدون، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[3]، الآية...

---

(1) ينظر: السيرة النبوية – لمحمد بن إسحاق (68)، وجامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (555/17).

(2) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (120/5): (عيناً)، وهو الصحيح.

(3) سورة يونس، الآية (96).

وقوله: ﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ ﴾، أي: أنك وعدتنا أن يوم القيامة تتشق السماء، وتُنْهَى، وتُدْلِي أطرافها، فعجِّل لها ذلك في الدنيا، وأسقِطْهَا ﴿كِسَفًا ﴾، أي: قَطَعاً، كما أخبر– تعالى– عنهم في قولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ ﴾[1]، الآية...، ولكنَّ نبي الرحمة والتوبة سألَ إنظارَهم وتأجيلَهم، لعلَّ الله أن يُخرج من أصلابهم مَن يعبده وحَدهُ، وكذلك وقع، فإنَّ مِن أولائك مَن أسلم بعد ذلك، وحَسُن إسلامُه، حتى عبدالله بن أبي أمية[2]، الذي تَبِعَ رسولَ الله – صلى الله عليه وسلم–، وقال له ما قال، فإنه أسلمَ إسلاماً تامًّا، وأنابَ إلى الله – تعالى–.

وقوله: ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ ﴾، قال ابن عباس وغير واحد: هو: (الذهب)، كما هو في قراءة ابن مسعود[3].

﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾، أي: تصعد في سُلَّمٍ، ونحن ننظر إليك، ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ﴾، أي: مَكْتُوبٌ فيه إلى كل واحدٍ صحيفةً: هذا كتابٌ من الله، لفلان بن فلان، تُصبح موضوعة عند رأسه.

وقوله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى ﴾، أي: سبحانه وتعالى، وتقدَّس، أن يتقدم أحدٌ بين يديه في أمرٍ مِن أمورِ سلطانِه وملكوتهِ، بل هو الفعَّال لِما يُريدُ، إن شاء، أجابَكم إلى ما سألْتُم، وإن شاء، لم يجبْكم، وما أنا إلا رسول إليكم، أبلِّغكم رسالات ربي، وأنصح لكم، وقد فعلتُ ذلك، وأمرُكم فيما سألتم إلى الله – تعالى–، وعن أبي أمامة، عن النبي – صلى الله عليه وسلم– قال: "عَرَضَ علَيَّ ربي – عز وجل– ليَجْعَل لي بطحاء مكة ذهباً، فقلتُ: [لا][4]، يا رب، ولكن أشبع يوماً، وأجوع يوماً، ونحو ذلك، فإذا جُعتُ،

---

(1) سورة الأنفال، من الآية (32).

(2) عبدالله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم، أخو أم سلمة، زوج الرسول – صلى الله عليه وسلم–، وكان شديد العداوة للرسول، مخالفاً له، وهو الذي قال للرسول – صلى الله عليه وسلم– : ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ ...﴾، الآية، ثم أسلم، وحسن إسلامه، شهد فتح مكة، وحُنَيْناً والطائف، واسْتُشْهِدَ يوم الطائف بسهمٍ، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب – لابن عبدالبر (868/3)، وأُسْدُ الغابة في معرفة الصحابة – لابن الأثير (176/3).

(3) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (553/17).

(4) ساقطة من المؤلف مثبتة من سنن الترمذي (575/4).

تضرعتُ إليك، وذكرتُك، وإذا شبعتُ، حمدتُك، وشكرتُك"[1]، رواه الترمذي وحسَّنه.

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾

أي: ﴿ وَمَا مَنَعَ ﴾ أكثر الناس ﴿أَن يُؤْمِنُوٓاْ ﴾، ويتابعوا الرسل، إلا اسْتِعْجَابُهُمْ من بعثه[2] البشر رسلاً، كما قال – تعالى-: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾[3]، الآية...، وكما قال: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾[4]، الآية...، وقال فرعون وملؤه: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾[5]، الآية...، وغيرها من الآيات...

ثم قال – تعالى- مُنَبّهاً على لطفه ورحمتِهِ بعباده، أن بعث إليهم الرسول مِن جنسهم؛ ليفقهوا عنه [ويفهموا منه][6]؛ لتمكنهم من مخاطبتِهِ، ومكالمتِهِ، ولو بُعِث إلى البشر رسولاً من الملائكة، لَمَا استطاعوا مواجهتَه، ولَا الأَخْذَ عنهُ، كما قال – تعالى-: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾[7]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ ﴾، أي: كما أنتم فيها، ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾، أي: من جنسهم، ولمَّا كنتم أنتم بشراً، بعثْنا فيكم رُسُلَنا منكم، لُطفاً ورحمةً.

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾.

أرشد الله نبيَّه – عليه الصلاة والسلام- إلى الحجَّة على قومه في صدق ما جاءهم به، أنه شاهِدٌ عليَّ وعليكم، عالِمٌ بما جئتكم به، فلو كنتُ كاذباً، لانتقمَ مني أشدَّ الانتقامِ.

---

(1) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: الزهد، باب: الكفاف والصبر عليه (575/4)، برقم (2347)، من حديث أبي أمامة – رضي الله عنه – مرفوعاً، وقال الترمذي: حديث حسن.

(2) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (1:21/5): (بعثته)، وهو الصحيح.

(3) سورة يونس، من الآية (2).

(4) سورة التغابن، من الآية (6).

(5) سورة المؤمنون، من الآية (47).

(6) ساقطة من المؤلف، مثبتة من تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (121/5): (بي).

(7) سورة آل عمران، من الآية (164).

وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾، أي: عليم بهم، بمن يستحق الإنعام والإحسان والهداية، ممن يستحق الشقاء والإضلال والإزاغة؛ ولهذا قال:

﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴾

أخبر – تعالى– عن تصرفه في خلْقِه، ونفوذِ حُكْمِهِ، وأنه لا مُعقِّبَ له، بأنه مَن يَهْدِه، فلا مُضلَّ له، ﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ﴾، أي: يهدونهم، كما قال: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾[(1)].

وقوله: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾، في الصحيحين: عن أنسٍ قال: قيل: يا رسول الله، كيف يُحشر الناسُ على وجوههم؟ قال: "الذي أمشاهم على أرجلهم، قادرٌ على أن يُمْشِيَهُم على وجوههم"[(2)]، وعن أبي ذرٍّ قال: إن الصادق المصدوق حدثني: "أن الناس يُحْشَرُونَ ثلاثةَ أفواجٍ، فوجاً راكبين طاعِمينَ كاسِينَ، وفوجاً تَسْحَبُهُم الملائكةُ على وجوهِهِم، وتحشرهم إلى النار، وفوجاً يَمْشُونَ وَيَسْعَوْن، ويُلقِي الله الآفَةَ على الظَّهْرِ، فلا يبْقَى، حتى إن الرجُلَ لَتَكُون لهُ الحدِيقَةُ يُعْطِيهَا بذات القَتَبِ، لا يقدِرُ عَلَيْها"[(3)]، رواه أحمد والنسائي.

وقوله: ﴿ عُمْيًا ﴾ أي: لا يبصِرُون، ﴿ وَبُكْمًا ﴾: لا ينطقون، ﴿ وَصُمًّا ﴾: لا يسمعون. وهذا يكون في حال دون حال؛ جزاءً لهم، كما كانوا في الدنيا بكماً وعمياً وصُمًّا عن الحق، فَجُوزُوا في محشرهم بذلك، ﴿ مَّأْوَىٰهُمْ ﴾، أي: مُنْقَلبُهُم ومصيرهم ﴿ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ ﴾، قال ابن عباس: (سكنت، وطَفِئَتْ)[(4)]، ﴿ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴾، أي: لهباً وَوَهَجًا وجمرًا.

---

(1) سورة الكهف، من الآية (17).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الرقاق، باب: كيف الحشر (2390/5)، برقم (6158)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: يُحْشَرُ الكافر على وجهه، (135/8)، برقم (7265)، كلاهما من حديث أنس بن مالك – رضي الله عنه– مرفوعاً بألفاظٍ متقاربة.

(3) أخرجه أحمد في مسنده (360/35)، وأخرجه النسائي في سننه الكبرى، كتاب: الجنائز وتمني الموت، باب: البعث، (668/1)، برقم (2213)، كلاهما من حديث أبي ذرٍّ – رضي الله عنه– مرفوعاً، واللفظ للنسائي.

(4) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (561/17).

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا﴾.

أي: هذا الذي جازيناهم به مِن البعْثِ على العمى والبَكَم والصَّمَمَ، جزاؤُهم الذي يستحقونه؛ لأنهم كذبوا ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾، أي: بأدلَّتِنا وحُجَجِنا، واستبعدوا وقوعَ البعث، ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا﴾، أي: باليةً نخرةً، ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا﴾، أي: بعد ما صِرْنَا إلى ما صِرنَا إليه من البلَى والتفرّق، والذهاب في الأرض، نُعاد مرةً ثانيةً؟ فاحتجَّ – تعالى- عليهم ونبّههم على قدرتِه على ذلك؛ بأنه خلق السمٰوٰت والأرض، فقدرتُه على إعادتهم أسهلُ من ذلك، كما قال: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾[1]، وغيره من الآيات...، وقال هاهنا: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ﴾، أي: يَوْمَ القيامة يعيد أبدانهم، وينشئهم نشأةً آخرة.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا﴾، أي: وجعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلاً مضروباً، ومدةً مقدَّرة، لا بدَّ مِن انقضائها، كما قال: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ﴾[2].

وقوله: ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، أي: بعد قيام الحجة عليهم، ﴿إِلَّا كُفُورٗا﴾، أي: تمادياً في باطلهم، وضلالهم.

﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾.

أي: قل يا محمد: لو أنكم أيها الناس تملكون التصرّف في خزائن الله، ﴿لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِ﴾ أي: خشية أن تُذْهِبُوهَا وتَصِيرُوا فقراء، مع أنها لا تَفْرُغُ، ولا تنفد أبداً! لأن هذا من طبائعكم وسجاياكم؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾، أي: بخيلاً مَنُوعاً، وفي الصحيحين: أن رسولَ الله – صلى الله عليه وسلم- قال: "يدُ الله ملأى، لا يغيضُهَا نفقةٌ، سَحَّاءُ[3]، الليلَ والنهارَ، أرأيتُمْ مَا أنفقَ منذ خَلَقَ السمٰوٰت

(1) سورة غافر، من الآية (57).

(2) سورة هود الآية (104).

(3) سَحَّاءُ: دائمة الصَبِّ والهَطْلِ بالعطاء. لسان العرب – لابن منظور (476/2)، الجذر "س ح أ".

والأرض، فإنه لم يَغِضْ ما في يَمِينِهِ"[1].

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾

أخبر – تعالى – أنه بعث موسى بتسع آيات، وهي الدلائل على صحة نبوَّتِهِ، وصدقِهِ فيما أرسله به، عمَّن أرسله إلى فرعون، وهي: العصا، واليد، ولسانه، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمَّل، والضفادع، والدم، آياتٍ مفصَّلات[2]، قاله ابن عباس، وقال محمد بن كعب: "هي اليد، والعصا، والخمس في الأعراف، والطَّمْسَةُ[3]، والحجر"[4]، وعن ابن عباس ومجاهد وغير واحدٍ، هي: "يده، وعصاهُ، والسنين، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدّم"[5]، وهذا القول ظاهر جليّ حسنٌ قويّ، ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾، أي: ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها، كفروا بها، وما نجعت فيهم، فكذلك، لو أجبْنا هؤلاء الذين سألوا منك ما سألوا، وقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾، إلى آخرها...، لَمَا استجابوا، ولا آمنوا، إلا أن يشاء الله، كما قال فرعون لموسى، وقد شاهد منه ما شاهد من هذه الآيات: ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾، قيل: (أي: ساحراً)، فهذه الآيات التسع التي ذكرَها الأئمة هي المراد هاهنا، وهي الْمَعْنِيّةُ في قوله – تعالى–: ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾[6]، الآية...، وفي قوله: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ ﴾[7]، الآية...

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التوحيد، باب: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾، ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾، (2699/6)، برقم (6983)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب: الحث على النَّفقة وتبشيرِ المُنْفق بِالخَلَفِ (77/3)، برقم (2356)، كلاهما من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه– مرفوعاً بألفاظٍ متقاربة.

(2) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (564/17).

(3) الطَّمْسُ: ذهاب الشيء عن صورته. ينظر: المصدر السابق (126/6)، الجذر " ط م س".

(4) المصدر نفسه (565/17).

(5) المصدر نفسه (566/17).

(6) سورة النمل، من الآية (10).

(7) سورة النمل، من الآية (12).

فذكر في هاتين الآيتين: العصا واليد، والباقيات في سورة الأعراف.

وقد أوتي موسى آياتٍ أُخَرَ كثيرةً، منها ضرْبُه الحجرَ بالعصا، وخروج الأنهار منه، ومنها تظليلهم بالغمام، وإنزال المنّ والسلوى، وغير ذلك مما أوتوهُ بنو إسرائيل، بعد مفارقتهم بلاد مصر، ولكن ذكر هاهنا التسع الآيات، التي شاهدَها فرعونُ وقومُه، فكانت حجةً عليهم، فخالفوها وعاندوها؛ كفراً وجحوداً، وأمَّا حديث صفوان بن عَسَّال[1] أنه قال: قال يهودي لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبيّ، فقال له صاحبه: لا تقل له: نبيٌّ، إنه لو سمعَك، لكان له أربع أعيُن فاتِيَا رسولَ الله – صلى الله عليه وسلم–، فسألاه عن تسع آيات بيناتٍ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: "لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تَسْرِقُوا، ولا تَزْنُوا، ولا تقتلوا النفسَ التي حرَّم الله، إلا بالحق، ولا تمشُوا ببريءٍ إلى ذي سلطانٍ؛ ليقتلَه، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا مُحْصَنةً، ولا تُوَلُّوا الفرار يوم الزحف، وعليكم خاصة اليهود أن لا تعتدوا في السبت"، قال: فقبّلا يديه، ورجليه، وقالا: نشهد أنك نبيٌّ، قال: فما يمنعكم أن تتبعوني؟" قالا: إن دَاوُدَ – عليه السلام– دعا ربَّه أن لا يزال من ذريته نبيٌّ، وإنا نخاف إن تبعناك أن تقتلنا اليهود"[2]، رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقد تكلّمُوا فيه، ولعلَّهُ اشتبه على بعض رُواتِهِ، وهو عبدالله بن مُسلم[3]، الراوي عن صفوان التسع الآيات بالعشر الكلمات، فإنها وصايا في التوراة، لا تعلّق لها بقيام الحجة على فرعون، والله أعلم، ولهذا قال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾، أي: حُججاً وأدلة على صدْق ما جئتُك به، ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾، أي: "هالكاً"[4]، قاله مجاهد وغيره. وقيل: "ملعوناً

---

(1) صفوان بن عسَّال، من بني الرَّبض بن زاهر بن عامر من عَوْبثان بن مراد، صحابي مشهور سكن الكوفة، وغزا مع الرسول – صلى الله عليه وسلم– اثنتي عشرة عزوة، روى عنه عبدالله بن مسعود، وزرِّ بن حُبَيْشْ، وغيرهما، – رضي الله عنهم أجمعين–، ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب – لابن عبدالبر (724/2)، وأُسْدُ الغابة في معرفة الصحابة – لابن الأثير (28/3)، والإصابة في تمييز الصحابة – لابن حجر العسقلاني (436/3).

(2) أخرجه أحمد في مسنده (12/30)، وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب: الاستئذان، باب: ما جاء في قُبْلَةِ اليد والرجل (77/5) برقم (2733)، وأخرجه النسائي في سننه، كتاب: السير، باب: تأويل قوله جل ثناؤه: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾، (198/5)، برقم (8656)؛ كلاهما من حديث صفوان بن عسال – رضي الله عنه– بألفاظ متقاربة.

(3) عبدالله بن مسلم بن هرمز المكي، ضعفه أحمد وابن معين والنسائي، وقال أبو حاتم: ليس بقوي، وقال ابن المديني: كان ضعيفاً عندنا، ينظر: ميزان الاعتدال في نقد الرجال – للذهبي (503/2)، ولسان الميزان – لابن حجر العسقلاني (502/7).

(4) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (571/17).

مغلوباً"[1]، وقرأ بعضهم: ﴿عَلِمْتُ﴾[2]، برفع التاء، لكن قراءة الجمهور بالفتح، على الخطاب لفرعون، وهذا دالٌّ على أن المرادَ بالتسع الآيات ما تقدم ذكرها مفصلاً، التي فيها حججٌ وبراهين على فرعونَ وقومِه، وخوارقُ ودلائلُ على صدْقِ موسى، ووجودِ الفاعل المختار، الذي أرسله، وليس المراد منها ما ورد في الحديث، فإن هذه الوصايا ليس فيها حججٌ على فرعونَ وقومِه، وأيُّ مناسبة بين هذا، وبين إقامة البراهين على فرعون؟! فليس هذا إلا وَهْمٌ من الراوي، كما سبق.

وقوله: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم﴾، أي: يُخْلِيَهُمْ من الأرض، ويُزِيلَهم عنها، ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾، وفي هذا بشارة لمحمد – صلى الله عليه وسلم– بفتح مكة، مع أن هذه السورة نزلت قبل الهجرة، وكذلك وقع، فإن أهل مكة، همُّوا بإخراج الرسول منها، كما قال: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، ولهذا أورثَ اللهُ رسولَه مكةَ، فدخلَها عُنْوَةً على أشهَرِ القولين، وقَهَرَ أهلَها، ثم أطلقها[3]، حِلماً وكَرَماً، كما أورثَ اللهُ القومَ الذين كانوا يُسْتَضْعَفُون – من بني إسرائيل – مشارقَ الأرضِ، ومغاربَها، وأورثَهم بلادَ فرعون، وأموالَهم، وزروعَهم، وثمارَهم، وكنوزَهم، كما قال: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[4]، وقال هاهنا: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾، أي: جميعاً أنتم وعدوُّكم.

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾.

أخبر– تعالى– عن القرآن المجيد، أنه بالحق نزلَ، أي: مُتَضَمّناً للحقّ، كما قال في آية أخرى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾[5]، أي: متضمّناً علم الله، الذي أراد أن يُطْلِعَكم

(1) ينظر: المصدر نفسه (570/17).

(2) قرأ الكسائي وحده: ﴿عَلِمْتُ﴾، بضم التاء، وقرأ الباقون بفتح التاء، الحجة للقراء السبعة – لأبي علي الفارسي (122/5)، والمبسوط في القراءات العشر – للنيسابوري (272).

(3) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (126/5): (أطلقهم)، وهو الصحيح.

(4) سورة الشعراء، الآية (59).

(5) سورة النساء، من الآية (166).

عليه، من أحكامه وأمرِهِ ونهيِهِ، يعني: ووصل إليك يا محمد، محفوظاً محروساً، لم يُشَب بغيره، ولا زِيدَ فيه، ولا نُقِصَ منه، بل وصل إليك بالحق.

وقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾، أي: يا محمد، ﴿إِلَّا مُبَشِّرٗا﴾، أي: لِمَن أطاعَك من المؤمنين، ﴿وَنَذِيرٗا﴾ لِمَنْ عصاك من الكافرين.

وقوله: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ﴾، أما قراءةُ مَنْ قرأَ بالتخفيف، فمعناه: فصَلْناه من اللوح المحفوظ، إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل متفرقاً، مُنَجَّماً، على الوقائع، إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم–، في ثلاث وعشرين سنةً، وقراءة ابن عباس: ﴿فَرَّقۡنَٰهُ﴾[1]، بالتشديد، أي: نزَّلناه آيةً آيةً، مُبَيَّناً مفسَّراً؛ ولهذا قال: ﴿لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: لتبلِّغَهُ الناسَ، وتتلُوَهُ عليهم، ﴿عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾، أي: مَهَلٍ، ﴿وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ أي: شيئاً بعد شيء.

﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا﴾.

أي: ﴿قُلۡ﴾ يا محمد، لهؤلاء الكافرين بما جئتم[2] به مِن هذا القرآن العظيم: ﴿ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْ﴾، أي: سواء آمنتم به أم لا، هو حقٌّ في نفسه، أنزَله اللهُ، ونوَّهَ بذكرِه في سالفِ الأزمانِ في كُتُبه المُنْزَلة على رسُله؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ﴾ أي: مِن صالحي أهلِ الكتاب، الذين يُمَسِّكون بكتابهم، ويُقِيمُونَه، ولم يبدِّلُوه، ولا حرَّفُوه، ﴿إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ هذا القرآن، ﴿يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ﴾ جمع ذَقْنٍ، وهو أسفل الوجه، ﴿سُجَّدٗا﴾، أي: لله – عزَّ وجلَّ–؛ شكراً على ما أنعم به عليهم، مِن جعْلِه إيَّاهم أهلاً إن أدركوا هذا الرسولَ، الذي أُنزل عليه هذا الكتاب؛ ولهذا يقولون: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ﴾؛ تعظيماً وتوقيراً على قدرته الثابتة[3]، وأنه لا يُخْلِفُ الميعاد، الذي وعدهم على ألسنة الأنبياء المتقدمين، مِن[4] بعثه[5] محمد – صلى الله عليه وسلم–؛

---

(1) ينظر: المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها – لابن جني (22/2).

(2) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (127/5): (جئتهم)، وهو الصحيح.

(3) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (128/5): (التامَّة)، وهو الصحيح.

(4) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (128/5): (عن)، وهو الصحيح.

(5) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (128/5): (بعثة)، وهو الصحيح.

ولهذا قالوا: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا﴾.

وقوله: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ ﴾، أي: خُضُوعًا لله – عز وجل–، إيماناً وتصديقاً بكتابه ورسوله، ﴿وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا﴾، أي: إيماناً وتسليماً.

وقوله: ﴿ وَيَخِرُّونَ ﴾ عَطْفُ صفة على صفة، لا عَطْفُ سجود على سجود، كما قال الشاعر[البحر: المتقارب]:

إلـــى المَلِـــكِ القَـــرْمِ وابـــنِ الهُمَـــام ** وَلَيْـــثِ الكَتِيبـــةِ فـــي المُـــزْدَحَمْ[1]

﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ﴾.

أي: قل يا محمد، لهؤلاء المشركين المتكبرين صفةَ الرحمة لله – تعالى– المانعين من تسميته الرحمن: فإنه ذو الأسماء الحسنى، رُوِيَ عن ابن عباس: أن رجلاً من المشركين سَمِعَ النبيَّ – صلى الله عليه وسلم–، وهو يقول في سجوده: "يا رحمن، يا رحيم"، فقال: إنه يزعم أنه يدعو واحداً، وهو يدعو اثنين، فأنزل الله هذه الآية[2].

وقوله: ﴿ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ ﴾، قال ابن عباس: نزلتْ هذه الآيةُ، ورسول الله – صلى الله عليه وسلم– مُتَوارٍ بمكة، كان إذا صلَّى بأصحابه، رفع صوتَه بالقرآن، فلما سمع [ذلك][3] المشركون، سبُّوا القرآنَ، وسبُّوا مَن أنزلَه، ومَن جاءَ به، فقال – تعالى– لنبيه: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ ﴾، أي: بقرءاتك، فَيَسْمَعَ المشركون، فيسبُّوا القرآن، ﴿وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا ﴾ عن أصحابك، فلا تُسمعْهم القرآنَ، حتى يأخذوه عنك، ﴿وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ﴾.

وعن ابن عباس أيضاً، قال: كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: إذا جهر بالقرآن، وهو يصلِّي، تفرَّقُوا عنه، وأَبَوْا أن يستمعوا منه، فكان الرجلُ إذا أراد أن

(1) سبق تخريجه.

(2) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (580/17).

(3) ساقطة من المؤلف، مثبتة من تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (128/5).

يسمع مِن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– بعضَ ما يتلُوه، وهو يصلِّي، استرقَ السمعَ دونَهم؛ فَرَقًا[1] منهم، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع، ذهب خشية أذاهم، فلم يَسْمَع[2]، فإن خَفَضَ رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم– صوتَه، لم يسمع الذين يستمعون مِن قراءَتِهِ شيئاً، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾، فيتفرقوا عنك، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾، فلا تُسْمِعْ مَنْ أراد أن يَسْمَعَهَا، مِمَّنْ يستَرِقُ ذلك منهم، فلعلَّه يَرْعَوِي[3] إلى بعض ما يستمع فينتفع، ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾، وهكذا قال آخرون، وقال قتادة: "نزلت في القراءة في الصلاة"[4]، وعن ابن عباس أيضاً: "لا تُصَلِّ؛ مراءاةً للناس، ولا تَدَعْها، مخافةَ الناس"[5]، وعنه أيضاً: "نزلت في الدعاء"[6]، وقالت عائشة: نزلت في التشهد[7]، ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾، وقال الحسن: "لا تُحْسِنْ علانيتَها، وتُسِيءْ سريرتَها"، وقال ابن زَيْدٍ في قوله: ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾، كان أهل الكتاب يخافتُونَ، ثم يجهر أحدهم بالحرف، فَيَصِيحُ به، ويصيحون به وراءهُ، فنهاه أن يصيحَ كما يصيح، هؤلاء، ولا أن تُخَافِتْ كما تَخَافَتَ القوم، ثم كان السبيل الذي بين ذلك الذي سنَّ له جبرئيل[8] – عليه السلام– من الصلاة.

وقوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾، لَمَّا أَثْبَتَ الله – تعالى– لنفسه الكريمة الأسماء الحسنى، نزَّهَ نفسه من النقائص، فقال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾، آمراً لَهُ أن يحمَدهُ على وحدانيته، وعلى أن عرَّفَهُ أنَّهُ لَمْ يتخذْ ولداً.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾، بل هو الله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤاً أحد.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾، أي: ليس بذليلٍ، [فَيَحْتَاجَ][9] إلى أن يكون له وليٌّ

---

(1) الفَرَقُ: الخوف والجزع، لسان العرب – لابن منظور (299/10)، الجذر "ف ر ق".

(2) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (128/5): (يستمع)، وهو الصحيح.

(3) يرعوي: أي يكفُّ عن الأمور، لسان العرب – لابن منظور (325/14)، الجذر (ر ع ي).

(4) ينظر جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (581/17).

(5) المصدر نفسه (588/17).

(6) المصدر نفسه (583/17).

(7) المصدر نفسه (587/17).

(8) المصدر السابق (588/17).

(9) ساقطة من المؤلف، مثبتة من تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (130/5).

أو وزيرٌ، أو مُشِيرٌ، وبشير، بل هو- تعالى- خالقُ الأشياء وحدَه، لا شريك له، ومدبّرها ومقدِّرها بمشيئتِهِ.

﴿وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾، أي: عظِّمْهُ وأجِلَّه عَمَّا يقول الظالمون المعتدون علوًّا كبيراً.

قال أبو نصر[1] [عن][2] القرظي: "إن اليهودَ والنصاري قالوا: اتخذ الله ولداً، وقال العرب: لبيك، لا شريك لك، إلا شريكاً، هو لك، تملكه وما ملك، وقال الصابئون والمجوس: لولا أولياء الله، لذلّ، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾[3]...، إلى آخره"، رواه ابن جرير.

وقد جاء في الحديث: أنه – عليه الصلاة والسلام- سمَّاها آية العزِّ[4]، وفي بعض الآثار: أنها [ما][5] قرئت في بيتٍ في ليلة، فيصيبُه سرق أو آفة، وعن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم-: " رأْسُ الحَمْدِ لِلهِ الشُّكْرُ، ما شَكَرَ اللهَ عَبْدٌ، لا يَحْمَدُهُ"[6] رواه البيهقي، وقد جاء في الحديث: "إن كلماتٍ من كان يَقرؤها يذهب عنه السقم والضرُّ"، فقال أبو هريرة: يارسول الله، [أنا فعلمني][7]، فقال: "قل توكلت على الحي الذي لا يموت، الحمد لله، الذي لم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل، وكبّره تكبيراً"، قال: فأتى عَلَيَّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم-، وقد حَسُنَت حَالِي، فقال لي: "مَهْيم"[8] قلت: يا رسول الله، لم أزل أقول الكلمات التي علمتني"[9]، ضعيف، والله وأعلم.

---

(1) كذا في المخطوط، وفي تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (130/5): (أبو صخر)، وهو حميد بن زياد الخراط المديني، أبو صخر، سمع نافعاً، ومحمد بن كعب، وعمار الدهني، وغيرهم، روى عنه ابن وهب، ويحيى القطان، وجماعة، قال ابن عدي: هو عندي صالح الحديث، وقال ابن معين: ضعيف، وقال أحمد: ليس به بأس، يُنْظَرُ: التاريخ الكبير – للبخاري (350/2)، وميزان الاعتدال في نقد الرجال – للذهبي (612/1).

(2) ساقطة من المؤلف، مثبتة من تفسر القرآن العظيم – لابن كثير (130/5).

(3) جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري (590/17).

(4) أخرجه أحمد في مسنده (396/24)، من حديث معاذ بن أنس – رضي الله عنه – مرفوعاً، وأورَدهُ الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (116/10)، وقال: ورجاله وثقوا على ضعف في بعضهم.

(5) ساقطة من المؤلف، مثبتة في تفسير القرآن العظيم – لابن كثير (131/5).

(6) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (230/6)، من حديث عبدالله بن عمرو – رضي الله عنهما- مرفوعاً.

(7) ساقطة من المؤلف، مثبتة من مسند أبي يعلى (23/12).

(8) مَهْيم: كلمة يمانية معناها: ما أمرك، وما الذي أرى بك، لسان العرب – لابن منظور (564/12)، الجذر: "م هـ ي م".

(9) أخرجه أبو يعلى في مسنده (23/12)، من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه- مرفوعاً، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (144/7)، وقال: فيه موسى بن عبيدة الزبدي، وهو ضعيف.

تم آخِرُ الربع الثاني من كتاب: "البدر المنير الملخص من تفسير الابن الكثير"، ويتلوه الثالث، إن شاء الله، تفسير سورة الكهف، ولله الحمد أولاً، وآخراً، وباطناً، وظاهراً.

وقد تمَّ على يد مُلَخِّصِه ومؤلفه، أقلَّ عباد الله المعبود: عفيف بن سعيد بن مسعود بن محمد بن مسعود الكازروني البلياني، أحلَّهُ الله حرمَ الكَرَم، وتواترَ عليه ترادُفُ النِّعم.

حضره الشيخ الكبير قطب الأقطاب: أبي عبدالله محمد بن الحفيف الشيرازي[1]، قدَّس الله سرَّهُ، في الثاني عشر، مضت من رجب المُرَجَّب، سنة إحدى وتسعين وسبعمائة، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله محمد سيد العالمين، وعلى آله الطيبين وصحبه الأكرمين، وعترته الأطهرين، والحمد لله الذي وفقنا على إتمام هذا النصف من هذا التفسير، في يوم الأحد، الثالث من شهر الربيع الثاني، من شهور سنة عشرين وتسعمائة.

وكتبه العبد المتوكل بالصمد الولي محمد بن شيخ إبراهيم بن محمود الحافظ الحويني، غفر الله له، ولجميع أمة محمد – صلى الله عليه وسلم-.

---

(1) لم أقف عليه!

الخاتمـــــــة

الحمـد لله الـذي بنعمتـه تـتم الصـالحات، والصـلاة والسـلام علـى أشـرف المخلوقات، محمد ذي الكمالات، وآله وصحبه ما أشرقت بنور ربها قلوب المؤمنين والمؤمنات، وبعد.

فإنني بعدما منَّ الله عليَّ بإتمام هذا البحث، دراسة وتحقيقاً، أرجو من الله – سبحانه وتعالى – أن يكون خالصاً لوجهه الكريم، وقد خلصْتُ منه إلى الآتي:

1. ذكر المؤلف اسم الكتاب واضحاً في نهاية سورة الإسراء.
2. يعد هذا الكتاب من كتب التفسير بالمأثور، حيث التزم المُفَسّر في نقله واستشهاده بالآيات والأحاديث، وأقوال الصحابة، وأقوال التابعين، وأقوال الأئمة.
3. أَكْثَرَ من الأحاديث الصحيحة في تفسيره، معتمداً على الصحاح والمسانيد، وإذا ذكر الضعيف والموضوع، نبَّه عليه.
4. تميَّز المفسر بقلة ذكره للإسرائيليات، وحينما يذكرها، يحكم عليها.
5. أكثر المؤلف من أقوال ابن عباس، وبعض التابعين – رضي الله عنهم–.
6. أكثر المؤلف في نقله من تفسيري الطبري، وابن أبي حاتم.
7. استشهد المؤلف في تفسيره في بعض الآيات القرآنية بالأبيات الشعرية.
8. سار المؤلف على مذهب السلف في كثير من المسائل.
9. تميَّز بكثرة سرده لبعض الكلمات مثل قوله: و(غيرهم)، و(غير واحدٍ)، و(آخرون).

وفي ختام هذا البحث أسأل الله القبول والتوفيق والسداد، وأقول: ما كان من صوابٍ، فمن الله وحده، وما كان من خطأٍ، فمني ومن الشيطان.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفهارس العامة

فهرس الآيات القرآنية الواردة في الشرح

الآية	رقمها	الصفحة
سورة البقرة		
﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾	255	29
﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾	24	47
﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾	45	62
﴿وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾	214	167
﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾	121	194
﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ﴾	243	217
﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِى نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾	123	218
﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا﴾	126	220
﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾	197	254
﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ﴾	224	285
سورة آل عمران		
﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ﴾	106	43
﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ﴾	44	162
﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ﴾	42 – 43	165
﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ﴾	119	204
﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾	164	294 – 361
﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾	21	311

الآية	رقمها	الصفحة
سورة النساء		
﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ﴾	157	66
﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾	77	187
﴿وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلٗا﴾	57	193
﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾	31	211
﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ﴾	41	282
سورة المائدة		
﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا﴾	48	58
﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞ﴾	75	165
﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾	41	192
﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَ﴾	118	220
﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾	67	229
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾	67	246
﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُ﴾	64	259
﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥ﴾	45	284
﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥ﴾	40	300
﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡ﴾	115	338
سورة الأنعام		
﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا﴾	136	53
﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾	59	54

الآية	رقمها	الصفحة
﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾	54	70
﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ﴾	38	76
﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾	59	76
﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾	52	86
﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾	128	112
﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾	115	184
﴿لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾	19	226
﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾	30	228
﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾	124	250
﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾	136	270
﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾	146	296
﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾	161	297
﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾	123	317
﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾	151	325
سورة الأعراف		
﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾	54	30
﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾	28	53
﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾	137	66
﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا﴾	157	68
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾	158	82

الآية	رقمها	الصفحة
﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾	88	206 -109
﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾	38	110
﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾	126	161
﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾	97	267- 164
﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾	158	201
﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾	168	203
﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾	167	203
﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾	40	215
﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾	54	255
﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾	86	264
﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ﴾	51	272
﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾	12	339
﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾	15	340
سورة الأنفال		
﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾	42	36
﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾	30	206 -197
﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً﴾	32	360 -207
﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ﴾	33	347
سورة التوبة		
﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾	128	243

الآية	رقمها	الصفحة
﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾	40	300
﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾	113	321
سورة يونس		
﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾	101	31
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾	96– 97	37
﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًا﴾	99	254 – 118
﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾	5	312
﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا﴾	24	317
﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾	47	344
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾	96	359
﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾	2	361
سورة هود		
﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ﴾	13	47
﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾	123	61
﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ﴾	118	69
﴿وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾	71	165
﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾	81	240
﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖ﴾	65	242
﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾	101	338

الصفحة	رقمها	الآية
353	121	﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾
363	104	﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾
		سورة يوسف
82	103	﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾
		سورة الرعد
212	23	﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم ﴾
		سورة إبراهيم
83	42	﴿ يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾
112	48	﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾
191	47	﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾
229	30	﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾
262	27	﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾
294	28	﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا ﴾
		سورة الحجر
80	97	﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾
309	66	﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ ﴾
		سورة النحل
74	97	﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾
78	120	﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾
164	45	﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾
181	48	﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ ﴾

الآية	رقمها	الصفحة
سورة الإسراء		
﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ ﴾	88	47
﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾	82	274 - 52
﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴾	15	114
﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ﴾	32	134
﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ ﴾	44	178
﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَا ﴾	76	206
﴿ قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾	62	235
﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴾	94	266
﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ﴾	67	269
﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾	26	284
سورة الكهف		
﴿ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ﴾	3	28
﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾	110	195
﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ ﴾	79	207
﴿ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾	49	344
﴿ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ﴾	17	362
سورة مريم		
﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴾	42	46
﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا لَقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴾	89 - 88	57

الآية	رقمها	الصفحة
﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالٗا وَوَلَدًا﴾	77	271
﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا﴾	38	283
سورة طه		
﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْ﴾	66 – 65	60
﴿حَيۡثُ أَتَىٰ﴾	69	60
﴿لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾	131	63
﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا﴾	132	117
﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾	7	191 – 176
﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾	44	299
﴿لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾	46	300
سورة الأنبياء		
﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾	103	56
﴿وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾	8	166
﴿فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾	5	187
﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾	1	250 – 226
﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ﴾	25	263
﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾	40 – 39	282
﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞ﴾	18	352
سورة الحج		
﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓ﴾	65	171
﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا﴾	48	191

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾	31	215
سورة المؤمنون		
﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾	99	223
﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾	104	225
﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾	21	273 - 252
﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾	47	361
سورة النور		
﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾	11	93
سورة الفرقان		
﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾	7	79
﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾	23	209
﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾	61	230
سورة الشعراء		
﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾	48 - 47	60
﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾	61	64
﴿كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾	62	64
﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾	63	64
﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾	166	102
﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾	187	109
﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾	189	109

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾	8	162
﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾	197	198
﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾	59	366
سورة النمل		
﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾	25	176
﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾	50	180
﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾	56	206
﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾	49	244
﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾	10	364
﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾	12	364
سورة القصص		
﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾	41	65
﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾	23	78
﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾	7	165
﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾	57	221
﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾	73 - 71	312
سورة العنكبوت		
﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾	31	100
﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾	32	101
﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾	53	250 - 174
﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾	67	220

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾	13	313 - 259
﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾	46	299
سورة الروم		
﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾	30	315 - 81
﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾	27	334
﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾	2	335
سورة لقمان		
﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾	34	175
﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾	24	217
﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾	28	226
﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾	24	295
﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾	14	320
سورة السجدة		
﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾	12	51
﴿الٓمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾	2 – 1	82
سورة الأحزاب		
﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾	1	68
﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ﴾	7	336
سورة سبأ		
﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾	23	182
﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾	31	210

الآية	رقمها	الصفحة
سورة فاطر		
﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾	19	84
﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ ﴾	36	260 - 208
﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ ﴾	18	313
سورة يس		
﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ ﴾	39	30
﴿يَسْبَحُونَ ﴾	40	30
﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾	59	43
﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾	82	51
﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾	30	68
﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ ﴾	81	243
﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾	77	251
﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾	78	334
﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾	12	344
سورة الصافات		
﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾	171	206
﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾	22	225
﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴾	137	241
﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾	96 - 95	257
سورة ص		
﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ﴾	27	77

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾	40	145
﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾	5	258
سورة الزمر		
﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾	70	50
﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾	36	61
﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ ﴾	38	77
﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾	3	269 - 182
﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ﴾	7	203
﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾	73	212
﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾	29	219
﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ ﴾	23	244
﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾	69	344
سورة غافر		
﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴾	85	65
﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ﴾	51	94
﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ ﴾	47	210
﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾	46	261
﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾	57	363
سورة فصلت		
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾	32 - 30	262 - 53

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾	42	194
﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾	17	242
﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾	46	310
﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ ﴾	5	332
﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ﴾	44	352
سورة الشورى		
﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ ﴾	45	42
﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾	20	81
﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾	7	119
﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ﴾	52	250
﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾	40	299
﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ﴾	13	336
سورة الزخرف		
﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ﴾	22	78
﴿ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾	4	235
﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ﴾	89	243
﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ ﴾	71	261
سورة الدخان		
﴿ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴾	48 – 47	208
سورة الأحقاف		
﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى ﴾	27	197

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾	33	209
﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾	5	283
سورة الذاريات		
﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾	29	99
﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾	56	119
﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾	28	238
سورة الطور		
﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ ﴾	21	185
سورة النجم		
﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا ﴾	26	182
﴿ مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾	23	192
﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴾	31	242 – 226 – 251 – 264
﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾	22 – 21	270
﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾	37	297
﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾	18	302
﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾	17	307
سورة القمر		
﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾	11	89
﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾	13	91
﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ ﴾	37	103

الصفحة	رقمها	الآية
104	53	﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾
279 – 264 – 335	50	﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾
267	52	﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾
342	34	﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾
		سورة الرحمن
41	60	﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾
207	46	﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾
233	15 – 41	﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾
		سورة الحديد
56	12	﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾
123	16	﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾
200	9	﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾
300	4	﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾
		سورة الحشر
259	2	﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾
		سورة الممتحنة
48	4	﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾
		سورة الصف
308	8	﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾
		سورة التغابن
361 – 27	6	﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾

الآية	رقمها	الصفحة
سورة الطلاق		
﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾	12	171
سورة الملك		
﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ﴾	19	280
﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾	8	314
﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾	25	335
﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾	16	342
سورة ن		
﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾	9	246
سورة نوح		
﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾	26	87
﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾	11	95
﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا﴾	22	259
سورة المزمل		
﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾	16	110
سورة القيامة		
﴿يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ﴾	10	42
﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾	13	313
سورة الإنسان		
﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا﴾	11	42
سورة المرسلات		
﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾	15	50

الآية	رقمها	الصفحة
﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ﴾	36 – 35	282
سورة النازعات		
﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾	46	335 – 49
﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ﴾	10	334
سورة الانفطار		
﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ﴾	10	313
سورة الطارق		
﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾	9	260 – 44
سورة التين		
﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾	4	343
سورة الزلزلة		
﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ﴾	8 – 7	312
سورة الكافرون		
﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾	6	48

فهرس الأحاديث

ت	الحديث	الصفحة
1	(المسلم إذا سئل في القبر...)	213
2	(أتاني جبريل، فقال: يا محمد، ...)	321
3	(اتق الله حيثما كنت ...)	117
4	(اتقوا فراسة المؤمن ...)	241
5	(أتى نَبِيَّ الله – صلى الله عليه وسلم–، فقيل: لِتَنَمْ عينك...)	40
6	(اثنتان يكرهما ابن آدم...)	162
7	(اختصمت الجنة والنار ...)	119
8	(أخذ في يده حَصَيات ...)	331
9	(اخرج يا أبا بكر، ...)	346
10	(إذا ادخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ...)	41
11	(إذا حزبه أمر، صلَّى)	247 – 62
12	(إذا خرج روحه، صلَّى عليه كل مَلَكٍ ...)	215
13	(إذا سمعتم الحديث عني، تعرفه قلوبكم...)	107
14	(إذا صار أهل الجنة إلى الجنة ...)	334
15	(إذا قُبِرَ الميت – أو قال: أحدكم –، أتاه ملكان ...)	216
16	(إذا كان يَوْمُ القيامة، كُنْتُ إمام الأنبياء ...)	349
17	(إذا همَّ عبدي بحسنة، فاكتبوها له حسنة ...)	134
18	(اذكروا الجنة، اذكروا النار)	238
19	(أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم ...)	116
20	(أربعة يحتجون يوم القيامة ...)	314
21	(اركبوها سالمة، ودَعُوهَا سالمة ...)	331
22	(استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها ...)	126
23	(استغفروا لأخيكم، ثم سَلُوا ...)	216
24	(اسقه عسلاً، فذهب، فسقاه عسلاً ...)	274

الصفحة	الحديث	ت
71	(اطلبوا الخير دَهْرَكُم كُلَّه...)	25
201	(أعطيت خمساً لم يُعْطَهُنَّ ...)	26
276	(أعوذ بك من البخل والكسل ...)	27
173	(الدَّقَل، والفارسي، والحُلْو، والحامض)	28
319	(الدنيا دار من لا دار له...)	29
362	(الذي أمشاهم على أرجلهم قادر ...)	30
55	(الرؤيا الصادقة يراها المسلم أو تُرَى له)	31
141 -125	(الرؤيا على رجل طائر، ما لم تُعَبَّرْ ...)	32
275	(الشفاء في ثلاثة ...)	33
164	(الطِّيَرَةُ شرك ...)	34
124	(الكريم بن الكريم، ابن الكريم ...)	35
316-315	(الله أعلم بما كانوا عاملين)	36
179	(اللهم لا تقتلنا بغضبك ...)	37
219	(اللهم، لك الحمد غيْرَ مَكْفِيٍّ...)	38
166	(المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم...)	39
225	(النائحة إذا لم تتب قبل موتها ...)	40
315	(النبي في الجنة، والشهيد في الجنة ...)	41
316	(الوائدة والموؤد في النار)	42
195	(أمَّا أنا، فأصوم، وأفطر ...)	43
90	(أمان أمتي من الْغَرَقِ، إذا ركبوا...)	44
124	(أَمُتَهَوِّكُونَ كما تَهَوَّكَتِ اليهود والنصارى ...)	45
110	(امرؤ القيس صاحب لواء الشعر إلى النار...)	46
34	(إن الدنيا حلوة خَضِرَةٌ ...)	47
203 - 195	(إن الرجل لَيُحْرمُ الرزق بالذنب يصيبهُ...)	48
164	(إن الرقى والتمائم والتولة شركٌ)	49

ت	الحديث	الصفحة
50	(إن السحابة لَتَمُرُّ بالملأ من أهل الجنة ...)	261
51	(إن الشمس والقمر آيتان ...)	339
52	(إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع ...)	214
53	(إن الله – تعالى- ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته)	83 – 111
54	(إن الله – تعالى- يدني المؤمن يوم القيامة...)	82
55	(إن الله أمرني أن أُبَشِّرَ خديجة ...)	237
56	(أن الله أوحى إلى رسوله، لمَّا سألوه ...)	187
57	(إن الله كتب كتاباً ...)	70
58	(إن الله لا يظلم المؤمن حسنة ...)	289
59	(إن الله لا يؤخر شيئاً، إذا جاء أجله ...)	271
60	(إن الله لَيَرْضَى ...)	308
61	(إن الله لَيَزَعُ بالسلطان ...)	352
62	(إن الله يحب معاليَ الأخلاق...)	285
63	(إن الله يقول للعبد يوم القيامة: ألم أُزَوِّجْكَ؟ ...)	277
64	(إن الله ينشئ السحاب ...)	179
65	(إن الملائكة تَنْزِلُ في العَنَان ...)	230
66	(إن الملائكة قالت: يا ربنا ...)	344
67	(أن المؤمن إذا حضره الموت؛ جاءه ملائكة ...)	55
68	(إن المؤمن ليُنضِي شياطينه ...)	341
69	(إن الناس إذا رأوا المنكر ...)	117
70	(أن الناس يحشرون ثَلَاثَةَ أفواجٍ ...)	362
71	(إن الناس يصيرون يوم القيامة ...)	349
72	(أن اليهود قد اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة ...)	67
73	(إن أمر المؤمن كُلَّهُ عجب ...)	202
74	(إن أناساً من أهل: لا إله إلا الله ...)	228

ت	الحديث	الصفحة
75	(إن أهل الجنة يُلْهَمُون التسبيحَ والتحميدَ...)	32
76	(إن أهل الدرجات الْعُلَى ...)	319
77	(إن أهل النار من تأخذه النار إلى كعبيه ...)	236
78	(أن تجعل لله نداً وهو خلقك ...)	325
79	(أن تعبد الله كأنك تراه ...)	54
80	(إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– قرأها: ﴿عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ﴾	93
81	(إن شجرة من الشجر لا يُطْرَحُ ورقها ...)	212
82	(أن صلة الرحم تزيد في العمر)	196
83	(إن عادوا، فَعُدْ ...)	292
84	(إن في الجنة شجرةً، يسير الراكب الجواد ...)	188
85	(إن لِلهِ عباداً يعرفون الناس بالتَّوَسُّمِ)	241
86	(إن لله ملكاً، لو قيل له ...)	355
87	(إن من أَفْرَى الفِرى...)	327
88	(إن من عباد الله عباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء ...)	54
89	(إن من عبادي لَمَنْ لا يُصْلِحُهُ ...)	324
90	(أنا أول شفيع في الجنة ...)	348
91	(أنا أول من يُؤْذَنُ له بالسجود ...)	350
92	(أنت الهادي يا علي ...)	175
93	(أنتم أحق بموسى منهم، فصوموا)	66
94	(إنهما لَيُعَذَّبَان، وما يُعَذَّبَان في كبير ...)	331
95	(إني رأيت الجنة، أو أُريتُ الجَنَّةَ ...)	193
96	(إني لا أحلف على يمين ...)	286
97	(أو غير ذلك يا عائشة)	317
98	(أول ما تنشق عنه الأرض ...)	348
99	(إياكم والظنَّ ...)	327

ت	الحديث	الصفحة
100	(بينما أنا في الحطيم ...)	302
101	(بينما رجل يمشي فيمن كان قبلكم ...)	328
102	(تُخْرَجُ الزكاة من مالك ...)	323
103	(تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة ...)	179
104	(تلك عاجل بشرى المؤمن)	55
105	(حتى تأتي ليلة الجمعة...)	158
106	(حتى جاء سدرة المنتهى ...)	305
107	(خزائن الله الكلام ...)	231
108	(خُفِّفَ على داود القرآن ...)	337 – 189
109	(خُلِقَتِ الملائكة من نور ...)	233
110	(خير مال امرءٍ له مهرة ...)	318
111	(ذُراريُّ المؤمنين، قال: هم من آبائهم؟ ...)	315
112	(رأس الحمد لله الشكر ...)	370
113	(رأيت ليلة أُسْرِي بي رجلاً آدَمَ طُوَالاً ...)	306
114	(رأيت نوراً)	305
115	(رُدُّوه علي، فردُّوهُ...)	117
116	(سمَّاها: آية العز ...)	370
117	(صَلِّ قائماً، فإن لم تستطع، فقاعداً ...)	248
118	(صلاة الليل)	347
119	(طوبى لمن رآني، وآمن بي...)	188
120	(عرض عليَّ ربي – عز وجل– ليَجْعَل لي ...)	360
121	(على الصراط)	224
122	(عمر الذباب أربعون يوماً ...)	274
123	(فأتى جبريل الصخرة التي ببيت المقدس ...)	306
124	(فإذا هو قد أعطي شَطْرَ الحسن)	137

ت	الحديث	الصفحة
125	فقال: (﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ... ﴾)	354
126	(فقمنا صفوفنا ننتظر من يؤمنا ...)	305
127	(فلو رحم الله من قوم نوح ...)	92
128	(فمن دخلها، كانت عليه ...)	314
129	(قال الله: أنا أغنى الشركاء عن الشرك...)	164
130	(قال الله: إني خلقت عبادي حنفاء ...)	341 – 315
131	(قال الله: يا ابن آدم، لا تَعْجِزْ ...)	247
132	(قد أفلح من أسلم ...)	289
133	(قَدْ قَدْ، أي: حسبُ، حسبُ...)	163
134	(قل: اللهم، فاطر السمٰوٰت والأرض ...)	164
135	(قل: توكلت على الحي الذي لا يموت ...)	370
136	(قولوا: اللهم، صلّ على محمد ...)	100
137	(كان الله قبل كل شيء ...)	76
138	(كان رسول الله يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر)	301
139	(كان يعجبه الحلواء والعسل)	275
140	(كتب الله مقادير الخلائق...)	77
141	(كل مولود يولد على الفطرة ...)	– 315 – 81 317 – 316
142	(لا أحد أصْبَرُ على أذىً ...)	267
143	(لا أَشُكُّ، ولا أسأل)	68
144	(لا تدخلوا بيوت القوم المُعَذَّبِينَ ...)	242
145	(لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم...)	311 – 32
146	(لا تعذِّبوا بعذاب الله"، ولَقَتَلْتُهُمْ)	293
147	(لا تُفَضِّلُوا بين الأنبياء)	336
148	(لا تُولِيَنَّ مال اليتيم)	326

ت	الحديث	الصفحة
149	(لا حلف في الإسلام ...)	286
150	(لا يَتَمَنَّيَنَّ أحدكم الموت ...)	161
151	(لا يحل دم امرئ مسلم ...)	326
152	(لا يركب البحر، إلا غازٍ أو حاجٌّ ...)	225
153	(لا يزال أمر هذه الأمة مواتياً...)	317
154	(لا يشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا)	365
155	(لا يشيرنَّ أحدُكم إلى أخيه بالسلاح ...)	336
156	(لِتَتَبَعِ كل أمة ما كنت تعبد ...)	44
157	(لجميع أمتي كُلِّهِمْ)	116
158	(لِجَهَنَّمَ سبعةُ أبواب ...)	236
159	(لَزَوَالُ الدنيا أهون على الله ...)	326
160	(لم يبعث الله نبيًّا، إلا بِلُغَة قومه)	201
161	(لم يكن لهم سيئات، فيُعَذَّبُوا ...)	314
162	(لمَّا كذَّبَتْنِي قريش ...)	306
163	(لِمَنْ عَمِلَ بها من أمتي)	116
164	(لو أن أهل السماء والأرض ...)	326
165	(لو رأيتني، وقد أخذت من حال البحر ...)	65
166	(لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحدٍ...)	160
167	(لو كنت أنا، لأسرعت الإجابة، وما ابتغيت العذر)	144
168	(لوْ لَمْ يقل يوسف – يعني: يوسف –: الكلمة التي قال ...)	141
169	(لو يعلم العبد قدر عفو الله ...)	238
170	(لولا غفرُ الله وتجاوُزُهُ...)	174
171	(ليس على أهل لا إله إلا الله، ...)	335
172	(ليلة أُسري به إلى المسجد الأقصى، فلما رجع ...)	330
173	(لئن ظفرنا عليهم ...)	299

ت	الحديث	الصفحة
174	(ما السمٰوٰت السبع وما فيهن ...)	171
175	(ما عال من اقتصد)	324
176	(ما من ذنبٍ أَجْدَرُ أن يعجل الله عقوبته ...)	38 – 284
177	(ما من ذنب بعد الشرك أَعْظَمُ ...)	325
178	(ما من مسلم يُذْنِبُ ذنباً...)	116
179	(ما من نبي من الأنبياء، إلا وقد أوتي...)	47 – 190
180	(ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل ...)	177
181	(مثل البخيل والمنفق...)	324
182	(مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله ...)	175
183	(من أحب أن يبسط في رزقه ...)	322
184	(من أدرك والديه، أو أحدهما...)	321
185	(من أصابته فاقة ...)	320
186	(من آوى مُحْدِثًا ...)	159
187	(من بَدَّلَ دينه، فاقتلوه ...)	293
188	(من تواضع لله، رفعه ...)	328
189	(من دعا إلى ضلالة، كان عليه ...)	258
190	(من عادى لي وليًّا...)	280
191	(من قال حين يسمع النداء ...)	349
192	(من لزم الاستغفار، جعل الله له ...)	95
193	(من وجدتموه يعمل عمل لوط ...)	105
194	(نحن الآخرون السابقون ...)	298
195	(نحن الآخِرُون السابقون يوم القيامة...)	50
196	(نحن معاشر الأنبياء أولاد عِلّات ديننا واحد)	58
197	(نعم، خصال أربع...)	321
198	(نعم، وأولاد المشركين)	316

ت	الحديث	الصفحة
199	(نهى رسول الله – صلى الله عليه وسلم– عن أكل لحوم الْحُمُرِ الأهلية ...)	253
200	(نهى رسول الله – صلى الله عليه وسلم– عن أكل لحوم الخيل ...)	253
201	(نور، أنَّى أراه ...)	305
202	(هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها؟ ...)	125
203	(هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله؟...)	186
204	(هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة؟ ...)	37
205	(هم تَبَعٌ لنا يوم القيامة ...)	298
206	(هما زُلَفَا الليل المغرب والعشاء)	115
207	(هي أفضل الحسنات)	116
208	(هي في علم الله قليل ...)	354
209	(هي من قدر الله)	178
210	(والذي نفس محمد بيده، إن أحدهم...)	193
211	(والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد ...)	82
212	(والذي نفسي بيده، لا يصيب الْمُؤْمِنَ...)	79
213	(والذي نفسي بيده، لا يقضي الله للمؤمن قضاءً ...)	79
214	(والله، ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ...)	187
215	(وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله ...)	75
216	(ولا يبقى بعد ذلك في النار...)	113
217	(ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ...)	112
218	(يا أهل الجنة، إن لكم أن تعيشوا ...)	113 – 238
219	(يا عبادي، لو أن أولكم ...)	203
220	(يا معاذ، إن المؤمن يوم القيامة...)	245
221	(ياعبادي، إني حرمت الظلم على نفسي ...)	49
222	(يُبْعَثُ الناس يوم القيامة ...)	350
223	(يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل ...)	177 – 347

ت	الحديث	الصفحة
224	(يجتمع المؤمنون يوم القيامة ...)	349
225	(يحشر الناس يوم القيامة ...)	224
226	(يُخْرَجُ من النار من قال: لا إله إلا الله ...)	350
227	(يُخَلَّصُ المؤمنون من النار ...)	237
228	(يد الله ملأى لا يغيضها ...)	363
229	(يرحم الله لوطاً ...)	103
230	(يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار)	347
231	(يقال له: من ربك؟ فيقول ...)	213
232	(يقول الله: ابْنَ آدم، أنَّى تُعْجِزُنِي ...)	251
233	(يُنْصَبُ لكل غادر لواء يوم القيامة ...)	260
234	(يؤتى بالموت في صورة كبش...)	113
235	لقد رأيتني في الحجر وقريش ...)	306

فهرس الأعلام

ت	اسم العلم	الكنية	الصفحة
1	إبراهيم بن أدهم بن منصور	أبو إسحاق	331
2	أبي بن كعب بن قيس، ابن عبيد	أبو المنذر	156
3	أحمد بن عبدالله بن أحمد	أبو نعيم	198
4	أحمد بن علي بن شعيب بن علي	أبو عبدالرحمن	116
5	أحمد بن محمد بن إبراهيم	أبو إسحاق	125
6	أحمد محمد بن حنبل	أبو عبدالله	42
7	أسماء بنت أبي بكر الصديق	لا يوجد	253
8	إسماعيل بن عبدالرحمن السُّدِّي	أبو محمد	97
9	أنس بن مالك بن النضر	أبو ثمامة	71
10	البراء بن عازب بن الحارث	أبو عمارة	55
11	بسر بن جحاش القرشي	لا يوجد	251
12	بلال بن رباح الحبشي	أبو عبدالله	292
13	ثوبان بن بُجْدُد	أبو عبدالله	195
14	جابر بن عبدالله بن عمرو	أبو عبدالله	32
15	جُبَيْرُ بن مُطْعِم بن عَدِيٍّ	أبو محمد	286
16	جعفر بن أبي طالب	أبو عبدالله	265
17	جميل بن عبدالله بن معمر	أبو عمرو	277
18	جُنْدُبُ بن جَنَادَة بن سفيان	أبو ذرّ	49
19	حاتم بن عبدالله بن سعد	أبو عدي	155
20	حذيفة بن حسل بن جابر	أبو عبدالله	163
21	حسان بن ثابت بن المنذر	أبو الوليد	28
22	الحسن بن يسار	أبو سعيد	27
23	حمزة بن عبدالله بن عمر بن الخطاب	أبو عِمَارة	349
24	خالد بن الوليد بن المغيرة	أبو سليمان	253

ت	اسم العلم	الكنية	الصفحة
25	الربيع بن أنس بن زياد	لا يوجد	77
26	ربيعة الجرشي	أبو الغاز	40
27	رفيع بن مهران الرياحي	أبو العالية	63
28	رؤبة بن عبدالله العجاج	أبو الجَحَّافِ	328
29	الزبير بن العوام بن خلويد	أبو عبدالله	237
30	زهير بن أبي سُلْمى	لا يوجد	75
31	زيد بن أرقم بن زيد	أبو عُمَرُ	193
32	زيد بن أسلم العمري	أبو عبدالله	210
33	زيد بن خالد الجهني	أبو زُرْعة	37
34	سالم بن سليم الحنفي	أبو الأحوص	271
35	سعد بن أبي وقاص مالك	أبو إسحاق	74
36	سعد بن مالك بن سنان	أبو سعيد	33
37	سعيد بن المسيب بن حزن	أبو محمد	174
38	سعيد بن جبير الأسدي	أبو عبدالله	100
39	سفيان بن سعيد بن مسْروق	أبو عبدالله	289
40	سفيان بن عُيَيْنَةَ بن ميمون	أبو محمد	284
41	سلمان الفارسي	أبو عبدالله	160
42	سليمان بن أحمد بن أيوب	أبو القاسم	180
43	سليمان بن الأشعث بن إسحاق	أبو داود	33
44	سليمان بن داود بن الجارود	أبو داود	314
45	سَمُرَةُ بن جُنْدُب بن هلال	أبو سليمان	315
46	سهل بن سعد بن مالك	أبو العباس	188
47	شريك بن عبدالله بن أبي نمر	أبو عبدالله	305
48	شقيق بن سلمة الأَسَدِيُّ	أبو وائل	195
49	صخر بن حرب بن أمية	أبو سفيان	34

ت	اسم العلم	الكنية	الصفحة
50	صدى بن عجلان بن وهب	أبو أُمَامَة	177
51	صفوان بن عسَّال من بني الرَّبض	لا يوجد	365
52	صهيب بن سنان بن مالك	أبو يحيى	41
53	الضحاك بن مزاحم البلخي	أبو القاسم	62
54	طَاوُس بن كَيْسَانَ اليماني	أبو عبدالرحمن	216
55	طلحة بن عبيدالله بن عثمان	أبو محمد	237
56	طلق بن حبيب العنزي	لا يوجد	219
57	عبادة بن الصامت بن قيس	أبو الوليد	55
58	عبدالرحمن بن صخر الدوسي	أبو هريرة	54
59	عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد	أبو القاسم	355
60	عبدالرحمن بن قرط الثمالي	لا يوجد	330
61	عبدالله بن أبي بن أمية بن المغيرة	لا يوجد	360
62	عبدالله بن حُذَافة بن قيس	أبو حذافة	292
63	عبدالله بن سَلام بن الحارث	أبو يوسف	197
64	عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب	أبو العباس	27
65	عبدالله بن عبدالأسد بن هلال	أبو سلمة	265
66	عبدالله بن عبدالرحمن بن الفضل	أبو محمد	40
67	عبدالله بن عبيد الله بن عبدالله	لا يوجد	167
68	عبدالله بن عمرو بن الخطاب	أبو عبدالرحمن	166
69	عبدالله بن عمرو بن العاص	أبو محمد	186
70	عبدالله بن مسعود بن غافل	أبو عبدالرحمن	54
71	عبدالله بن مسلم بن هرمز المكي	لا يوجد	365
72	عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج	أبو الوليد	31
73	عبيد بن عمير بن قتادة	أبو عاصم	232
74	عروة بن الزبير بن العوام	أبو عبدالله	167

ت	اسم العلم	الكنية	الصفحة
75	عطية بن سعد بن جنادة العوفي	أبو الحسن	190
76	عُقْبَةُ بن عامر بن عبس	أبو حماد	211
77	عَكْرِمَةُ بن أبي جهل بن هشام	لا يوجد	342
78	عَكْرِمة بن عبدالله البربري	أبو عبدالله	285
79	علي بن إسماعيل بن أبي بشر	أبو الحسن	316
80	علي بن الحسن بن هبة الله	أبو القاسم	71
81	علي بن الحسين بن علي	أبو الحسن	63
82	عمَّار بن ياسر بن عامر	أبو اليقظان	292
83	عمران بن تَيْم	أبو الرجاء	90
84	عمران بن حصين بن عبيد الله	أبو نُجَيْد	247
85	عويمر بن عامر بن مالك	أبو الدرداء	55
86	الفُضَيْلُ بن عِيَاض بن مسعود	أبو علي	146
87	القاسم بن سلام الهروي الأزدي	أبو عبيد	318
88	قتادة بن دعامة بن قتادة	أبو الخطاب	28
89	كعب بن ماتع بن ذي هجن	أبو إسحاق	90
90	كعب بن مالك	أبو مالك	225
91	لاحق بن حُمَيْد بن سعيد	أبو مجلز	61
92	مالك بن أنس بن مالك	أبو عبدالله	204
93	مالك بن ربيعة بن البدن	أبو أُسَيْدٍ	321
94	مالك بن عمرو القشيري	لا يوجد	321
95	مجاهد بن جبر	أبو الحجاج	27
96	محمد بن إدريس بن العباس	أبو عبدالله	105
97	محمد بن إسحاق بن يسار	لا يوجد	88
98	محمد بن إسماعيل بن إبراهيم	أبو عبدالله	41
99	محمد بن جرير بن يزيد	أبو جعفر	28

ت	اسم العلم	الكنية	الصفحة
100	محمد بن سيرين البصيري	أبو بكر	299
101	محمد بن عبدالرحمن، ابن محيصن	أبو حفص	156
102	محمد بن عبدالله بن حمدويه	الحاكم	67
103	محمد بن علي بن الحسين	أبو جعفر	266
104	محمد بن عيسى بن سورة	أبو عيسى	39
105	محمد بن كعب بن سليم بن أسد	أبو حمزة	94
106	محمد بن مسلم بن شهاب الزُّهْرِيُّ	أبو بكر	307
107	محمد بن يحيى بن منده العبدي	أبو عبدالله	356
108	محمد بن يزيد الربعي القزويني	أبو عبدالله	118
109	مسروق بن الأجدع بن مالك	أبو عائشة	107
110	مسلم بن الحجاج بن مسلم	أبو الحسين	34
111	مسلم بن صبيح الهمذاني	أبو الضحى	61
112	معاذ بن جبل بن عمرو	أبو عبدالرحمن	160
113	معمر بن المثنى التيمي	أبو عبيدة	133
114	النعمان بن ثابت بن زوطا	أبو حنيفة	252
115	نفيع بن الحارث بن كلدة	أبو بَكْرَة	38
116	الهيثم بن مالك الطائي	أبو محمد	325
117	يزيد بن أبان الرَّقَاشِيُّ البَصْرِيُّ	أبو عمرو	314

فهرس الأبيات الشعرية

ت	أول البيت	كلمة القافية	الوزن	عدد الأبيات	الصفحة
1	أخشى على أربد	الأسدِ	المنسرح	2	180
2	إذا ما أراد	فيكونُ	الطويل	1	265
3	أرانا موضعين	وبالشراب	الوافر	1	333
4	الأرض تحيا	طرفُ	البسيط	2	196
5	إلى الملك القَرْم	المزدحمْ	المتقارب	1	368 – 170
6	ثم خاصرتها	مسنونِ	الخفيف	1	233
7	جزى بنوه	سنِمَّارُ	البسيط	1	152
8	حفد الولائد	الأجمال	الكامل	1	277
9	ذم المنازل	الأيام	الكامل	1	327
10	سئمت تكاليف	يسأم	الطويل	2	276
11	فآبوا بالنهاب	مصفَّدينَا	الوافر	1	225
12	فإني وإيّاكم	أناملُهْ	الطويل	1	181
13	ففي كل شيء	واحد	المتقارب	1	330
14	فلا تَكْتُمَنَّ الله	يعلم	الطويل	2	75
15	لنا القدم الأولى	تابع	الطويل	1	28
16	لو كل جارحة	حسنِ	البسيط	1	219
17	ليبك على ملحان	أرملا	الطويل	1	155
18	مشتبه الأعلام	المُخْتَرَق	الرجز	1	328

فهرس المصادر والمراجع

1. الأدب المفرد، تـأليف: محمـد بـن إسـماعيل، (أبوعبـدالله) البخـاري الجعفـي، تحقيـق: محمـد فـؤاد عبـدالباقي، دار البشـائر الإسـلامية – بيـروت، الطبعـة: الثانية، 1409هـ – 1989م.
2. الاستذكار الجـامع لمـذاهب فقهـاء الأمصـار، تـأليف: يوسـف بـن عبـدالله بـن عبـدالبر النمـري القرطبـي، (ابـن عبـدالبر)، ت (463هـ)، تحقيـق: سـالم محمـد عطا، و محمد علي معوض، دار الكتب العلمية – بيروت، 2000م.
3. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تأليف: يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالله ت (463هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل– بيروت، 1412هـ.
4. أُسْدُ الغابة في معرفة الصحابة، تأليف: عزالدين بن الأثير، (أبو الحسن)، علي بـن محمـد الجـزري، ت (630هـ)، تحقيـق: عـادل أحمـد ، دار إحيـاء التـراث العربي، بيروت – لبنان، 1417 هـ – 1996م.
5. الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، تأليف: محمد بن محمد أبو شهبة مكتبة السنة ط: الرابعة (305).
6. الإصابة في تمييز الصحابة، تأليف: أحمد بن علي، (ابن حجر العسقلاني)، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل – بيروت، الطبعة: الأولى، 1412هـ.
7. الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد، تأليف: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي (البيهقي)، تحقيق: أحمد عصام الكاتب، الطبعة: الأولى، 1401هـ.
8. الأعلام، تأليف: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي الدمشقي، ت (1396هـ)، دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشرة2002م.
9. الأغـاني، تـأليف: (أبـو الفرج) الأصـفهاني، تحقيـق: سَمِير جـابر، دار الفكـر – بيروت، الطبعة: الثانية، (د.ت.).
10. الأنسـاب، تـأليف: (أبـو سـيعد)، عبـدالكريم بـن محمـد بـن منصـور التميمـي (السـمعاني)، ت (562هـ)، تحقيـق: عبـدالله عمـر البـارودي، دار الفكـر – بيروت، 1998م.
11. بداية المجتهد ونهاية المقتصد، تـأليف: محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد،

(أبوالوليد) القرطبي، (ابن رشد الحفيد)، ت (595 هـ)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الرابعة، 1395هـ – 1975م.
12. تاج العروس من جواهر القاموس، تأليف: محمد بن محمد بن عبدالرزاق الحسيني، (أبو الفيض)، الملقب بمرتضى الزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.
13. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تأليف: شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان (الذهبي)، تحقيق: د. عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، 1407هـ – 1987م.
14. التاريخ الكبير، تأليف: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم (البخاري)، تحقيق: السيد هاشم الندوي، دار الفكر، (د.ت).
15. تاريخ بغداد، تأليف: أحمد بن علي، أبو بكر (الخطيب البغدادي)، ت (463هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، (د.ت.).
16. تاريخ مدينة دمشق، وذكر فضلها، وتسمية من حلها من الأماثل، تأليف: أبي القاسم علي بن الحسين، ابن هبة الله بن عبدالله، تحقيق: محب الدين، أبي سعيد، عمر بن غرامة العمري، دار الفكر – بيروت، 1995م.
17. تحبير التيسير في القراءات العشر، تأليف: ابن الجزري، شمس الدين محمد بن محمد بن علي بن يوسف، تحقيق: أحمد محمد، مُفْلح القضاة، دار الفرقان، عمان – الأردن، الطبعة: الأولى، 1421هـ – 2000م.
18. التحرير والتنوير، تأليف: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون – تونس، 1997م.
19. تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري، تأليف: جمال الدين عبدالله بن يوسف بن محمد الزيلعي، ت (762هـ)، تحقيق: عبدالله بن عبدالرحمن السعدي، دار ابن خزيمة – الرياض، الطبعة: الأولى، 1414هـ.
20. تذكرة الحُفَّاظ، تأليف: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1419 هـ – 1998م.

21. التَّعَرُّف لمذهب أهل التصوف، تأليف: محمد الكلاباذي، (أبوبكر)، دار الكتب العلمية – بيروت، 1400هـ.
22. التعريفات، تأليف: علي بن محمد بن علي (الجُرْجَانِيّ)، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، 1405هـ.
23. تفسير الصنعاني، تأليف: عبدالرزاق بن همام الصنعاني، ت (211)هـ، تحقيق: مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشيد – الرياض، 1410هـ.
24. تفسير القرآن العظيم، تأليف: (أبو الفداء)، إسماعيل بن عمر، (ابن كثير القرشي الدمشقي)، ت (774)هـ، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، للنشر والتوزيع، الطبعة" الثانية، 1420هـ – 1999م.
25. تفسير القرآن العظيم، تأليف: (أبو محمد)، عبدالرحمن بن أبي حاتم الرازي، تحقيق: أسعد محمد الطيب، في طبعيتن: أمَّامن أول سورة يونس إلى آخر سورة إبراهيم، فهو طبعة المكتبة العصرية – صيدا/ بيروت، وأما من أول سورة الحجر إلى آخر سورة الإسراء، فهو طبعة مكتبة نزار مصطفى الباز – مكة المكرمة – الرياض، الطبعة: الأولى، 1417 هـ – 1997م.
26. تفسير القرآن، تأليف منصور بن محمد بن عبدالجبار، (أبو المُظَفَّر السمعاني)، ت(489)هـ، تحقيق: ياسر بن إبراهيم، وغنيم بن عباس غنيم، دار الوطن – الرياض، السعودية، 1418هـ – 1997م.
27. التفسير الكبير (مفتاح الغيب)، تأليف: فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، ت (604)هـ، دار الكتب العلمية– بيروت، 1421 هـ – 2000م.
28. تقريب التهذيب، تأليف: أحمد بن علي، (ابن حجر العسقلاني)، ت (852هـ)، تحقيق: محمد عوامة، دار الرشيد – سوريا، 1406هـ – 1986م.
29. التقييد والإيضاح، شرح مقدمة ابن الصلاح، تأليف: زين الدين عبدالرحيم بن الحسين العراقي، ت(725 هـ)، تحقيق: عبدالرحمن محمد عثمان، محمد عبدالمحسن الكتبي، صاحب المكتبة السلفية، بالمدينة المنورة، الطبعة: الأولى، 1389 هـ – 1969م.
30. تنوير المقياس من تفسير ابن عباس، تأليف: الفيروزأبادي، دار الكتب العلمية

– بيروت، (د.ت.).
31. تهذيب التهذيب، تأليف: أحمد بن علي، (ابن حجر العسقلاني)، ت (528)هـ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، 1404هـ – 1984م.
32. التوضيح الأبهر لتذكرة ابن الملقن في علم الأثر، تأليف: محمد بن عبدالرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان السخاوي، تحقيق: عبدالله بن محمد عبدالرحيم البخاري، مكتبة أصول السلف – السعودية، الطبعة: الأولى، 1418هـ.
33. التيسير في القراءات السبع، تأليف: الإمام (أبو عمرو)، عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد بن عمرو الداني، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثانية، 1404هـ/ 1984م.
34. جامع البيان في القراءات السبع، تأليف: عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر، (أبوعمرو) الداني، ت (444هـ)، جامعة الشارقة – الإمارات، الطبعة: الأولى، 1428هـ – 2007م.
35. جامع البيان في تأويل القرآن، تأليف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، (أبو جعفر الطبري)، ت (310هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، 1420 هـ – 2000م.
36. الجامع الصحيح "سنن الترمذي"، تأليف: محمد بن عيسى، (أبو عيسى) الترمذي السلمي، تحقيق: أحمد محمد شاكر و(آخرون)، دار إحياء التراث العربي– بيروت، (د.ت.).
37. الجامع الصحيح "صحيح مسلم"، تأليف: (أبو الحسن)، مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، دار الجيل – بيروت، دار الآفاق الجديدة – بيروت، (د.ت.).
38. الجامع الصحيح المختصر، تأليف: محمد بن إسماعيل، (أبو عبدالله البخاري)، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة – بيروت، الطبعة: الثالثة، 1407 هـ – 1987م.
39. جامع العلوم والحكم، تأليف: (أبو الفرج)، عبدالرحمن بن أحمد (ابن رجب الحنبلي)، دار المعرفة – بيروت، الطبعة: الأولى، 1408هـ.
40. الجامع لأحكام القرآن، تأليف: (أبو عبدالله)، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن

فرج الأنصاري الخزرجي، شمس الدين القرطبي، ت (671)هـ، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب- الرياض، 1423هـ - 2003م.
41. الجواهر المضية في طبقات الحنفية، تأليف عبدالقادر بن أبي الوفاء، محمد بن أبي الوفاء القرشي، (أبو محمد)، ت (775هـ)، نشر: مير محمد كتب خانه - كراتشي، بلا: ط.
42. حجة القراءات، تأليف: عبدالرحمن بن محمد بن زنجلة (أبو زرعة)، تحقيق: سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الثانية، 1402هـ - 1982م.
43. الحجة للقراء السبعة، تأليف: الحسن بن أحمد بن عبدالغفار الفارسي الأصل، (أبو علي)، ت (377)هـ، تحقيق: بدر الدين قهوجي، وبشير جويجاني، مراجعة وتدقيق: عبدالعزيز رباح وأحمد يوسف الدقاق، دار المأمون للتراث - دمشق / بيروت، الطبعة: الثانية، 1413هـ - 1993م.
44. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، تأليف: (أبو نعيم) أحمد بن عبدالله الأصبهاني، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الرابعة، 1405هـ.
45. خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تأليف: عبدالقادر بن عمر البغدادي، ت (1093)هـ، تحقيق: محمد نبيل طريفي، وإميل بديع اليعقوب، دار الكتب العلمية - بيروت، 1998م.
46. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تأليف: الحافظ أحمد بن علي بن محمد، (ابن حجر العسقلاني)، ت (852هـ)، تحقيق ومراقبة: محمد عبدالمعبد ضان، نشر: مجلس دائرة المعارف العثمانية - الهند، 1392هـ - 1972م.
47. الدرر المنثور، تأليف: عبدالرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، دار الفكر - بيروت، 1993م.
48. دلائل النبوة، تأليف: البيهقي، تحقيق: عبدالمعطي قلعجي، دار الكتب العلمية - بيروت، ودار الريان للتراث - بيروت، والقاهرة، الطبعة: الأولى: 1408هـ - 1988م.
49. ديوان أبي العتاهية، دار بيروت، 1406هـ - 1987م.

50. ديوان زهير بن أبي سلمى، شرح وتقديم: أ. على حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1408هـ - 1988م.
51. الرسالة، تأليف: الإمام الحجة، محمد إدريس الشافعي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية.
52. زاد المَسِيرِ في علم التفسير، تأليف: عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي، نشر المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الثالثة، 1404هـ.
53. زاد المعاد في هدي خير العبار، تأليف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، (ابن القيم)، ت (751هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وعبدالقادر الأرناؤوط، نشر: مؤسسة الرسالة، ومكتبة المنار الإسلامية - بيروت، الكويت، 1407هـ- 1986م.
54. الزاهر في معاني كلمات الناس، تأليف: أبوبكر محمد بن القاسم الأنباري، تح: د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت (1412هـ - 1992م).
55. السبعة في القراءات، تأليف: أبوبكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمي البغدادي، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف - القاهرة، الطبعة: الثانية، 1400هـ.
56. سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، وذكر فضائله، وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، تأليف: محمد بن يوسف الصالحي الشامي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، 1414هـ - 1993م.
57. سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة، تأليف: محمد ناصر الدين بن الحاج نوح الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط: الأولى (1412هـ - 1992م).
58. سنن ابن ماجه، تأليف: محمد بن يزيد القزويني، (ابن ماجه)، ت (273)هـ، كتب حواشيه: محمود خليل، مكتبة أبي المعاطي.
59. سنن أبي داود، تأليف: (أبو داود)، سليمان بن الأشعث السجستاني، دار الكتاب العربي- بيروت، (د.ت.).
60. سنن الدارمي، تأليف: عبدالله بن عبدالرحمن، (أبو محمد)، الدارمي، تحقيق:

فواز أحمد زمرلي، وخالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، 1407هـ.
61. السنن الكبرى للنسائي، تأليف: أحمد بن شعيب أبو عبدالرحمن النسائي، تحقيق: عبدالغفار سليمان البنداري، وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1411هـ – 1991م.
62. السُّنَنُ الكبرى وفي ذيله الجوهر النقي، تأليف: أبو بكر، أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، والذيل: لعلاء الدين علي بن عثمان المارديني، الشهير بابن التركماني، نشر: مجلس دائرة المعارف النظامية – الهند، الطبعة: الأولى، 1344هـ.
63. سير أعلام النبلاء، تأليف: شمس الدين (أبو عبدالله)، محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: مجموعة من المحققين، بإشراف شعيب الأرناؤوط، نشر: مؤسسة الرسالة، بلا ط.
64. السيرة النبوية، تأليف: محمد بن إسحاق، بلا ط.
65. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تأليف: عبدالحي بن أحمد العكري الدمشقي، ت (1089هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت.).
66. شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، تأليف: محمد بن عبدالباقي بن يوسف الزرقاني، ت (1122هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، 1411هـ.
67. شُعَبُ الإيمان، تأليف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجردي الخراساني، (أبو بكر البيهقي)، ت (458)هـ، تحقيق: عبدالعلي عبدالحميد حامد، ومختار أحمد الندوي، مكتبة الرشيد للنشر والتوزيع – الرياض، بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي، الهند، الطبعة: الأولى، 1323هـ – 2003م.
68. الشعر والشعراء، تأليف: ابن قتيبة الدينوري، (د.ط.).
69. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تأليف: محمد بن حبان بن أحمد، (أبو حاتم التميمي البستي، ابن حبان)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، نشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الثانية، 1414هـ – 1993م.
70. صفة الصفوة، تأليف: عبدالرحمن بن علي بن محمد، (أبو الفرج، ابن الجوزي)،

تحقيق: محمد فاخوري، ود. محمد رواس قلعة جي، الطبعة: الثانية، 1399هـ – 1979م.

71. الضوء اللامع، تأليف: السخاوي، دار الحياة، بلا ط.

72. طبقات الشافعية الكبرى، تأليف: الإمام العلامة تاج الدين بن علي بن عبدالكافي السبكي، تحقيق: محمود محمد الطناحي، وعبدالفتاح محمد الحلو، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، 1413هـ.

73. طبقات الشافعية، تأليف: (أبو بكر) بن أحمد بن محمد بن عمر بن قاضي شهبة، تحقيق: الحافظ عبدالعليم خان، عالم الكتب – بيروت، الطبعة الأولى، 1407هـ.

74. طبقات الفقهاء، تأليف: (أبو إسحاق) الشيرازي، هَذَّبَهُ: محمد بن جلال الدين المكرم، (ابن منظور)، تحقيق: إحسان عباس، دار الرائد العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، 1970م.

75. الطبقات الكبرى، تأليف: محمد بن سعد بن منيع، (أبو عبدالله) البصري الزهري، (ابن سعد)، دار صادر – بيروت، (د. ت.).

76. طبقات المفسرين، تأليف: أحمد بن محمد الأدنه وي، ت (القرن الحادي عشر)، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم- السعودية، 1417هـ – 1997م.

77. طبقات المفسرين، تأليف: عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة وهبة – القاهرة، الطبعة: الأولى، 1396هـ.

78. العرش وما رُوِي فيه، تأليف: (أبوجعفر)، محمد بن عثمان بن أبي شيبة العبسي، ت (297)هـ، تحقيق: محمد بن خليفة بن علي التميمي، مكتبة الرشد، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، سنة: 1418هـ – 1998م.

79. العِقْدُ الْفَرِيدُ، تأليف: أحمد بن محمد بن عبد ربّه الأندلس، ت (328هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1420هـ – 1999م.

80. عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، (مختصر تفسير القرآن العظيم)، تأليف: الشيخ أحمد شاكر، إعداد: أنور الباز، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع،

الطبعة: الثانية، 1426هـ – 2005م.
81. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تأليف: أحمد بن علي بن محمد، (ابن حجر العسقلاني)، ت (852هـ)، دار المعرفة – بيروت، 1379هـ.
82. الفقة على المذاهب الأربعة، تأليف: عبدالرحمن الجزيري، بلا ط.
83. في ظلال القرآن، تأليف: السيد قطب، دار الشروق، الطبعة: الأولى، 1972م.
84. الكامل في القراءات والأربعين الزائدة عليها، تأليف: يوسف بن علي بن جبارة بن محمد بن عقيل بن سواده، (أبو القاسم) الهذلي اليشكري المغربي، ت (465)هـ، تحقيق: جمال بن السيد بن رفاعي الشايب، مؤسسة سما للتوزيع والنشر، الطبعة: الأولى، 1428هـ – 2007م.
85. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تأليف: مصطفى بن عبدالله القسطنطيني الرومي الحنفي، ت (1067هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، 1413هـ – 1992م.
86. لسان العرب، تأليف: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المِصْرِيّ، دار صادر – بيروت، الطبعة: الأولى، (د.ت.).
87. لسان الميزان، تأليف: أحمد بن علي، (ابن حجر العسقلاني)، تحقيق: دائرة المعارف النظامية – الهند، نشر مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت، الطبعة: الثانية، 1406 هـ – 1986م.
88. المبسوط في القراءات العشر، تأليف: أحمد بن الحسين بن مهران النيسابوري، (أبو بكر) ت (381)هـ، تحقيق: سبيع حمزة حاكيمي، مجمع اللغة العربية – دمشق، 1981م.
89. مجاز القرآن، تأليف: (أبو عبيدة)، معمر بن المثنى، القرن: الثالث، تحقيق: محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، – القاهرة، (د.ت.).
90. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تأليف: نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الفكر – بيروت، 1412هـ.
91. المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تأليف: (أبو الفتح)، عثمان بن جني، نشر: وزارة الأوقاف المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية،

1420هـ – 1999م.
92. مختار الصحاح، تأليف: محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان (ناشرون) – بيروت، الطبعة الجديدة، 1415هـ – 1995م.
93. الْمُسْتَدْرَكُ على الصحيحين، تأليف: محمد بن عبدالله، (أبو عبدالله الحاكم النيسابوري)، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1411 هـ – 1990م.
94. مسند أبي داوود الطيالسي، تأليف: سليمان بن داوود بن الجارود، ت (204هـ)، تحقيق: د. محمد بن عبدالمحسن التركي، بالتعاون مع: مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية، بدار هجر للطباعة والنشر، الطبعة: الأولى، 1419 هـ – 1999م.
95. مسند أبي يعلى، تأليف: أحمد بن علي بن المثنى، (أبو يعلى الموصلي التميمي)، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث – دمشق، الطبعة: الأولى، 1404هـ – 1984م.
96. مسند الإمام أحمد بن حنبل، تأليف: أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، و(آخرون)، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الثانية، 1420هـ – 1999م.
97. مسند البزار: "البحر الزخار"، تأليف: (أبو بكر)، أحمد بن عمرو بن عبدالخالق العتكي (البزار)، ت (292هـ)، تحقيق: محفوظ الرحمٰن زين الله، وعادل بن سعد، وصبري عبدالخالق الشافعي، مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، من سنة 1988م إلى سنة 2009م.
98. مُصَنَّفُ ابن أبي شيبة، تأليف: (أبوبكر)، عبدالله بن محمد بن أبي شيبة العبسي الكوفي، ت (235)هـ، تحقيق: محمد عوامة.
99. المعجم الأوسط، تأليف: (أبوالقاسم)، سُلَيْمَانَ بن أحمد الطبراني، ت (360)هـ، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، وعبدالمحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين – القاهرة، 1415هـ.
100. معجم البلدان، تأليف: ياقوت بن عبدالله الحموي، (أبو عبدالله)، دار الفكر – بيروت، (د.ت.).

101. المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب، (أبو القاسم) الطبراني، ت (360)هـ، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، مكتبة الزهراء- الموصل، 1404هـ- 1983م.
102. معجم المؤلفين، تأليف: عمر رضا كحالة، مكتبة المثنى – بيروت، ودار إحياء التراث العربي – بيروت، (د.ت.).
103. مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، تأليف: محمد الخطيب الشربيني، دار الفكر – بيروت، (د.ت.).
104. مكارم الأخلاق، تأليف: (أبوبكر)، محمد بن جعفر الخرائطي، ت (327هـ)، تحقيق ودراسة: د. سعاد سليمان الخندقاوي، تقديم ومراجعة: أ.د. موسى شاهين لاشين، و أ.د. محمد رشاد خليفة، مطبعة المدني – القاهرة، الطبعة: الأولى، 1411 هـ- 1991م.
105. مناهل العرفان في علوم القرآن، تأليف: محمد عبدالعظيم الزرقاني، ت (1367هـ)، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه – مصر، الطبعة: الثالثة، (د.ت.).
106. المُهَذَّبُ في فقه الإمام الشافعي، تأليف: إبراهيم علي بن يوسف الشيرازي، (أبوإسحاق)، دار الفكر – بيروت، (د.ت.).
107. موطأ مالك، رواية: يحيى الليثي، تأليف: مالك بن أنس أبوعبدالله الأصبحي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي- مصر، (د.ت.).
108. ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تأليف: شمس الدين، (أبوعبدالله)، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، ت (748هـ)، تحقيق: علي البجاوي وابنته.
109. النتف في الفتاوى، تأليف: (أبو الحسن)، علي بن الحسين بن محمد السعدي، ت (461)هـ، تحقيق: د. صلاح الناهي، دار الفرقان- عمان، مؤسسة الرسالة - بيروت، 1404هـ - 1984م.
110. نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، تأليف: (أبو الفضل)، أحمد بن علي بن محمد، (ابن حجر العسقلاني)، ت (852)هـ، تحقيق: عبدالله بن ضيف الله الرحيلي، مطبعة سفير – الرياض، الطبعة: الأولى، 1422هـ.
111. النشر في القراءات العشر، تأليف: شمس الدين، (أبو الخير)، محمد بن محمد

بن يوسف، (ابن الجزري)، ت (833هـ)، تحقيق: علي محمد الضباع، ت (1380هـ)، نشر المطبعة التجارية الكبرى، بتصوير دار الكتب العلمية.

112. نور القبس المختصر من المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء، تأليف: (أبو عبدالله) محمد بن عمران المرزُباني، اختصار: (أبو المحاسن)، يوسف بن أحمد بن محمود الحافظ اليغموري، تحقيق: رودلف زلهايم، دار: فرانتس شتايز، بقيسبان، 1384 هـ – 1964م.

113. الهداية، شرح بداية المبتدئ، تأليف: (أبو الحسن)، علي بن أبي بكر بن عبدالجليل الرشداني المرغياني، ت (593هـ)، نشر المكتبة الإسلامية، بلا ط.

114. هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المُصَنِّفِينَ، تأليف: إسماعيل بن محمد أمين، الجليلة، إستانبول، وأعادت طَبْعَهُ دار إحياء التراث العربي، بيروت.

115. الورع، تأليف: عبدالله بن محمد القرشي البغدادي، (ابن أبي الدنيا)، تحقيق: أبو عبدالله، محمد بن حمد الحمود، الدار السلفية – الكويت، الطبعة: الأولى، 1408هـ- 1988م.

116. وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان، تأليف: (أبو العباس)، شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر خِلِّكَان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر – بيروت، (د.ت.).

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
الآية القرآنية...	أ
الإهـداء	ب
الشكر والتقدير	ج
المقدمــة..	1
أسباب اختيار الموضوع.....................................	1
منهجية الباحث...	2
نسبة الكتاب لمؤلفه.......................................	5
وصف المخطوط..	5
حالة المخطوط	6
الفصل الأول: الجانب الدراسي..............................	12
المبحث الأول: التعريف بمؤلفي المختصرين	13
أولاً: التعريف بمؤلف (البدر المنير الملخص من تفسير ابن كثير)	13
ثانياً: التعريف بمؤلف (عمدة التفسير) أحمد شاكر	15
المبحث الثاني: موقفهما من الأسانيد	17
أولاً: موقف الكازروني من الأسانيد:...........................	17
ثانياً: موقف أحمد شاكر من الأسانيد........................	19
المبحث الثالث: موقفهما من الأحاديث الضعيفة والموضوعة............	21
أولاً: موقف الكازروني من الأحاديث الضعيفة والموضوعة	21
ثانياً: موقف أحمد شاكر من الأحاديث الضعيفة والموضوعة ...	22
المبحث الرابع: موقفهما من الإسرائيليات........................	23
أولاً: موقف الكازروني من الإسرائيليات.......................	23

الموضوع	الصفحة
ثانياً: موقف أحمد شاكر من الإسرائيليات	23
الفصل الثانـي: تحقيق الجزء المختار من المخطوط	24
تفسير سورة يونس – عليه السلام –	25
تفسير سورة هود – عليه السلام –	73
تفسير سورة يوسف – عليه السلام –	121
تفسير سورة الرعد	169
تفسير سورة إبراهيم – عليه السلام –	199
تفسير سورة الحجر	227
تفسير سورة: النحل	249
تفسير سورة "سبحان"	301
الخاتمـــة	372
الفهارس العامة	373
فهرس الآيات القرآنية	374
فهرس الأحاديث	392
فهرس الأعلام	402
فهرس الأبيات الشعرية	407
فهرس المصادر والمراجع	408
فهرس المحتويات	420